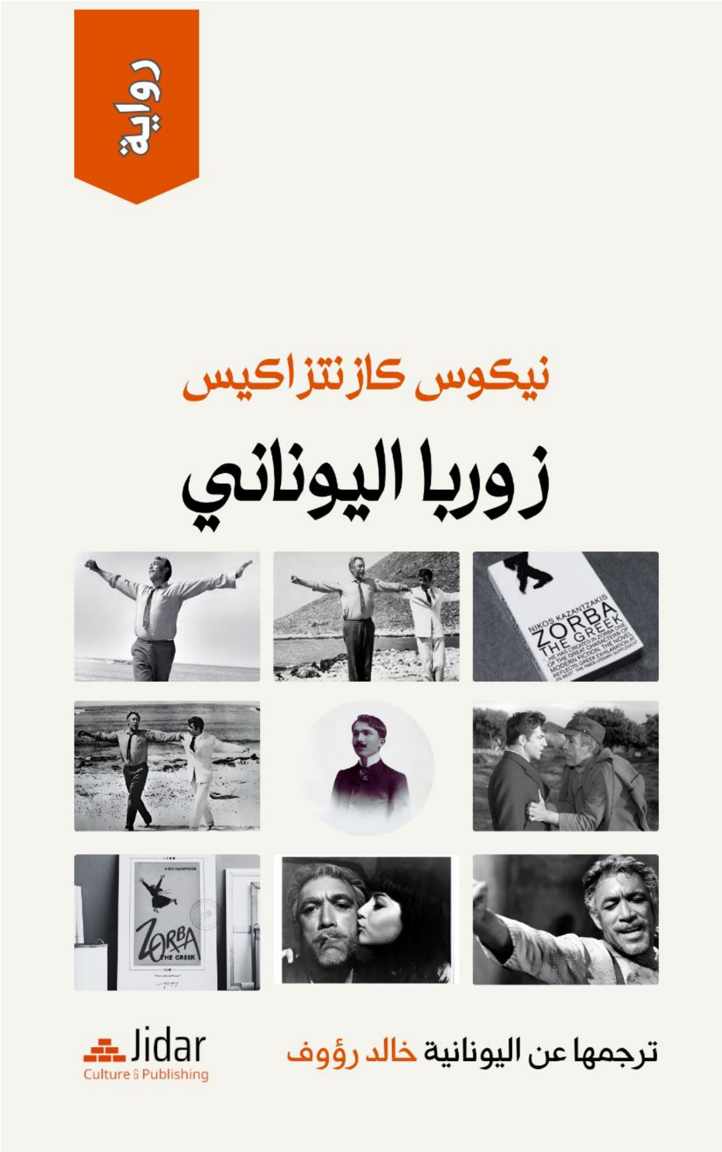


زوربا اليوناني

الكتاب: **زوربا اليوناني**

المؤلف: نيكوس كازانتزاكيس

رواية

ترجمها عن اليونانية: خالد رؤوف

العنوان الأصلي للكتاب والمؤلف والناشر باللغة اليونانية لأول طبعة

Βίος και Πολιτεία του Αλέξη Ζορμπά
Νίκος Καζαντζάκης
Δημητράκου (1946)

الناشر:

جدار للثقافة والنشر | مالمو، الإسكندرية

info@jidar.net | www.jidar.net

الطبعة الثانية 2025

الطبعة الأولى 2013 | المركز القومي للترجمة: القاهرة

الترقيم الدولي:**978-1-326-38623-8**

التصميم الداخلي والغلاف: جدار للحلول المستدامة

Zorba the Greek

Author: Nikos Kazantzakis

Novel

Original Title and Publisher: Βίος και Πολιτεία του Αλέξη Ζορμπά (Δημητράκου 1946).

Translation from Greek to Arabic by: Khaled Raouf

Publisher: Jidar for Culture & Publishing

.Interior and Cover Design: Jidar for Sustainable Solutions

ISBN: **978-1-326-38623-8**

نيكوس كازانتزاكيس

زوربا اليوناني

رواية

ترجمة خالد رؤوف

مقدمة المترجم

أليكسيس زوربا؛ ليس شخصية من وحي خيال الكاتب بشكل كامل، بل أنّه شخصية واقعية، تناولها بشكل فني بارع الأديب الكبير متعدد المواهب الفيلسوف الشاعر الروحاني نيكوس كازانتزاكيس. زوربا اليوناني كما هو معروف لدينا؛ وذاعت شهرته بفضل الفيلم السينمائي البديع للمخرج يانيس كاكويانيس والذي جسد فيه آنتوني كوين بمهارة دور اليوناني الأشهر(زوربا). ترجمت هذه الرواية من قبل إلى العربية لكنها ترجمت من لغات وسيطة.

أزعم أن هذه أول مرة تُترجم فيها هذه الرواية من لغتها اليونانية الأصلية إلى العربية، وهو ما يستدعي حديثًا مطولًا حول مسألة الترجمة عبر لغات وسيطة، كما جرى في بعض الترجمات السابقة للرواية إلى العربية عبر الفرنسية أو الإنجليزية. ولست هنا بصدد محاكمة تلك الترجمات بطبيعة الحال، لكن الترجمة عن اللغة الأصلية، في تقديري، تتيح لنا تجاوز مثل هذه الهواجس.

ومع تباين مدارس وأساليب الترجمة، أرى أن الترجمة ينبغي أن تنقل صورة مطابقة لأفكار الكاتب وما يسعى إلى إيصاله إلى القارئ، وأن دور المترجم يقتصر على كونه وسيطاً ينقل تلك الأفكار من اللغة الأصلية إلى اللغة المنقول إليها بأقصى قدر ممكن من الأمانة، دون حذلقة أو فذلكة لا داعي لها.

كما أنني لست من المؤمنين بما يسمى بوجهة نظر المترجم في النص المراد ترجمته وتوصيله إلى القارئ، بالطبع لا بد أني يكون واعياً وقادراً على فهم وتحليل نوع النص الذي يترجمه، إنّما أعني ما يشاع، أو ما كان يشاع قبلاً عن أنه يجب أن يظهر في الترجمة لون يميز وجهة نظر المترجم! فإذا كان يجب أن يكون للمترجم وجهة نظر فلن تكون سوى مدى قدرته على إيصال أفكار وأهداف الكاتب بجودة عالية فقط ولا غير. أردت فقط أن أنوه إلى هذا لما قد يجده القارئ من اختلاف في هذه الترجمة التي أنجزتها عن لغتها الأصلية مع ترجمات أخرى، وربما سوف يلاحظ القارئ؛ الذي قرأ ترجمات سابقة

للرواية، أن هذه الترجمة تحتوي تفاصيل أكثر وتناولاً أوسع وأعمق أحياناً، والفضل في هذا يعود إلى النسخة الأصلية من الرواية اليونانية.

لقد أمضيت وقتاً ممتعاً في معايشة أليكسيس زوربا وصديقه كازانتزاكيس أثناء ترجمة هذا العمل الخالد. آملاً أن يعيش القارئ ذات المتعة أو ما يفوقها.

خالد رؤوف

مقدمة المؤلف

لطالما كانت لدي رغبة شديدة في أن أكتب سيرة وحياة أليكسيس زوربا، هذا العامل العجوز الذي أحببته كثيراً.

من أعظم الأشياء التي ساعدتني في مشوار حياتي وخففت عليّ وطأتها كانت الرحلات والأحلام. أما البشر الذين هم على قيد الحياة أو من وافتهم المنية، فقليل منهم من ساعدني في معركتي مع الحياة. لكن، إذا أردت أن أفصّل أي من الأشخاص هؤلاء ترك أثراً في روحي، ربما اخترت منهم ثلاثة أو أربعة أشخاص: هوميروس، برجسون، نيتشه وزوربا.

هوميروس بالنسبة إلي عينًا صافية مضيئة - مثل قرص الشمس تماماً - يضفي أشعته بكرم على كل الأشياء؛ برجسون كان يخفف عني بعض الأمور الفلسفية والصراعات الروحية المعقدة التي كانت تعذبني في سني شبابي الأولى؛ نيتشه كان يثري روحي بصراعات حديدية وعلمني أن أحول التعاسة ومرارة الحزن والشك إلى فخر؛ أما زوربا فقد علمني أن أحب الحياة وألاّ أخاف الموت.

لو كان مفروضاً علينا في العالم أن نختار مرشداً روحياً كما يسميه الهنود أو قسًّا حكيمًا عجوزًا كما يسميه الرهبان في جبل أثوس، فمن المؤكد أنني كنت سأختار زوربا.

هذا الرجل لديه كل ما يحتاجه أي شخص مثقف كي ينجو: العين البرية التي ترصد غذاءها بحدة؛ الإبداع، البساطة المتجددة كل صباح بأن يرى كل شيء لأول مرة ويمنح العناصر اليومية الأبدية عذرية خاصة - الهواء، البحر، النور، المرأة، الخبز؛ يقين الكف وطزاجة القلب، الشجاعة في أن يسخر من ذاته وروحه، كأن لديه قوة أخرى أقوى وأرقى من الروح، وأخيراً ضحك صاخب يأتي من نبع عميق، أعمق من أحشاء الإنسان، ضحك ينفجر في صدر زوربا العجوز في اللحظات الحرجة فيشفي ويحرر كل الآلام؛ كما كان يفجر ويستطيع أن يهدم بل وكان يهدم كل عائق - الأخلاق، الدين، والوطن - هذه الأشياء التي كان الإنسان الجبان يمارسها بدأب كي يعبر درب حياته الآمنة كالأعرج.

عندما أفكر وأقارن بين نوع الغذاء الذي كانت تمنحه لي الكتب والمعلمون كل هذه السنوات كي تشبع روح شرهة وبين عقل الوحوش الذي كان زوربا يغذيني به في هذه الشهور القليلة، يصعب على أن أسيطر على غضبي وحزني. راحت حياتي هباء محض صدفة؛ فقد تجاوبت مع مرشدي الروحي ببطء شديد؛ ففي ذلك الوقت كان كل ما هو قابل للإنقاذ في روحي غير ذي أهمية.

فلم يحدث ثمة تغير شامل وجذري، لم يحدث التجدد ولا التوهج. كان الوقت متأخراً لهذا. وهكذا؛ وبكل أسف، بدلاً من أن يصبح زوربا معيارًا منتظمًا للحياة، انحطَّ وصار نموذجاً أدبيًّا؛ صار موضوعاً ألطخ به الحبر على الأوراق.

تلك الهبة؛ أن تصنع من الحياة فناً، تصبح في عادةً لبعض الأرواح شيئاً بغيضاً. حيث إنه بهذا الشكل لا تجد الرغبة مخرجاً، تهرب من الصدر وترتاح الروح، لن تعود تشعر بالألم، ولا بشعور الجسد وهو يدفع الجسد، تتدخل مباشرة في الحياة والفعل - لن تسعد بالتباهي بلهفة الإحساس بالماء والهواء يتدفق وينساب من بين الأصابع.

لكنها تفخر وتتباهى؛ تظن أنها تأتي بعمل سامٍ، في تلك اللحظة الزائلة التي لا تعوض - الزمن الأبدي الوحيد الذي له جسد ودماء - تظن أنها تحوله إلى الأبدية. وهكذا انحدر زوربا؛ هذا الكائن المليئة عظامه وجسده بالحيوية والحياة؛ تحول إلى حبر على ورق. دون أن أريد، على العكس بالطبع كنت أريد العكس تماماً، كانت أسطورة زوربا تتحجر وتتحول إلى كريسال في داخلي. بدأت في أحشائي تحولها وتفاعلها السري؛ في البداية كانت موسيقى متوترة، نشوة ملتهبة ومزعجة، وكأنما جسم غريب دخل في دمائي وراح جسدي يحاربه ليروضه ثم يقهره ويتخلص منه بامتصاصه. وحول هذه النواة بدأت الكلمات تنهمر، وتحيط هذا الجسم الغريب وتطعمه كالجنين. راحت الذكريات الباهتة تثبت، والبهجة والحزن الغارقان يطفوان، وتحولت الحياة إلى أثير أكثر خفة، وصار زوربا مجرد قصة.

لم يكن واضحاً لدي الشكل الذي كنت أريد أن أعطيه لقصة زوربا: رواية، أغنية، حكاية خيالية من حكايات التراث، أو أقص بشكل مباشر تلك الحوارات التي كنا نتبادلها

على أحد شواطئ جزيرة كريت حيث عشنا سوياً، ونظن أننا كنا نحفر بحثاً عن الفحم. كنا نعلم أنا وهو أن عملية البحث وهذا المشروع كان محض أكذوبة، رمادًا ننثره في عيون الناس؛ كنا نتعجل غروب الشمس، ومغادرة العمال، كي نجلس سوياً على الرمال نتناول طعاماً قروياً ونحتسي النبيذ الكريتي اللاذع ونبدأ في الحوار.

في أغلب الأحيان لم أكن أتكلم؛ ماذا عساه أن يقول إنسان «مثقف» إلى تنين؟ كنت أستمع إليه يحكي لي عن قريته في جبال الأوليمب، عن الثلوج والذئاب، عن الباعة المتجولين وعن القديسة صوفيا، والمناجم والحجارة البيضاء والنساء والرب والوطن والموت - وفجأة، عندما كان يصيبه الملل وكانت الكلمات لا تتسع لروحه كان يقفز واقفاً ويهم بالرقص فوق حصى الشاطئ الغليظ.

عجوز نحيل مستوي القوام برأس مائل إلى الخلف، بعينين مستديرتين تشبهان عيني طائر، كان يرقص ويصرخ ويضرب الأرض بقدمية المتقشفتين على ماء البحر فينثر ماءه على وجهي.

لو كنت قد استمعت إلى صوته - لا ليس صوته، إلى صرخته - لكانت اكتسبت حياتي قيمة؛ كنت سأعيش بجسدي ودمي وعظامي ما أحاول أن أتأمله من أفكار وفلسفات أؤلفها وأكتبها وأنثرها على الأوراق.

لكن لم تكن لدي الجرأة. كنت أرى زوربا في منتصف الليل يرقص ويصهل ويصيح بأن أنهض وأخرج من قوقعة التعود والهدوء المريحة وأخرج معه إلى رحلات بعيدة - وكنت أقف متجمداً مرتعشاً.

شعرت بالخجل مرات عديدة في حياتي، عندما كنت أقبض على روحي متلبسة بعدم الجرأة أن تفعل كل ماهو جنون عظيم - جوهر الحياة - عندما كان يناديني؛ لكنني لم أخجل من روحي قط مثلما كنت أخجل أمام زوربا.

ذات صباح، عند الفجر، افترقنا؛ ذهبت أنا مرة أخرى إلى خارج البلاد تحت تاثير مرض فاوستي مزمن اسمه التعلم؛ أما هو فقط ذهب نحو الشمال واستقر في أحد جبال صربيا، حيث كما يقول قد اكتشف منجماً للأحجار الكريمة هناك، فأقام الورش وجمع

العمال والمعدات وراح يفجر الصخور ويفتح في الأرض طرقاً وأنفاقاً. بنى بيتاً وتزوج العجوز من أرملة شابة جميلة كانت تدعى ليوبا وأنجب منها طفلاً.

في إحدى الأيام في برلين، تلقيت منه برقية تقول: «وجدت حجارة خضراء رائعة الجمال، تعال على الفور. زوربا.»

كانت في ألمانيا مجاعة في ذلك الوقت. انهارت قيمة المارك الألماني ووصلت إلى الحضيض، حتى إذا كنت تريد أن تشتري شيئاً تافهاً لابد أن تحمل ملايين الماركات معك في أكياس؛ وإذا ذهبت إلى المطعم كي تأكل، ستحمل معك كمية هائلة من الأوراق المالية ملفوفة في كيس وسادة، ووقت دفع الحساب كنت تفرغه على الطاولة كي تدفع؛ وجاء الوقت الذي كنت تحتاج فيه مئات الملايين من الفرنكات كي تبتاع طابع بريد.

الجوع، البرد،سترات مثقوبة، أحذية مهترئة، حتى خدود الألمان الحمراء صارت صفراء شاحبة. الهواء بارد مثلج في الخريف؛ وكان الناس يسقطون في الشوارع مع أوراق الأشجار. كانوا يعطون للأطفال قطعاً من المطاط كي يمضغوها فيتحايلون بذلك على الجوع ولا يبكي الأطفال. كان أفراد الشرطة يصطفون على جسور الأنهار حتى لا تنتحر الأمهات غرقاً في النهر وهن يحملن أطفالهن الرضع بين أيديهن بحثاً عن النجاة من هذا الوضع البائس.

كان الجليد يسقط في الشتاء. في الغرفة التي بجواري كان يسكن مدرسٌ للأدب الصيني، ولكي يتدفأ، كان يمسك بفرشاة في وضع غير مريح كما يفعل أهل الشرق الأقصى ويحاول أن ينسخ كتاب الأغاني الصينية القديمة أو بعض أحكام كونفوشيوس. كان سن الفرشاة مع كوعه وقلبه يشكلون مثلث الحكيم.

- بعد دقائق قليلة، كان يقول لي بسعادة، سيبدأ العرق يتساقط من إبطي وهكذا أتدفأ.

في هذه الأيام المريرة تلقيت برقية زوربا. في البداية غضبت. الملايين من البشر ينهارون ويركعون لأنهم لا يملكون كسرة خبز كي يستجمعوا أرواحهم بين عظامهم؛ وهاهي البرقية تدعوني لأن انتقل آلاف الأميال كي أرى كم هو جميل الحجر الأخضر! اللعنة على الجمال، قلت، لأنه بلا قلب ولا يشعر بآلام البشر.

لكنني ارتعدت فجأة؛ هدأ غضبي وبدأت أشعر منزعجاً كيف أن صيحة زوربا اللا إنسانية تلقى صدى وتتواءم مع صرخة أخرى لا إنسانية بداخلي.

طير بري بداخلي أخذ ينفض جناحيه بقوة كي يرحل.

لكنني لم أرحل؛ لم أجرؤ مرة أخرى. لم أركب القطار، لم أستجب للصيحة الإلهية الوحشية بداخلي. لم أرتكب هذا الفعل الشجاع الأحمق. استجبت إلى صوت المنطق البارد المعتدل الإنساني. وأخذت القلم وكتبت لزوربا أشرح له...

وقد أجابني قائلاً:

«معذرة يا سيدي، فأنت مثقف. كان يمكنك أيها المسكين أن ترى حجرًا أخضرَ جميلاً لمرة في حياتك، ولكنك لم تره. بحق الرب، كنت أجلس أحياناً وأنا في العمل أفكر: هل هناك جحيم حقاً؟ لكن بالأمس عندما تلقيت خطابك، قلت، بالتأكيد: لابد أن يكون هناك جحيم لبعض المثقفين أمثالك!»

بدأت الذكريات تتدافع بسرعة. حان وقت ترتيبها. لنتناول حياة وسيرة زوربا من البداية. حتى أن أكثر الأحداث والمواقف تفاهة بدأت تلمع في ذهني بوضوح في هذه اللحظة، مثل أسماك ملونة تسبح بسرعة في بحر صافٍ.

لم يمت شيءٌ منه بداخلي، كل ما لمسه زوربا صار خالداً، لكن في تلك الأيام كان هناك شيءٌ يزعجني: قد مر عامان دون أن أتلقى خطاباً منه، لا بد أنه قد بلغ الثمانين من عمره، ربما هو في خطر. بالتأكيد حياته في خطر، وإلاَّ، لن أستطيع تفسير الحاجة المفاجئة التي سيطرت على وبدأت تلح بأن أكتب كل ما يتعلق به ويخصه، الحاجة بأن أتذكر كل ما قال وكل ما فعل، وأن أدوَّن كل هذه الأشياء والذكريات على الأوراق، حتى لا ترحل. وكأنني أريد أن أصنع تعويذة لأطرد الموت؛ موته. لست بصدد صنع كتاب؛ بل نصب تذكاري.

أرى الآن هناك تفاصيل النصب التذكاري وحفل التأبين، حلوى التأبين المرشوشة بالسكر مكتوبًا عليها بالقرفة واللوز: أليكسيس زوربا. أنظر إلى الاسم وفجأة ينتفض بحر كريت اللازوردي ويغمر عقلي. كلمات، ضحكات، رقص، سُكْر، قلق، حوارات هادئة عند

الغروب، عينان مستديرتان مثبتتان فوقي برفق ومودة، كأنهما ترحبان بي كل لحظة، وكأنهما تودعانني كل لحظة إلى الأبد.

وكما هو الحال عندما ننظر إلى طبق الحلوى في حفلات التأبين؛ تبقى الذكريات معلقة في قلوبنا كالخفافيش تماماً. ودون قصد، تعرقلت منذ اللحظة الأولى بشبح زوربا وشبح آخر محبب إلى قلبي ظهر خلفه، ظهر دون إنذار، امراة عجوز مهترئة عليها كل أنواع الطلاء والحلي وآلاف القبل من آلاف العشاق، كنا قد قابلناها أنا وزوربا على أحد الشواطئ الرملية في جزيرة كريت، عند الخليج الليبي...

بالطبع إن قلب الإنسان هو خندق مليء بالدماء، وعندما يفتح تجري كل الأشباح الحزينة لتشرب منه كي تستمد الحياة، هذه الأشباح التي تتزايد حولنا شيئاً فشيئاً حتى يظلم الهواء.

تجري لتشرب دماء قلوبنا، لأنها تعرف أن ليس ثمة وسيلة أخرى. وأمام الجميع في المقدمة، يأتي زوربا بخطواته الواسعة وينحي كل الأشباح جانباً، لأنه يعرف أن اليوم؛ هذا التأبين يحدث من أجله.

فلنعطه إذن دماءنا ليحيا.
لنفعل ما نستطيع كي تمتد حياة هذا الإنسان الرائع،
الأكول، السكير، المحب للعمل، زير النساء وأشياء أخرى كثيرة.
أكثر الأرواح اتساعاً، أكثر الأجساد يقيناً،
أكثر الصرخات حرية
عرفت في حياتي.

نيكوس كازانتزاكيس

تعرفت إليه لأول مرة في بيرايوس. كنت قد نزلت إلى الميناء كي أستقل المركب إلى جزيرة كريت. مع اقتراب بزوغ الفجر، كانت السماء تمطر، ورياح شرقية شديدة تهب حتى أن دفقات من ماء البحر كانت تصل إلى المقهى الصغير. الأبواب الزجاجية كانت مغلقة، كانت رائحة الهواء مزيجًا من رائحة عفن بشرية ونبات الميرمية. الجو كان بارداً خارج المقهى الذي غطى زجاجه بخارٌ من أنفاس زبائنه. خمسة أو ستة من البحارة الساهرين مرتدين قمصانًا بنية ثقيلة مصنوعة من شَعر الماعز، يحتسون القهوة والميرمية وينظرون إلى البحر من خلف النوافذ الزجاجية المغبشة.

الأسماك التي أصيبت بالدوار من فرط ضربات العاصفة، وجدت ملاذاً في أعماق المياه الهادئة منتظرةً أن يحل الهدوء في العالم العلوي؛ والصيادون بدورهم محشورون في المقاهي ينتظرون متى تزول الغضبة الإلهية ومن ثم يزول الخوف عن الأسماك فتصعد إلى وجه الماء لأجل الطعام. أسماك موسى والترس وأسماك الخنزير تعود من جولاتها الليلية لتنام. بدأ الفجر يطلع.

فُتح الباب الزجاجي؛ شخص قصير القامة متين البنية من عمال الميناء؛ كان حاسر الرأس، حافي القدمين، ملطخاً بالطين.

- ياقسطنطين، صاح بحار عجوز مرتدياً سترة هندية ضيقة من قماش غليظ، كيف حالك يا بني؟

- كيف يكون حالي؟ أجاب حانقاً. صباح الخير أيها المقهى! صباح الخير في المقهى! مساء الخير في البيت! هكذا هي حياتي. أما العمل، يوك[1] !

ضحك البعض، والبعض الآخر هزوا رؤوسهم متفقين معه، وأخذوا في ندب الحظ مطلقين العنان للعناتهم.

- ما الدنيا إلا سجن مؤبد، قال ذو الشاربيْنِ، الذي فيما يبدو درس فلسفة مسرح القراقوز و راح يردد عباراته عن اقتناع؛ ماهي إلا سجنٌ مؤبد عليها اللعنة.

---

[1] يوك: تعني لا بالتركية، وغالباً ما يستخدمها سكان اليونان.

ضوء أخضر مائل إلى الزرقة ناعم غمر الزجاج المتسخ، دخل إلى المقهى، تعلق على الأيادي والأنوف والجباه، قفز على المدفأة، بدت الزجاجات مشتعلة. المصابيح الكهربية فقدت دورها، حتى أن صاحب المقهى الذي بدا ثملاً من فرط السهر مد يده وأطفأها.
لحظة من الصمت. ارتفعت كل العيون وأخذت تنظر نحو اليوم الملطخ بالطين في الخارج.
سُمع صوت الأمواج وهي تتحطّمُ ملتحمًا مع صوت قرقرة النارجيلات داخل المقهى.
تنهد البحار العجوز. وقال بصوت مرتفع،
- يا أصحاب، تُرى ماذا يجري مع القبطان ليموني؟ ليمُد له الرب يد العون! ونظر بغضب نحو البحر وقال بعد أن أطلق بصقةً، يا مفرق الرجال عن نسائهم وذويهم! أخذ يهمهم وهو يعض على شاربه الرمادي.
كنت جالساً في إحدى زوايا المقهى، شعرت بالبرد، طلبت كوباً آخر من شراب الميرمية؛ كنت أقاوم الإحساس بالنعاس والتعب والحزن الذي يتسلل إلى النفس في البكور. كنت أنظر من النوافذ المغبشة نحو الميناء الذي بدأ يستيقظ وأبواق المراكب بدأت تجلجل وتختلط بأصوات الحمالين وأصحاب القوارب.
وفيما كنت سارحاً في النظر، شبكة مغزولة من البحر والمطر والهواء والهجرة أحكمت خيوطها الكثيفة حول قلبي.
ثبت عيني في مواجهة المقدمة السوداء للمركب الكبير، الذي ما يزال مغمورًا بالمياه. كان المطر يهطل، وكنت أرى خيوط المطر تصل السماء بالوحل.
وبينما كنت أنظر إلى المركب السوداء وإلى الظلال والمطر، شيئاً فشيئاً، بدأت تتشكل ملامح وجه حزني، وبدأت الذكريات تطفو وتستقر على في هذا الهواء الرطب، وكأنه مصنوع من المطر والاشتياق. متى؟ في العام الماضي؟ في حياة أخرى؟ بالأمس؟ متى، عندما جئت إلى ذات الميناء كي أودعه. أذكر المطر والبرد في ذاك الصباح أيضاً, وقلبي كان مثقلاً بالأحزان.

الفراق البطيء عن الأحباب هو كحبة الدواء المريرة؛ فالأفضل أن تنفصل عنهم بشكل سريع وبحدة وتعود مرة أخرى إلى البيئة الطبيعية للإنسان، إلى العزلة.

لكن في هذا الفجر المطير، لم يكن باستطاعتي أن أنفصل عن صديقي. (شعرت فيما بعد وللأسف متأخراً جداً، لماذا؟) كنت قد صعدت معه إلى المركب وجلست في مقصورته بين الأمتعة المبعثرة. كنت أنظر إليه ببطء متفحصاً إياه، عندما كان يشرد بعيداً وكأني أسجل قسماته الواحدة تلو الأخرى - لون عينيه الأخضر المائل إلى الزرقة، وجهه الممتلئ المفعم بحيوية فتية، تعبيرات وجهه الفخورة الأنيقة ناهيك عن يديه الأرستقراطيتينِ بأصابعهما الطويلة.

ذات مرة انتبه إلي على حين غرة وأنا أتمعن في قسماته بدقة؛ التفت إلي بتعبير وجهه الساخر الذي يلجأ إليه عندما يريد أن يخفي تأثره الشديد. اكتشفني؛ لكنه فهم. ولكي يتفادى ورطة حزن الفراق سألني بابتسامة ساخرة:

- إلى متى؟

- ماذا تقصد بإلى متى؟

- إلى متى ستظل تأكل الأوراق وتلطخ نفسك بالأحبار؟ تعال معي إلى هناك في القوقاز آلاف من بني شعبنا يتعرضون للخطر؛ هيا بنا لننقذهم.

ضحك كمن أراد أن يهزأ من نيته النبيلة.

- من الممكن بالطبع ألا ننقذهم، أضاف، لكننا سننقذ أنفسنا في محاولتنا لإنقاذهم. أليس كذلك؟ نصائح كهذه لا تُسدى إلي يا سيدي؟ «السبيل الوحيد كي تنقذ نفسك هو أن تناضل من أجل إنقاذ الآخرين...» هيا يا معلم يا من تجيد إلقاء المواعظ... هيا معي!

لم أستجب. «أيها الشرق المقدس الذي شهد ميلاد الآلهة، أيتها الجبال الشامخة النبيلة، إن صرخة بروميثوس لا تزال مسمّرةً على صخورك.. إن شعبنا لا يزال مسمّرًا على نفس الصخور، يصرخ، معرضًا للخطر؛ لا يزال يصرخ ويتوسل لأحد أبناء قومه أن يأتي لإنقاذه.

وأنا أستمع غير مبالٍ، كأنّ الألم حلم عابر، وكأن الحياة مسرحية تراجيدية مثيرة، وإنّه من الفوضوية والهمجية والسذاجة أن تثب من مقاعد المتفرجين إلى خشبة المسرح متدخلاً في المشهد.

هب صديقي واقفاً دون أن ينتظر رداً مني. أنطلقت صفارة المركب للمرة الثالثة. مد إليّ يده:

- إلى اللقاء يا قارض الأوراق! قالها هازئاً كي يخفي تأثره.

كان يعرف أنه من الخزي ألا يتحكم المرء في قلبه ومشاعره. دموع، كلام رقيق، إشارات مرتبكة، حميمية زائدة شعبية ورفع الكلفة كانت تبدو له من القبائح التي لا تليق بمقام الرجال. لم يدر بيننا - وإن كان كل منا يحب الآخر - حوار رقيق أبدًا؛ كنا نلعب نتصارع كالوحوش. كان هو الأنيق المتحضر الساخر؛ وكنت أنا البربري. كان متحفظاً متماسكاً يعبر عن كل ما في روحه من أحاسيس بدماثة ودائماً بابتسامة؛ وكنت أنا فظاً؛ أعبر عمّا بداخلي بضحكة همجية غير متجانسة.

كنت أعبر عن اضطرابي مموهاً بكلام قاسٍ، لكني كنت أخجل، لا لم يكن خجلاً؛ كنت لا أستطيع أن أفعل غير هذا.

شددت على يده مصافحاً، أمسكت بها ولم أتركها. نظر إلي متسائلاً.

- أهو تأثر؟ أشار إلي بإيماءة وهو يبتسم.

- نعم، أجبت بهدوء.

- لماذا؟ ماذا قلنا؟ ألم نتفق؟ ماذا يقول اليابانيون الذين أنت مولع بهم؟ فوندوشين! رباطة جأش، لامبالاة، الوجه قناع مبتسم ثابت. أما ما يحدث خلف القناع، فهو من شأننا نحن فقط.

- نعم، أجبت ثانية، محاولاً ألا أشكل جملة طويلة - فلم أكن واثقاً من مقدرتي على التحكم في عدم ارتعاش صوتي.

دق ناقوس السفينة طاردًا الزوار من مقصورةٍ تلو الأخرى، كان المطر خفيفاً، امتلأ الهواء بكلمات الوداع المنفعلة، والقسم على الوعود وبالصداقة الأبدية، والطلبات

اللاهثة في آخر لحظة... أحضان أم لابنها وزوجة لزوجها وصديق لصديق كما لو كان هذا آخر لقاء بينهم؛ وكأن هذا الفراق الصغير يذكرهم بالفراق الأكبر. وسمع صوت ناقوس السفينة ناعماً في أرجاء السفينة في هذا الهواء الرطب كأجراس جنائزية.

مالَ صديقي إليّ:

- اسمع، قال بصوت خفيض، ألديك إحساس بالتشاؤم؟

- نعم، أجبت.

- هل تؤمن بهذه الخرافات؟

- لا، أجبت مؤكداً.

- إذن؟

ليس هناك إذن؛ لم أكن أؤمن بها، لكنني كنت خائفاً.

وضع صديقي يده اليسرى برفق على ركبتي، كما كان يعتاد في أكثر اللحظات مودة، عندما كنا نتحاور وكنت أدفعه كي يتخذ قراراً ما بينما كان هو يقاوم لكنه في النهاية كان يقبل ويقول وهو يلمس ركبتي: «سأفعل هذا من أجل الصداقة والمودة التي بيننا...» مرة أو ثلاث مرات رمشت عيناه. نظر إليّ ثانية. فهم أنني حزين جداً وتردد في استخدام أسلحتنا المحببة لدينا - الضحك والمزاح...

- حسناً، قال. أعطني يدك؛ لو أن أحداً منا وجد في خطر مميت...

توقف، وكأنه شعر بالخجل. فنحن الذين كنا نسخر لسنوات من الأوهام الروحية ونحقر من الروحانيات والروحانيين والنباتيين ومستحضري الأرواح...

- حسناً؟ سألت، محاولاً أن أتنبّأ.

- دعنا نأخذ الأمر هكذا، كأنه لعبة، قال في تعجل كي يتفادي الجملة الخطيرة التي أربكته. لو أن أحدًا منا وجد في خطر مميت، عليه أن يتأمل ويركز في الآخر بقوة حتى يحذره أينما كان... اتفقنا...؟

حاول أن يضحك، لكنّ شفتيه كما لو قد تجمدتا ولم تتحركا قط.

- اتفقنا، قلت.

خشي صديقي ألا يكون ارتباكه قد بدا واضحاً فأضاف على عجالة:

- أنا لا أؤمن بالطبع بهذا الهراء المسمى بتوارد الخواطر...

- لا يهم، تمتمتُ قائلاً؛ وليكن...

- حسنًا إذن، وليكن؛ لا يهم. متفقان؟

- متفقان، أجبت مرة أخرى.

تلك كانت آخر كلماتنا. شد كل منا على يد الآخر.، تشابكت أصابعنا بشوق، انفصلت أيدينا بشكل مفاجئ، وغادرت بسرعة دون أن التفت إلى الوراء كما لو كنت مطارداً. حاولت أن التفت إلى الوراء لأرى صديقي للمرة الأخيرة، لكنني تماسكت. «لا تلتفت إلى الوراء! قلت لنفسي، كفى!»

كم هي خرقاء هوجاء هذه الروح البشرية ملطخة بالطين فظة وفوضوية لا ترى أي شيء بوضوح، لا تستطيع حتى أن تتنبأ إن كانت تتنبأ بالأصل، كم سيكون هذا الفراق مختلفاً! ازداد الضوء، امتزج الصباحان، كنت أرى وجه صديقي الحبيب أكثر وضوحاً الآن، كان واقفاً مبتلاً تحت المطر ثابتاً في هواء الميناء. فُتحت البوابة الزجاجية للمقهى، فدخل صوت البحر هادراً، ودخل بحار منفرج الساقين قصير القامة له شاربانِ متدليانِ. وتعالت الأصوات فرحة مرحبة:

- يا مرحباً بالقبطان ليموني!

انزويت في الركن الذي كنت أقبع فيه، حاولت ترتيب أشلاء روحي؛ لكن وجه صديقي كان قد ذاب في المطر وضاع.

القبطان ليموني أخرج مسبحته وبدأ يداعب حباتها في هدوء وتجهم وصمت.

كافحت كي لا أرى ولا أسمع وكي أتمسك بالرؤية التي كانت تتلاشى من أمامي. كي أعيش مرة أخرى الغضب الذي كان يتملكني حينها، لا، ليس الغضب، ولكن الخزي، عندما نعتني صديقي «مداعبا» بقارض الأوراق. وكان على حق! فأنا الذي كنت أعشق الحياة، كم كان قدر تورطي واختلاطي بالأوراق والأحبار! إن صديقي في يوم الفراق ذاك، ساعدني كي أرى الأشياء أكثر وضوحاً. سعدت لهذا؛ فقد صرت أعرف مسمىً لمعاناتي، وربما كنت

أستطيع أن أقهرها بشكل أسهل. وكأنها لم تعد مبعثرة، بلا جسد أو هلامية؛ كأنها شكلت أو تشكلت في هيئة جسد وكان باستطاعتي الآن أن أقاتلها.

حديث صديقي القاسي وجد صدىً وشق طريقاً بداخلي، ومنذها وأنا أبحث عن سبب كي أترك أوراقي وألقي بنفسي في الفعل المسمى بالحياة. كنت أشعر بالخزي والاشمئزاز من حمل هذا المخلوق البائس فوق رأسي. وقبل شهر وجدت الفرصة؛ أستأجرت على أحد شواطئ جزيرة كريت في اتجاه البحر الليبي، منجم فحم مهجورًا وقررت الهبوط إلى كريت كي أعيش بين الناس البسطاء، العمال والقرويين، بعيداً عن هرطقات أهل الأوراق والكتب.

تجهّزتُ للرحيل وكنت في غاية الحماس، وكأن لرحلتي هذه معنى خفيًا غامضًا؛ كنت قد عزمتُ في قرارة نفسي أن أغير أسلوب حياتي. « ياروحي، قلت، كنت ترين الظل وتشبعين؛ الآن سأذهب بك إلى الغذاء الحقيقي.»

كنت على أتم الاستعداد؛ في عشية الرحيل، وأنا أبحث في أوراقي، وجدت مخطوطًا غير منتهٍ. أمسكت به بين يدي، تصفحته في تردد. منذ عامين وهناك ارتباك ما في أحشائي، رغبة عارمة،بذرة ما: وكأن بوذا بداخلي يأكل أحشائي بلا إنقطاع، يتغذى علي، يتكون. يكبر، يركلني، أخذ يدفع صدري كي يخرج. والآن لم تعد لدي المقدرة أن أتخلى عنه. فقد فات الأوان للقيام بإجهاض روحي كهذا.

في لحظة، فيما كنت أمسك هذا المخطوط غير المنتهي بين يدي وأنا ما زلت متردداً، تراءت لي ابتسامة صديقي في الهواء، كلها سخرية ورقة. «سآخذه! قلت بإصرار شديد؛ لن أخاف، سآخذه معي، لا تبتسم!» غلفته بعناية، وكأني ألف رضيعاً، أخذته.

تناهى صوت القبطان ليموني الأجش الغليظ عالياً، وأصغيت بانتباهٍ؛ كان يتحدث عن عفاريت الماء التي تخرج من بطن العاصفة وتتسلّق صواري مركبه وتلعقها.

- قال، نعم هي طرية ولزجة، إذا حاولت أن تمسك به احترقت يداك، كنت قد دهنت شاربي فكان يسطع في الظلام كالشيطان. غمر الماء مركبي المحمل بالفحم فتبلل الفحم

وثقل المركب وأخذ يميل على أحد جانبيه لكن الرب وضع يده في الأمر فأرسل لنا صاعقة حطمت مصاريع الحاويات فملأ الفحم البحر وخفت حمولة المركب مما أدى إلى تعديل مساره، ونجوت. مرت بسلام. هذا ما حدث.

أخرجت من جيبي طبعة صغيرة الحجم من كتاب دانتي رفيق سفري، أشعلت غليوني، أسندت ظهري إلى الجدار، شعرت بارتياح، للحظة قرع ناقوس رغبتي؛ من أين أمسك بتلك الأبيات الخالدة؟ من قار جهنم المشتعل، أم من ألسنة اللهيب المطهر؟ أم أقفز إلى طابق أمل البشرية النبيل؛ بوسعي أن أختار ما أشاء. وأنا أمسك بكتاب دانتي غمرتني سعادة جمة بالحرية. فالأبيات التي كنت أختارها في ذلك الصباح الباكر سوف تضبط إيقاع يومي كله.

انحنيت فوق هذه الرؤية الكثيفة كي أتخذ قراراً، إلا أنني لم أتمكن؛ فجأة أصابني القلق، رفعت رأسي ولا أدري كيف شعرت وكأن ثقبان قد فتحا في قمة رأسي، نظرت خلفي نحو الباب الزجاجي، مرت بذهني أمنية كالبرق: «سأرى صديقي مرة أخرى.» كنت مستعداً أن أستقبل المعجزة. لكن يبدو أنني خُدعت؛ عجوز في الخامسة والستين تقريباً، طويل، نحيل، بعينين جاحظتين ألصق وجهه في زجاج النافذة وكان ينظر إلي. كان يحمل حزمة ما تحت إبطه.

كل ما أثارني فيه كانت عيناه المتقدتان الساخرتان الحزينتان والقلقتان كما الآن. هكذا بدتا لي.

عندما تلاقت نظراتنا، وكأنه تأكد أنني أنا من يبحث عنه، مد يده على عجل وفتح الباب. مر بين الطاولات بخطوات سريعة ومرنة وجاء ووقف أمامي.

- رحلة؟ سألني. إلى إين بمشيئة الله؟

- إلى جزيرة كريت. لماذا تسأل؟

- لمَ لا تصحبني معك؟

نظرت إليه بإمعان. كان خداه غائرين، فك سميك، عظام وجهه بارزة، شعر رمادي مجعد، عيناه متقدتان.

- لماذا؟ وماذا أفعل بك؟

رفع كتفيه.

- لماذا! لماذا! قال باشمئزاز. لا يفعل المرء شيئاً دون لماذا؟ هكذا، من أجل مزاجه. خذني، لنقل، بكل برود، يمكنني أن أعد أنواعاً من الحساء!...

ضحكت. أعجبني كلامه وأساليبه الحادة وكلامه الصريح وأعجبني الحساء. لا بأس، فكرت قليلاً، سأصطحبه معي هذا العجوز المهلهل إلى الشاطئ البعيد الوعر. أنواع من الحساء، ضحك، حوارات... كان يبدو عليه أنه كثير السفر، سندباد بحري؛ لقد أعجبني.

- فيمَ تفكر؟ قال وهو يهز رأسه الضخم. أ تزن قراراتك وكلامك على الميزان؟ آه؛ يبدو أنك تزن كل شئ بدقة شديدة، هيا يا صاحبي، اتخذ قرارك سريعاً ولتذهب الموازين إلى الجحيم!

كان يقف فوق رأسي هذا الفحل النحيل، كنت أشّب رافعاً رأسي حتى أحدثه، أغلقت الكتاب على دانتي.

- اجلس، قلت له، أتشرب كوباً من المريمية؟

جلس؛ وضع الحزمة التي كانت تحت إبطه بحرص على الكرسي المجاور.

- مريمية؟ أومأ بازدراء. تعال إلى هنا أيها النادل؛ أحضر لي شراب الروم!

شرب الروم رشفة رشفة؛ كان يضع القدح على فمه كثيراً كي يستمتع به، ثم يترك السائل يتدفق ببطء في جوفه حتى يدفئ أعماقه. قلت في نفسي «ياله من شهواني ذواق...»

- ما هو عملك؟ سألته.

- كل الأعمال؛ اليدوية، والقدمية، والرأسية - كل الأعمال... هه؛ أية أعمال، ليس بوسعي أن أختار.

- أين كنت تعمل مؤخراً؟

- في أحد المناجم. لك أن تعلم أنني عامل منجم جيد. أفهم في المعادن، لدي مقدرة في العثور على العروق وأعرف كيف أشق الأنفاق، أنزل إلى الآبار، لا أخاف. أعمل بجد.

كنت رئيساً للعمال، لم تكن لدي شكاوى. لولا أنّ الشيطان عليه اللعنة هز ذيله في ليلة السبت الماضي، تمكّن مني الشراب وكنت في مزاج عال، وجدت أمامي صاحب العمل الذي كان قد جاء إلى مقر العمل للتفتيش فأوسعته ضرباً.

- لكن لماذا؟ ماذا فعل لك؟

- لي أنا؟ لا شئ!، كما أقول لك! ذلك اليوم رأيته لأول مرة. وزع علينا سجائر المسكين.

- حسناً، إذن؟

- أوه، لماذا تسأل؟ هذا ما خطر ببالي أن أفعله يا أخي! كمن يطلب هجاءً صحيحاً من مؤخرة زوجة الطحان. حسناً إذن، مؤخرة زوجة الطحان هي عقل الإنسان.

كنت قد قرأت تعريفات عديدة لعقل الأنسان. لكن هذا التعريف بدا لي مدهشاً، وأعجبني. حدقت في وجه رفيقي الذي كان ممتلئاً بالتجاعيد والثقوب، كمن تأثر كثيراً بعوامل التعرية والمطر. وجه آخر، بعد سنوات قليلة، أعطاني نفس انطباع الوجه المحفور المعذب مثل الخشب المشغول: وجه بانايت إستراتي[2].

- وماذا تحمل في حزمتك هذه؟ طعام؟ ثياب؟ أم أدوات عمل؟

رفع رفيقي كتفيه ضاحكاً.

- يبدو أنك شخص حكيم وحساس، قال، معذرة.

راح يمسد على الحزمة بأصابعه الطويلة؛ برهافة.

- لا, إنه سانتوري؛ قال.

- سانتوري! أتعزف على آلة السانتوري؟

- عندما يضيق بي الحال، أدور على المقاهي وأعزف على السانتوري. أغني أيضاً بعض الأغاني المقدونية القديمة. ثم أخلع قبعتي؛ هذه القلنسوة وأجمع فيها بعض العملات المعدنية.

- ما اسمك؟

---

[2] بانايت إستراتي: كاتب يوناني كبير، عاش مغموراً، وهو من جزيرة كفالونيا.

- ألكسيس زوربا. ينادونني أحياناً بالتلغراف، لأنني سريع ولأنني عجوز طويل ورأسي مسطح. ليقولوا ما يشاؤون، أحياناً ينادونني بالتسالي حيث كنت أبيع ذات مرة البذور المحمصة. يطلقون عليّ أيضاً عفن الزرع الفطري، حيث إنني أينما أذهب أقلبها رأساً على عقب. لدي ألقاب كثيرة، لكن دعنا من هذا لوقت لاحق...

- وكيف تعلمت السانتوري؟

- عندما كنت في العشرين من عمري، في قريتي هناك عند سفح جبل الأوليمب، سمعت لأول مرة آلة السانتوري. فُتنت بها. لم أستطع أن أتناول شيئاً لثلاثة أيام. ماذا بك يا بني؟ سألني أبي رحم الله روحه «أريد أن أتعلم العزف على السانتوري - ألا تخجل من نفسك؟ أغجري أنت؟ تريد أن تعزف على الآلات الموسيقية؟ - أنا أريد أن أتعلم العزف على السانتوري!» كنت قد ادخرت مبلغاً صغيراً كي أتزوج عندما يحين الوقت. يا لها من أيام، كنت صبياً مجنوناً وكانت دمائي تغلي، كنت أريد الزواج، يا للحماقة! دفعت كل ما أملك وابتعت سانتوري. هذا هو الذي تراه الآن. رحلت معه، ذهبت إلى سالونيكي، عثرت على شخص تركي محترف يُدعى رتيب أفندي، كان يُدرّس العزف على السانتوري. ألقيت بنفسي عند قدميه. قال لي. «ماذا تريد يا بن الروم؟ قلت «أريد أن أتعلم العزف على السانتوري» فقال، ولماذا تلقي بنفسك عند قدمي؟ - لأن ليس لدي ما أدفعه لك!

- وهل أنت فعلاً مغرم بالعزف على السانتوري؟ - قلت نعم. قال، حسناً وأنا لا أريد منك مالاً!» بقيت معه عامًا وتعلمت. ليقدس الله عظامه - فلابد أنه قد مات. إذا كان الرب يفتح أبواب جناته للكلاب، فليفتحها لرتيب أفندي. منذ أن تعلمت العزف على السانتوري، صرت إنساناً آخر. عندما أشعر بالحزن أو تضيق الدنيا في عينيّ، أعزف على السانتوري كي أخفف من وطأة الحزن أو الظروف. عندما أعزف على السانتوري، لا أسمع أحداً عندما يوجه إلي الحديث، حتى وإن سمعت، لا أستطيع التكلم، أريد أن أتكلم، لكن لا أستطيع.

- لكن لماذا يا زوربا؟

- إيييه، إنه الولع!

فُتح باب المقهى؛ ودخل صوت البحر، كانت الأقدام والأيادي ترتعش. عدلت من جلستي في زاوية المقهى، لففت معطفي جيداً، شعرت بشيء من الرضا المفاجئ. «قلت لنفسي إلى أين أنت ذاهب؟ فكرت جيداً؛ ألست على ما يرام هنا. فلتدم سنيناً هذه اللحظة.»

نظرت إلى المسافر الغريب الذي أمامي؛ عيناه كانتا مثبتتين فوقي، وكانتا صغيرتين مستديرتين شديدتي السواد وبياضهما تخللته عروق حمراء؛ كنت أشعر بهما تخترقانني. كان الرجل يتفحصني بنهم.

- قلت: إذن، ثم ماذا؟

هز زوربا كتفيه النحيفتين.

دعك من هذا، قال، هلا أعطيتني سيجارة..

أخرج من جيب صدريته حجراً وفتيلا وأغلق عينيه باستمتاع وهو يشعل سيجارته.

- هل تزوجت؟

بشر أنا أليس كذلك؟ إنسان، تعني مجنون؛ وقعت أنا أيضاً في نفس الحفرة التي وقع فيها من سبقوني، سقطت في المنحدر. صرت رب أسرة، بنيت بيتاً؛ أنجبت طفلاً. عذابات لا تنتهي. لكن بارك الرب في السانتوري.

- هل كنت تعزف في البيت كي تُذهب الهموم.

- آآه، يبدو أنك لا تعزف أية آلة موسيقية. عمّ تثرثر؟ في البيت لا يوجد سوى الهموم، امرأة، أولاد، ماذا سنأكل، كيف سنوفر الملابس، ما هو مصيرنا؟ الجحيم بعينه. والسانتوري يبغي قلباً. قالت لي زوجتي كلمة فائضة بلا معنى، بأي قلب سأعزف على السانتوري؟ إذا كان الأطفال ينوحون جائعينَ من حولك فليس هناك من سبب كي تعزف السانتوري. لكي تعزف على السانتوري فلابد أن تتأمل السانتوري فقط، أن تكون له قلباً وقالباً - فهمت؟

تأكدت أن زوربا هو الشخص الذي كنت أبحث عنه منذ زمن ولم أجده؛ فله قلب حي، صوت دافئ وروح بدائية عظيمة النقاء، لم يقطع بعد حبلها السُري عن أمها، التي هي الأرض.

ماهو الفن، حب الجمال، البراءة، الرغبة - هذا العامل البسيط شرح لي معنى هذه الأشياء بأكثر الكلمات إنسانية.

نظرت إلى يديه اللتين لديهما القدرة على العمل بالمعول والعزف على السانتوري - صلبتين، مشققتين، مشوهتنين وعصبيتين. بعناية ورهافة كأنهما يعريان امرأة نزعتا الغطاء وأخرجتا آلة السانتوري القديمة، أوتارها كثيرة مزينة بالبرونز والعاج وعلى أطرافها خصلات حريرية. وراحت تلك الأصابع الغليظة تداعبه ببطء وحنان كما لو كانت تداعب امرأة. ثم لفتها ثانية، وكأنها تغطي جسد الحبيبة كي لا يبرد.

- هذا هو! همهم بحنان وهو يضعه مرة أخرى على المقعد.

أخذ البحارة يقرعون كؤوسهم في سعادة وضج المقهى بالضحك. ربت أحدهم على ظهر القبطان ليموني قائلاً...

- قل لنا الحقيقة، ألم تكن ترتعد من الخوف! يعلم الله كم من الشموع أشعلت للقديس نيقولا من أجلك!

قطب القبطان ليموني حاجبيه الأشعثين.

- أقسم لكم بالبحر يا رفاق، عندما رأيت الموت أمامي، لم أفكر قط لا في العذراء مريم ولا في القديس نيقولا! بل استدرت نحو جزيرة سلامينا، تذكرت زوجتي وصحت: «آه يا كاترينا، كم كنت أود أن أكون معك في الفراش الآن!»

ضج البحارة بالضحك ثانيةً؛ وضحك معهم القبطان ليموني.

- هه، ياله من وحش بري! قال، ملك الموت يقف فوق رأسه شاهرا سيفه في وجهه وقلب الرجل معلق هناك مشغول بهذا الشيء، عليه اللعنة، ياله من صفيق قليل الحياء!

صفق بيديه، منادياً النادل: قدم مشروباً للجميع!

كان زوربا قد رمى أذنيه يتصنت بإمعان، التفت إلى البحارة ثم إلي.

ماذا؟ أين؟ ماذا يقول هذا الرجل؟

وكأنه فهم فجأة ما يجري، هب فجأة.

- مرحى! صاح معجباً، هؤلاء البحارة يدركون السر؛ هذا لأنهم يكافحون الموت ليلَ نهار. قال ملوحاً بيده الكبيرة في الهواء.

صحيح، قال؛ كل شيخ وله طريقة. لنعد لأمرنا: هل أجلس أم أرحل؛ عليك أن تتخذ قراراً.

- زوربا، قلت، تماسكت بصعوبة حتى لا أقبض على يده، زوربا، اتفقنا؛ ستأتي معي، عندي منجم في كريت، سترأس أنت العمال، في الليل سننبطح سوياً على الرمال - ليس عندي لا إمرأة ولا ولد - سنأكل ونشرب معاً. ثم بعد ذلك ستعزف على السانتوري.

- إذا كان لدي مزاج، أتسمعني؟ إذا كان مزاجي رائقاً فقط. يمكنني أن أعمل لديك كالعبد! لكن العزف على السانتوري هو شيء آخر. فالسانتوري وحش يريد حرية. إذا كان مزاجي رائقاً سأعزف، بل وسأغني. وسأرقص زيبكيكو[3] وخاسابيكو[4] وبندوزالي[5] - لكن لابد وبلا أي تفاوض أن يكون مزاجي رائقاً. اتفاق واضح وصريح؛ إذا أرغمتني فستخسرني. لابد أن تعرف ذلك جيداً، فأنا إنسان.

- إنسان؟ ماذا تقصد بهذا؟

- بمعنى، حر.

- ناديت على النادل، أحضر كأساً أخرى من الروم!

- كأسين من الروم! ستشرب وعدك واتفاقنا، لا يجوز أن نقرع كأس الروم مع كوب الميرمية؛ ستشرب وعدك كأس روم. حتى يُوثَق عهدنا.

قرعنا كأسينا؛ بدا نور الصباح واضحاً. انطلقت صافرة المركب. جاء البحار الذي كان قد أخذ أمتعتي إلى المركب وأشار إليّ؛ ربت على كتف زوربا.

- هيا بنا؛ وبسم الرب!

- وبسم الشيطان! أضاف زوربا بهدوء.

مال وأخذ السانتوري تحت إبطه؛ فتح الباب وخرج قبلي.

---

[3] زيبكيكو: رقصة شعبية يونانية، أصولها من آسيا الصغرى.

[4] خاسابيكو: رقصة شعبية يونانية، وهي رقصة الجزارين.

[5] بندوزالي: رقصة شعبية كريتية.

البحر، خريف لطيف، الضوء الذي غسل الجزر، مطر خفيف كالحجاب كسى عري اليونان الخالدة. قلت متأملاً، طوبى لمن تتاح له فرصـــة الإبحار في بحر إيجة ولو مرة قبل مماته.

هذا العالم مليء بالمتع - نساء، فاكهة، أفكار؛ لكن أن تشق هذا البحر في فصل خريف لطيف كهذا متمتماً اسم كل جزيرة تمر بها، أظن أن ليس هناك متعة تغوص بقلب الإنسان في الجنة. ليس في أي مكان آخر يمكن أن تعبر بهذا الصفاء والهدوء من الواقع إلى الحلم؛ فالحدود تتلاشى تقريباً وصواري أكثر السفن قدماً تنبت أغصانا وعنباً؛ حقيقة، هنا في اليونان، المعجزة هي نبتة الحاجة بالتأكيد.

توقف المطر إزاء الظهيرة وبرزت الشمس دافئة رقيقة مغسولة نقية ومنعشة وراحت تدلل أحباءها الماء واليابس بأشعتها.

كنت أقف في مقدمة السفينة غارقاً في نشوة المعجزة التي وصلت حد السماء المتحدة مع البحر. على متن السفينة يونانيون مكارون، عيونهم خاطفة، عقولهم حادة، شجار بين الباعة المتجولين، أصواتهم وضجيجهم كالأسطوانة المشروخة، نساء فاضلات شرسات، شر، بؤس قروي رتيب. شيء يوحي إليك بالرغبة في أن تمسك المركب من كلا جانبيه وتفرغه في البحر، تبعثر محتوياته جيداً، كي تسقط منه كل الكائنات التي لوثته - البشر، الجرذان والحشرات - ثم تضعه ثانية فوق الأمواج فارغاً، مغسولاً نظيفاً.

إلا أنه أحياناً ما يصيبني إحساس بالشفقة، شفقة بوذية، باردة، كأنها ناتجة عن تأملات ميتافيزيقية معقدة. شفقة ليست تجاه البشر فقط لكن تجاه العالم الذي يكافح بأسره، العالم الذي يصرخ، يبكي، يأمل ولا يرى أن هذا كله مجرد تخيلات للعدم. شفقة على اليونايين والسفينة والبحر وعليّ أنا وعلى عمل المنجم وعلى مخطوط «بوذا» وعلى كل تعقيدات الضوء والظل، والتي في لحظة يمكن أن تفسد الهواء وتلوثه.

نظرت إلى زوربا الذي شحب وجهه من البحر وقد جثم عابساً فوق طوق من الحبال الملفوفة في مقدمة السفينة يشم ليمونه ويصيخُ السمع لركاب بينهم نقاش سياسي حاد حول الملك وسياسي آخر يُدعى فنيزيلوس. راح يهز رأسه ويبصق.

- أفكار قديمة! تمتم باحتقار؛ ألا يستحون!

- ماذا تعني بأفكار قديمة يا زوربا؟

- كل هذا الهراء: مملكات، ديمقراطيات، برلمانيون، كلها أقنعة زائفة!

في عقل زوربا، كل ماهو معاصر كان ينتهي به الأمر سريعاً فيصبح قديماً، فقد تجاوز كل هذه الأشياء، بالطبع في قرارة نفسه البرق والسفينة والقطارات والأخلاق والمبادئ السائدة والوطن والدين، كل هذه الأشياء كانت تبدو له أفكار قديمة. فقد كانت روحه تمضي بسرعة أكبر بكثير من سرعة هذا العالم.

الحبال فوق الصواري كانت تصدر صريراً بينما الشواطئ ترقص، اصفرت وجوه النساء وصارت كالعملة النحاسية. صرن كما لو سلمن أسلحتهن - زينتهن، أمشاطهن، مشابك شعورهن - شحبت شفاههن، ازرقت أظافرهن. العجائز الشمطاوات بدأن يفقدن حليهن وزينتهن المستعارة، سقط منهن الريش - الشرائط، الرموش والحواجب والشامات المزيفة، كرات القماش التي يملئن بها صدورهن - هكذا كما تراهن وقد بدوْنَ على وشك التقيؤ، تشعر بالقرف منهن وبشفقة كبيرة عليهن.

أخذ لون زوربا في الاصفرار والاخضرار، انطفأ بريق عينه. ولم تعد عيناه تتراقصان إلا عند الغروب، برقت عيناه قليلاً؛ رفع يده وأشار إلى دولفينين كبيرين كانا يتقافزان بالقرب من السفينة.

- دلافينَ! صاح فرحاً.

حينها كانت المرة الأولى التي لاحظت فيها أن نصف سبابته اليسرى مبتورة.

- ماذا أصاب إصبعك يا زوربا؟ صحت سائلاً.

- لا شيء أجاب، و بدا عليه الضيق لأنني لم أبتهج لرؤية الدلافين.

- هل كان حادث آلة؟ سألته مصراً.

- عن أي آلةٍ تتحدث؟ لقد قطعته بنفسي!

- قطعته أنت؟ لماذا؟

- وكيف ستفهم يا سيدي! قال وهو يرفع كتفيه. قلت لك أنني مررت بكل أنواع الحرف. ذات مرة كنت أعمل خزافاً. أحببت هذه الحرفة بجنون. هل تعرف ماذا يعني أن تأخذ كتلة من الطين وتصنع منها ما تشاء، تُدير العجلة فررررر! ويدور الطين، وأنت فوقها كالمجذوب تقول: سأصنع إبريقاً، سأصنع طبقاً، سأصنع مصباحاً، سأصنع شيطاناً! هذا يعني أن تكون إنساناً أقول لك: حرية!

كان قد نسي البحر، لم يعد يعض على الليمونة، صفت عيناه مرة أخرى.

- حسناً؟ سألت؛ والإصبع؟

- كان يعوقني وأنا أعمل على عجلة الخزف؛ دائماً ما كان يتلف تصميماتي. أمسكت بالفأس...

- هل تألمت؟

- كيف لم أتألم، بالطبع، أنا لست جماداً، أنا إنسان، تألمت. لكنه كان يعوقني في عملي قلت لك؛ لذا قطعته!

بدأت الشمس في الغروب، هدأ البحر قليلاً، تفرقت السحب. سطع نجم المساء في السماء كالجرس. نظرت إلى البحر، نظرت إلى السماء، سقطت في ورطة فكرية... أهكذا يمكن للمرء أن يعشق، تأتي بالفأس، تتألم وتقطع... لكنني واريت تأثري.

- لم تحسن لا التفكير ولا الصنع يا زوربا! قلت ضاحكاً. تذكرني بذلك الناسك كما تذكر السير التراثية، أنه رأى امرأة، أثارته، أخذ الفأس وقطع....

- ابلع لسانك يا رجل! قاطعني زوربا بعد أن خمن ما سوف أقوله. يقطع ماذا يا رجل! فليذهب إلى الجحيم! هذا العضو المبارك لا يمثل عائقاً أبداً..

- كيف! ألححت؛ بل يمثل عقبة، وعقبة كبيرة طبعاً.

- في ماذا؟

- يمثل عقبة في دخولك الجنة.

نظر إلي زوربا بطرف عينه ساخراً.

- لكنه يا أحمق هو مفتاح الجنة ذاته!

رفع رأسه، نظر إلي جيداً وكأنه أراد أن يتفحص ما يدور في رأسي من أفكار عن الحياة ما بعد الموت والجنات والممالك والنساء والكهنة؛ لكن على ما يبدو أنه لم يستطع أن يستوعب الكثير فهز رأسه الكبير الأشيب كمن يبدو عليه التفكير العميق الحذر.

- البائسون لا يدخلون الجنة، قال، ثم صمت.

استلقيت في مقصورتي، أخذت كتاباً، كان بوذا ما زال يسيطر على تفكيري؛ قرأت «الحوار بين بوذا والراعي»، الذي كان في السنوات الأخيرة يملأ صدري بالصفاء والأمان.

«الراعي: شويت طعامي، حلبت نعاجي؛ أوصدت كوخي، اشعلت ناري؛ أمطري كما شئت أيتها السماء!

بوذا: لست في حاجة إلى الطعام ولا الحليب؛ الرياح هي كوخي، أطفأت ناري؛ أمطري كما شئت أيتها السماء!

الراعي: لدي ثيران، لدي حقول ورثتها عن أجدادي وثور يلقّح أبقاري؛ أمطري كما شئت أيتها السماء!

بوذا: ليس لدي ثيران؛ ولا حقول. لا أملك شيئًا. لا أخشى شيئًا؛ وأنت أيتها السماء، أمطري كما شئت!

الراعي: لدي راعية غنم مطيعة ومخلصة؛ زوجتي، أستمتع باللهو معها في الليل؛ أيتها السماء، أمطري كما شئت!

بوذا: لدي روح مطيعة وحرة؛ سنوات أدربها وأعلمها أن تلهو معي؛ أما أنت أيتها السماء، فأمطري كما شئت!»

ظل هذان الصوتان يتحدثان، بينما غرقت في النوم. اشتدت قوة الريح ثانية، كانت الأمواج تنكسر على نافذة المقصورة الزجاجية. كنت كالدخان أتأرجح بين النعاس واليقظة، صارت الأمواج عاصفة قوية، غرقت الحقول والعجول والأبقار، والثور.

هدمت الرياح سقف الكوخ، أطفأت ناره، أطلقت المرأة صرخة مدوية ثم سقطت ميتة. والراعي أخذ ينوح ويصرخ، لم أستمع إلى ما كان يقول، وأنا كنت أنزلق بعمق أكثر في النوم كسمكة في البحر.

عندما استيقظت قرب الشروق، كانت الجزيرة الكبيرة البهية على يميننا وجبالها الشاهقة الشامخة الصخرية تبتسم من وراء ضبابها بحنو في الصباح المشمس. من حولنا البحر يغلي لآلئ زرقاء.

كان زوربا متدثّرًا ببطانية سميكة، ينظر بنهم إلى جزيرة كريت. كانت عيناه تقفزان من جبل إلى حقل ثم راح يضحك عالياً كمن اكتشف شيئاً. وكأن كل هذه اليابسة مكاناً مألوفاً لديه ويسعد بفكرة أن قدمه ستطأ هذه الأرض ثانية.

اقتربت منه، ربت على كتفه.

- هذه ليست المرة الأولى التي تأتي فيها إلى كريت بالتأكيد يا زوربا! قلت؛ إنك تنظر إليها كرفيقة قديمة.

تثاءب زوربا في ملل؛ لم تكن لديه رغبة في الحديث.

ضحكت.

- أ أنت منزعج من الحديث يا زوربا؟

- لست منزعجاً أيُّها الرئيس، أجاب، لكن لدي صعوبة ما في التحدث.

- صعوبة؟

لم يجب مباشرة. ألقى نظرة ساهمة بطيئة على شاطئ الجزيرة؛ كان قد نام على سطح السفينة، و خصل شعره الرمادي كانت تقطر ندى على كل تجاويف وجهه العميقة، على خديه وذقنه ورقبته حتى أنها كانت تلمع حيث كانت أشعة الشمس تسقط عليها.

وفي النهاية تحركت شفتاه الغليظتان المتهدلتان كشفتي الجديّ.

اعذرني! فأنا أجد صعوبة في أن أفتح فمي لأتحدث صباحًا، اعذرني.

صمت وراحت عيناه المستديرتان تحدقان في جزيرة كريت.

دق جرس قهوة الصباح والإفطار. أخذ الناس يخرجون من مقصوراتهم شاحبين متجهمين؛ نساء بشعور شعثاء أخذن يتنقلن من طاولة لأخرى في تثاقل، تفوح منهن رائحة القيء والكولونيا وعيونهن تشع خوفاً وغباء.

جلس زوربا أمامي على الطاولة وأخذ يحسو قهوته في نهم وابتهاج. دهن الخبز بالزبدة والعسل، راح يأكل. بدأ وجهه في الإشراق، وملامحه في الاتضاح، كنت أراقبه وهو يخرج من شرنقة النوم والصمت بهدوء، وبدأ اللمعان يعود إلى عينيه مرة أخرى.

أشعل سيجارة، أخذ نفساً عميقاً باستمتاع، كان الدخان يخرج من فتحات أنفه أزرقاً. ثنى رجله اليمنى وجلس عليها؛ بدت عليه الراحة في هذه الجلسة الشرقية، الآن يستطيع أن يتحدث. و راح يتكلم.

- هل هذه هي أول مرة آتي فيها إلى كريت؟ بدأ كلامه، شرد بعينيه نصف المغمضتين بعيداً من نافذة السفينة نحو جبل بسيلوريتي*. لا، ليست هي المرة الأولى. في عام 1896، كنت في ريعان الشباب والفتوة. كان لون شعري ولحيتي أسود فاحمًا. أسناني كانت اثنتين وثلاثين سنًا، وكنت حينما أشرب ألتهم كل المقبلات في الصحن. وفجأة هاجت الأمور واندلعت الثورة في كريت.

كنت حينها بائعاً متجولاً. أجول على القرى في مقدونيا، كنت أبيع الخردوات وبدلاً من المال كنت أقايضها بالجبن والصوف والزبد والأرانب والذرة كنت أبيعها فيما بعد وأضاعف أرباحي بهذا الشكل. وفي الليل كنت أعرف في أي بيت سأقضي ليلتي، ففي كل قرية كانت هناك أرملة حنون، ليباركها الرب! كنت أعطيها بكرة خيط أو مشطًا أو وشاحاً على روح المرحوم ثم أنام معها دون أن يكلفني الأمر كثيراً.

كانت الحياة رخيصة بسيطة ورائعة يا سيدي. لكن الشيطان الذي جعل كريت تحمل البندقية مرة أخرى. «اللعنة على قدري، قلت؛ ألا يمكن لكريت أن تتركنا ساكنين؟» تركت بكرات الخيطان والأرامل، حملت بندقية ولحقت بالثوار في كريت.

صمت زوربا. كنا نعبر في خليج رملي هادئ، كانت الأمواج تنبسط عليه وتترك خلفها رغوتها حول رماله. تبعثرت السحب، الشمس ساطعة، وكانت كريت المتوحشة تبتسم في سكينة.

نظر إلي زوربا بطرف عينه ساخراً.

- بربك يا سيدي، تظن الآن أني سأخبرك كم من رؤوس الأتراك قطعت وكم أذنا جمعت وحفظت في جرات الكحول - فقد اعتادوا على هذا في كريت...

لا تنتظر مني أن أفعل هذا، فلا أحب هذه الأشياء، أخجل منها. ما هذا السعار، أتأمل الأمر الآن بعد أن أصبحت أكثر خبرة وتعقلاً، ماهذا الجنون المسعور الذي يدفع المرء أن يهجم على آخر لم يفعل له شيء ويعضه، ويقطع له أنفه وأذنه، أن يشق بطنه ويصرخ مناجياً الرب كي يساعده - ماذا يعني هذا، أهذا ما يرجوه من الرب، أن يقطع أشلاء الناس ويشق بطونهم؛ لكن كما ترى، كانت الدماء تغلي آنذاك ولم يكن لدي عقل كي أزن الأمور! العقل والرأي الراجح يتطلبان هدوءاً من نوع خاص تفرضه الثقافة والخبرة العمرية. عندما تكون أدرداً بلا أسنان يسهل عليك قول: «عيب يا أولاد، لا تعضوا ولا تفعلوا هذا وذاك!» لكن عندما تكون أسنانك كاملة... إن المرء في شبابه كائن متوحش، وحش بري، يأكل لحوم البشر!

هز رأسه.

- نعم، يأكل الطيور والدجاج والخنازير، إذا لم يأكل بشراً، لا يظل جائعاً على الدوام، بل إنه لا يشبع أبداً، أضاف وهو يسحق عقب سيجارته في طبق فنجان القهوة. ما رأيك أيها الحكيم المتحذلق؟

لكن، وبدون أن ينتظر أي رد مني:

- ما قولك؟ قال وهو ينظر إلي نظرة متأملة متفحصة.

كما أرى وأستطيع أن أقول إن معاليك لم تجع أبداً في حياتك، لم تقتل، لم تسرق، لم تزنِ ماذا تعرف إذن عن الحياة؟ عقل يافع لم ينضج، جسد لم يرَ الشمس... غمغم باشمئزاز واضح.

شعرت بالخزي من يدي الناعمتين، من وجهي الشاحب وحياتي البعيدة عن الشمس.
وليكن، قال زوربا متنهداً وهو يسحب قبضته من على المنضدة وكأنه يمسك بإسفنجة ويمحو ما قاله؛ وليكن. لكني أريد أن أسألك شيئًا وحيدًا؛ فلابد أنك قرأت تلالاً من الكتب ويجب أن تعرف...

- قل يا زوربا، ماذا؟

- هنا، هنا يا سيدي، تحدث معجزة.. معجزة عجيبة، حارَ فيها عقلي. كل هذه الأعمال الدموية التي ارتكبناها نحن الثوار من ذبح وقتل وسرقة، أتت بالأمير يورغيوس إلى كريت، أتت لنا بالحرية!

نظر إلي مبهوتاً بعينين جاحظتين.

- وتمتم قائلاً، يا له من لغز، لغز كبير! إذن لكي نحظى بالحرية لابد من ارتكاب كل هذه الجرائم المخزية: كي أروي لك كمَّ الجرائم البشعة التي ارتكبناها، سيقف شعر جسدك متصلباً. ورغم ذلك، ماذا كانت النتيجة: الحرية! هذا بدلاً من أن يرسل علينا الرب بصاعقة تحرقنا، يمنحنا الحرية! لم أعد أفهم شيئاً!

ظل ينظر إلي كمن ينتظر جواباً. كان واضحاً أن هذا اللغز يحيره ويعذبه كثيراً دون أن يستطيع أن يجد له حلاً.

هل تفهم أنت؟ هل لديك سبب لهذا؟ سألني بانفعال.

وماذا أفهم؟ إمّا أن ليس هناك ما نسميه بالإله، أو أن هذا الإله يحب الجرائم والأفعال المخزية، أو أن القتل والأعمال الدموية المشينة شيء ضروري في طريق نضال البشر من أجل الحرية...

لكن كنت أحاول جاهداً أن أجد تفسيراً آخر لزوربا:

- كيف أن من الروث والقذارة يمكن أن تنبت زهرة؟ تخيل يا زوربا أن الروث هو الإنسان وأن الزهرة هي الحرية.

- والبذرة؟ قال زوربا وهو يضرب على المنضدة بقبضته. كي تنبت الزهرة نحتاج إلى البذرة، من الذي وضع بذرة كهذه في أحشائنا القذرة؟ ولمَ هذه البذرة لا تطرح زهرة عبر الخير والشرف؟ لماذا تحتاج إلى دم وقذارة؟

هززت رأسي.

- لا أعرف، قلت.

- ومن يعرف؟

- لا أحد.

- إذن، قال زوربا بيأس وهو ينظر حوله بتوحش، ماذا أفعل بالمراكب والآلات والياقات البيضاء المنشاة؟

اثنان أو ثلاثة من المسافرين الصعاليك كانوا يجلسون إلى منضدة مجاورة يحتسون القهوة وقد بدأوا يستفيقون، شعروا بأن هناك شجارًا من نوع ما فأخذوا ينصتون.

شعر زوربا بالاشمئزاز منهم، وخفض صوته.

- لندع هذا الأمر برمته يذهب إلى الجحيم، قال، لكني عندما أفكر ملياً في الأمر، تأتيني رغبة شديدة في أن أحطم كل ما أجد أمامي، مقعدًا أو مصباحًا أو أن أضرب رأسي في الجدار. ثم بعد ذلك ماذا، سأظل لا أفهم شيئاً على الإطلاق! ناهيك عن أنّي سأدفع كل ما أملك لأجل العقاقير والطبيب الذي سيضمد لي رأسي المجروح. وإن كان هناك إله، فسحقاً! لابد أنه ينظر إلي من السماء وينفجر ضاحكًا.

حرك يده فجأة وبعنف كأنه يهش ذبابة ألحت في مضايقته.

- على أية حال! قال متململاً. ما أردت أن أقوله لك هو التالي: عندما وصلت السفينة الملكية مزينة بالأعلام ودوّت طلقات المدافع ووطأت قدما الأمير أرض كريت... أرأيت من قبل شعباً كاملاً يهتف في آن واحد، لأنه رأى حريته؟ لا؟ مسكين أنت يا سيدي فإنك لم تعش شيئاً في حياتك بائساً تعيش وبائساً ستموت. أنا، حتى وإن عشت ألف ألف سنة وإن أصبحت كومة عظام حية، ما رأيته في ذلك اليوم لن أنساه ابداً. وإن كان كل منا يتخيل جنة السموات على ذوقه - إذن، فهكذا لابد أن تكون الجنة! - «فأنا أدعو الرب

أن تكون الجنة هي كريت مليئة بأشجار الآس والأعلام؛ وأن تظل قروناً هذه اللحظة التي تطأ فيها قدم الأمير يورغيوس أرض كريت... لا أبغي شيئاً آخر!»

صمت زوربا مجدداً. برم شاربه، وشرب كوباً من الماء المثلج دفعة واحدة.

- ماذا حدث يا زوربا في كريت؟ تحدث!

- أهو حديث لمجرد الكلام؟ قال زوربا منزعجاً مرة أخرى. يا صاح، أقول لك أن هذا العالم لغز وأن الإنسان هو كائن متضخم التوحش. وحش كبير وإله كبير. أحد السفاحين من الثوار وكان قد أتى معي من مقدونيا، كان يدعى يورغيوس ويلقب بيورغيوس الكبير، قد ارتكب الفظائع المروعة، خنزير قذر، كان في هذا الوقت يبكي، «لماذا تبكي يا كبير؟» قلت له والدموع تنحدر أنهاراً من عيني. «لماذا تبكي يا خنزير؟» لكنه رمى نفسه في أحضاني وأخذ يقبلني باكياً كطفل صغير. ثم إذا بهذا البخيل يخرج صرة نقوده، ويعطي للأطفال جنيهات ذهبية كان قد إغتنمها من الجنود الأتراك الذين قتلهم ومن البيوت التي نهبها، كان يلقي بها حفنات في الهواء. فهمت الآن يا سيدي؟ هذه هي الحرية!

قمت وصعدت إلى سطح السفينة لتلفحني نسمات الهواء النقي.

هذه هي الحرية، تأملت المقولة. أن يكون لديك الشغف أن تجمع الجنيهات الذهبية، وفجأة تنتصر على هذا الولع والشهوة وتبعثر كل ما تملك في الهواء!

أن تتخلص من شهوة ما، وتدخل طيعاً في رحاب شهوة أخرى أكثر نبلاً... لكن أليس هذا شكلاً من أشكال العبودية؟ أن تضحي بنفسك من أجل فكرة، من أجل شعب أو من أجل الرب؟ أم ربما كلما كان السيد يقبع في مستوى أعلى يمتد بدوره حبل العبودية أكثر، حينها نقفز ونلعب في مكان أكثر إتساعاً، ونموت دون أن نصل إلى طرفه الآخر، أهذا ما نسميه الحرية؟

وصلنا بعد الظهر إلى شاطئنا الرملي. رمال بيضاء ناعمة، أشجار نبات الدفلى ما زالت مزهرة، وأشجار الخروب والتين، ونحو اليمين بقليل كان هناك مرتفع ترابي عارٍ من

الأشجار، كان يشبه وجه امرأة ممددة؛ وتحت ذقنها وفوق عنقها، كانت تجري عروق الفحم البنية الداكنة.

رياح ما بعد المطر بدأت تهب، سحب خفيفة وسريعة لطفت وظللت الأرض أثناء عبورها؛ لكنها كانت تصعد نحو السماء غاضبة. كانت هذه السحب تغطي الشمس تارة وتزول عنها تارة أخرى مما كان يلقي بالضوء والظل بالتناوب على وجه الأرض الذي بدا كوجه حي مضطرب.

توقفت على الرمال للحظة أتطلع حولي. كانت ثمة وحدة مهيبة تتمدد أمامي، مريرة لكن ساحرة، تماماً كالصحراء. وإذا بإغنية بوذية كبوق القيامة تحيا من تحت التراب وتعانق أحشائي: «متى إذن، سأنزوي إلى وحدتي - وحيدًا، بلا رفيق، في صحبة الحقيقة المقدسة بأن كل شيء هو محض حلم؟ متى بملابسي البالية هذه - بلا رغبات - سأنزوي إلى الجبل؟ متى، سأرى جسدي هذا المليء بالأمراض وذنوب وعجز وموت - حراً، مبتهجاً و بلا خوف - متى سأنزوي إلى الغابة؟ متى؟ متى؟

اقترب زوربا حاملاً السانتوري تحت إبطه.

- ها هو المنجم! قلت كي أداري تأثري ومددت يدي مشيراً نحو المرتفع المشابه لوجه المرأة.

لكن زوربا قطّب حاجبيه دون أن يلتفت:

فيما بعد ياسيدي، قال؛ دع الأرض تتوقف أولاً فأنها ما زالت تتحرك، اللعنة ما زالت تتحرك كسطح السفينة. لنذهب سريعاً إلى القرية! قال وهو يهم بخُطًى واسعة.

جرى قرويان صغيران ذوا بشرة سمراء نحونا وحملا الحقائب. ضابط الجمارك الغليظ ذو العينين الزرقاوين كان يدخن النرجيلة في كوخ خشبي حقير كان يتخذ منه مقراً لمصلحة الجمارك. نظر إلينا بطرف عينيه ثم ألقى نظرة أخرى متفحصة نحو الحقائب، تحرك قليلاً فوق مقعده وهم بالوقوف لكنه تململ. ثم رفع ببطء خرطوم النارجيلة قائلاً بصوت شبه ناعس:

- مرحباً بكم!

مال نحونا واحدا من الصبية بعينيه اللتين كانتا بسواد الزيتون:

- يوناني حقير, كسول، أنه ليس من سكان كريت! قال بسخرية وهو يغمز بإحدى عينيه:
- أليس أهل كريت كسالى أيضاً؟ قلت.
- بلى... إنهم كسالى أيضاً... أجاب الصبي الكريتي، لكن بشكل آخر...
- هل القرية بعيدة؟
- كلا، إنها على بعد طلقة بندقية من هنا! ها هي، خلف البساتين، عند الوادي. إنها قرية طيبة يا سيدي؛ فيها من كل خيرات الرب: خروب، أوراق الخردل الطيبة*، زيت ونبيذ. وعلى مسافة ليست ببعيدة، على الرمال ينمو فيها الخيار في وقت مبكر جداً بالنسبة لجزيرة كريت. إن الرياح الإفريقية تهبّ عليها في شهر أبريل فتساعد على نضوجها السريع؛ يمكنك أن تسمع صريرها إذا نمت في البستان ليلاً.

كان زوربا يسير أمامنا ويتعثر في طريقة إذ ما زال مترنحاً من أثر رحلتنا البحرية.

- الهمة يا زوربا، لا تخشَ شيئاً فقد نجونا!

كنا نسير بسرعة وكان الطين مخلوطاً بالرمال والأصداف؛ وكانت تتناثر بعض الأعشاب البحرية، أعشاب البردي وبعض النباتات السامة. جعلت الرطوبة الحر خانقاً. ازدادت السحب في الانخفاض فأصبح الهواء ثقيلاً.

مررنا على شجرة تين ضخمة؛ ذات جذع مزدوج ازدادت تجاويفها عمقاً مع الزمن. توقف أحد الصبية ومط ذقنه مشيراً إلى الشجرة العجوز.

- ظل شجرة التين «السيدة النبيلة»! قال.

توقفت بدوري لبرهة. في أرض كريت هذه، كل حجر، وكل شجرة لها تاريخ مأساوي.

- السيدة النبيلة؟ لماذا؟

- في زمن جدي، كانت هناك سيدة نبيلة عشقت راعياً. لكن والدها لم يكن راضياً؛ ظلت الفتاة تبكي وتتلوى ألماً، لكن أباها لم يبالِ! إلى أن جاءت ليلة واختفى العاشقان. ظلوا يبحثون عنهما يومًا، يومين، ثلاثة، أسبوعًا؛ لا أثر لهما! كانت حرارة الصيف على أشدها، وكانت هناك رائحة كريهة، تتبعوا أثر الرائحة الكريهة فوجدوا جثتيهما متعفنتين تحت

شجرة التين هذه وهما في وضع إحتضان. أفهمت؟ عثروا عليهما من الرائحة العفنة! أوف! أوف! قال الصبي وراح في ضحك عميق.

وصل إلى أسماعنا أصوات من القرية؛ نباح الكلاب، ثرثرة نساء بأصواتهن العالية، صياح الديكة تعلن عن تغير الطقس.. كان للهواء رائحة العرق الذي يغلي في المراجل.

- ها هي القرية! صرخ الصبيان و انطلقا مهروليْنِ.

عندما استدرنا حول الهضبة الرملية بدت لنا القرية الصغيرة معلقة فوق الوادي. البيوت المبنية بالطوب الجيري بأسطحها مصطفة إلى جانب بعضها البعض، حتى أن نوافذها المفتوحة داكنة اللون كانت تبدو كأنها جماجم مطلية باللون الأبيض ومحشورة بين الأحجار.

- انتبه يا زوربا، قلت له بعد أن لحقت به، لابد أن تحسن التصرف فنحن ندخل القرية الآن. يجب ألاّ يكتشفوا أمرنا يا زوربا! لابد أن نتصرف كأننا رجلا أعمال جديان - أنا صاحب العمل وأنت رئيس العمال. لك أن تعلم أن أهل كريت لا يمزحون؛ فما أن تقع عيونهم عليك حتى يلتقطوا عيوبك ويطلقوا عليك ألقاباً لا يمكن أن تتخلص منها فيما بعد؛ فتجري بعد ذلك كالكلب الذي رُبط في ذيله إناءٌ من الصفيح.

أمسك زوربا بشاربه وراح يفكر بعمق.

- أتدري يا سيدي، قال بعد تفكير؛ إذا كان هنا ثمّة أرملة فلا تخف؛ أما إذا لم يكن...

في هذه اللحظة، وعلى مدخل القرية جرت نحونا شحاذة مهلهلة الملبس، مدت يدها نحونا. كانت ذات بشرة سمراء، متسخة وعلى وجهها شارب خفيف خشن.

- يا بن العم، نادت على زوربا، يا بن العم، ألديك روح؟

توقف زوربا:

- نعم، أجاب زوربا بجدية.

- إذن أعطني خمسة دراخمات!

أخرج زوربا حافظة جلدية من صدريته.

- خذي! قال، وكانت شفتاه المغلقتان تعلوهما ابتسامة.

التفت وقال:

- أرى هنا رخصًا شديدًا؛ فالروح بخمسة دراخمات.

هبت الكلاب قادمة نحونا، وجاء الأطفال خلفنا مهللين، أخذت الكلاب في النباح، وكان بعضها يصدر أصواتاً كمكائن السيارات، بينما أخرى تمرُّ بجانبنا ناظرةً إلينا نظرات متفحصة.

وصلنا إلى الساحة في مركز القرية: شجرتا حور ذاتا جذعين ضخمين لهما لون أبيض، حولهما بعض المقاعد وفي المقابل لافتة باهتة عريضة: «مقهى وجزار الحشمة».

- لماذا تضحك يا سيدي؟ سأل زوربا.

وقبل أن أشرع في الإجابة حتى خرج من باب المقهى خمسة أو ستة رجال عمالقة الحجم بسراويل زرقاء داكنة عليها أحزمة حمراء.

- مرحبًا بأبناء العم! هتفوا. استريحوا لتشربوا كأساً من العرق، كأساً ساخنة من العرق طازجة ومن مرجل التقطير مباشرة.

نقر زوربا لسانه في سقف فمه:

«ما رأيك يا سيدي؟» التفت إلي غامزًا، «ألا نشرب كأساً من العرق؟»

شربنا، فاحترقت أحشاؤنا. أحضر لنا صاحب المقهى الجزار كرسيين، وكان عجوزًا صلبًا سريع الحركة.

سألته عن منزل.

- اذهبا إلى مدام أورتانس، صاح أحدهم.

- فرنسية؟ قلت مندهشاً.

- بل من الجحيم. لا نعرف من أين هي. عاشت حياتها تطوف البلاد، ولمّا أصابها العجز الآن، قررت الإقامة هنا وفتحت نزلاً.

- هي تبيع الحلوى أيضاً! صاح أحد الأطفال.

- وتضع المساحيق على وجهها وتتزين! صاح آخر. تضع وشاحاً حول عنقها؛ ولديها ببغاء...

- أهي أرملة؟ سأل زوربا؟

لكن أحداً لم يجب.

- أهي أرملة؟ صاح ثانية بشوق.

أمسك صاحب المقهى بلحيته الكثيفة:

- كم شعرة في لحيتي يا بن العم؟ كم؟ إذن هي أرملة لعدد شعر لحيتي من الرجال. أفهمت الآن؟

- فهمت، أجاب زوربا وهو يمط شفتيه.

- يمكن أن تجعلك أرملَ؛ عليك أن تنتبه يا بن العم! صاح عجوزٌ مرح فانفجر الجميع ضاحكين.

وضع صاحب المقهى أمامنا كؤوساً أُخرَ من العرق، قطعًا من خبز الشعير، الجبن وحبة من الكمثرى.

دعوا الضيوف في سلام. ما شأنكم والمدام؟ سوف ينامان في بيتي.

- سأستضيفهما أنا يا كوندومانوليو! قال عجوزٌ آخر؛ فليس لدي أطفال، وفي منزلي الكبير متسع لأستضيفهما.

- معذرة ياعم أغنوستي، صاح صاحب المقهى منحنياً على أذن العجوز، أنا قلت أولاً.

- خذ أنت واحداً، قال العم أغنوستي؛ وسآخذ أنا العجوز الآخر.

- أيّ عجوز؟ قال زوربا وقد استوحشت عيناه.

- نحن لا نفترق، قلتُ مشيراً إلى زوربا بألاّ ينزعج؛ نحن لا نفترق. سنذهب إلى مدام أورتانس.

- مرحباً! مرحباً!

امرأة بدينة قصيرة، بشعر أشقر كتاني، لها شامة على ذقنها، برزت من تحت أشجار الحور تتمايل بساقيها المقوستين، تفتح يديها مرحبةً. كانت ترتدي وشاحاً مخمليًّا أحمر اللون حول عنقها وكان خداها المرمريان مطليين بمسحوق بنفسجي اللون. خصلة من

الشعر تتهادى بمرح على جبهتها وهكذا كانت شبيهة بالعجوز سارة برنار في مسرحية "النسر الصغير" لروستان.

مرحباً مدام أورتانس! أجبت وهممت أن أقبل يدها مأخوذاً بمزاجها الرائق وروحها المرحة.

برقت الحياة أمامي كالأسطورة، أو كالمسرحية الهزلية الشكسبيرية «العاصفة» مثلاً. وكأننا رسونا للتو مبتلّينِ بعد أن نجونا من غرق حتمي، نبحث في شاطئ ونحيي بشكل رسمي كل الكائنات الحية لهذا المكان. ومدام أورتانس بدت كأنها ملكة الجزيرة، فصيلة من الكائنات البحرية ذوات الشوارب، ناعمة كسبع البحر في ملمسها، كانت قد لفظها البحر منذ آلاف السنين على رمال هذه الجزيرة، نصف متسخة مغبرة ومرحة. خلفها جمع من الرؤوس المتسخة المشعرة المرحة، هذا هو الشعب الذي كان ينظر إليها بفخر واحتقار.

وزوربا الأمير المتنكر راح يحدق فيها بإعجاب بعينين جاحظتين، كأنها رفيقة قديمة، فرقاطة عجوز، كانت لها صولاتها وجولاتها الحربية في بحار بعيدة انتصرت وهزمت وجرحت، انهارت أبواب مقصوراتها، تحطمت صواريها، مُزقت أشرعتها - والآن وهي مليئة بالثقوب التي تسدّها بالمساحيق، تقهقرت نحو هذا الشاطئ تنتظر. بالتأكيد ستنتظر زوربا، القبطان ذا الألف جرح وندبة. كنت أشعر بالسعادة لرؤية هذين الممثلين المسرحيين يتلذذان باللقاء أخيراً بعد طول انتظار، في هذا المكان المصمم بالألوان الكثيفة، في جزيرة كريت.

- سريران، مدام أورتانس! قلت وأنا أنحني أمام ممثلة الحب العجوزهذه. سريران بلا براغيث...

- براغيث! لا، لا يوجد لدينا براغيث! أجابتني وهي ترمقني بنظرة معاتبة متكبرة أرستقراطية بعض الشيء.

- إلى هناك! صاحت العجوز التي لا تزال منزعجة، لا يوجد لدينا براغيث.

- ازداد عناد الممثلة المسرحية، فراحت تدوس على الحصى بقدميها الغليظتين اللتين كانت تغطيهما بجوارب زرقاء.

كانت تنتعل زوجًا من الأحذية القديمة المهترئة، عليهما ربطة حريرية منمقة.

- اللعنة، أيتها النجمة الكبيرة! هيا بنا، صرخت مرة أخرى.

تقدمت أمامنا مدام أورتانس بكبرياء لتفتح لنا الطريق. كانت تفوح منها رائحة المساحيق والصابون الرخيص.

كان زوربا يسير خلفها يأكلها بعينيه.

- انظر إليها، قال لي غامزًا، أنها تسير مثل البطة، ياللملعونة! أنظر كيف تهز ردفيها، بلاف! بلوف! مثل نعجة لها إلية سمينة مليئة بالشحم!...

سقطت قطرتان أو ثلاث قطرات كبيرة من المطر، أظلمت السماء.

بدأت شذرات برق تلمع على الجبل، البنات الصغيرات هرعن في عجل، وقد غطين رؤوسهن بغطاء مصنوع من شعر الماعز، كن قد خرجن للرعي عنزات وخراف بيوتهن. والنساء أخذن في إيقاد نار المساء.

عض زوربا على شاربه في عصبية وأخذ ينظر بشهوانية إلى ردفي المدام.

- ممم! تمتم للحظة متنهداً؛ اللعنة على تلك الحياة، فهي لا تنتهي ولا تنتهي مفاجآتها!

فندق مدام أورتانس كان عبارة عن صف متلاصق من الاستراحات الصيفية القديمة جداً. أول حجرة كانت الحانوت التي تبيع فيه الحلوى، السجائر، الفول السوداني، فتيل المصابيح، لوحات الحروف الأبجدية والبخور. الحجرات الأخرى كانت استراحات للنوم؛ وخلف الفناء كان المطبخ، المغسلة، حظيرة الدجاج والأرانب. وحول المنطقة زرعت عيدان القصب وأشجار التين الشوكي. كل هذه المجموعة المركبة من الأشياء كانت له رائحة البحر، الروث ورائحة بول نفاذة. من حين لآخر، كانت تمر مدام أورتانس لتغير من رائحة الهواء - فتشعر كأن أحداً سكب دلو الحلاق أمامك.

أعدت الأسرة، فاستلقينا في نوم عميق. لا أذكر أني رأيتُ أيَّ أحلام، عندما استيقظت كنت أشعر بنشاط وخفة وسعادة وكأني خرجت تواً من البحر.

كان يوم أحد، العمال سيأتون غداً من قرى مجاورة كي يبدأوا العمل في المنجم؛ فكان لدي من الوقت ما يجعلني أخرج في جولة وأرى إلى أي شاطئ قذف بي القدر. ما إن بدا الشروق حتى انطلقت إلى الخارج، عبرت البساتين، كنت أتمشى على حافة الشاطئ، تعرفت بشكل سريع على ماء وهواء وتراب المكان، رحت أجمع وأشم بعض الحشائش البرية ففاحت من يديّ رائحة زيتون ناضج وميرمية ونعناع.

صعدت إلى مرتفع ورحت أنظر حولي، مكان صارم ووعر من حجر الصوان والأشجار الداكنة أرض جيرية صلبة مما يجعلك تشعر أن ليس هناك ثمة معول يستطيع أن ينقر أو يحفر هنا؛ وفجأة ترى أزهار السوسن الرقيقة تخرج من هذه الأرض الصلبة وتلمع تحت ضوء الشمس. بعيداً نحو الجنوب، جزيرة رملية منخفضة كانت تبرق احمراراً وردياً تحت أشعة الشمس الأولى.

نحو الداخل من جهة الشاطئ، أشجار زيتون وخروب وتين وقليل من أشجار الكروم في خنادق صغيرة بعيداً عن هبوب الرياح بين تلين صغيرين، أشجار الليمون وأشجار المشملة، وبالقرب من الشاطئ البساتين.

بقيت لوقت طويل أستمتع بتموجات هذه الأرض؛ على اختلاف مناطقها من الحجر وأشجار الخروب الخضراء الداكنة، أوراق الزيتون الفضية، كأنها تمتد أمامك متموجة مثل جلد النمر. ونحو الجنوب، يتهادى بريق تموجات البحر الغاضب الشاسع الهادر الذي يلتهم بعضًا من جزيرة كريت في طريقه إلى سواحل إفريقيا.

وكان منظر جزيرة كريت البديع يبدو لي كقطعة نثر قوية: مشغولة بعناية، قليلة الإسهاب، خالية من الجزالة والثراء اللفظي الفائض، قوية ومتماسكة. تعبر عن المضمون ببساطة. خالية من الحذلقة والألاعيب المخادعة، لا تلجأ إلى المجازات الكثيرة؛ تعبرعمّا تريد برجولة وصرامة. لكن بين هذه السطور الحادة كنت تستطيع أن تلمس في هذا المشهد الكريتي حساسية ورهافة غير متوقعة - كنت تشم رائحة أشجار الليمون والبرتقال حين لا تهب الريح، وبعيداً عن البحر الشاسع كان يتدفق نهر الشعر الذي لا ينضب.

- كريت، قلت مدمدماً، كريت... - وراحت دقات قلبي تدق بسرعة.

هبطت من المرتفع، رحت أسير على حافة الشاطئ، سمعت أصوات البنات تثرثر وتقهقه من القرية، بالأوشحة البيضاء حول أعناقهن، وأحذيتهن الصفراء، وتنوراتهن مرفوعة قليلاً، كن في طريقهن نحو الدير الواقع على الشاطئ للقداس.

توقفت في مقابلتهن حتى تلتقطني أعينهن، فقطعت ضحكاتهن فجأة. فما أن يرين رجلاً غريباً حتى يعلو وجوههن تعبير فظ وعصبي، اكتسين بالشحوب من رؤوسهن حتى أخمص أقدامهن، تسمرت أصابع إيديهن وتشابكت مذعورة نحو صدورهن المزررة بإحكام.

الدماء العتيقة التي تجري في عروقهن تذكرت وارتعدت؛ فجزيرة كريت على اتساع وطول شواطئها التي تطل على الساحل الإفريقي، منذ قرون طويلة وهي ترى القراصنة يخطفون الخراف والنساء والأطفال ويربطونهم بالأحزمة الحمراء ويلقون بهم في زنازين السفن ثم يبعونهم في الجزائر والأسكندرية وبيروت. منذ قرون عديدة على هذا الشاطئ تمتد خصلات البكاء والنواح ويسمع هدير أصدائه في أرجائه. شاهدت الفتيات ينطلقن

نحو جانب الطريق في عصبية ملتصقات ببعضهن، كمن أراد أن يصنع جسراً منيعاً في محاولة دفاع يائسة. تحركات واثقة كانت ضرورية وحتمية قبل قرون، تعود اليوم بلا سبب، متتبعة إيقاع احتياج زمن غابر.

وبينما كانت الفتيات يعبرنَ من أمامي، ابتعدت بهدوء مبتسماً. وعلى الفور شعرن أن هذا الشيء الذي كن يرتعدن منه منذ قرون قد ولى، وكأنهن قد استيقظن فجأة في زمننا الآمن، وارتسمت على وجوههن الارتياح وتلاشى التحفظ الكثيف وبأصوات سريعة أخذن في إلقاء تحية الصباح بأصوات مشرقة زاهية. في نفس اللحظة أجراس الدير البعيد راحت تدق بسعادة ومرح فامتلأ الهواء بالبهجة.

أشرقت الشمس، كانت السماء صافية. وقفت بين الصخور. حشرت نفسي مثل طير في تجويف، نظرت إلى البحر بسعادة، شعرت بشيء من القوة والانتعاش والطاعة في جسدي؛ وكان عقلي يتبع الموجة فحسب، صار موجة طيعة، بلا مقاومة راح يتبع إيقاع البحر الراقص.

شيئاً فشيئاً بدأ قلبي يثور، أصوات مظلمة صعدت من أحشائي؛ كنت أعرف من يناديني؛ ما إن أختلي للحظة مع روحي إلا وهدرت هذه الأصوات العالقة برغبات غامضة، نابعة من أمال متهورة متشوقة وغير متزنة تصيح وتتوسل سائلة من النجاة.

فتحت بسرعة كتاب دانتي رفيق ترحالي، كي لا أسمع تلك الأصوات؛ كي أطرد ذلك الشبح الشرير من رأسي. رحت أتصفح، أقرأ بيتًا من هنا وفقرة من هناك، كنت أتذكر النشيد بأكمله، يصعد الملعونون الصفحات الحجرية؛ الأرواح المعلقة تكافح كي تتسلق الجبل العالي الوعر؛ وفي الأعلى الأرواح الهانئة المباركة تنعم بالسير بين الحدائق الزمردية، مثل يراع سراج الليل المتقدة. ورحت أصعد وأهبط درجات بيت القدر ذي الثلاثة طوابق، كنت أطوف حُرًّا في الجحيم، في المطهر وفي الجنة، كما لو كنت في بيتي. كنت أتألم، أترقب وأنا أسبح في بحر أبيات الشعر البديعة هذه.

أغلقت دانتي، ورحت أنظر بعيداً نحو أفق البحر. طائر نورس لمس ببطنه الموجة وترك جسده مستمتعاً بشهوة الانتعاش. طفل أسمر اللون حافي القدمين ظهر على الشاطئ

يغني مقاطع عشق كريتية؛ أظنه كان يفهم ما فيها من آلام حيث إن صوته قد بدأ يتحشرج أثناء غنائه.
تماماً كما كانت تُغنى أشعار دانتي في وطنه ولسنوات طويلة، بل ولقرون. وكما أن أغاني العشق تعدُّ الأولاد للحب، كانت أيضاً الأشعار الفلورنسية الملتهبة تعدُّ المراهقين الإيطاليين إلى معركة الكفاح من أجل الخلاص. ولمّا كان الجميع يتناولون الشعر شيئاً فشيئاً إذا بهم في تناولهم يحولون العبودية إلى حرية.

سمعت صوت ضحكات خلفي. انحدرتُ فجأة من أعالي دانتي، التفت نحو زوربا الذي يقف خلفي، وكان كل وجهه يضحك.

- ماذا يجري يا سيدي؟ صاح زوربا. أبحث عنك منذ ساعات بلا جدوى!
وكما رآني صامتاً وساكناً:
- أصبحنا في الظهر، صاح؛ الدجاجة على النار تغلي، ستذوب من فرط الغليان! أفهمت؟
- نعم فهمت، لكن لست جائعاً.
- ليس جائعاً! قال زوربا وهو يضرب يده على فخذه. لكنك لم تأكل شيئاً منذ الصباح؛ وللجسد روح وله عليك حق، ولابد لك أن ترأف به. أعطه شيئاً يأكله، فإن جسدك كحمارتك إن لم تطعمها ستتخلى عنك في منتصف الطريق.
منذ سنوات عديدة وأنا أزدري متع الجسد، وكنت آكل في الخفاء إن كان في استطاعتي، كنت أفعل هذا كما لو كنت أرتكب فعلاً مشيناً؛ لكن الآن حتى لا يصيح زوربا ويتذمر:
- حسناً؛ سآتي.
سلكنا طريقنا نحو القرية. الساعات التي أمضيتها بين الصخور مرت كالبرق مثل ساعات العشق. كنت مازلت أشعر بأنفاس دانتي الفلورنسية الملتهبة.
- أ كنت تفكر في الفحم؟ سأل زوربا بعد شيء من التردد.

- أيّ نعم، وهل أفكر في شيء آخر ؟ أجبت ضاحكاً. غداً نبدأ العمل، ولابد أن أقوم ببعض الحسابات.

رمقني زوربا بنظرة من طرف عينيه، أدركت أنه يتفحصني ويزن كلماتي، فلم يكن يعرف هل يصدقني أم لا ؟

- وبماذا خرجت بعد كل هذه الحسابات؟ سألني بحذر وهو يسير.

- إننا لابد أن نستخرج عشرة أطنان من الفحم يومياً حتى نغطي التكاليف.

نظر إلى زوربا ثانيةً بشيء من القلق؛ ثم بعد قليل:

- ولماذا ذهبت إلى البحر، قال، كي تجري الحسابات؟ التمس لي العذر يا سيدي إذا كنت أسأل، فأنا لا أفهم. أنا عندما أجري الحسابات وأصارع الأرقام، أود أن أحشر نفسي في حفرة في باطن الأرض، تحت ضوء شاحب ولا أرى شيئاً.

أما إذا رفعت عيني كي أرى البحر أو شجرة أو امرأة، حتى ولو كانت عجوزًا يا صاح، تذهب الأرقام والحسابت إلى الجحيم. تطير الأرقام، تصنع أجنحة وتطير عليها اللعنة!

- لماذا يا زوربا؟ قلت كي أمازحه. العيب فيك.

فليس لديك القوة أن تستجمع قواك العقلية وتجبرها على التركيز.

- لا أدري يا سيدي، ربما، لكن هناك بعض الأشياء يا سيدي ولا حتى سليمان الحكيم... اسمع، كنت أمر يوماً في إحدى القرى الصغيرة. وكان رجلا عجوزًا جداً يغرس بذور شجرة لوز. « يا جد، قلت له، أ شجرة لوز تزرع؟ » فالتفت نحوي العجوز قائلاً: « يا بني، أنا أعيش كما لو أني خالد! - فأجبته قائلاً، وأنا أعيش كأني سأموت في أية لحظة.» من منا على حق يا سيدي؟ نظر إلي وارتسمت على وجهه ملامح النصر:

- ما الذي تستطيع قوله الآن؟ قالَ.

صمتُّ. تتشابه الطرق في وعورتها وانحدارها والغاية واحدة وهي الوصول إلى القمة. أن تعيش حياتك كما لو أنك خالد أي ليس هناك موت أبداً أو أن تعيش وفي ذهنك دائماً أن الموت يمكن أن يحدث في أية لحظة، ربما يكون الشيئان شيئًا واحدًا بالفعل؛ لكن عندما سألني زوربا، لم أكن أعرف الإجابة.

- إذن؟ سأل زوربا بسخرية. ثم قال، لا تجهد نفسك يا سيدي، فلن تجد إجابة؛ لنغير الموضوع، حيث إنني الآن أتأمل الطعام، الدجاجة والأرز المرشوش بالقرفة؛ والبخار يتصاعد من رأسي مثل جرة الأرز. لنأكل أولاً، لنملأ معدتنا أولاً. لكل حادث حديث. بالترتيب إذن، الآن وقت الأرز؛ إذن فعلينا به أولاً لنركز فيه وغداً علينا بالفحم. كل شيء على حدة لا نريد أن نترك أعمالنا في المنتصف - أفهمت؟

دخلنا القرية. كانت النسوة يجلسن على عتبات البيوت يثرثرن، أما الشيوخ فكانوا يتكئون على عصيّهم في صمت. تحت شجرة رمان مثمرة كانت عجوز تفلي رأس حفيدها من القمل.

أمام المقهى كان يقف رجل عجوز ذو قامة منتصبة، عيناه شبه مغطاة من ارتخاء جفنه الأعلى بسبب تقدم السن، وترتسم على وجهه ملامح حادة مركزة، أنف معقوف، ويبدو على هيئته النبل. كان مفرواندونيس، شيخ القرية، الذي استأجر لنا منجم الفحم. كان قد مر بالأمس على نزل مدام أورتانس كي يأخذنا إلى بيته.

- إنه عيب كبير أن تقيموا في النزل كما لو أنكم غرباء ولا تعرفون أحداً في القرية.

كان جاداً رزيناً ويزن كلماته جيداً، تماماً مثل الوجهاء والأعيان. لمّا رفضنا، تصنع الإهانة لكنه لم يُلح.

- قد قمت بواجبي، قال وانصرف.

بعد قليل أرسل لنا رأسين من الجبن، وسلة من الرمان، وصندوق من الزبيب والتين المجفف، وجرة من العرق.

- هذه تحية من القبطان مافرواندونيس، هذا شيء بسيط مع كثير من المودة، قال لنا خادمه وهو يفرغ الحمولة من على ظهر حماره.

حيينا شيخ القرية صاحب المقام الرفيع بفائض كلمات من الود والمحبة.

- أطال الله في عمريكما! قال الخادم وهو يضع يده على صدره شاكرًا.

ولم يتحدث مرة أخرى.

- إنه قليل الكلام، تمتم زوربا؛ شخص حاد.

- شخص فخور، قلت؛ يعجبني.

وصلنا في النهاية؛ كانت فتحتي أنف زوربا ترتعشان في سعادة. مدام أورتانس رحبت بنا مهللة بصيحة لحظة دخولنا، وهرعت إلى الداخل.

أعد زوربا المائدة تحت عريشة بلا أوراق. قطع الخبز لشرائح كبيرة، أحضر النبيذ، وضع الأطباق، والملاعق والأشواك. التفت نحوي ونظر إلي بمكرٍ مشيراً نحو المائدة: فقد أعد المائدة لثلاثة أفراد!

- أفهمت ياسيدي: همس لي في أذني.

- فهمت، أجبت؛ فهمت، أيها العجوز اللعين!

- الدجاجة المسنة لها حساء لذيذ، قال وهو يلعق شفتيه قائلاً؛ فأنا أعرف شيئاً عن هذه الأمور.

كان يروح ويجيء بخفة، عيناه متقدتان شرراً وراح يدندن أغاني حب قديمة.

- هذه هي الحياة يا سيدي؛ الحياة دجاجة، قال. ها أنا الآن أتصرف كما لو أن الموت سيأتيني في هذه اللحظة؛ وكم أنا متعجل كي لا أموت قبل أن ألتهم الدجاجة.

- تفضلوا إلى المائدة! أعلنت مدام أورتانس.

رفعت القدر وجاءت لتضعه أمامنا.

لكنها توقفت مندهشة؛ فقد انتبهت إلى أن المائدة معدة لثلاثة أفراد. احمرَّت وجنتاها من السعادة؛ نظرت إلى زوربا، وأخذت عيناها الزرقاوان اللاذعتان ترتعشان.

- إن لباسها الداخلي يحترق، همس لي زوربا.

ثم التفت بأدب جم نحو المدام: جنية البحر الجميلة، قال، نحن بحارة تحطمت سفينتهم ولفظنا البحر إلى مملكتك؛ هل ننعم بجلوسك معنا إلى مائدة الطعام؛ يا حوريتي الفاتنة!

وكنجمة غناء فتحت العجوز ذراعيها على اتساعهما ثم أغلقتهما كما لو أرادت أن تعانقنا سوياً، تمايلت قليلاً فلامست زوربا بخفة ورشاقة ثم لمستني أنا بعد ذلك، ثم جرت إلى غرفتها تخرخر كالقطة؛ بعد قليل وصلت مزقزقة تتمايل من البهجة مرتدية أفضل

ثيابها: فستان مخملي أخضر براق، مزدان بشرائط صفراء بالية؛ بقي الصدر مفتوحا بكرم، ثبتت على شق صدرها وردة منفوشة من القماش. حملت في يدها قفص الببغاء وعلقته في العريشة.

أجلسناها في المنتصف؛ زوربا على اليمين، وأنا على اليسار.

رحنا نلتهم الطعام بنهم. لوقت ليس بالقصير لم ننطق بكلمة؛ أطعمنا حمارتنا بشيء من التعجل، رويناها نبيذاً فسرعان ما استحال الطعام دماً، فثبتت أحشاؤنا، و بدا الوجود جميلاً، والمرأة التي بجوارنا أخذت تزداد شباباً واختفت تجاعيدها، والببغاء الذي كان في قفصة أمامنا، بلونيه الأخضر و الأصفر صار يراقبنا، كان يبدو لنا كأنه إنسان صغير مسحور أو أن روحه هي روح المغنية العجوز، بنفس فستانها الأخضر. وفوق رؤوسنا عريشة العنب التي ألقت فوقنا فجأة عناقيد كبيرة من العنب الأسود.

ضم زوربا ذراعيه كأنه يعانق العالم بأسره.

- ماذا جرى يا سيدي؟ صاح منفعلاً. نشرب كأساً من النبيذ والعالم يضيع. يا رجل، ما هي الحياة؟ بالله عليك، أعناقيد عنب هذه التي تتدلى فوق رؤوسنا، أهي ملائكة، لم أعد أميز الأشياء. أم أنها لا شيء، لا يوجد إلا الـ لا شيء، ولا دجاجة ولا جنية، ولا حتى كريت؟ قل لي يا سيدي، تكلم قبل أن أُجّن!

بدأ زوربا ينتعش؛ انتهى من الدجاجة، وصار ينظر الآن إلى مدام أورتانس بشهوانية. كانت نظراته تفيض عليها، تصعد وتهبط، تثقب صدرها المنفوخ وتتفحصه كأنها أيادي. كانت عينا سيدتنا متقدة، كانت تحب النبيذ الذي احتست منه الكثير. وقد أعادها شيطان النبيذ إلى الأيام الخوالي، صارت رقيقة مرهفة الحس ثانيةً، متسعة الصدر، نهضت وأغلقت الباب الخارجي حتى لا يراها القرويون - « الإنسان البدائي » كما كانت تسميهم، - أشعلت سيجارة و راحت تخرج الدخان حلقات من أرنبة أنفها الفرنسية.

في لحظات كهذه كل أبواب المرأة تكون مفتوحة، كل حراسها نائمون والحديث الطيب هو سلاح قاهر كالذهب أو العشق.

أشعلت غليوني وقلت الحديث الطيب:

- إنك تذكرينني يا سيدتي، أطال الله في عمرك، بسارة برنار... في شبابها. نفس الأناقة والنيافة والنبل ونفس الجمال أيضاً الذي لم أكن أنتظر أن أراه في هذا المكان الموحش. فأيّ شكسبير أرسل بكِ إلى هنا بين المتوحشين؟

- شكسبير؟ قالت وهي تفتح عينيها الشاحبتين؛ أيّ شكسبير؟

وراح ذهنها يتحسس ما قد رأت وشاهدت في المسارح، راح يتسكع على مقاهي سانتان، من باريس بدأت وحتى بيروت - الأسكندرية، صالة كبيرة، ثريات ومقاعد مخملية، نساء ورجال، ظهور عارية، عطور، زهور، وفجأة فُتح الستار وظهر زنجي هائل...

- أيّ شكسبير؟ قالت ثانيةً، وهي سعيدة أنها تذكرت أخيراً؛ هذا الذي يسمونه "عطيل"!

- أيّ شكسبير يا سيدتي أوقع بك في هذا الشاطئ الموحش؟

نظرت حولها، الأبواب موصدة، الببغاء نائم، الأرانب يمارسن الجنس، كنا وحدنا. وراحت تفتح قلبها لنا، كما تفتح صندوق قديم، مليء بالبهارات، رسائل غرامية اصفرت أوراقها، فساتين قديمة....

كانت لغتها اليونانية ركيكة، كانت تخلط المقاطع، فتخلط معاني الكلمات أحياناً لكن بفضل النبيذ كنا نفهمها، وأحياناً كنا نكتم ضحكاتنا بالكاد - كنا قد ثملنا بالطبع - فكنا نلجأ للانفجار بكاءً.

- حسناً (هذا ما قصته علينا الحورية العجوز في فنائها المعطر). حسناً، آآه! أنا هذه المرأة التي أمامكم كنت فنانة مشهورة - نار على علم - لا، لم أكن أظهر في الحانات والمقاهي، كانت ملابسي الداخلية حريرية بدانتيل حقيقي... لكنه العشق....

تنهدت بعمق. أخرجت سيجارة أخرى فأشعلها لها زوربا.

- عشقت أميرال بحري «لفظت الكلمة مختلطة الحروف لكننا فهمنا». كانت كريت في حالة فورة «كانت تقصد ثورة» والأساطيل رست في ميناء سودا. وبعد أيام قليلة رسوت هنا أنا أيضاً. يا للعظمة!، كان يجب أن تشاهدا «الأميرالات الأربعة»، الإنجليزي، الفرنسي، الإيطالي، والروسي؛ كانت تزدان ستراتهم بالذهب، أحذيتهم جلدية لامعة والريش على رؤوسهم مثل الديكة، لكنها ديكة كبيرة يتراوح وزنها بين ثمانين ومائة كيلو

جرام كل منهم؛ فُتنت بهم. ماذا أقول عن لحاهم! مجعدة حريرية؛ سوداء، شقراء، رمادية وبنية، تفوح منهم العطور! لكل كانت له رائحة خاصة به، هكذا كنت أميز بينهم في الليل؛ كانت رائحة الإنجليزي كولونيا، الفرنسي فيوليت، الروسي مسك والإيطالي كانت تفوح منه رائحة خليط من المسك والعنبر. يالها من لحى، يا للمسيح والعذراء، يالها من لحى!

«كنا نجتمع نحن الخمسة على متن إحدى السفن في كثير من الأحيان»

وكنا نتحدث عن الثورة، كلهم كانوا بسترات مفتوحة، وأنا بقميصي الحريري الملتصق على جلدي لأنهم كانوا يسكبون علي الشامبانيا. كنا في الصيف كما ترى. حسناً، كنا نتحدث عن الثورة بجدية، وكنت أنا أمسك بلحاهم متوسلة إليهم ألا يقصفون الكريتيين الصغار بالقنابل. كنا نراهم فوق الصخور بالمنظار بالقرب من خانيا[6] الكثير من الصغار مثل النمل، بسراويل زرقاء وأحذية صفراء طويلة؟ ولا يتوقفون عن الصياح بالحرية وهم يرفعون الأعلام....

تحرك حاجز عيدان الخيرزان المحيط بالفناء. فتوقفت محاربة البحر العجوز عن الكلام مرتعدة؛ بين العيدان كانت هناك عيون خبيثة تشع. علم الأولاد أن هناك حفلة من نوع ما فراحوا يتلصصون.

حاولت النجمة أن تنهض لكنها لم تستطع؛ فقد أكلت وشربت كثيراً، فجلست تتصبب عرقاً. أمسك زوربا بحجر فهرول الأولاد وهم يصيحون.

- أكملي يا حوريتي، أكملي يا جوهرتي! قال زوربا وهو يسحب مقعده بالقرب منها.

- حسنا، كنت أقول للإيطالي، حيث كنا قد رفعنا الكلفة بيننا؛ أمسكت بلحيته وقلت: «عزيزي كانافارو، كانافارو يا صغيري، لا تفعل بوم بوم!، بوم، بوم لا!، لا!»

كم من المرات أنقذت الكريتيين الصغار من الموت! كم من المرات كانت المدافع جاهزة للضرب وأنا أمسك بلحية الربان ولا أتركه أن يفعل بوم! لكن من هو مدين لي؟ فهل رأيتم أي وسام مُنح ليّ؟ ...

---

[6] خانيا: أحد أقاليم جزيرة كريت الشهيرة.

غضبت مدام أورتانس من جراء جحود الناس، ضربت بقبضتها اللينة الممتلئة على المنضدة. فمد زوربا يديه الخبيرتين على ركبتيها المنفرجتين متظاهراً بشدة التأثر وصاح:

- يا بوبولينا[7] الرائعة، كم أنت عظيمة، لا بوم بوم!

- ارفع يديك عني! قالت العجوز ضاحكة؛ ماذا تظنني؟

ورمقته بنظرة رقيقة.

- هناك رب في السماء، قال العجوز الفاسق المكار، لا تنزعجي يا بوبولينا! هناك رب؛ ونحن هنا لا تنزعجي أبداً.

رفعت العجوز عينيها الزرقاوين نحو السماء، ثم نظرت إلى الببغاء الأخضر في قفصه وقالت:

- كانافارو، كانافارو يا صغيري، كانت تموء بشيء من العشق.

تعرف الببغاء على صوتها. فتح عينيه، فأمسك بسلك القفص وراح يصيح بصوت بشري مبحوح مثل شخص يغرق:

- كانافارو! كانافارو!

- أنا هنا! صاح زوربا وهو يمد يده ثانية على هاتين الركبتين واسعتي الخبرة، كما لو أعلن عليهما احتلالاً.

النجمة العجوز تحركت في مقعدها متلملة وفتحت فمها المجعد:

- لقد حاربت أنا أيضاً، صدراً لصدر بكل بسالة. لكن جاءت الأيام السيئة؛ وتحررت كريت، جاءت الأوامر للأساطيل أن ترحل. «ماذا سيحدث لي - صرخت وأنا أمسك الأربع لحى. أين ستتركونني؟ فقد اعتدتُ على الأبهة والفخامة، على الشامبانيا ولحم الدجاج، اعتدت على السفن، اعتدت على البحارة الشباب الذين كانوا يقدمون لي التحية الرسمية، على المدافع تتطلع إلي، كم كانت رائعة، ممددة وممتلئة مثل الرجال، ماذا سيحل بي، أربع مرات أرملة يا أحبائي الأميرالات؟

---

[7] بوبولينا: إحدى بطلات النضال اليونانيات في القرن التاسع عشر.

وهم راحوا يضحكون - آآه، يا لهم من رجال! ملأوا جعبتي بجنيهات إنجليزية وليرات إيطالية وروبلات روسية وفرنكات فرنسية. كنت أملأ جواربي وصدري وأحذيتي. كنت أصرخ من البكاء في آخر ليلة. وعندما أشفقوا علي ملأوا حوض الحمام بالشامبانيا ووضعوني فيه - كان لدينا الشجاعة كما ترى - وبعدها كانوا يضعون الكؤوس والأكواب في الداخل ويشربون الشامبانيا، ولما ثملوا أطفأوا الأنوار! يا لها من أيام جميلة...

في الصباح كنت أشم كل الروائح مجتمعة المسك والعنبر والكولونيا والبنفسج أو تأتيني رائحة كل منهم تباعاً. رائحة كل القوى العظمى الأربع.

- إنجلترا، روسيا، فرنسا وإيطاليا - كنت أمسك بها كلها، هنا، في صدري وأتلاعب بها، هكذا!

وفتحت مدام أوتانس ذراعيها المكتنزين وراحت تحركهما لأعلى وأسفل كأنها تلاعب رضيعاً على ركبتيها.

- نعم، هكذا، هكذا! وعند الصباح كانت المدافع تنطلق، أقسم بشرفي، أن المدافع كانت تضرب، وأحضروا لي مركباً بإثنى عشر مجدافاً تحملني إلى خانيا*...

التقطت منديلها وراحت تبكي بلا عزاء.

- عزيزتي بوبولينا، صاح زوربا وهو متأثر بشدة، أغلقي عينيك... أغلقي عينيك يا جوهرتي؛ أنا هنا كانافارو!

- ارفع يدك عني، قلت لك! أشاحت سيدتنا بدلال. ألا ترى نفسك! أين هي الكتفيات الذهبية، القبعات العسكرية المثلثة الشكل، اللحى المعطرة؟ آآه! آآه!

ضغطت على يد زوربا بلطف وبدأت في البكاء ثانيةً.

بدأت برودة الطقس تظهر. صمتنا. البحر بعيداً عند عيدان الخيزران كان يتنهد بهدوء ورقة. الهواء جنح للسكون، أشرقت الشمس. ومر زوج من الغربان السمينة فوق رؤوسنا، وصوت أجنحتهما كان مثل شق قماش من الحرير - أو القميص الحريري للفنانة - دعنا نقُل!

وحل نور الغسق مثل غبار ذهبي مرشوش على الفناء. خصلات شعر مدام أورتانس بدت متوهجة كالجمر وهي تتمايل مع هواء المساء، كما لو أردات أن تهرب، أن تلحق النيران في الرؤوس الأخرى. صدرها نصف المكشوف، ركبتاها المنفرجتان العجوزتان، تجاعيد رقبتها، حذاؤها القديم، كل هذا امتلأ بالذهب.

حوريتنا العجوز اقشعرت. كانت عيناها الحمراوان نصف مغمضتين من البكاء والنبيذ، وراحت تنظر إليّ تارة وإلى زوربا تارة أخرى، الذي تدلت شفتاه الجافتان وتعلقت عيناه بصدرها بشهوانية. كانت تنظر إلينا بتساؤل - كان الظلام قد حل - بينما كانت تحاول أن تميز من منا يكون كانافارو.

- عزيزتي بوبولينا، قال لها زوربا بحماس واضعاً يديه على ركبتيها؛ لا يوجد رب، لا يوجد شيطان، لكن لا تنزعجي. ارفعي رأسك، ضعي يدك على خدك وغني، وليذهب الموت إلى الجحيم!

كان زوربا مشتعلاً، ووضع يده على المغنية. كان يتكلم لاهثاً وقد جحظت عيناه. بالتأكيد لم يكن يرى أمامه العجوز الملونة، لم يكن يرى سوى أنثى، فقد كان يفضل كلمة أنثى على كلمة المرأة. ذابت كل الفروق وتاهت القسمات والملامح والسنون، الجمال والقبح، كل هذه باتت تفاصيل موازية غير هامة؛ فخلف كل امرأة كان يقف وجه افروديتي منتصباً، مقدساً، مليئًا بالأسرار.

من خلال هذا الوجه كان يرى زوربا، من هذا الوجه كان يتحدث، لهذا الوجه كان يشتاق، ومدام أورتانس كانت مجرد قناع عابر؛ وزوربا كان ينزعه كي يقبل الفم الخالد.

- ارفعي رقبتك البيضاء كالجليد يا عزيزتي، بدأ في التحدث ثانية بصوته اللاهث؛ ارفعي رقبتك البيضاء كالجليد، ودعي الغناء يتدفق!

رفعت العجوز يدها المكتنزة الهرمة المتشققة من فرط العمل على حوض الغسيل وأسبلت عينيها؛ وأطلقت صوتاً متوحشاً حزيناً وشرعت في غناء مقطوعتها المحببة القديمة، وهي تنظر بنصف عين مسبلة نحو زوربا - فقد بات واضحاً أنها قد حسمت اختيارها:

في نهر حياتي المنجرف
بماذا تريد أن أجيبك

وهب زوربا ليحضر السانتوري من الداخل، جلس على الأرض عاقداً رجليه، نزع غطاءه ووضعه على ركبتيه، ومد يديه.

- آآه! آآخ! صاح؛ خذي سكينا واذبحيني يا بوبولينا!

بدأ الليل يرخي ستائره على السماء وبدأ نجم الليل يسبح، اختلط صوت السانتوري بصوت مدام أورتانس التي اكتظت أحشاؤها بالأرز والدجاج واللوز المحمص والنبيذ، مالت برأسها على كتف زوربا وتنهدت. وراحت تفرك نفسها ببطء على ظهره النحيل، ثم تثاءبت وتنهدت مجدداً.

غمز لي زوربا بعينه وقال بصوت خفيض:

- لقد اشتعل سروالها الداخلي يا سيدي؛ انصرف!

بزغ الفجر، فتحت عيني فوجدت زوربا يجلس مثني السَّاقينِ على طرف السرير في مقابلتي يدخن في تأمل عميق.

كان يثبت عينيه المستديرتين نحو النافذة التي أمامه، حتى أن عينيه أخذتا لوناً أبيضَ مثل نور الصباح. كانت عيناه منتفختين، عنقه الطويل النحيل بدا أطول بشكل شاذ أشبه بعنق الخروف.

كنت قد انسحبت مبكراً من الحفلة ليلة أمس وتركته وحيداً مع الحورية العجوز.

- إني ذاهب، قلت، استمتع بوقتك يا زوربا؛ ليمنحك الله القوة!

- مع السلامة يا سيدي، قال زوربا؛ دعنا نتولَ الأمر نحن.

يبدو أنهم قد تولوا زمام أمرهم بالفعل، لأنني سمعت أصواتاً أشبه بالخرير والهديل المكتوم، وبدا لي في لحظة كما لو أن الغرفة المجاورة قد اهتزت؛ ثم غرقت في النوم ثانيةً

بعدها. غير أني عند منتصف الليل شعرت بزوربا يدخل إلى الحجرة حافياً ويلقي بنفسه على الفراش بهدوء وحرص حتى لا يوقظني.

والآن، عند الفجر أراه يحدق هناك نحو الضوء، قبل أن يستيقظ تماماً؛ كان غارقاً في ابتهاج عميق ولم تغادر بعد أجنحة النوم ذهنه. بهدوء وسلبية، كان يترك نفسه في نهر بطيء معتم من العسل؛ كان العالم يتدفق مع المياة والطين والأفكار والبشر نحو بحر بعيد، وكان زوربا يتدفق معه بلا أية مقاومة، ودون أن يسأل، كان سعيداً.

بدأت القرية في الاستيقاظ - صوت جلبة مختلطة من أصوات الديكة، الخنازير، الحمير والناس. وددتُ لو أهب من الفراش صائحاً: «يا زوربا، اليوم يوم عمل!» لكني كنت أشعر أنا أيضاً بسعادة ما في أن أبقى هكذا صامتاً، ساكناً، مسلماً نفسي إلى أشعة الصباح الوردية المترددة. الحياة كلها تكمن في في هذه اللحظة السحرية وتبدو خفيفة كالريشة، وبدا أن الأرض خفيفة كرفرفة جناحي ناعمة - مثل سحابة تتشكل وتتغير مع نفثات الريح.

شعرت بالغيرة عندما شاهدت زوربا يدخن، فمددت يدي لأتناول غليوني. نظرت إلى الغليون بتأثر فقد أهداه لي صديقي ذو العينين الخضراوين الرماديتين والأصابع النحيلة النبيلة. مرت سنوات طويلة، كنا في الغربة، وفي ظهيرة أحد الأيام؛ حيث كان قد أنهى دراسته وسيسافر في الليلة نفسها إلى اليونان. «دعك من هذه السيجارة - قال لي - تشعلها ثم ترميها؛ تماماً مثل عاهرات الشارع. هذا خزي يا رجل. تزوج من هذا الغليون؛ فهو مثل المرأة المخلصة؛ كلما عدت إلى البيت تجدها دوماً في انتظارك مستكينة. وتذكرْني في كل مرة تشعله وتجد حلقات دخانه تتصاعد في الهواء!»

كنا في الظهيرة، في طريق خروجنا من متحف برلين، وقد ذهب ليودع «المحارب» المحبب لديه، لوحة رمبرانت، بخوذته البرونزية ولونه الشاحب وخديه الضامرين وملامحه الدالة على عزيمة قوية، وعينيه الحزينتين. «إذا حققت في حياتي أي شيء يدل على الرجولة والشجاعة - همهم وهو ينظر إلى المحارب الصامد - فسأكون مديناً به لهذا الرجل...»

خرجنا، كنا نتكئ على عامود في فناء المتحف؛ كان أمامنا تمثال نحاسي يميل لونه إلى السواد - إمرأة أمازونية تمتطي حصاناً عارياً بسمو لا يوصف؛ طائر رمادي صغير حط للحظة على رأس الأمازونية، هز ذيله بسرعة، زقزق مرتين أو ثلاث بسخرية، وطار بعيداً.

اقشعر بدني؛ نظرت إلى صديقي: «هل سمعت الطائر؟ سألته؛ كأنه قال لنا شيئاً ورحل. - طير هو فليغرد، طير هو فدعه يتكلم!» أجاب صديقي وهو يبتسم.

كيف جاءتني في هذا الصباح وعلى هذا الشاطئ الكريتي البعيد هذه اللحظة وغمرت روحي بالمرارة!

حشوت غليوني بالتبغ وأشعلته.

كل الأشياء لها معنى خفي في هذه الدنيا، رحت أتأمل. كل الأشياء، كل البشر، الحيوانات، الأشجار، النجوم، مثل الطلاسم الهيروغليفية، والويل والسعادة للذي يبدأ في فك هؤه الطلاسم والتنبؤ بها وتفسير معانيها ونطقها... عندما تراها لا تفهمها؛ تظن أنها مجرد بشر، حيوانات، أشجار ونجوم؛ إلا أنك بعد سنوات، وعندما يكون الوقت دائماً متأخراً، تبدأ في فهم معانيها.

المحارب ذو الخوذة البرونزية، صديقي المتكئ على العامود تلك الظهيرة الشاحبة، الطائر الذي حدثنا مرفرفاً بجناحيه، وحتى بيت الشعر التراثي الجنائزي لأرتميس[8]، أتأمل كل هذا اليوم فربما لها معنى ومغزى ضمني خفي؛ لكن ما هو؟

كنت أتابع حلقات الدخان تتصاعد من غليوني، وتدور في الضوء الشاحب وتتلاعب درجات اللون الأزرق وتتداخل تعقيداته في بطء فيصبح هواءً. وروحي تتعقد وتتداخل معه، تتلاعب وتتراقص، وتصعد نفحة أخرى من الدخان فتختفي ثانيةً. مر وقت طويل، وأنا أعيش داخل جسدي لكن دون أي وساطة للمنطق، بحقيقة مطلقة، في البداية، بداية العالم وإختفائه. رحت أغوص ثانية، لكن الآن دون أي كلمات مراوغة وبلا أي حيل أكروباتية بهلوانية كالتي يمارسها العقل، لدى بوذا، هذا الدخان هو أصل تعاليمه، هذه الأشكال التي يتجدد تشكيلها على التوالي هي الحياة التي تنتهي، هادئة، ساكنة، هانئة إلى

[8] أرتميس: من ربات الأساطير الإغريقية، ربة الجبال والغابات والصيد.

النيرفانا الزرقاء.... لم أحاول التأمل أو التفكير بعمق، لم أسعَ لأجد شيئاً، لم يكن لدي أدنى شك؛ فكنت أعيش اليقين.

تنهدت ببطء. وأعادتني التنهيدة إلى اللحظة الراهنة، نظرت حولي فرأيت الحجرة البائسة، مرآة صغيرة معلقة بجواري على الحائط، سقطت عليها أشعة الشمس فكانت تلقي بشذراتها في المكان؛ وأمامي على الفراش يجلس زوربا يدخن موليًا ظهره لي.

وفجأة قفزت إلى ذهني كل مغامراته الكوميدية والتراجيدية، يوم الأمس، بواقي عطر بنفسج متبخر - كولونيا، مسك وعنبر، وببغاء، روح بشرية أصبحت ببغاء يضرب بأجنحته القفص الحديدي ويصرخ؛ والبارجة الوحيدة التي بقيت من أسطول كامل تحكي عن المعارك البحرية القديمة...

سمع زوربا صوت تنهيدتي، هز رأسه والتفت نحوي:

- لم نحسن التصرف، قال متمتماً؛ لم نحسن التصرف يا سيدي، لقد رأتنا المرأة البائسة ونحن نضحك! والطريقة التي غادرتَنا بها دون أن تغازلها بكلمة رقيقة وكأنها امرأة في الألف من عمرها، يا للخزي! هذا ليس أدبًا يا سيدي، لا يمكن للبشر أن يتصرفوا بهذا الشكل، لا، معذرة يا سيدي! فهي امرأة، أجل، كائن ضعيف، يميل إلى الحزن والتذمر. من حسن الحظ أني بقيت بجوارها لمواساتها.

- ماذا؟ ماذا تقصد يا زوربا؟ قلت ضاحكاً؛ بمنطقك هذا تعتقد أن كل امرأة لا يوجد في ذهنها شيء آخر سوى هذا الشيء.

- لا، لا يوجد شيء آخر في رأسها، يا سيدي. اسمع مني أنا الذي عاش وجاب وفعل وحدث له ما لم يخطر ببالك وشكلت من كل هذا، دعني أقل، نظرية. المرأة لا يدور بذهنها شيء آخر، إنه شيء مريض، أقول لك تميل إلى الحزن والتذمر والشكوى. إذا لم تقل لها أنك تحبها وأنك تريدها، تبدأ في البكاء. فمن الممكن ألاّ تريدك على الإطلاق، بل وأن تصيبها بالإشمئزاز، يمكن أن ترفض؛ هذا شيء آخر. من الممكن. لكنها تريد دوماً أن يرغبها كل من يراها. هذا ما أرادت المسكينة، لذا، افعل خيراً واسدِ لها هذه الخدمة!

كانت لدي جدة، لابد أنها كانت في الثمانين من عمرها، كانت حياة هذه العجوز حكاية في حد ذاتها. لكن دعنا منها الآن، فهي قصة أخرى.... كانت في الثمانين آنذاك كما قلت، وفي البيت المقابل كانت هناك فتاة جميلة، طازجة كالماء المثلج، وكان اسمها كريسالو. في ليلة كل سبت كنا نحن أشقياء القرية والقرى المجاورة نحتسي الخمر حتى نصبح في مزاج رائق، كنا نضع عود ريحان خلف الأذن، أحد أبناء عمومتي كان يمسك بالتامبورا[9] ونشرع في الغناء بكل حماس ومرح وعواطف جياشة، كنا نصيح كالثيران. كلنا كان يرغبها، وكنا نذهب نحو بيتها قطيعًا، لتختار هي.

حسناً، أتصدقني يا سيدي؟ سر محيّر هي المرأة، ولديها جرح لا يضمد أبداً. كل الجروح تلتئم، إلا هذا فلا يلتئم أبداً، وكي لا أطيل عليك. ماذا، حتى وإن كان عمرها ثمانين عاماً؟ هذا الجرح لا يلتئم.

كل ليلة سبت إذن كانت العجوز تسحب فراشها بالقرب من النافذة، وتمسك بمرآة صغيرة، وتبدأ في تمشيط ما تبقى في رأسها من شعر وتفرقه من المنتصف. كانت تختلس النظر إلينا حتى لا نراها؛ وعندما كان أحد منا يقترب كانت تلملم نفسها وتتصنع النوم في وداعة العذراء. لكنها لم تكن نائمة! كانت تنتظر الأغنية. عمرها ثمانون عاماً! أفهمت الآن سر المرأة يا سيدي؟ لدي الآن رغبة في البكاء. فقد كنت شاباً طائشاً لا يفهم وكنت أضحك. ذات يوم تشاجرنا لأنها نهرتني عن ملاحقة الفتيات، فأثارت غضبي، عندئذ صارحتها فاضحاً كل شيء: «لماذا تدعكين شفتيك بأوراق الجوز كل سبت وتمشطين شعرك وتفرقينه من المنتصف؟ أتعتقدين أننا نغني من أجلك؟ نحن نريد ونغني من أجل كريستالو؛ وأنت كالجائع الذي يحلم بالخبز!»

لك أن تصدق يا سيدي: حينها وفي هذا اليوم فهمت معنى كلمة امرأة. دمعتان ناريتان سقطتا من عين جدتي. تقوقعت مثل الكلب وأخذ فكها يرتعش. «كلنا نريد كريستالو، صحت وأنا أقترب منها كي تسمعني بوضوح؛ كريستالو!» إن الشباب شيء متوحش، غير إنساني، لا تفهم. رفعت جدتي ذراعيها النحيلين نحو السماء: «عليك لعناتي من صميم

---

[9] تامبورا: قيثارة محلية.

قلبي!» صرخت. ومنذها بدأت صحة جدتي البائسة في التدهور. ذبلت وبعد شهرين ماتت. لمحتها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة؛ نفخت كالسلحفاة ومدت ذراعها لتمسكني: «أنت قتلتني، أنت قتلتني يا ألكسيس الملعون! عليك لعنتي لتصاب بما أُصبت به!»

ضحك زوربا.

- يبدو أن لعنة فافو[10] العجوز تحققت! قال وهو يداعب شاربيه. فقد تخطيت الستين على ما أظن، لكني لم أتعقل أبداً؛ سأظل أحمل مرآة صغيرة في جيبي وألاحق كل أنواع الإناث.

ضحك ثانيةً؛ ألقى بسيجارته من كوة الحائط وتمدد.

- لدي عيوب كثيرة، قال، لكن هذا العيب سيقتلني!

قفز من فوق الفراش:

- دعنا من كل هذا؛ لقد تحدثنا كثيراً. اليوم، عمل!

ارتدى ملابسه على عجل وانتعل حذاءه الثقيل، وذهب إلى الفناء.

حنيت رأسي ورحت أفكر في كلمات زوربا، وفجأة صعدت إلى مخيلتي مدينة جليدية، وكنت أنا أتابع في معرض لرودان[11] تمثالاً من البرونز على شكل يد، «يد الرب». كانت نصف مغلقة، وفي الكف كان هناك رجلٌ وإمرأة يتعانقان في نشوة جنونية.

اقتربت مني فتاة ووقفت بجانبي؛ وراحت تنظر إلى التمثال هي أيضاً بتوتر شديد إلى هذا العناق الخالد. كانت نحيلة القوام أنيقة المظهر لها شعر أشقر كثيف، ذقن قوي وشفتان حادتان رقيقتان. تبدو عليها الصرامة والعزم. رغم أني دائماً ما أكره أن أدعو أحداً للحديث، لا أدري أي يد دفعتني لألتفت وأحدّثها:

- فيمَ تفكرين؟ سألتها.

---

10 اسم الجدَّة.

11 رودان: نحات فرنسي شهير، توفي في أوائل القرن العشرين.

- إذا كان بوسع المرء أن يهرب! أجابت بإصرار.

- وإلى أين يذهب؟ فيد الرب في كل مكان. لا يوجد ثمة خلاص. ألا تأسفين على هذا؟

- لا. فربما يكون الحب هو أقوى سعادة على وجه الأرض. ربما. لكن الآن وأنا أرى هذه اليد البرونزية، كم أود أن أهرب.

- أتفضلين الحرية؟

- نعم.

- وإذا كنا لا نصبح أحراراً إلا عندما نطيع يد الرب؟ إذا كانت كلمة «رب» ليس لها هذا المعنى العشوائي الذي يعطيه لها الغالبية؟

نظرت إلي بقلق. كان لون عينيها رماديًا كلون المعدن، وشفتاها جافتين حزينتين.

- لا أفهم، قالت وابتعدت منزعجة.

اختفت. ومنذ ذلك الحين لم تخطر على بالي؛ لكنّها على ما يبدو كانت تعيش في أعماقي وتتغذى على مخابئ سرية في صدري - والآن في هذا الشاطئ الموحش، كيف خرجت من أعماقي وظهرت لي شاحبة شاكية.

لم أحسن التصرف، كان زوربا محقاً. اليد البرونزية كانت باعثاً جيداً، الكلمات الأولى مريحة ومبشرة، أو، إذا كنا نشعر بنفس الشيء دون أن نستشعر فيه غرابة أو خزيًا لكُنّا تعانقنا بهدوء شيئاً فشيئاً واتحدنا بيد الرب. لكنّي وثبتُ فجأة من الأرض إلى السماء، فخافت المرأة ورحلت.

صاح الديك العجوز في فناء مدام أورتانس؛ ودخل النهار أبيضَ ناصعاً من النافذة؛ قفزت من الفراش.

بدأ العمال يصلون وسُمعت أصوات فؤوسهم وعتلاتهم ومعاولهم. سمعت صوت زوربا يعطي الأوامر؛ فقد بدأ العمل بالفعل، وكنت ترى فيه رجلاً يعرف كيف يصدر الأوامر ويحب تحمل المسؤولية.

مددت رأسي من النافذة ورأيته يقف طويلاً ضخم الجثة بين حوالي ثلاثين من عمال المناجم السمر يرتدون السراويل المحلية؛ كانت يده تمتد بحرص، كلماته قليلة ومباشرة؛ وإذا به فجأة يمسك شاباً من قفاه كان يتمتم متلكئاً.

- هل قلت شيئاً؟ صاح به؛ تكلم بصوت عال! لا أحب التمتمة. العمل يبغي الهمة والإرادة، إذا لم يكن لديك من هذه الأشياء فاذهب إلى المقهى!

ظهرت في هذه اللحظة مدام أورتانس بشعر أشعث ووجه منتفخ، بلا مكياج، كانت ترتدي لباساً واسعاً قذراً، تسحب تحتها خفين طويلين مهترئين. سعلت سعالاً خشناً أشبه بصوت الحمار يليق بمغنية عجوز؛ توقفت، نظرت بفخر نحو زوربا؛ كانت عيناها مغبشة، سعلت مجدداً حتى يراها ومرت وهي تتمايل وتهز ردفيها بجواره وكانت على وشك أن تلامسه بردائه ذي الأكمام الواسعة. لكنه لم يلتفت لينظر إليها. أخذ كل عامل قطعة من خبز الشعير الجاف وحفنة من الزيتون.

- هيا يا رجال، ارسموا شارة الصليب؛ بسم الرب!

ومضى أمام مجموعة العمال في صف بخطوات واسعة سالكًا أقصر طريق نحو الجبل.

لن أحكي هنا عن العمل في المنجم؛ فهذا يتطلب الصبر، وأنا لا أملكه. كنا قد وضعنا دعامات من الخيزران والجريد وصنعنا كوخاً بالقرب من البحر؛ كان زوربا يستيقظ فجراً، يأخذ معوله ونذهب مع العمال، كان يفتح نفقاً ويتركه، وعندما يجد طبقة تشيّ بأن هناك عرق فحم لامع، كان يرقص من الفرح؛ وعندما كانت تختفي هذه الطبقة، كان يعقد كفيه ويدفعهما نحو السماء كمن يلقى اللعنات على الحظ العاثر.

كان يعمل بكل حماس وجدية؛ حتى أنه لم يعد يستشيرني في شيء. منذ الأيام الأولى انتقلت كل التفاصيل والمسؤولية من يدي إلى يده. كان هو صاحب القرار والمنفذ له؛ كانت مهمتي قد انحصرت في تسديد نفقات أخطائه، دون أن أستشعر أي تذمر في هذا؛ حيث أنني كنت أشعر جيداً أن هذه الشهور هي الأسعد في حياتي؛ عندما كنت أدفع الفواتير وأسدد النفقات كنت أشعر أنني أشتري سعادتي بثمن بخس.

كان جدي لأمي في إحدى قرى كريت، يأخذ كل ليلة مصباحه ويدور في القرية كي يرى إذا كان هناك غريب قد حل بها؛ كان يأخذه إلى بيته ويضيفه بسخاء فيفرط في تقديم الطعام والشراب له، كان يجلس بعدها في مكان الضيافة ويشعل غليونه ثم ينظر إلى ضيفه - حانت ساعة الحساب - كان يقول له بحرص: «تكلم! - ماذا أقول ياسيد ماسترو يورغي؟ - من أنت؟ من أين أتيت، أي من القرى والبلدان رأت عينك؛ كل شيء، أريد أن تقول لي كل شيء، هيا تكلم!»

ويبدأ الضيف في سرد قصص حقيقية ومختلقة عديدة، وجدي كان يجلس هادئاً على مقعده، يدخن غليونه ويستمع إلى الضيف ويسافر معه. وعندما كان الضيف يعجبه كان يقول له: «ستمكث معنا يوم غد أيضاً، لن تغادر. فلديك الكثير لتحكي.»

جدي لم يغادر قريته قط؛ بل ولم يذهب أبداً إلى القلعة الكبيرة في رثيمنوس[12]. «لماذا أذهب؟ كان يقول؛ من هنا يمر أهل رثيمنوس وأهل القلعة باركهم الرب، رثيمنوس والقلعة يأتيان إلى بيتي، فلماذا اذهب أنا إلى هناك؟»

وها أنا هنا، على شاطئ جزيرة كريت أواصل عادة جدي المهووسة. فكأني عثرت على ضيف بعد أن بحثت عنه بمصباحي، ولا أدعه يغادر، رغم أنه يكلفني ثمناً أبهظ من مجرد عشاء، لكنه يستحق. أنتظره كل ليلة حتى ينتهي من عمله، أجلسه أمامي، نتناول الطعام، وتأتي ساعة الحساب، أقول له: «تحدث!» أدخن غليوني وأستمع إليه؛ لقد طاف كل بقاع الأرض هذا الضيف، كما طاف بروح الإنسان أيضاً، لا أشبع أبداً من الاستماع إليه. «قل يا زوربا، تحدث!»

وتنفتح مقدونيا بأكملها أمامي، تنفرد في هذا المكان الصغير الذي يفصل بيني وبين زوربا، بجبالها وأنهارها ومياهها وثوارها وأبطالها متمرديها ونسائها ورجالها الأشداء.... وجبل أثوس المقدس[13] ذي الواحد وعشرين ديراً وأبراجه وترساناته، والذكور المقيمين

---

[12] رثيمنوس: أحد أقاليم كريت المركزية.

[13] جبل أثوس المقدس: ويسمى أيضاً بالقمة المقدسة. يسكنه النساك والرهبان، لما به من أديرة كثيرة يذهب. إليه المسيحيون للعزلة والتعبد.

فيه ذوي المؤخرات السمينة. ينفض زوربا ياقته وهو ينهي حديثه عن الرهبان، ويقول وهو ينفجر في الضحك «ليحرسك الرب يا سيدي من مؤخرات البغال ومن مقدمات الرهبان!»

يطوف بي زوربا كل ليلة في اليونان وبلغاريا وفي إسطنبول، كنت أغلق عينيّ وأرى. فقد طاف بكل البلقان أنحاء البلقان المضطرب المعذب، ولاحظ بعينيه الضيقتين كل شيء بسرعة ومهارة صقر. كانت عيناه تجحظ بين حين وآخر على أشياء ربما أعتدنا عليها ونمررها غير مبالين، إلا أنها تنتصب أمام زوربا كألغاز محيرة مرعبة. فقد يرى امرأة تسير ثم تقف من الخوف: «ما هذا اللغز العجيب؟ يتساءل. ما هى المرأة؟ ولماذا تثير جنوننا دوماً؟ ما هذا الشيء؟ ألا تجيبيني؟»

وتجحظ عيناه أيضاً عندما يتطلع باندهاش إلى شخص، أو شجرة نابتة، كوب من الماء المثلج. إن زوربا يرى كل شيء، كل يوم، لأول مرة.

عندما جلسنا بالأمس خارج الكوخ وشرب كأساً من النبيذ، التفت ونظر إلي مرعوباً:

- ما هو الماء الأحمر يا سيدي - ألا أخبرتني؟

جذع مهمل ينبت أغصاناً، تتدلى منه بعض الثمار التافهة اللاذعة، يمر الوقت، تحمصها الشمس، ثم تصبح حلوة كالعسل، ونسميها بعد ذلك كروماً؛ ندوس عليها بأقدامنا، نأخذ عصيرها، نضعه في براميل ونغلقها، نتركها تتعتق، نفتحها في احتفالات القديس يورغيوس السكير في شهر أكتوبر، ونجد فيها نبيذاً! ما هذه المعجزة؟ وعندما تشرب هذا العصير الأحمر، وتنفتح الروح، لا يسعها الجسد، فتدعو الرب برجولة لجولة مبارزة. ما هذا يا سيدي، ألا أخبرتني؟

كنت أشعر وأنا أنصت إلى حديث زوربا أن العالم يستعيد عذريته. كل الأشياء اليومية والقديمة تستعيد بريقها الذي كانت عليه عندما خلقها الرب. الماء، المرأة، النجم، والخبز، كل هذه الأشياء كانت تعود إلى نبعها السري البدائي، وكانت تبدأ عجلة الخلق في الدوران من جديد.

لهذا، كل ليلة وأنا مستلقٍ على حصى الشاطئ، كنت أنتظر زوربا متشوقاً. وكنت أراه يأتي بخطواته الواسعة المشدودة ملطخًا بالطين والفحم، كنت أراه يسير مثل فأر ضخم يخترق الأرض. ومن بعيد كنت أفهم كيف سار العمل اليوم؛ من شكل انتصاب جسده وهو يسير إذا ما كان رأسه مرفوعاً أم منكساً، ومن الطريقة التي كان يحرك بها ذراعيه.

في البداية كنت أذهب معه، أتابع العمال؛ كنت أحاول أن أنتهج سلوكاً آخر أو أن أهتم قليلاً بالأشياء اليدوية في العمل، أن أعرف أو أن أتفاعل مع الجمع البشري الذي وقع تحت يدي؛ أن أحاول تجريب تلك السعادة التي ليس لها علاقة بالكلمات والكتب، ولكن بالبشر الأحياء أنفسهم. كنت أصمم خططاً رومانسية، من قبيل: إذا سار العمل في المنجم بشكل جيد، سننظم مجتمعاً من نوع خاص، ويصير كل المتاع مشاعًا للجميع، الكل يعمل معاً، يأكل من نفس الطعام، يلبس نفس الملابس، مثل الأخوة. كنت أنسج في مخيلتي مجتمعًا جديدًا، خميرة لتعايش جديد بين البشر...

لكني لم أتخذ قراراً بعد في أن أفصح عن خططي إلى زوربا. كنت أراه ينظر إلي وهو يتجول بين العمال، أسأل، أتدخل وأنحاز دائماً إلى صف العامل. وكان زوربا يزم شفتيه:

- سيدي، يقول، ألا تذهب في جولة بعيداً، فالشمس دافئة والجو رائع، اذهب!

كنت أصر في الأيام الأولى، أبقى ولا أغادر. كنت أسأل، أتحاور، كنت أعلم تاريخ كل عامل: كم من الأولاد يربون، كم من الأخوات عليهم أن يُزوجوا، كم من العجائز والمعاقين يرعون. كنت أعرف همومهم، أمراضهم وعذاباتهم.

- لا تنبش في تاريخهم يا سيدي، يقول زوربا عابساً؛ سيتألم قلبك، ستحبهم أكثر من اللازم وأكثر من المطلوب والذي من الممكن أن يضر بمصلحة العمل؛ ولن يهم ماذا يفعلون سوف تسامحهم... عندها الويل لنا، سيذهب العمل إلى الجحيم، لابد أن تعلم هذا. صاحب العمل الصارم يخاف منه العمال، يحترمونه فيعملون بجد؛ صاحب العمل الرقيق يركبه العمال ويتكاسلون عن العمل. أفهمت؟

وفي ليلة أخرى، عندما انتهى من عمله، ألقى بمعوله خارج الكوخ بامتعاض وغضب.

- يا سيدي، من فضلك يا سيدي، لا تتدخل. فأنا أبني وأنت بكلامك تهدم كل ما أبنيه. ماذا كنت تقول اليوم؟ اشتراكية وهراء! هل أنت صاحب عمل رأس مالي أم واعظ؟ عليك أن تختار.

لكن كيف لي أن أختار! فقد كان الشوق الساذج أن أوحد بين الشيئين يأكلني، أن أجد التركيبة المُثلى لمؤاخاة هذا التضاد المميت وأربح بالحياة الدنيا وبملكوت السماء في آن واحد. منذ سنوات، منذ صغري حيث ما زلت تلميذاً في المدرسة، نظمت مع أصدقائي جمعية سرية «اتحاد الأخوّة» هكذا سميناها، وأقسمنا، ونحن في غرفتي وأوصدنا الباب، أن نهب حياتنا للكفاح ضد الظلم.

كانت دموع غزيرة تنهمر من أعيننا في اللحظة التي كانت أيادينا على قلوبنا لحظة إلقاء القسم.

نشوة طفولية، لكن لا، الويل للإنسان الذي يسمع ولا يبكي! عندما أرى كيف آلت الأمور بـ «اتحاد الأخوّة» - أطباء تافهون، محامون صغار، تجار حقراء، سياسيون انتهازيون، صحفيون مأجورون. ينقبض قلبي كلما فكرت فيهم - يبدو أن المناخ في هذا العالم قاس جداً، فالبذور الطيبة تخنقها الأشواك والنباتات الشيطانية؛ فلا تنمو. ولكن بالرغم من هذا وحسبما أرى أنني ما زلت حمداً للرب قادراً وجاهزاً للقيام بحملات دون كيخوتية.

كل يوم أحد، كنا نتأنّق كعريسين، نحلق ذقنينا، نرتدي قميصاً أبيضَ نظيفاً ونذهب إلى مدام أورتانس. كانت تطبخ لنا دجاجة في كل يوم أحد، كنا نجلس نحن الثلاثة، نأكل ونشرب، ويمد زوربا يديه الطويلتين على صدر السيدة السخي ويسيطر عليه ويداعبه كأحد ممتلكاته الخاصة. وعندما يحل الليل كنا نعود إلى مكاننا على الشاطئ، كانت الحياة تبدو حسنة النية وكأنها متعاطفة معنا، بسيطة، طيبة، مضيافة، مثل مدام أورتانس.

في أحد أيام الآحاد تلك، في طريق عودتنا من وليمة الطعام والشراب، قررت أن أفتح فمي وأأتمن زوربا على خططي. كان يسمعني بفم مفتوح وصبر، بين الحين والآخر كان يهز

رأسه بغضب؛ فقد استفاق من سكرته فور أن بدأت حديثي وصفى ذهنه، وعندما فرغت من الحديث نتف شعرتين من شاربه بغضب.

- التمس لي العذر يا سيدي، قال، لكن أعتقد أن عقلك صغير جداً. كم عمرك؟

- خمس وثلاثون.

- إذن فلن يكبر أو ينضج عقلك أبداً. قال، ثم انفجر ضاحكاً.

غضبت وأصابني العناد.

- لماذا؟ ألا تؤمن بالإنسان؟

- لا تغضب يا سيدي. لا، أنا لا أؤمن بشيء. فلو كنت أؤمن بالإنسان، كنت سأؤمن بالرب، وبالتالي بالشيطان؛ وهذا صخب في حد ذاته. تختلط الأمور كثيراً يا سيدي، وهذا يولد عندي تعقيدات كثيرة.

صمت. نزع قلنسوته وراح يشد شاربه مجدداً كأنه أراد أن ينتفه من جذوره؛ أراد أن يقول شيئاً، لكنه تردد. أخذ ينظر إلي بطرف عينيه، ثم اتخذ قراراً.

- الإنسان كائن متوحش! صاح وهو يضرب بعصاه على الصخور. وحش كبير. لا يمكن أن يعرفه نبل سيادتكم، فأنت جاءك كل شيء بسهولة، لكن اسألني أنا؛ إنه وحش أقول لك! عندما تسيء إليه؛ يحترمك ويخشاك. وعندما تحسن إليه؛ يفقأ عينيك.

لابد أن تحتفظ بمسافة بينك وبين الناس يا سيدي! لا تدعهم يتجرؤون عليك، لا تقل لهم أننا كلنا متساوون، وأن لنا نفس الحقوق؛ لأنهم سيدوسون على حقوقك مباشرة، سيخطفون خبزك ويتركونك تموت جوعاً. احتفظ لنفسك بمسافة بينك وبين الناس يا سيدي، فأنا لا أتمنى لك سوى الخير!

- ألا تؤمن بأي شيء؟ قلت غاضباً.

- لا، لا أؤمن بشيء - كم مرة يجب أن أقولها لك؟ أنا لا أؤمن بشيء ولا بأحد، أنا لا أؤمن سوى بزوربا. ليس لأن زوربا هو الأفضل، أبداً، على الإطلاق! إنه وحش هو أيضاً. لكني أؤمن بزوربا، لأنه هو الوحيد الذي تحت سيطرتي، هو الوحيد الذي أعرفه، كل الأخرين

هم أشباح. فأنا أرى بعينيه، أسمع بأذنيه، أهضم طعامي في أحشائه. كل الآخرين أشباح أقول لك. وعندما أموت أنا، ستموت كل الأشياء. وكل العالم الزوربيّ سيختفي!

- يا صاح! يالها من أنانية! قلت ساخراً.

- ماذا أفعل يا سيدي؟ هكذا هو الأمر، فاصولياء أكلت، عن الفاصولياء أتحدث. أنا زوربا، وأتكلم اللغة الزوربية.

لم أنطق بكلمة. نزلت عليّ كلمات زوربا كالسياط. كنت معجباً به وبقوته وبقدرته على الاشمئزاز من الجنس البشري، وفي نفس الوقت لديه الرغبة في أن يعيش الحياة و يكافح معهم. أما أنا، إما أن أكون راهباً أو سأزين البشر بجناحات مزيفة، لكي أتحملهم.

التفت زوربا ونظر إلي؛ لمحت ابتسامة عريضة على وجهه تحت ضوء القمر، حتى أن ابتسامته وصلت حد أذنيه.

- كنت أداعبك يا سيدي؛ قال زوربا بعد أن توقف.

كنا قد وصلنا إلى الكوخ.

لم أجب؛ كان عقلي متفقاً مع زوربا، لكن قلبي كان يقاوم الفكرة؛ كان قلبي يريد أن ينطلق بعيداً عن الوحش وأن يفتح طريقاً جديداً.

- لا أشعر بالنعاس هذه الليلة يا زوربا، قلت؛ اذهب أنت للنوم.

كانت النجوم ترتعش في السماء متلألئة، البحر يتنهد في هدوء ويلعق القواقع؛ حشرة الليل أضاءت مصباح العشق الفوسفوري تحت بطنها؛ وكان الندى يقطر من شعر الليل.

استلقيت على الشاطئ، غرقت في الهدوء، دون أن أحاول التفكير في شيء بعينه؛ أتحدث مع الليل والبحر، كانت روحي كحشرة الليل التي أضاءت مصباحها الفوسفوري، وجلست تنتظر على الرمل الأسود النديّ.

أخذت النجوم تسير في مدارها، والساعات تمر - وعندما نهضت، كان قد حفر بداخلي دون أن أعي الدين المضاعف الذي يجب أن أقدمه على هذا الشاطئ:

أن أتخلص من بوذا، أن أنزع عن الكلمات أقنعتها ومعانيها المزيفة، أن ألقي عن كاهلي تلك الهموم الثقيلة؛ وأن أبدأ الآن في هذه اللحظة، وهنا؛ من هذا المكان، أن أتواصل مع البشر بصفاء ذهن ودفء.

ربما؛ قلت، لم يفت الأوان بعد.

إذا كنتم أصحاب العمل، قال، عليكم أن تذهبوا إلى بيت العم أناغنوستي شيخ القرية لتتناولوا شيئاً من الطعام. سيأتي المطهر اليوم ليخصي الخنازير؛ زوجة العم أناغنوستي سوف تطهو لكم خصى الخنازير اللذيذة اليوم، قال، وسيكون من الجميل أيضاً أن تباركوا لحفيده مينا، فاليوم عيده[14] .

أن تدخل بيتاً قروياً في كريت هو دافع من أكبر دوافع البهجة؛ فكل شيء حولك يبدو عتيقاً أبوياً: مدفأة الخشب، المصباح المعلق بجوار المدفأة، جرار من الزيت والخيرات، و إلى يسار المدخل ترى تجويفًا في الحائط يُوضع فيها إبريق من الماء العذب المثلج عليه غطاء فخاري محكم مغطى بأوراق النباتات السميكة. تتدلى معلقة في عوارض السقف ثمار الرمان والسفرجل والعديد من الأعشاب ذوات الروائح الزكية - ميرمية، نعناع، الزعتر والفلفل الأحمر. في العمق تجد ثلاث أو أربع درجات، وعندما تصعد على المصطبة المرتفعة تجد أريكة قروية كبيرة وفوقها الأيقونات المقدسة أمامها مصباح زيتي مشتعل. البيت يبدو خاوياً؛ فهو يحتوي على أشياء قليلة فالأشياء الضرورية للإنسان هي بالفعل قليلة.

كان الطقس رائعاً، فشمس الشتاء منحته الدفء والاعتدال. جلسنا خارج المنزل في الفناء الأمامي تحت شجرة زيتون مثمرة. ومن بين أوراقها الفضية كنا نستطيع أن نرى البحر، كان هادئاً، رائقاً يشع بريقاً. كانت تمر سحب قليلة من فوقنا تغطي الشمس وتعريها؛ فكنت تشعر بأن الكون يتنفس تارة حزنًا وأخرى فرحًا.

عند الجانب الآخر من الفناء، كانت هناك حظيرة صغيرة، كنا نسمع منها الخنزير المخصي يئن ألماً بشكل يصم آذاننا؛ ومن المدفأة القروية كانت تأتينا رائحة خصاه التي تشوى على الخشب والجمر.

---

[14] يوم عيد الحفيد: هو عيد لاسم، ففي اليونان لكل اسم يوم عيد في السنة، وغالباً ما يكون عيد القديس الذي يحمل ذات الاسم.

رحنا نتجاذب الحديث المزمن حول الزرع والحصاد، الكروم والأمطار. كانت أصواتنا أقرب إلى الصياح لأن العجوز رفيع المقام كان يعاني من ثقل في السمع. كان الحوار مع العم أناغنوستي لطيفاً، كانت حياته هادئة مثل شجرة في حقل بلا رياح. ولدَ ونشأ وترعرع وتزوج؛ أنجب أبناءً ومن ثم أحفاداً؛ مات منهم الكثيرون، لكن بذرة العائلة نجت وتم تأمين سلالتها.

تذكر العجوز الكريتي زمن الأتراك، وراح يتذكر كلمات أبيه؛ والمعجزات التي كانت تحدث آنذاك، حيث كان الناس يخشون الرب ويؤمنون به.

- وها أنا ذا، انظرا إليّ، أنا العم أناغنوستي العجوز كانت ولادتي معجزة. سأروي لكما كي تندهشا وتقولا «الرحمة من الرب!» وتذهبا إلى دير مريم العذراء وتوقدا شمعة لها.

رسم شارة الصليب على صدره وبدأ يروي بهدوء شديد وبصوت رقيق:

- في قريتنا آنذاك، كانت تعيش امرأة تركية ثرية - اللعنة عليها، لتحترق عظامها! لكنها حبلت الملعونه وجاء وقت مخاضها ووضعها. وضعوها على الفراش وراحت تخور كالبقرة ثلاثة أيام وليال. لكن الجنين أبى أن يخرج.

إحدى صديقاتها - عليها اللعنة، أحرق الرب عظامها هي الأخرى! - راحت تسدي إليها النصيحة: «ظافر هانم، لمَ لا تتوسلين بالأم مريم؟» هكذا كان يسمي الأتراك العذراء، قدستها روح الرب! أ أتوسل بهذه؟ استنكرت الشمطاء! كيف وأنا سأموت!» لكن الألم كان غير محتمل. مر يوم آخر بليلته ولم تضع مولودها. ماذا تفعل؟ فلم تعد تحتمل الألم، فإذا بها تطلق صرخة: «يا أمنا مريم! يا أمنا مريم!» راحت تصرخ وتصرخ، لكن الألم لم يتوقف، ولا المولود خرج. «يبدو أنها لم تسمع، ربما لا تفهم اللغة التركية؛ نادي عليها وتوسلي إليها بلغة الروم!» - وأطلقت الملعونة صرخة. «يا عذراء الروم!» - لكن الألم يزداد. «يجب أن تتوسلي إليها كما ينبغي يا ظافر هانم، قالت ثانية صديقتها؛ يجب أن تناديها كما ينبغي كي تأتي.» عندئذ تأكدت هذه البهيمة الكافرة كارهة المسيح أنها في خطر، أطلقت صرخة نداءها الأخيرة: «يا سيدتي مريم العذراء!» فانزلق المولود من بطنها على الفور مثل ثعبان البحر.

«حدث ذلك في يوم أحد؛ وانظروا للمصادفة: في الأحد الذي يليه، أتت أمي آلام المخاض. كانت المسكينة تتألم بشدة، راحت تصرخ وتتضرع إلى العذراء مريم: «يا سيدتي مريم العذراء، يامريم العذراء!» لكن آلامها لم تخف، لم تلد. كان أبي يجلس على الأرض في منتصف الفناء دون أكل أو شراب من فرط تألمه وقلقه وكأنه كان غاضباً من العذراء مريم نفسها. مرة واحدة نادتها ظافر هانم الكافرة فهرعت إليها تحررها من آلامها؛ واليوم هو رابع يوم لأمي كي تلد فلم يحتمل أبي؛ أخذ عصاه وهمَّ نحو دير القديسة مريم الشهيدة، فلتنقذنا! وصل إلى هناك، دخل إلى الكنيسة، ودون أن يرسم شارة الصليب، لهذا الحد كان غاضباً، وصد باب الكنيسة خلفه وتوقف أمام أيقونتها: «أيتها القديسة، ناداها، زوجتي ماروليا، إنك تعرفينها جيداً فهي تحضر لك الزيت وتوقد القناديل لك كل ليلة سبت، زوجتي ماروليا تتألم من المخاض ثلاثة أيام الآن وهي تتضرع لك - ألا تسمعينها؟ هل أصابكِ الصمم فلا تسمعينها. نعم فلو كانت تدعى ظافر هانم أو أي تركية كافرة فاسقة لسمعتِها وهرعتِ إليها كي تخلصيها. لكن زوجتي ماروليا المسيحية، لا تسمعينها! لو لم تكوني مريم العذراء لرأيت ماذا يمكنني أن أفعل بعصاي هذه!»

«قال، ودون أن ينحني للأيقونة، أدار ظهره كي يرحل. لكن كم أنت عظيم أيها الرب! في نفس اللحظة، صدر صريراً من الأيقونة كما لو أنها شُرخَت. هكذا يحدث إن لم يكن لديك علم بهذا، تُحدث الأيقونات صريراً عندما تحدث المعجزات. فهم أبي والتفت، وخر نادماً، رسم شارة الصليب على صدره: «الرحمة، الرحمة أيتها القديسة مريم، قال نادماً متضرعاً، كل ما قلته بيننا هو ماء وملح، فليبقَ بيننا!»

«لم يكد يصل إلى القرية حتى وصلته البشرى السارة: «أطال الله عمره يا قسطنطين، لقد أنجبت زوجتك، جاءتك بصبي.» كنت أنا؛ هذا العجوز أناغنوستي الذي ترونه أمامكم. قد ولدت بشيء من ثقل في السمع. فقد سب أبي العذراء وقال إنها صمّاء. «فهكذا قالت العذراء؛ سأعطيه إذن صبياً أصم، كي تفكر قبل أن تنطق كفراً!»

رسم العم أناغنوستي شارة الصليب على صدره.

- الحمد والمجد للرب! فقد كان من الممكن أن تجعلني أعمى أو أبله أو أحدب، فليحفطنا الرب فقد كان من الممكن أن تجعلني فتاة، أنحني وأسجد لقداستها!

ملأ الكؤوس:

- لتحفظنا قداستها! قال ورفع كأسه الممتلئ.

- نخبكَ يا عم أناغنوستي، لتعش مائة عام فوق ما عشته و لترَ أحفاد أحفادك!

أنزل العم أناغنوستي كأسه بعد أن شربه جرعة واحدة ومسح شاربيه:

- لا يا بنيّ، كفاني! فلدي أحفادي وهذا يكفيني! لابد ألاّ يطلب المرء الكثير من الدنيا! لقد حانت ساعتي؛ شِخت يا فتية، لقد كبر سني حتى وإن كانت لدي الرغبة لم تعد لدي القدرة أن أبذر مزيداً من الأطفال. ماذا عساي أن أفعل بمزيد من العمر:

ملأ الكؤوس مرة أخرى، أخرج من حزامه وقدم لنا الجوز والتين المجفف الملفوف في ورق الغار.

-- لقد وزعت كل ما أملك على أولادي. قد حل علينا الفقر، لكني لا أهتم؛ فالرب لديه المزيد!

-- الرب لديه المزيد يا عم أناغنوستي، صاح زوربا في أذن العجوز؛ لديه الرب، ونحن لا، فهو لا يعطينا، ياله من بخيل!

لكن العجوز قطب حاجبيه.

- لا تتذمر يا بن العم، ولا تسخر من الرب، قال بحدة. لا تتذمر؛ فالرب ينتظر منا أيضاً يا بن العم!

غير أن السيدة أناغنوستي العجوز دخلت صامتة، طيعة وأحضرت الطعام وإبريقًا من النبيذ في طبق من الفخار، كانت خصى الخنزير المشوية في صحن برونزي عريض. وضعت كل شيء على المائدة وظلت واقفة شابكة يديها وعيناها تنظران إلى الأرض.

كنت أشعر بشيء من التقزز لأجرب هذا النوع من المقبلات، لكني كنت أستحي الرفض. نظر إليّ زوربا بطرف عينيه وابتسم.

- هذا ألذ طعم لحم يمكن أن تتذوقه يا سيدي، قال مؤكداً ألاّ أتقزز.

العم أناغنوستي العجوز ابتسم.

- حقاً، قال، إنه يقول الحقيقة، جرب لترى بنفسك، إنها تذوب في فمك مثل الزبد! عندما مر الأمير يورغيوس - باركه الرب - وزار أحد أديرتنا، أعد الرهبان مائدة تليق بالملوك وقدموا اللحم للجميع؛ لكن قدموا للأمير إناءً من الحساء. أمسك الأمير بالملعقة وراح يقلب الحساء: «فاصولياء؟ سأل مندهشاً. - كل، يا فخامة الأمير، قال له كبير الرهبان، كُلْ، ثم بعدها نتحدث.»

«جرب الأمير تناول ملعقة، فأخرى فثالثة، فشرب الحساء كله، ثم لعق شفتيه. «يا له من حساء شهي، قال. يا لها من فاصولياء لذيذة وطرية! - لم تكن فاصولياء يا فخامة الأمير، قال له كبير الرهبان ضاحكاً؛ لقد خصينا ديوك الأقليم كله!»

ضحك العجوز أناغنوستي وغرس شوكته في قطعة من خصى الخنزير.

- إنه طعام الأمراء! قال؛ افتح فمك.

فتحت فمي فحشر فيه لقمة. ملأ الكؤوس مرة أخرى، شربنا نخب حفيده، فتلألأت عينا العجوز أناغنوستي.

- ماذا تريد أن يصبح حفيدك عليه عندما يكبر؟ سألت العم أناغنوستي العجوز. قل لنا كي ندعو له.

- ماذا يمكنني أن أتمنى يا بني، أريد فقط أن يسلك طريقاً مستقيماً، أن يصبح إنساناً طيباً، رب أسرة، أن يتزوج وينجب أطفالاً وأحفاداً، وأن يشبهني ابنٌ من أبنائه. يراه العجائز ويقولون: «انظر ما اشبهه بالعم أناغنوستي العجوز! قدس الله روحه؛ كان إنساناً طيباً»

نادى على زوجته دون أن يلتفت أو ينظر إليها، ماروليا أحضري لنا مزيداً من النبيذ، املئي لنا الإبريقَ ثانية.

في هذه اللحظة، سمعنا طرقاً قوياً، دفع الخنزير باب الحظيرة الصغيرة واندفع نحو فناء المنزل وأخذ يروح ويجيء ذهاباً وإياباً يشخر ويئن من الألم أمام الثلاثة الجالسين يأكلون خصيته.

- يتألم المسكين... قال زورباً مشفقاً عليه.
- بالطبع يتألم، قال العجوز الكريتي ضاحكاً! فإذا فعلوا بك نفس الشيء ألن تتألم؟

اهتز زوربا على مقعده.

- قُطع لسانك أيها العجوز الأطرش! دمدم زوربا مرتعداً من الفكرة.

راح الخنزير يتمشى أمامنا ذهاباً وإياباً ناظراً إلينا بشراسة.

- أكاد أقسم أنه يعرف أننا نأكل خصيتيه! قال العجوز أناغنوستي، فقد أضفى عليه النبيذ شيئاً من النشوة.

لكننا كنا نأكل في هدوء وسعادة خصيتيه اللذيذتين كآكلي لحوم البشر، ونشرب النبيذ المعتق الداكن اللون وننظر إلى البحر من بين أغصان أشجار الزيتون الفضية، البحر الذي صار وردي اللون من أثر شمس الغروب.

عندما حل الليل، غادرنا بيت العجوز شيخ القرية، كان زوربا منتشياً، وأراد أن يتكلم. وبدأ:

- ماذا كنا نقول قبل البارحة يا سيدي؟ نعم، تريد تنوير الشعب فتفتح له عيونه! أليس هذا كلامك، يكفيك إذن أن تذهب لتنوير العجوز أناغنوستي وفتح عينيه! ألم تر كيف كانت زوجته تقف منتصبة أمامه مطأطأة الرأس وتنتظر الأوامر؟ اذهب إليه إذن؛ كي تشرح له أن للمرأة نفس حقوق الرجل تماماً. وإنه من القسوة أن تأكل قطعة من الخنزير الذي يئن أمامك حياً وأنه من البله أن تستلذ وتستمتع بذلك، كما أنه من البله أن تشكر الرب الذي لديه كل شيء وأنت تتضور جوعاً! ماذا سيجني العجوز أناغنوستي من كل حورات التنوير والهراء هذه؟ ستزعجه إزعاجاً عظيماً. وماذا ستكسب السيدة أناغنوستي؟ سيبدآنِ فقط في الشجار، ستريد الدجاجة أن تصبح ديكاً، وستبدأ خلافات عائلية لن تنتهي وسيشرعون في نتف ريش بعضهم البعض... دع الناس على حالهم يا معلم، لا تفتح لهم أعينهم؛ لأنك لو فتحتها لهم فماذا سيرون؟ لا شيء سوى تعاستهم عارية!

دعهم، ودع عيونهم مغمضة كي يحلموا!

سكت برهة، حك رأسه،ثم تأمل.

- إلا إذا، قال ثم سكت... إلا إذا....

- ماذا؟ إلا إذا ماذا...!

- إلا إذا، عندما تفتح لهم أعينهم، تستطيع أن تُريهم عالَماً أفضل... هل لديك واحدٌ؟

لم تكن لدي إجابة. كنت أعرف جيداً ما الذي لابد من هدمه؛ لكن لم يكن لدي علم بما الذي يجب أن يُبنى فوق الأطلال. لا أحد يعرف بالتأكيد، فكرت ملياً؛ فالشيء القديم هو معروف وملموس؛ أما الشيء القادم المستقبلي فهو لم يحدث بعد، غير ملموس، سائل لا يُمسك، مصنوع من نفس المادة الخام التي تُصنع منها الأحلام، هو سحابة تضربها الرياح - العشق، الخيال، الحظ، الرب - يخف وزنها وقوامها ويثقل أيضاً، تتحول... وأعظم الأنبياء على وجه الأرض لا يستطيع أن يمنح البشر سوى شعارٍ، وكلما كان الشعار فضفاضاً وغامضاً مبهماً، كلما كان النبي أعظم.

نظر إليّ زوربا بسخرية وابتسم فاستشاط غضبي.

- نعم لديّ، أجبت بعناد.

- ألديك حقاً؟ إذن فقل لي!

- لا، لا أستطيع أن أقول لك؛ فلن تفهم.

- إذن فليس لديك شيءٌ! قال زوربا وهو يهز رأسه الغليظ. لا تظنني أبلهَ يا سيدي؛ كذب عليك من قال لك أني أبله. أنا أميٌّ مثل العم أناغنوستي العجوز، لكنني لست غبياً، لا! فإذا لم أفهم أنا، كيف سيفهم هذا الرجل البسيط وزوجته البلهاء؟ بل وكيف سيفهم كل من هم على شاكلتهم؟ في هذا العالم؟ أستريهم ظلاماً جديداً؟ دعم في عالمهم القديم، فهم معتادون عليه. قد أبلو بلاءً حسناً حتى الآن - ألا ترى؟ إنهم يعيشون، بل يعيشون على ما يرام، لديهم أولاد وأحفاد، أصابهم الرب بالصمم وأعماهم، وهم يصيحون: «شكراً للرب!» تعايشوا تماماً مع بؤسهم. دعك منهم إذن والتزم الصمت.

صمت. مررنا بجوار بستان الأرملة، توقف زوربا لبرهة، تنهد، لكنه لم يتكلم. ربما قد هطل شيء من المطر فقد كان للهواء رائحة طين رطب. ظهرت نجوم الليل الأولى؛ القمر الجديد كان يبتسم برفق ورقة، كان لون ضوئه أخضر باهتًا، كانت السماء تفيض حلاوة ووداعة.

«رحت أفكر، فهذا الرجل لم يرتدْ المدارس، ولكن عقله لم يفسد. رأى وخاض تجارب عديدة، ففتح عقله واتسع صدره وقلبه، دون أن يخسر نبله وفراسته البدائية. كل الأمور المعقدة، المستعصية بالنسبة لنا، يحلها هو بضربة سيف، مثل ابن بلاده الإسكندر الأكبر. قليلاً ما يخطئ هذا الرجل، لأنه يقف بثقل جسمه كله على قدميه ويغوص بهما في التراب. الأفارقة البدائيون يعبدون الثعبان، لأنه يلامس بكل جسده الأرض، لذلك فلا بد وأنه يعرف كل أسرارها، يعرفها ببطنه، بذيله، بلحمه وبرأسه. يلامس يحتك، يتحد مع الأم. هكذا هو زوربا. أما نحن المتعلمون المثقفون لسنا سوى طيور حمقاء فارغة العقول تحلق في الهواء.»

تكاثرت النجوم في السماء. كانت على كثرتها متوحشة متغطرسة قاسية وبلا أية رحمة نحو الإنسان.

توقفنا عن الكلام. كلانا كان ينظر إلى السماء في رعب، شعرنا بأن هناك نجوماً جديدة تأتي بكثافة وتنتشر وتشتعل كاللهيب.

وصلنا إلى كوخنا؛ لم تكن لدي رغبة في تناول أي طعام، جلست على صخرة على مقربة من البحر. أشعل زوربا النار، أكل شيئاً، فكر في أن يأتي إليّ، لكنه غير رأيه، تمدد على فراشه ونام.

كان البحر ثقيلاً، هادئاً لا يتحرك؛ والأرض تحت وابل النجوم الغاضبة؛ صمتت هي أيضاً وآثرت السكون. لم يُسمع ولا حتى صوت نباح كلب، ولا نواح طير ليلي في هذا الصمت العميق. ساد صمت مخادع غادر خطير، مزيج من آلاف الصيحات البعيدة أو من الأعماق البعيدة في دواخلنا والتي لا تُسمع. لم أكن أميز سوى صوت همهمة تدفق دمائي وهو يضرب في أوردة عنقي.

«ترنيمة النمر» قلت في نفسي مرتعداً.

في بلاد الهند، عندما يحل الليل، يرتلون ترنيمة بطيئة وحزينة، أغنية برية بطيئة، مثل تثاؤب وحش بري - إنها ترنيمة النمر.

قلب الرجل يفيض ويرتعد من الرعب.

وكلما تأملت الترنيمة المرعبة، فاض قلبي؛ واستيقظت أذناي، فيستحيل الصمت صراخاً، ترتعش روحي، وكأنها تكونت أو اتحدت مع هذه الترنيمة، وهي تطلب الخروج من الجسد كي تصغي.

انحنيت على البحر، ملأت راحتي من مائه وبللت جبيني ورقبتي؛ انتعشت. كنت أسمع ثمة صيحات مرعبة مهددة ومقتضبة تتردد في أعماقي - كان النمر بداخلي يصرخ. وفجأة سمعت صوتاً واضحاً تماماً: «بوذا! بوذا!» فهببت واقفاً.

سرت بسرعة بمحاذاة الشاطئ، كأني كنت أريد الهروب. منذ وقت طويل؛ عندما أكون وحيداً في الليل، وفي الصمت العميق، أسمع صوته - في البداية يكون الصوت حزيناً، متلهفاً، مثل النادب، وشيئاً فشيئاً يصير غاضباً، موبخاً، آمراً، ثم يختلج صدري، كجنينٍ حان أوان خروجه.

لابد أنه منتصف الليل، تجمعت السحابات السود في السماء، قطرات كبيرة من المطر سقطت على راحة يدي. لكن ذهني كان شريداً في أجواء أخرى؛ غائصًا في أجواء مشتعلة، حتى أني كنت أشعر بعروق رقبتي تشتعل.

«حانت اللحظة، سرت في جسدي قشعريرة عارمة، أخذتني العجلة البوذية، حانت لحظة التحرر من هذا الثقل الإلهي الخارق.»

عدت بسرعة إلى الكوخ، أشعلت المصباح. عندما سقط الضوء على وجه زوربا تحجرت عيناه ثم فتحهما، نظر إلي وأنا منكبّ على الأوراق أشرع في كتابة شيء؛ تمتم بشيء، لم أسمعه، استدار نحو الحائط وغط في النوم.

كنت أكتب على عجل، بلا توقف، كنت متعجلاً. كان بوذا متأهباً جاهزاً بداخلي، كنت أراه يخرج من أحشائي مثل شريطة زرقاء مليئة بالحروف؛ كان هذا الشريط ينفرد أمامي

بسرعة شديدة، وكانت يدي تجري بسرعة أيضاً محاولة أن تواكب نفس السرعة. رحت أكتب وأكتب، كل شيء كان سهلاً، كل شيء كان يحدث ببساطة؛ لم أكن أكتب، بل كنت أنسخ. كل الأشياء بدت واضحة أمامي، كل الأشياء، وكأنها مكونة من خليط من الشفقة، النكران والهواء - قصور بوذا، نساء الحرملك، العربة الذهبية، المواجهات الثلاث الرهيبة: مع العجوز، المريض والميت؛ الهروب الزهد والتحرر، وصرخة النجاة؛ أزهرت الأرض وروداً صفراء، الملوك والصعاليك يرتدون عباءات صفراء، الأحجار والأخشاب والأجساد صارت أكثر خفة؛ الأرواح صارت هواءً، بخاراً، وكان البخار يختفي. تعبت أصابعي، لم تكن لدي رغبة ولا مقدرة على التوقف؛ كانت الرؤية تمر من أمامي واضحة وسريعة تكاد تهرب مني، ولابد أن ألحق بها.

في الصباح وجدني زوربا نائماً ورأسي منكباً على مخطوطاتي.

كانت الشمس قد أشرقت بقوة عندما استيقظت؛ شعرت بأن يدي اليمنى مخدرة جرّاء الكتابة ليلة أمس حتى أنني لم أستطع ضم أصابعي. جرفتني العاصفة البوذية وأغرقتني وتركتني خاوياً واهناً.

انحنيت لألملم مخطوطاتي التي تبعثرت على الأرض، لم تكن لدي لا الرغبة ولا القوة كي ألقي عليها ولو نظرة؛ وكأن كل هذا الإلهام العنيف كان محض حلم، ولم أشأ أن أراه يهان حبيساً بين الكلمات.

السماء كانت تمطر اليوم مطراً لطيفاً ناعماً، كان زوربا قد أشعل لي الموقد قبل أن يرحل هذا الصباح فقضيت يومي كله عاقداً رجلي أمام النار ممدداً يداي فوقهما، ثابتاً دون طعام، مستمعاً إلى صوت حبات المطر الأولى لهذا الفصل.

لم أكن أفكر في شيء. كان عقلي يسترخي كأنه ملفوف مثل حيوان الخلد في الطين الرطب.

كنت أسمع أصوات تحركات وضربات وهمهمات تنبعث من الأرض، والمطر يسقط فتنضج البذور.

كنت أشعر أن الأرض والسماء يتحدان، يتزاوجان مثل رجل وامرأة وينجبان أطفالاً؛ وكنت أسمع البحر الممتد أمامي يهدر فيلعق رمال الشاطئ مثل وحش يمد لسانه للنبع ليشرب.

كنت سعيداً، وكنت أعلم ذلك. إنّما حين يعيش المرء السعادة يجد دائماً صعوبة أن يشعر بها ويدركها؛ إلا عندما تمر تلك اللحظات وينظر إلى الخلف، عندئذ فقط يدركها - وأحياناً بدهشة مفرطة يتساءل - كم كنت سعيداً. أما أنا، على هذا الشاطئ الكريتي، كنت أعيش سعيداً، كنت أشعر بهذا وكنت أدرك مدى سعادتي تماماً.

البحر هائل مديد، يصل حتى الشواطئ الإفريقية. بين الحين والآخر تهب علينا رياح جنوبية ساخنة تأتي من على الرمال الملتهبة. البحر، له في الصباح رائحة البطيخ، في الظهيرة يهمس بخاراً، وترتفع أمواجه الصغيرة مثل أثداء عذراوات لم تنضج بعد، وفي الليل يتنهد فتتباين ألوانه بين الوردي والبنفسجي والنبيذي والأزرق الداكن.

عند الغسق، كنت أملأ راحتي بالرمال الشقراء لاهياً ثم أتركها تنزلق ساخنة طرية من بين أصابعي. وكأن راحتي ساعة رملية، تنفرط منها الحياة كالرمال وتنتثر؛ تضيع. تضيع وأنا أنظر إلى البحر، وأسمع زوربا، وأشعر بأن الدماء تنبض سعيدة في عروقي.

ذات يوم أذكر أني كنت مع ابنة أخي الصغيرة ألكا، كان عمرها أربع سنوات، كنا نتسكع في ليلة رأس السنة ونشاهد واجهة أحد محال لعب الأطفال، التفتت نحوي وقالت: «عمي التنين (هكذا كانت تناديني)، عمي التنين، من فرط سعادتي نبتت لي قرون في رأسي!» أفزعتني. إنها لمعجزة إذن هذه الحياة، كيف تمتزج أرواحنا عندما نغوص داخلنا ونعود إلى جذورنا ونصبح شيئاً واحداً! لأني تذكرت على الفور تمثالا لبوذا منحوتًا من خشب الأبانوس شاهدته في أحد المتاحف في بلد بعيد. بوذا الذي تحرر وغمرته السعادة العليا بعد سبع سنوات من العذاب والمعاناة، وكانت أوردة جبهته قد انتفخت من اليمين واليسار، من فرط السعادة، فنفرت خارج جلده مثل قرنين ملتويين من الفولاذ.

توقف المطر الخفيف عند آخر الغسق، وصفت صفحة السماء. شعرت بالجوع وسررتُ لأجل ذلك، حيث الآن هو موعد وصول زوربا، سيشعل الموقد ويبدأ في طقوس الطبخ والحوار اليومية.

- يا لها من قصة أبدية أخرى! كان زوربا يقول دائماً وهو يضع القدر على النار؛ ليست المرأة فقط قصة أبدية، بل هو الطعام أيضاً.

لأول مرة على هذا الشاطئ أشعر ببهجة الطعام. في المساء عندما يوقد زوربا النار بين حجارتين ويبدأ عملية الطبخ ثم نبدأ بعد ذلك في الأكل والشراب وتشتعل بيننا الحوارات. كنت أشعر أن الطعام هو طقس روحي، وأن اللحم والخبز والنبيذ، هي الخامات الأولى التي منها تتكون الروح.

بعد أن ينتهي من عمله مساءً؛ كان زوربا، في مزاج غير رائق، وقبل أن يتناول شيئًا من الطعام أو الشراب، تخرج منه الكلمات ثقيلة متململة وبصعوبة بالغة؛ حتى إيماءاته كانت مرهقة وفظة. لكن ما أن يضع الفحم في الآلة على حد قوله، كل أجزاء جسده

تستعيد حياتها من جديد، وتبدأ الآلة في العمل بهمة ونشاط. كانت عيناه تستعيدان بريقهما، وذاكرته تشتعل، وتخرج أجنحة من قدميه وتبدآن في الرقص.

- قال لي ذات مرة: قل لي ماذا تفعل بالطعام الذي تأكله؟ قل لي: لأقل لك من أنت. البعض يصنع منه روثًا ودهونًا على أجسادهم، والبعض الآخر عملاً ومرحًا، والبقية الأخرى من البشر، كما أسمعهم يقولون، يحولونه إلى الرب والكلمات وأشياء من هذا القبيل؛ أنا يا سيدي لست من أفضل الناس ولا أسوأهم؛ أنا أقف في منتصف الطريق، ما آكله أحوله إلى عمل ومرح!

نظر إلي في مكر.

- بربك يا سيدي، أظن أنك تناضل من أجل أن تجعل طعامك إلهًا؛ لكنك أبداً لا تُسعَف في هذا، وتتعذب. أصابك نفس ما أصاب الغراب.

- وما الذي أصاب الغراب؟

- الغراب هذا يا سيدي كان يسير في البداية بوقار واحترام كما يسير غراب فعلاً؛ لكنه في يوم نمت إلى ذهنه أن يسير بفخر ودلع مثل الطاووس؛ لكن البائس لم ينجح أبداً في هذا ونسي مشيته تماماً، ضاعت منه، والآن - صارت له مشية عرجاء.

رفعت رأسي؛ سمعت خطوات زوربا قادماً من المنجم؛ بعد قليل رأيته يمشي حانقاً متذمراً وذراعاه يتدليان ويتحركان بلا مبالاة وكأنه فقد السيطرة عليهما.

- مساء الخير يا سيدي! قال على مضض.

- مرحبًا؛ كيف سار العمل اليوم يا زوربا؟

لم يجب.

- سأشعل النار، قال، وسأطبخ شيئاً.

أخذ بين أحضانه الأخشاب من ركن الغرفة وخرج، وبحرفية عالية أشعل النار ووضع فوقها القدر الفخاري ووضع فيه الماء، البصل، الطماطم، الأرز وبدأ في الطهي. بينما

كنت أعد المائدة الصغيرة، وأقطع الخبز شرائح كبيرة، وأملأ زجاجة النبيذ من الدن الذي أهداه لنا العم أناغنوستي في الأيام الأولى لنا هنا.

كان زوربا يجلس على الأرض أمام القدر ويحدق بثبات في النار وهو صامت تماماً.

- هل لديك أولاد يا زوربا؟ سألته فجأة.

التفت نحوي:

- لماذا تسأل؟ لدي ابنة.

- متزوجة؟

ضحك زوربا.

- لماذا تضحك يا زوربا؟

- وهل هذا يحتاج إلى سؤال يا سيدي؟ أحمقاء هي حتى لا تتزوج؟ كنت أعمل في منجم معادن في خالقيذونا. وفي أحد الأيام تلقيت خطاباً من أخي يوانيس. لقد نسيت حقاً أن أخبرك أن لدي أخًا، رب أسرة، رزينًا، متدينًا، مرابيًا، إنسانًا منافقًا، عمودًا من أعمدة المجتمع. يعمل بقالاً في سالونيكي. «أخي أليكسي، قال في خطابه، قد انحرفت إبنتك فروسو، ولطخت اسمنا النظيف في الوحل؛ كان لديها عشيق وانجبت منه ابناً، لقد ضاع شرف العائلة! سأذهب إلى القرية لأذبحها.»

- وماذا فعلت يا زوربا؟

رفع زوربا كتفيه:

- «أووف! نساء!» قلت ومزقت خطابه.

حرك الطعام في القدر، ألقى فيه قليلًا من الملح، ثم ضحك.

- لكن انتظر حتى ترى ما هو مضحك أكثر. بعد حوالي شهر تلقيت خطاباً من أخي الأحمق:

«أخي الحبيب أليكسي، كيف حالك وصحتك؟ ... هكذا بدأ خطابه! وقال، لقد عاد لنا شرفنا وتم تطهير شرف العائلة، يمكنك الآن أن ترفع جبهتك إلى عنان السماء، لقد تزوج العشيق المذكور فروسو!»

التفت نحوي زوربا وكانت عيناه تقدحان مثل بريق سيجارته. رفع كتفيه ثانية:

- أوف! رجال! قال بامتعاض.

وبعد قليل قال:

- ماذا تتوقع من النساء؟ أن تحمل وتضع أطفالاً من أول رجل متاح. وماذا تنتظر من الرجال؟ أن يسقطوا في الفخ. أضف أنت التوابل يا سيدي!

أنزل القدر من على النار، جلسنا واضعين ساقاً على أخرى، وأكلنا.

راح زوربا في تأمل عميق. كان هناك شيء ما يشغل تفكيره تماماً. كان ينظر إلي يفتح فمه ثم يغلقه ثانية.

تحت ضوء المصباح كنت أرى عينيه حزينتين ومتوترتين بوضوح.

لم أعد أحتمل.

- زوربا، هناك شيء تريد أن تخبرني به؛ قله! فيبدو أنك في حالة مخاض ولابد لك من أن تضع!

صمت زوربا؛ التقط حجرًا من على الأرض، ورمى به بقوة من الباب المفتوح.

- دعك من الحجارة، وتكلم!

فرد زوربا عنقه المتجعد.

- هل تثق بي يا سيدي؟ سألني زوربا متوتراً ونظر إلي في عيني مباشرة.

- نعم يا زوربا، أجبته. في اي شيء تفعله، أعتقد أنه من الصعب أن تخطئ؛ حتى وإن أردت، من الصعب أن يخيب ظنك. فأنت كالأسد، أو كالذئب؛ وهذه الوحوش لا تتصرف أبداً كالخراف والحمير، لا تضل طريقها أبداً، لا تتحول عن مسار طبيعتها؛ هكذا أنت يا زوربا: من قمة رأسك حتى أخمص قدميك.

- لكني بحق الشيطان لا أعرف إلى أين أنا ذاهب؟

- تقدم واذهب في طريقك!

لمعت عينا زوربا

- الآن أستطيع أن أتحدث معك، حسنا؛ لدي منذ بضعة أيام خطة كبيرة، فكرة مجنونة تدور في عقلي ولابد من تطبيقها.

- عمّ تتساءل؟ لهذا جئنا إلى هنا: لنطبق الأفكار.

شد زوربا عنقه، نظر إلي بسعادة،

- تكلم جيداً يا سيدي! صاح زوربا. ألم نأتي إلى هنا من أجل الفحم؟

- الفحم كان مجرد سبب أو محرك؛ هكذا، حتى لا يفضح الناس أمرنا. وحتى يعتقد الناس أننا رجال أعمال جادين، وكي لا يرجمونا بالحجارة...

كان زوربا ساهماً وفمه نصف مفتوح وهو يكافح أن يفهم ما يجري، لكنه لم يجرؤ أن يصدق كل هذه السعادة. لكنه فجأة فهم المعنى؛ وانطلق نحوي وأمسك بي من كتفي؛

- هل ترقص؟ سألني بلهفة؛ هل ترقص؟

- لا.

- لا؟!

علق يده في الهواء مندهشاً.

- حسناً، بعد قليل؛ سأرقص أنا إذن يا سيدي. قف هناك على بعد مني حتى لا أصطدم بك. هـ-اي! هـ- اي!

وإذا به يقفز في الهواء وينطلق خارج الكوخ، خلع نعليه وسترته وصديريته، رفع بنطاله حتى ركبتيه، وبدأ يرقص. كان وجهه مازال مسوداً ملطخاً بالفحم؛ وكانت عيناه تبرق بياضاً.

ألقى بنفسه في الرقص، وراح يصفق بكلتا يديه ويقفز ويدور في الهواء، يجثو على الأرض بركبتيه وصار يقفز جالساً. وفجأة راح يقفز عالياً في الهواء ثانيةً وكأنه مصرٌ على تحدي قانون الجاذبية، أن يصنع أجنحة ويطير.

إنّك لتشعر أنّ في داخل هذا الجسد العجوز المتآكل روحاً تحارب كي تأخذه يقفز وينزلق معها، كالنجم الذي يهوي في الظلمات. لكن الروح ترج الجسد وتهزه وتنثره في الهواء،

فيسقط و لا يقوى على المكوث طويلاً في الهواء، وإذ بالروح تقذفه ثانية في الهواء بلا رحمة، هذه المرة أعلى بقليل، فيما كان يعاود سقوطه لاهثاً.

قطب زوربا حاجبيه، وبدت على وجهه جدية مقلقة؛ لم تعد حركاته تتسم بالقوة؛ كز على أسنانه وكأنه يكافح من أجل أن يصل بالرقص إلى المستحيل.

- زوربا، زوربا، صرخت؛ كفى!

كنت أخشى على جسده العجوز من ان يتفتت في الهواء.

لكن أنى له أن يسمع الأصوات الأرضية؛ فقد صارت أحشاؤه مثل الطير.

كنت أتابع بخوف طفيف هذا الرقص المتوحش الميؤس منه. عندما كنت صغيراً كان لي خيال تجريدي فكنت أقص على رفاقي قصصاً متوحشة، وكنت أصدقها.

- كيف مات جدك؟ كان رفاقي في المدرسة الابتدائية يسألونني.

وكنت مباشرة أنسج لهم أساطير، كنت أؤلف الحكايات وكلما تضخمت مني الأسطورة كنت أصدقها:

- جدي كان يرتدي حذاءً بلاستيكياً. وفي يوم من الأيام، عندما نبتت لحيته البيضاء، قفز من على سطح منزله؛ لكنه فور أن لمس الأرض، إذا به يتكوم مثل ثوب من القماش ويصعد أعلى من المنزل - أعلى فأعلى، أعلى فأعلى، حتى غاب عند السحاب. وهكذا مات جدي.

منذ أن نسجت هذه الأسطورة، كلما ذهبت إلى كنيسة القديس مينا الصغيرة وكنت أرى الأيقونة الصغيرة المنحوتة للمسيح، كنت أمد يدي وأقول لرفاقي الصغار:

- هو ذا جدي بحذائه البلاستيكي!

وهذه الليلة، بعد كل هذه السنين، وأنا أشاهد زوربا وهو يقفز في الهواء، عشت أسطورة طفولتي من جديد وأنا خائف - وكأني كنت أخشى أن يضيع زوربا ويغيب في السحاب.

- زوربا، زوربا، صرخت؛ كفى!

جثم زوربا على الأرض وهو يلهث وكان وجهه يبرق من السعادة. شعره الرمادي التصق بجبهته وكانت حبات العرق تتكور على خديه وذقنه، وكل هذا مختلط بالفحم.

انحنيت فوقه قلقاً.

- الآن قد تحررت، قال بعد قليل؛ كأنهم أخذو مني قليلاً من الدم. الآن أستطيع أن أتحدث.

دخل إلى الكوخ، جلس أمام مدفأة الفحم، وكان وجهه يبرق على وهجها.

- ما الذي أصابك وبدأت في الرقص؟

- ماذا كنت تريدني أن أفعل يا سيدي؟ ملأتني سعادة غامرة، وكان لابد أن أفرغ كل تلك السعادة بدلاً من أن أنفجر. وكيف يروّح الإنسان عن نفسه؟ بالكلام؟ أوووف!

- من أين لك السعادة يا زوربا؟

نظر إلي مضطرباً؛ كانت شفته ترتعش:

- من أين لي السعادة؟ من الكلام الذي قلته لي قبل قليل، هل سقط كلامك هكذا، كالرعد؟ ألا تعي ما تقوله بنفسك؟ لم نأتِ هنا من أجل الفحم... هكذا يا رجل، جئنا لنروّح عن أنفسنا! جئنا لنمضي وقتاً طيباً، ونلقي الرماد في عيون الناس، كي لا يظنوا أننا مجانين، كي لا يرجمونا بالحجارة - ونحن، عندما نبقى وحيدين ولا يرانا أحد، ننفجر في الضحك! أقسم بشرفي، هذا ما كنت أبغاه، لكنني لم أكن أفهم، كنت لا أفكر إلا في الفحم وفي السيدة بوبولينا، وأحيانا فيك أنت يا سيدي... أو كنت أفكر في كل هذا في نفس الوقت. عندما كنت أفتح أحد الأنفاق، كنت اقول: «أريد فحماً، أريد فحماً، أريد فحماً» وكنت أصير مثل عود الفحم من رأسي لأخمص قدمي. حتى عندما كنت ألهو مع تلك العجوز - طابت ساعتها! كنت أرمي كل الفحم وكل المناجم وكل الرؤساء من أجل وشاح حول عنقها. كنت أرمي حتى زوربا، كان عقلي تائهاً. وعندما أكون وحدي وليس لدي عمل، كنت أستحضرك في ذهني يا سيدي، وكان قلبي يتحطم. كان هناك ثقل في روحي: «عيب عليك يا زوربا أن تخدع هذا الرجل الطيب وتأكل أمواله هكذا. إلى متى ستظل إنساناً حقيراً، كفاك يا زوربا، ألا يكفيك هذا؟!»

كنت تائهاً يا سيدي، كان الشيطان يجذبني من ناحية، والرب من الناحية الأخرى، كنت أتمزق بين الاثنين. الآن، لتكن دائماً بخير، قلت قولاً سديداً وبصرتني إذ كنت لا أرى؛ والآن رأيت! فهمت! فهم كل منا الآخر. الآن، لنضرم النار في كل شيء! كم من المال تبقى لديك؟ ضعه الآن هنا! لتذهب كل الأشياء إلى الجحيم!

راح زوربا يجفف عرقه ويبحث في بواقي العشاء الذي كان مبعثراً على المائدة الصغيرة؛ مد يده ثم قال:

- بعد إذنك يا سيدي، فقد شعرت بالجوع ثانيةً.

أخذ شريحة من الخبز، بصلة، حفنة من الزيتون؛ وأكل بشراهة؛ كان يلوك الطعام دون أن يضم شفتيه، صب النبيذ من القنينة وإذا به يضرب لسانه في سقف فمه بسعادة بعد أن أرتشف منه جرعة كبيرة.

- عاد قلبي إلى مكانه، قال.

نظر إلي غامزًا:

- لماذا لا تضحك؟ سألني. لماذا تنظر إلي هكذا؟ هكذا أنا. هناك شيطان بداخلي يصرخ، وأنا أفعل كل ما يقوله لي. كلما انتابني الحزن يناديني: «ارقص!» فأرقص. فينزاح عني الحزن. في إحدى المرات مات لي إبن، ذيمتريوس الصغير، في خالقيذونا، فإذا بي هكذا أقوم وأرقص. عندما رآني أقاربي أرقص أمام رفاته، هرولوا نحوي وحاولوا منعي. «لقد جن زوربا، راحوا يصيحون، لقد جن زوربا!» لكن أنا، في هذه اللحظة، لو لم أرقص، لكان الجنون قد أصابني من فرط الألم. لأنه كان ابني الأول وكان عمره ثلاث سنوات ولم يكن بمقدوري أن أتحمل موته. أتفهم ما أقوله لك ياسيدي، أم أني أتحدث إلى الهواء؟

- فهمت يا زوربا، فهمت؛ إنك لا تتحدث إلى الهواء.

- وفي مرة أخرى أيضاً كنت في روسيا؛ ما الذي ذهب بي إلى هناك، من أجل المعادن أيضاً؛ النحاس، بالقرب من نوفوروسيكي.

كنت قد تعلمت خمس أو ست كلمات من اللغة الروسية، كانت كافيات لأتم عملي: «لا، نعم، خبز، ماء، أحبك، تعال، وكم» إلا أنني كنت قد عقدت صداقة مع روسي

بلشفي. كنا نتقابل كل ليلة في إحدى الحانات بالقرب من الميناء ونحتسي ما تيسر من الفودكا، حتى يعتدل مزاجنا، وعندما كنا نصل إلى الذروة، كانت قلوبنا تتفتح؛ كان يرغب هو في أن يحكي لي كل شيء عن حياته، كل ما عاش وشاهد في الثورة الروسية، وأنا بدوري كنت أرغب في أن أأتمنه على أسرار سيرتي وحياتي؛ كنا نثمل، كما ترى، وصرنا إخوة.

«وبلغة الإشارة والإيماءات كنا نتفاهم؛ كان يبدأ هو في الحديث؛ وعندما كان يستحيل علي الفهم كنت أصيح: «ستوب!»؛ وكان يبدأ في الرقص؛ كان يرقص كل ما كان يود أن يقوله لي. وأنا كنت أفعل نفس الشيء. كنا عندما لا نستطيع أن نعبر بألسنتنا، كنا نقوله بأقدامنا، بأيدينا، ببطوننا أو بصرخات وصيحات!»

كان الروسي يبدأ أولاً: كيف كانوا يحملون البنادق، وكيف اشتعلت الثورة، كيف وصلوا إلى نوفوروسيكي... وعندما كنت لا أفهم ما يقوله كنت أرفع يدي وأصيح «ستوب! »، فكان الروسي يقفز مباشرة ويبدأ بالرقص! كان يرقص كالممسوس، بينما أنا كنت أنظر إلى يديه وقدميه وصدره وعينيه وكنت أفهم كل شيء: كيف دخلوا نوفوروسيسكي، كيف قتلوا الإقطاعيين، كيف نهبوا المحال، كيف اقتحموا البيوت واختطفوا النساء. الساقطات كن يبكين في البداية ويقاومن بضراوة ثم يأخذن في اللين بسرعة ويبدو الرضى في عيونهن بعد ذلك، نساء، أترى...

«بعدها يجيء دوري. وقبل أن أتم كلماتي الأولى، إذ لم يكن العملاق الروسي كما يبدو بالذكاء الخارق، فكان يصيح منذ البداية: «ستوب!» لم أكن أبغي أكثر من هذا! كنت أقفز وأزيح المقاعد والمناضد، وأبدأ في الرقص... إيييييه، كيف كان يفهم الناس، ياللعنة! ترك الناس أجسادهم فأصيبوا بالصمم، ويتواصلون بالأفواه فقط، ماذا يستطيع الفم أن يقول؟ لو رأيت كيف كان الروسي يأكلني بعينيه من قمة رأسي حتى قدميّ، وكيف كان يفهم كل شيء! حكيت له راقصاً عن معاناتي، عن رحلاتي، كم مرة تزوجت، كم من الأعمال امتهنت وأتقنت: عامل في محجر، حفار، بائع جوال، صانع

أواني، محارب مع الثوار، عازف السانتوري، بائع للقضامة، غجري، مهرب للبضائع؛ كيف زج بي في السجن، كيف هربت، كيف وصلت إلى روسيا...

كل شيء، كان يفهم كل شيء، وإن كان عملاقاً غبياً. كانت قدماي ويداي وحتى شعري وملابسي تتكلم. وحتى السكّين المعلقة في حزامي كانت تتكلم... وحين كنت أنتهي، كان العملاق الروسي يحتضنني ويقبلني، ويملأ كأسينا بالفودكا، كنا نبكي ونضحك كل منا يرتمي في أحضان الآخر... وعند الفجر كانوا يفرقوننا فكنا نذهب إلى النوم متعثرين في السير من فرط الشراب. وفي الليل كنا نلتقي مرة أخرى لنكرر ما فعلناه.

«أتضحك؟ ألا تصدقني يا سيدي؟ تُتَمتمُ بداخلك: «ما الذي يقوله ويثرثر به سندباد البحار؟ هل يعقل أن يتم حوار بالرقص؟» لكني أقسم بأن الآلهة والشياطين يتحاورون هكذا.

«لكن، أرى أن النعاس يكاد يتملكك. كم أنت رقيق ومرهف، لا تحتمل. اذهب إلى النوم إذن، وغداً سنتحدث مجدداً. لدي خطة، خطة عظيمة، سأحكي لك عنها في الغد. سأدخن سيجارة أخرى، وربما بعدها أغطس رأسي في البحر: فقد اشتعلت النار في داخلي، ولابد أن أطفئها. تصبح على خير!

كان النوم عصياً علي عينيّ هذه الليلة. رحت أفكر؛ كم أن حياتي مهدرة، كم كنت أتمنى أن آتي بممحاة وأمحو كل ما قرأت وسمعت وتعلمت، أن أرتاد مدرسة زوربا وأبدأ في تعلم الأبجدية العظيمة الحقيقية! كنت سأختار طريقاً مختلفاً! كنت سأدرب حواسي الخمس بشكل أفضل، وكذلك جسمي بأكمله كان سيفهم ويستمتع. كان سيتعلم كيف يهرول ويصارع ويسبح ويركب الخيل ويجدف ويقود سيارة ويطلق الرصاص من بندقية. كنت سأملأ جسدي بالروح وأملأ روحي بالجسد؛ كنت سأوفق بداخلي بين هذين الخصمين اللدودين...

جلست على فراشي أفكر في حياتي التي تذهب هباء. من خلال الباب المفتوح وعلى ضوء النجوم الباهت كنت أرى زوربا قابعاً فوق صخرة مثل طائر ليلي، ينظر إلى البحر،

حسدته. «هذا هو الشخص الذي اكتشف الحقيقة، رحت أتأمل، نعم هذا هو الطريق الصحيح!»

في عصور أخرى بدائية وأكثر إبداعاً، كان زوربا لابد أن يكون رئيساً لقبيلة، يتقدم الصفوف ويفتح الطريق بفأسه؛ أو ربما شاعراً جوّالاً شهيراً يتنقل بين القلاع يصفق الجميع لكلماته وأشعاره، السادة والسيدات والخدم... أما في عصرنا الجاحد البغيض، يطوف وويجولضائعاً جائعاً يبحث عن طعامه حول الخرائب كذئب؛ أو يتدهور به الحال فيصبح مهرجاً لكاتب مغمور.

فجأة رأيت زوربا ينهض. خلع ملابسه، ألقى بها فوق الصخور، وقفز في البحر. وبين الحين والآخر كنت أرى رأسه يظهر ثم يختفي تحت ضوء القمر الشاحب. وبين الحين والآخر يطلق صيحة أو ينبح مثل الكلب أو يصيح مثل ديك، يحمحم وينعق - لقد عادت روحه في هذه الليلة الموحشة وهو يسبح في البحر إلى الحيوانات بعد أن كانت وحيدة.

بعد قليل، ودون أن أشعر، غرقت في نوم عميق. وفي الصباح، عند الفجر، رأيت زوربا مبتسماً ومرتاحاً، يجذبني من قدمي.

- قال: استيقظ يا سيدي، دعني أعترف لك بخطتي. هل تسمعني؟

- أسمعك.

جلس متربعاً على الأرض وبدأ يشرح لي كيف أنه يريد إنشاء مصعدٍ بأسلاك و دعائم من قمة الجبل وحتى الشاطئ، كي نجلب الأخشاب التي نحتاجها من أجل دعائم الحفر في المنجم ويمكن أن نبيع الباقي إلى ورش الأخشاب وأغراض البناء. كنا قد اتفقنا أن نؤجر غابة صنوبر من أحد الأديرة، لكن النقل كان سيكلفنا الكثير ولم نستطع أن نجد البغال الكافية لهذه المهمة. لذلك تفتقت مخيلة زوربا عن هذا الخط المعلق بالأسلاك الثقيلة والدعائم والأبراج والبكرات، وأن يعلق الأخشاب من قمة الجبل وقبل أن تشعر سينزلق من القمة إلى الشاطئ.

- اتفقنا؟ سألني عندما انتهى من شرحه، ثم أضاف، هل توقع على هذا؟

- أوقع يا زوربا، اتفقنا. هلم وأبدأ.

أشعل الموقد، ووضع الإبريق وجهز لي القهوة، ألقى على قدميّ ببطانية تقيني البرد، وغادر سعيداً.

- اليوم، قال، سنحفر نفقاً جديداً، لقد وجدت عرقاً جميلاً من الماس الأسود!

فتحت مخطوطة بوذا، وغصت أنا في أنفاقي الخاصة. عملت طوال اليوم وكلما تقدمت في العمل والكتابة كلما شعرت بالخفة والتحرر، كنت أشعر بداخلي بمزيج من مشاعر - التحرر، الفخر والقرف. لكن تركت حالي يستغرق في العمل، فكنت أعلم أنني عندما أنتهي من تلك المخطوطة سأختمه وأطويه وأصبح حراً تماماً.

شعرت بالجوع؛ فأكلت قليلاً من الزبيب واللوز وقطعة من الخبز. انتظرت حتى يأتي زوربا ليأتي محملاً بكل ما يدخل السرور إلى مهجة البشر - الضحك، الحوار الشيق والطعام اللذيذ.

عند الليل ظهر زوربا. أعد الطعام، أكلنا، لكن عقله كان شارداً. جلس على ركبتيه، غرس بعض الأخشاب الرفيعة في التراب، وصلها بالخيط، علق في بعض الدعامات والمسامير الرفيعة عوداً من الثقاب حيث كان يحاول أن يجد زاوية الانحدار المناسبة كي لا ينهار كل شيء.

- لو أن الزاوية مالت أكثر من المطلوب، بدأ يشرح لي، فلن يستقيم شيء؛ ولو أن الميل أقل من المطلوب فسنذهب إلى الجحيم أيضاً. لابد أن نجد هذه الشعرة بينهما حتى تستقيم الزاوية بالشكل الذي نحتاجه؛ وهذا يتطلب يا سيدي عقلاً يقظاً ونبيذاً.

- لدينا الكثير من النبيذ، قلت ضاحكاً؛ أما العقل؟

انفجر زوربا في الضحك:

- هناك بعض الأشياء تفهمها جيداً يا سيدي، قال وهو ينظر إلي بود.

جلس ليستريح، أشعل سيجارة. كان مزاجه رائقاً مرحاً، فانحلت عقدة لسانه وبدأ في الثرثرة.

- لو نجحت هذه الخطة، قال، سننزل أخشاب الغابة كلها، سنفتح مصنعاً، سنصنع ألواحاً ودعامات وسقالات، سنجمع الكثير من المال، وسنبني قارباً بثلاث صوارٍ ونهجر كلّ شيء ونبحر حول العالم!

برقت عينا زوربا، وامتلأتا نساءً من موانئ بعيدة، وبلدانًا، وأنوارًا متلألئة، وبيوتًا جميلة، آلاتٍ وسفنًا.

- لقد شاب شعري يا سيدي، أسناني تخلخلت، لم يعد لدي وقتاً أضيعه. أنت ما زلت شاباً، يمكنك أن تتحلى بالصبر، أما أنا فلا أستطيع. لكني أقسم أنه كلما تقدم بي العمر ازددت وحشية! دعك من الذين يقولون إنه كلما شاخ المرء ازداد تعقلاً؛ وانطفأت رغبته في الحياة،أنه كلما رأى الموت قادماً، يمد عنقه ويقول: «هيا اذبحني، خذني لأذهب إلى الجنة!» أنا كلما تقدم بي العمر ازددت وحشية. لا أسلم أبداً، بل أزداد تمرداً وتزداد رغبتي في احتواء العالم.

نهض، وأخذ السانتوري المعلق على الحائط.

- تعال إلى هنا أيها الشيطان، قال؛ لماذا تقبع على الحائط صامتًا؛ هيا أسمعنا صوتك!

لم أكن أمل ابداً من رؤية دقة ورقة زوربا وهو ينزع غطاء القماش من على السانتوري؛ وكأنه يقشر تينة أو يعري امرأةً.

وضع السانتوري على ركبتيه، انحنى فوقه، تحسس أوتاره برقة - وكأنه يستشيره أي الألحان يعزف، ويتوسل إليه أن يستفيق، راح يلاطفه ليرافق روحه التي سئمت ولم تعد تحتمل الوحدة بعد. شرع في عزف لحن، لكنه لم يخرج بشكل جيد، تركه وشرع في آخر، كانت الأوتار تئن كأنها تتوجع، كما لو كانت لا تريد العزف؛ سنده زوربا على الحائط، جفف عرقه الذي بدأ يهطل فجأةً من جبهته.

- لا يريد... دمدم قائلاً، وهو ينظر برعب إلى السانتوري؛ إنه لا يريد...

لفه بعناية، وكأنه وحشٌ كاسر يخشى أن يعضه، نهض ببطء وعلقه مرة أخرى على الحائط.

- إنه لا يريد... دمدم ثانيةً؛ لا يريد... لا يجب أن نرغمه على ذلك.

جلس على الأرض، حشر بعض الكستناء في جمر الموقد، ملأ الأكواب بالنبيذ. شرب، وشرب، قشر حبة كستناء وأعطاني إياها.

- أفهمت شيئاً يا سيدي؟ سألني. أنا لم تعد لدي قدرة على الفهم والاستيعاب. كل شيء له روح، حتى الأبواب والأخشاب والنبيذ الذي نشربه والتراب الذي ندوس عليه. كل شيء، كل شيء يا سيدي.

ارفع كأسك

- في صحتك!

أفرغه، ثم ملأه مجددًا.

- عاهرة تلك الحياة، تمتم قائلاً. يا لها من عاهرة! إنها مثل السيدة بوبولينا.

ضحك.

- اسمعني يا سيدي، ولا تضحك؛ إن الحياة مثل السيدة بوبولينا. عجوز، لكنها مفعمة بالتوابل؛ تعرف فنونها بالقدر الذي يفقدك عقلك. تغلق عينيك وهي في أحضانك وتظن أن بين يديك بنتًا في العشرين. يا رجل، تصبح عشرين عاماً عندما تكون في مزاج طيب وتغلق الأنوار!

لكن ستقول لي، إنها كثمرة الفاكهة التي زاد نضجها فصارت كأنها نصف عفنة، لا تقل هذا، فقد عاشت حياة حافلة، مرت ببحارة وقباطنة، جنود وفلاحين، باعة جوالين وقساوسة ورجال دين، صيادين ورجال شرطة، مدرسين ورجال قضاء! وما العيب في ذلك؟ سرعان ما تنسى هذه العجوز، فلا تتذكر أياً من عشاقها القدامى، بلى، صدقني ففي كل مرة تزداد براءتها، كأنها بكر، تحمر وجنتاها، كما أقول لك، يحمر وجهها وترتعش كما لو كانت تلك المرة هي أول مرة. سر عجيب هي المرأة. فهي كما تسقط آلاف المرات، تنهض آلاف المرات أيضاً وفي كل مرة تنهض عذراء. لماذا؟ قل لي. لأنها لا تتذكر.

- لكن الببغاء يتذكر يا زوربا، قلت مداعباً؛ يهتف دائماً بالأسم الذي ليس هو اسمك.

ألا يثير غيظك هذا؟ في اللحظة التي أنت معها وتسبحان في السماوات السبع، أن تسمع الببغاء يصرخ: «كانافارو! كانافارو!» ألا يمر بذهنك أن تمسك به وتدق عنقه أو تخنقه؟ ألم يحن الأوان أن يتعلم فيصيح: «زوربا! زوربا!»

- أووه! ما كل هذا الهراء! صاح زوربا وهو يضع كلتا يديه على أذنيه. أخنقه؟ لكني أحب أن أسمعه وهو يصيح بذلك الاسم. في الليل تعلقه العجوز الآثمة فوق الفراش، وهذا الشيطان له عين ثاقبة ترى في الظلام، وفور أن يراني بعينيه حتى يبدأ في الصياح: «كانافارو! كانافارو!»

وأنا أقسم لك يا سيدي، لكن ماذا عساك أن تفهم، فقد أكلت الكتب اللعينة عقلك وأفسدته! أقسم لك، أنني أشعر في هذه اللحظة بحذاء جلدي لامع في أقدامي، وريش على رأسي، ولحية حريرية مفعمة بالعطور. «بونجورنو! بونا سيرا! مانجاتي ماكروني؟» أصبح كانافارو فعلاً. أصعد إلى بارجتي التي ثقبتها آلاف الطلقات، آمر بإشعال النيران في المراجل! وتبدأ المدافع في القصف!

غرق زوربا في الضحك. قال وهو يغلق عينه اليسرى بينما كان ينظر إلي:

- سامحني يا سيدي، قال، فأنا أشبه جدي القبطان أليكسي إلى حد بعيد، قدس الله روحه وعظامه! كان قد بلغ من العمر مائة عام، كان يجلس عند الغروب أمام عتبة داره، يتطلع إلى البنات الغاديات والرائحات نحو الصنبور العمومي. كان قد وهن بصره، ولم تكن لديه القدرة على الرؤية الواضحة. فكان ينادي على الفتيات. «من أنت. - لينو بنت ماسترو كوستا! - تعالي إلى هنا كي المس وجهك! تعالي أيتها الحمقاء لا تخافي!» وتذهب نحوه الفتاة تكتم ضحكاتها وتقترب نحوه. وجدي يبدأ في تحسس وجهها بشكل دقيق وبرقة وبدقة متناهيتين. وكانت الدموع تنهمر من عينيه. «لماذا تبكي يا جدي؟ سألته في أحد الأيام. - آه، وكيف لا أبكي يا بني، كيف أموت وأترك كل هؤلاء الفتيات الجميلات؟»

تنهد زوربا

- يا لجدي التعس، قال، كم أفهمك الآن! أجلس كثيراً وأقول في ذهني: «آه! آه! آه لو متن معي كل الفتيات الجميلات!» لكن سيعشن الخنزيرات، ويستمتعن بحيواتهن، سيمارسن الحب ويتبادلن القبلات والأحضان، وزوربا سيصبح تراباً، يطأن فوقه!

أخرج بعض الكستناء من النار وقشرها، قرعنا كأسينا. مر وقت طويل ونحن نشرب النبيذ ونمضغ الكستناء في استرخاء، مثل زوج من الأرانب الكبيرة، وكنا نسمع في الخارج هدير البحر.

لبثنا صامتين بجوار الموقد وقتًا ليس بالقليل. تأكدت لمرة أخرى من أن السعادة هي شيء بسيط وغير مكلف - كأس من النبيذ بعض من الكستناء، موقد صغير، وصوت هدير البحر؛ ولا شيء آخر. كل ما تحتاجه لكي تشعر بأن كل هذه الأشياء هي السعادة، هو قلب بسيط قانع.

- كم مرة تزوجت يا زوربا؟ سألت بعد قليل من الوقت.

كنا أنا وزوربا في مزاج رائق، ليس بسبب النبيذ، ولكن كانت تغمرنا سعادة ما يتعذر وصفها. في أعماقنا كنا ندرك كل بطريقته، أننا لسنا سوى حشرتين ملتصقتين على قشرة الأرض، وقد وجدنا ركنا بجوار الشاطئ، خلف أعواد القصب والألواح الخشبية وصفائح الوقود الفارغة، وحشرنا أنفسنا معاً متجاورين، وكان لدينا بعض المأكولات الشهية، وبداخلنا صفاء، وحب وطمأنينة.

لم يسمعني زوربا؛ فالرب هو الذي يعلم في أي بحار كان عقله يسبح ولم يصله صوتي. مددت يدي ولمسته.

- كم مرة تزوجت يا زوربا؟ كررت سؤالي.

انتفض. سمعني هذه المرة وأشاح بيده.

- أوه، أجابني، عمَّ تبحث وتريد أن تعرف الآن؟!

إنسان أنا أليس كذلك؟ أرتكبت أنا أيضاً هذه الحماقة؛ هكذا أقول، وليسامحني كل المتزوجين، نعم ارتكبت هذه الحماقة العظمى، تزوجت.

- حسناً، كم مرة تزوجت؟

حك زوربا رأسه بعصبية؛ فكر لبرهة.

- كم مرة؟ بأمانة وصدق، مرة واحدة، وقد كانت الأولى والأخيرة. وبنصف صدق وأمانة، مرتين؛ وبلا صدق على الإطلاق، ألف مرة، ألفين، ثلاثة آلاف مرة، لم أكن أحتفظ بدفتر للعدد.

- هيا قل يا زوربا! فغداً يوم الأحد، سنحلق ذقنينا ونرتدي أفضل ما لدينا ونذهب إلى السيدة بوبولينا، حياة ودجاجة! ليس لدينا عمل؛ دعنا نقضِ وقتاً ممتعاً الليلة؛ هيا تكلم!

-- لكن، ماذا عساي أن أقول؟ هل هذه أشياء تحكى يا سيدي؟ فالزيجات المخلصة بلا طعم؛ مثل الطعام بلا توابل. ماذا أقول؟ عندما يحدق بك القديسون من أيقوناتهم ويعطونك بركاتهم، ثم تقبل الأيقونة، أتسمي هذه قبلة؟ يقولون في قريتي: «اللحم اللذيذ هو اللحم المسروق فقط» وزوجتك ليست بلحم مسروق.

لكن الزيجات أو العلاقات غير المخلصة وغير الشرعية، كيف أتذكرها! هل يحمل الديك سجلاً؟ دعك من هذا! ولماذا يحتفظ بسجل؟ فأنا ذات مرة، عندما كنت شاباً، كانت لدي العادة الغريبة أن أحتفظ من كل امرأة أنام معها بخصلة من شعرها. كنت أحمل دائماً مقص. حتى وأنا في الكنيسة كان المقص دائماً في جيبي. فنحن بشر يا سيدي ولا تضمن ابداً ماذا يمكن أن يحدث على غفلة.

كنت أجمع خصلات الشعر إذن، سوداء، شقراء، كستنائي، خصلات بشعر رمادي؛ كنت أجمع وأجمع، حتى ملأت وسادة وكنت أنام عليها في الشتاء فقط، أما في الصيف فكانت تشعرني بشدة الحر. لكن بعد قليل أصابتني بالقرف فقد صارت لها رائحة عفنة، فألقيت بها في النار.

ضحك زوربا.

- هذه هي سجلاتي يا سيدي، قال؛ احترقت. مللت منها، كنت أظن أنها قليلة، فاكتشفت أنها لا تنتهي - فتخلصت من المقص.

- وماذا عن الزيجات نصف المخلصة يا زوربا؟

- تنهد قائلاً، تلك لها سحر خاص، المرأة السلافية ياعزيزي يا لروعتها أمد الله في عمرها ألف عام! حرية مطلقة! ليس لديها؟ أين كنت، لماذا تأخرت؟ أين نمت؟ لا تسألك ولا تسألها. حرية!

مد كأسه وأفرغه، قشر حبة كستناء. راح يمضغها بتمعن:

- كانت إحداهما تدعى سوفينكا، والأخرى نوسا. تعرفت على سوفينكا في قرية كبيرة بالقرب من نوفوروسيكي. كنا في الشتاء، جليد، كنت أبحث عن عمل في أحد المناجم، مررت من القرية وتوقفت عند أحد الأسواق في ذلك اليوم، وجاء من كل القرى المجاورة رجال ونساء للبيع والشراء. كانت هناك مجاعة، والبرد قارس، وكان الناس يبيعون كل ما لديهم حتى أيقوناتهم لأجل رغيف من الخبز.

كنت أتجول في السوق، قفزت قروية من عربة تجرها الخيول، فتاة طويلة زرقاء العينين، لها فخذان كأفخاذ المهرة.... وقفت مشدوهاً. «قلت في نفسي آه لقد ضاع زوربا المسكين!»

رحت أتبعها وأراقبها بعيني اللتين لم تتركاها للحظة، كيف أبتعد بعيني عنها وكان ردفاها يتأرجحان أمامي مثل أجراس الكنيسة في عيد الفصح. «ماذا تريد أيها المسكين، أي عمل وأي منجم قلت لنفسي؟ لماذا تضيع وقتك وعمرك الثمين أيها الأبله؟ ها هو المنجم الحقيقي، هيا ادخله وافتح فيه أنفاقاً!»

وقفت الفتاة، راحت تساوم، اشترت كماً من الحطب، رفعته - يا لجمال هذين الذراعين يا ربي! - ألقت بحزمة الحطب في العربة؟ اشترت خبزاً، ست قطع من السمك المدخن. «كم الثمن؟ سألت. - بكذا.» نزعت من أذنيها قرطيها الذهبي كي تدفع. لم يكن معها نقود، كانت ستدفع قرطيها في مقابل ما ابتاعته. فارت الدماء في عروقي. هل أترك امرأة تدفع قرطيها وحليها وصابونها المعطر وزجاجة عطرها.... تباً للعالم! إنه كما تنزع ريشة من طاووس. هل يطاوعك قلبك أن تنزع ريشة من طاووس؟ أبداً! لا، لست أنا، لن يحدث هذا أبداً ما دام زوربا حياً، قلت، لن يحدث هذا. فتحت كيس نقودي، دفعت. كانت الروبيل في هذا الوقت عملات ورقية ذات قيمة متدنية وكان بإمكانك بمائة دراخمة أن تشتري بغلاً وعشر نساء.

دفعت قيمة المشتروات إذن. المرأة الطويلة التفتت نحوي. نظرت لي. جذبت يدي لتقبلها، لكني جذبت يدي نحوي رافضاً؛ ماذا، هل تظنني عجوزًا؟ «سباسيبا! سباسيبا!

[15]» صاحت؛ وهي ما تعني «شكراً! شكراً!» بالروسية وقفزة فأخرى كانت فوق العربة، أمسكت باللجام ورفعت سوطها. «قلت في رأسي، زوربا، إنها ستضيع منك» لكن بقفزة واحدة كنت بجوارها على العربة. لم تقل شيئاً؛ ولم تلتفت نحوي لتلقي نظرة علي. ضربت بسوطها على ظهر الحصان، وتحركنا.

في الطريق أدركت أني أريدها زوجة لي. كنت أتحدث القليل من اللغة الروسية، لكن في مثل هذه الأمور لا تحتاج إلى الكثير من الكلام. كنا نتحدث بلغة العيون، بالأيدي، بالركب. وصلنا إلى القرية حتى لا أطيل عليك، توقفنا خارج عزبة صغيرة. نزلنا من العربة. دفعت الباب فانفتح. أنزلنا حمولة الحطب، أخذنا الأسماك المملحة والخبز، دخلنا إلى الغرفة. كانت تجلس فيها عجوز بجوار مدفأة خالية من الحطب ترتعد من البرد. كانت متدثرة بالخيش والخرق وجلد الأغنام لكن كانت ترتعد حقاً من قسوة البرد. برد قارس تكاد أظافرك تسقط من قسوته. انحنيت وأخذت حزمة من الحطب واشعلت النار في المدفأة. نظرت إلي العجوز وابتسمت. قالت لها ابنتها شيئاً لم أفهمه.أشعلت النار فتدفأت العجوز، دبت فيها الحياة.

كانت الفتاة في هذا الحين تعد المائدة؛ أحضرت قليلاً من الفودكا، شربنا. أعدت إبريقًا من الشاي وشربنا، جلسنا، أكلنا، أعطت شيئاً من الطعام للعجوز. بعدها أعدت الفراش؛ وضعت شراشف نظيفة، أشعلت قنديلاً أمام أيقونة العذراء ورسمت علامة الصليب على صدرها. أشارت إلي فجثونا على ركبتينا أمام العجوز، قبلنا يدها. فجذبت العجوز يدها النحيلة ووضعت كلتا يديها على رأسينا ودمدمت شيئاً، كأنها تباركنا. « سباسيبا! سباسيبا!» صحت أنا، وبقفزة واحدة كنت أنا والفتاة الملفوفة القوام في الفراش.

صمت زوربا. رفع رأسه ونظر بعيداً في الأفق نحو البحر.

- كان اسمها سوفينكا... قال بعد قليل من الصمت.

---

[15] سباسيبا: تعني شكراً باللغة الروسية.

- حسناً؟ سألت غير صابرٍ؛ حسناً؟

- ليس هناك حسناً! لديك ولع يا سيدي بكلمتي حسناً، ولماذا؟ بربك، هل هذه أمور تُحكى؟ فالمرأة هي ينبوع فاتر، تنحني عليه وترى وجهك ثم تشرب حتى تشعر بتخلخل عظامك. ثم يأتي شخص آخر ظمآن ينحني ويرى وجهه ويشرب هو الآخر. ثم يأتي آخر... هذا هو الينبوع؛ هذه هي المرأة.

- وماذا حدث بعد ذلك، رحلت؟

- ماذا كنت تريد أن أفعل؟ كانت ينبوعاً، شربنا، وأنا عابر سبيل، بالطبع رحلت. مكثت معها ثلاثة أشهر، باركها الرب، وبعد ثلاثة أشهر تذكرت أنني كنت في طريقي للبحث عن منجم. «سوفينكا، قلت لها في الصباح، لدي عمل ولا بد أن أرحل. - حسناً قالت لي سوفينكا، اذهب. سأنتظرك شهراً؛ إذا لم تأتِ، فأنا حرة. وأنت أيضاً حر. في رعاية الرب!» ورحلت.

- هل عدت بعد شهر؟

- معذرةً! هل أنت أحمق يا سيدي! صاح زوربا. أين أعود! وهل تتركك الملعونات أبداً؟ بعد شهر كنت قد قابلت نوسا في كوبان

- هيا حدثني عنها، قل!

- في مرة أخرى يا سيدي، لابد ألا نخلط بينهن هؤلاء المسكينات! في صحة سوفينكا!

رفع كأسه وشربه جرعة واحدة وأسند ظهره إلى الحائط.

- حسناً، قال، سأحدثك عن نوسا. قد اشتعل رأسي وامتلأ بروسيا. حان الوقت لنفرغه!

مسح شاربه ثم حرك الجمرات.

- حسناً هذه هي نوسا، تعرفت بها في قرية كوبان. وكنا في الصيف. تلال من البطيخ والشمام، كنت أنحني وآخذ ما أشتهي ولا أحد يعترض، أقطعه نصفين وألتهم ما أشاء.

يوجد كل شيء بوفرة وغزارة يا سيدي، بطيخ وشمام هذا غير الأسماك والزبد والنساء. تمضي ترى بطيخة، تأخذها ترى امرأة، تأخذها. الأمر ليس كما هو هنا في هذا اليونان المقفر، فأنت هنا إذا أخذت ورقة بطيخ من أحد يذهب بك للمحاكمة، وإذا لمست امرأة،

شهر أخوتها الأسلحة البيضاء في وجهك ليمزقوك إرباً. بؤس وفقر يا رجل، أما في روسيا فيمكنك أن تحيا حياة النبلاء!

حسناً، عندما كنت أعبر من قرية كوبان، شاهدت امرأة في حقل وأعجبتني. لابد أن تعرف يا سيدي أن المرأة السلافية ليست مثل النساء اليونانيات البائسات، اللائي يبعن لك الحب قطرات ويفعلن كل ما يستطعن ليبخسنك حقك ويخدعنك في الوزن والجودة؛ السلافيات يا سيدي يعطينك حقك في النوم والطعام، فلهن صلة قرابة بالوحوش والأرض، معطاءات، يعطين بغزارة، لا يبخلن مثل قريناتهن اليونانيات اللائي يساومنك على كل شيء! «سألتها، ما اسمك؟» كما ترى، علمتني النساء قليلاً من اللغة الروسية... «نوسا؛ وأنت؟ - أليكسيس. إنك تعجبينني كثيراً يا نوسا.» نظرت إلي جيداً، تفحصتني كما نتفحص حصاناً نود أن نشتريه. «وأنت تبدو لي شخصاً جيداً، أكتاف عريضة، ذراعان قويان. تعجبني أيضاً» لم نقل أكثر من هذا، ولم يكن هناك حاجة للمزيد من الكلام. - فاتفقنا سريعاً؛ كنت سأذهب إلى بيتها في نفس الليلة بملابس أنيقة. «سألتني إن كان لدي سترة من الفراء؟ - لدي لكن الجو حار... - لا يهم؛ أحضرها، لابد أن تبدو أنيقاً.»

هكذا ارتديت ملابسي في المساء كعريس، حملت على ذراعي السترة، أخذت معي عصا ذات قبضة فضية، وذهبت. بيت قروي كبير، له باحات وأبقار ومقطرات نبيذ، مصابيح مضاءة في الفناء، قدور على المواقد المشتعلة. «ماذا تطهون هنا؟ سألت. - دبس البطيخ. - وهنا؟ - دبس الشمام.» رباه، أين أنا؟ قلت في عقلي؟ يصنعون دبسًا من البطيخ والشمام! لابد أنني في أرض الميعاد، وداعاً أيها الفقر اللعين!

آه يا زوربا، هذه المرة وقعت على قدميك، كالفأر الذي سقط في إناء من الجبن.

صعدت درجات السلم. كانت درجاته عريضة ضخمة وتصدر صريراً. على رأس الدرج كان يقف أبواها يرتديان نوعًا من السراويل السلافية الخضراء وجوارب طويلة. كانا يبدوان من الأثرياء. فتحا أحضانهما وغمراني بالقبلات حتى امتلأ وجهي باللعاب. كانا

يتحدثان بسرعة، ولم أفهم منهما كلمة واحدة - لكني لم أكن منزعجاً؛ كنت أفهم من أعينهما أنهما لا يريدان بي ضررًا.

دخلت إلى الداخل - فماذا أرى؟ موائد معدة ومعبأة بالطعام والشراب. الكل هنا أقارب، رجال وسيدات، واقفون وأمامهم نوسا، متزينة ومتأنقة ترتدي مايكشف عن صدرها، بدت كعروسة بحر. كانت تتوهج شباباً وجمالاً؛ كانت ترتدي منديلاً على رأسها، وعلى صدرها شبكت قطعة حلي مشغولة على شكل مطرقة ومنجل. «آه يازوربا، قلت في نفسي، أهذا اللحم لك؟ أسيكون هذا الجسد بين أحضانك الليلة؟ فليغفر الرب لأبويك اللذين أنجباك!»

«بكل همة وعزم هرعنا نحو الطعام رجال ونساء رحنا نلتهم الطعام والشراب. أكلنا كالخنازير، شربنا كالثيران. سألت والد نوسا الذي كان يجلس إلى جواري يكاد جسده يصدر أبخرة من فرط الطعام؛ «أين القس كي يباركنا؟» - لا يوجد قساوسة أو كهان هنا، أجابني واللعاب يتناثر من فمه. «الدين هو أفيون الشعوب»

قال هذا ثم نهض منتفخاً وحل حزامه الأحمر، مد ذراعه آمراً الجميع بالصمت. كان يحمل كأساً ممتلئة وينظر مباشرة في عينيّ. بدأ حديثه وأطال كأنه يخطب؟ لم أفهم كلمة مما قاله بحق الرب وشعرت بالملل من الوقوف، بل أنني بدأت أشعر بالدوران؛ فجلست. جلست وألصقت ركبتي بركبة نوسا التي كانت تجلس على يميني.

استمر العجوز في خطبته والعرق يتصبب منه، هرع نحوه الجميع يحتضنونه علّه يصمت. وصمت أخيراً. أشارت إلي نوسا: هيا تكلم، هيا قل شيئاً!»

«نهضت، بدأت ألقي خطاباً، نصفه بالروسية، ونصفه باليونانية. ماذا قلت؟ ليلعنني الرب إن كنت أعرف ماذا قلت. أذكر فقط أنني في النهاية بدأت أغني على المقام اللكلفتيكو. وهكذا وبدون أي سبب بدأت أجأر بالغناء:

خرج اللصوص من الجبل

ليسرقوا الخيول!

ولمّا لم يجدوا خيولاً

سرقوا نوسا!

أترى يا سيدي، غيرت الكلمات قليلاً حتى تنسجم الأغنية مع المناسبة:

وذهبوا ذهبوا ذهبوا

ذهبوا بعيداً

آه يا أماه، أين ذهبوا؟!

آه يا نوسا آه يا نوسا

آي أمان أمان آي أمان

وبينما كنت أجأر آي أمان أمان اندفعت نحو نوسا وقبلتها.

وقد كان! حين قبلتها، وكأن الجميع كان ينتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر، اندفع عدد من الرجال ضخام الجثث ذوي لحىً حمراء وأطفؤوا الأنوار.

النساء تصنعن الخوف وبدأن في صراخ وعويل لكن فور أن حل الظلام بدأن في الضحك! وتحول الضحك إلى مداعبات وقهقهة.

يعلم الرب وحده ما الذي حدث يا سيدي. لكن أعتقد أن حتى الرب لا يعلم ما حدث، لأنه إذا كان يعلم لأسقط علينا صاعقة من السماء تحرقنا جميعاً. كان الجميع، رجالاً ونساءً مختلطين فوق بعضهم البعض فاختلط الحابل بالنابل؛ رحت أبحث عن نوسا، لكن أين أجدها! وجدت أخرى، وحدث ما حدث معها.

وعند الفجر استيقظت لآخذ زوجتي لنترك المكان. كان الظلام لم يتبدد بعد، لم أفهم شيئاً. امسكت بقدم، لم تكن هي! أمسكت بأخرى، وأخرى، وفي النهاية وبعد معاناة في البحث، وجدت قدم نوسا، سحبتها، بعد أن خلصتها من ثلاثة عماليق كانوا يتمددون فوق الفتاة المسكينة، أيقظتها. «نوسا، قلت لها هيا بنا! - لا تنس سترتك قالت لي! أجبتها؛ هيا بنا.» وغادرنا.

- حسناً، وماذا بعد؟ سألت بعد أن رأيت زوربا يلوذ الصمت ثانيةً.

- ماذا تريد بـ حسناً وبعد؟ قال زوربا بعصبية.

تنهد.

- عشت معها ستة أشهر. من يومها، أقسم بالرب لا أخاف شيئاً. لا أخشى شيئاً أقول لك! سوى شيءٍ واحدٍ، أن يمحو لي الرب أو الشيطان ذاكرة تلك الأشهر الست. أ فهمت؟ قل بلى فهمت.

أغمض زوربا عينيه. بدا متأثراً. لأول مرة أراه متشبثاً بلحظة ماضية.

- ألهذه الدرجة أحببت هذه المرأة؟ سألته بعد قليل.

فتح زوربا عينيه.

- لأنك ما زلت شاباً يا سيدي، ماذا تفهم؟ عندما يشيب شعر سعادتكم، تعال وقتها لنتحدث في هذه القضية الأبدية....

- وما هي القضية الأبدية؟

- المرأة. كم مرة يجب أن أقولها لك؟ القضية الأبدية هي المرأة. الآن أنت مثل الديك الصغير يأتي الدجاجة بسرعة البرق وبعدها يرفع عنقه ويصعد على روثه ويصيح متباهياً. لا ينظر إلى الدجاجات، بل ينظر إلى أعرافهن. ماذا يفهم عن الحب؟ لا شيء، عليه اللعنة!

بصق على الأرض باشمئزاز؛ أشاح بوجهه بعيداً، لم يرغب أن ينظر نحوي أو إلي.

- حسناً يا زوربا، سألت مرة أخرى، وماذا عن نوسا؟

- في ليلة، أجاب، عدت إلى البيت ولم أجدها. رحلت. كان قد مر جندي وسيم على القرية في تلك الأيام وهربت معه! انفطر قلبي، صار أشلاء؛ لكن قلبي الملعون عاد إلى طبيعته الأولى بسرعة. ألم ترَ بعض أشرعة المراكب المرقعة بالأسود والأبيض وقد خيطت بخيط سميك، فلا تنشق أو تقطع أبداً حتى في العواصف العاتية؟ هذا هو قلبي، له ألف ثقب وألف رقعة، لكنه لا يهزم أبداً.

- ألم تغضب من نوسا يا زوربا؟

- ولماذا أغضب؟ قل ما شئت؛ المرأة شيء آخر يا سيدي، شيء مختلف، ولا تنتمي لجنس البشر. لماذا أغضب؟ إنها كائن غير مفهوم، وكل قوانين وأديان الدولة لا تفهم ذلك. لا

يمكن أن تتعامل هكذا مع المرأة، لا! فهم يعاملونها بقسوة يا سيدي، وهذا ليس عدلاً... إذا كان الأمر في يدي لأسن القوانين، كنت سأضع قوانين للرجل وأخرى للمرأة، عشر، مائة، ألف وصية للرجل؛ فهو رجل يستطيع أن يحتمل. لكن لا يجب أن يكون هناك أي وصية أو قانون للمرأة. كم مرة يجب أن أقول لك يا سيدي؟ المرأة كائن ضعيف. في صحة نوسا يا سيدي!

في صحة النساء! وليمنحنا الرب المزيد من الإحساس والمعرفة نحن الرجال!

شرب، رفع يده، وأنزلها بشكل مفاجئ كأنه يحمل فأسًا.

- ليمنحنا مزيدًا من الإحساس والمعرفة، قال، أو يجري لنا عملية جراحية، صدقني، فقد قضي علينا، ضعنا يا سيدي!

اليوم، يهطل المطر خفيفاً، ناعماً، تمتزج السماء بالأرض اللانهائية بعذوبة ورفق. يستعيد ذهني صورة نقش هندي على قطعة حجر رمادي: رجل يطوق ذراعيه حول امرأة ويتحد معها في نعومة وعذوبة متناهية إلى الدرجة التي تجعلك تظن أن الزمن نحت هذا الامتزاج في أجسادهم، كما ترى حشرتين قد امتزجتا وبدأ المطر الناعم يتساقط فابتلت أجنحتاهما، وبدأتا في الغرق والذوبان معاً ملتصقتين متحدتين وتبتلعهما الأرض بنهم وهدوء.

أجلس في الكوخ وأنظر إلى العالم من وراء الغيم، والبحر الذي يترك لونه الرمادي المائل للخضرة. على امتداد الشاطئ لا ترى أحداً ولا حتى قاربًا واحدًا ولا طيرًا. من النافذة المفتوحة فقط تدخل رائحة الطين الندي.

نهضت ومددت يدي تحت المطر مثل المتسول. وفجأة داهمتني رغبة في البكاء. اعتراني حزن شديد، ليس من أجلي، لا ليس حزني، لكنه كان حزنًا أعمق، أكثر إظلاماً، كان يصعد من الأرض المبتلة حتى أحشائي. ذعر ورعب. كهذا الذي ينتاب حيواناً يسرح ويرعى هادئاً، وفجأة، ودون أن يرى شيئاً يجد نفسه قد سقط في فخ لا يستطيع منه فراراً.

أردت أن أصرخ، كنت أعرف أن هذا قد يخفف عني قليلاً، لكنني خجلت من فعله.

السماء بدت منخفضة؛ نظرت من النافذة.

السحب قد غطت هضبة المنجم، ووجه المرأة المنحوت عليها قد غرق.

إن ساعات المطر الخفيف تبعث إلى قلبك شيء من النشوة الممزوجة بالحزن، وكأنها فراشة ترش روحك بالماء ثم تغوص في الطين. تأتي إلى ذهنك كل الذكريات المريرة، كل تلك الأشياء التي تظنها قد توارت في ثنايا قلبك - فراق الأصدقاء، ابتسامات نساء قد محيت، آمال مقطوفة مثل فراشات، ولم يبق منها سوى الدود؛ وهذا الدود الآن يتسلق ويرعى فوق أوراق قلبك يقتات عليها.

وبهدوء شديد، ومن خلال المطر والطين المبتل، صعدت إلى قلبي صورة أيالا صديقي القديم المغترب بعيداً في بلاد القوقاز؟ أخذت القلم، انحنيت على الأوراق وبدأت أحدثه، علّي أستطيع أن أشق شبكة المطر وأطرد الحزن من داخلي:

«صديقي الحبيب، أكتب إليك من على شاطئ مهجور في جزيرة كريت، حيث اتفقنا أنا والقدر على أن نمكث بضعة شهور لألعب دور الرأسمالي، صاحب المنجم، رجل الأعمال، وإذا نجحت في لعبتي هذه، سأقول أنها لم تكن لعبة، بل أنني اتخذت قراراً عظيماً وغيرت أسلوب حياتي.

أذكر، عندما رحلت كنت تداعبني وأطلقت علي لقب قارض الكتب. أصابني العناد منذها وقررت أن أترك الكتب والأوراق لبعض من الوقت - أو ربما للأبد - وأن أنزل إلى أرض الواقع والعمل، استأجرت تلاً به منجمٌ، واستأجرت عمالاً، وأحضرت معاول ومجارف ومصابيح وسلالاً وشاحنات وحفرت أنفاقًا ودخلت فيها. هكذا، من أجل أن أعاندك فقط؛ ومن دودة كتب تحولتُ إلى حيوان خُلد أحفر في الأرض.

أتمنى أن تصدق هذا التغيير. عادة؛ كنت تداعبني قائلاً إنك تلميذي. كيف وأنا مدين لك بالكثير مما تعلمته منك، وأنا أعرف من هو المدين ومن هو المدرس: الذي يحاول جاهداً أن يعلم قدر استطاعته تلميذه، ويشاركه تجاربه وشبابه حتى يعلمه، بل ويتعلم منه ويبذل روحه في سبيل هذا الغرض. وفي سبيل هذا راح يتتبع تعاليم تلميذه، في سبيل هذا وصلت إلى جزيرة كريت.

لدي هنا متع كبيرة فهي كلها مصنوعة من العناصر الأبدية للطبيعة: هواء طلق، بحر، خبز من القمح، وفي الليل السندباد البحري الرائع، يجلس متربعاً أمامي يفتح فمه والعالم كله ينفتح أمامي. وعندما لا يكون هناك متسعاً للكلام يقفز من مكانه ويستغرق في الرقص؛ وعندما لا يكون هناك متسع للرقص، لديه سانتوري يضعه على ركبتيه ويبدأ العزف.

أحياناً يكون اللحن متوحشاً ويشعرك بالاختناق وتدرك فجأة أن حياتك بائسة لا لون لها ولا طعم، ولا ترقى إلى حياة بشر؛ وأحياناً يكون اللحن حزيناً، فتشعر أن الحياة تمر وتتدفق مثل الرمال من بين أصابعك ولا يوجد مجال للخلاص.

تروح الروح وتجيء وتترنح بين جدران الصدر، مثل آلة نسيج مكوكية تنسج هذه الشهور القليلة التي أقضيها في جزيرة كريت، ليغفر لي الرب، لكن أظن أنني سعيد.

يقول كونفوشيوس: «أن الكثيرين يبحثون عن السعادة فيما هو أعلى من الإنسان؛ وآخرون في الأدنى؛ لكن السعادة هي على قامة الإنسان.» صحيح. هناك الكثير من السعادات على مقاسات كل البشر. هذه هي، يا تلميذي وأستاذي الحبيب سعادتي؛ أقيسها، وأعيد قياسها بقلق، كي أعلم ما هو قوامي، لأنك تعلم جيداً أن قوام الإنسان لا يبقى دائماً على حاله.

كيف يتغير وفقاً للمناخ، أو الصمت، أو العزلة، أو الرفقة، أو روح الإنسان!

بسبب عزلتي هذه لم يعد يبدو لي الناس مثل النمل كما ستعتقد بالتأكيد، لكن على العكس تماماً: بل مثل وحوش أسطورية، ديناصورات وزواحف ذوات أجنحة، تعيش في هواء كربوني وعالم لزج متعفن كغابة حمقاء غير مفهومة وحزينة. إن المعاني التي تحبها مثل الوطن والأمة والقومية والدولة العظمى والتي أغوتني بدورها، تكتسب نفس القيمة في تيار الفساد القاهر. نشعر أننا مشحونون كي نلفظ بعض المقاطع، أحياناً لا ننطق حتى هذه المقاطع، بل بعض الحروف المتحركة غير المفهمومة! - ثم ننكسر. حتى الأفكار الكبيرة إذا ما توغلت في أحشائها، ترى أنها مجرد دمى محشوّة بالنخالة، وفي النخالة محشور مهماز من الصفيح.

تعلم جيداً ان هذه التأملات والأفكار القاسية لا تمزق كبدي، لكنها ضرورية لتوقد شعلتي الداخلية. وهذا لأنه كما يقول معلمي بوذا، رأيت. وبما أنّني رأيت بطرفة عين منسجمًا مع الخالق المفعم بالخيال المرح، فأستطيع أن أتسق مع دوري على الأرض وألعبه دون حنق أو قنوط. لأن هذا الدور لم يمنحني إياه الذي ورطني في هذه الحياة،

إنما هي رغبتي الشخصية في توريط نفسي. لماذا؟ لأنني رأيت وشاركت في المسرحية التي ألعبها على خشبة المسرح الإلهي.

هكذا، وأنا أقلب بصري في مسرح العالم، أراك في وكرك القوقازي الأسطوري تلعب دورك وتناضل من أجل أن تنقذ الآلاف من بني جنسنا الذين يتعرضون للموت. يا بومومثيوس المزيف ستعاني بالفعل من عذابات القوى الظلامية التي تقاتلها وتقاتلك - الجوع، والبرد القارس والمرض والموت. وأنت، أظنك فخورًا بما أنت عليه، ستسعد بأن القوى الظلامية كثيرة وجبارة؛ لأن هذا سيعطي لموقفك صبغة البطولة خاصة مع اختفاء الأمل واكتساب قواك الروحية مساحة ومدى تراجيديًّا عظيمًا.

هذه هي حياتك التي تظنها سعيدة.

ولأنك تظنها كذلك. قد فصلت هذه السعادة مقاسك وقوامك الآن، الشكر للرب! أن قوامك أكبر وأعظم من قوامي. المعلم الجيد لا يريد أجراً أكبر من أن يتفوق التلميذ على أستاذه.

أما أنا فغالباً ما أنسى، أسخر، أشذ عن الطريق، إيماني ما هو إلا قطع فسيفساء من الشك والكفر، أفكر أحياناً أن أقايض لحظة من حياتي أعيشها في مقابل عمري كله. لكنك تقبض بثبات على إرادتك وعجلة القيادة ولا تنسى، حتى في أسعد اللحظات وأحلكها وأكثرها موتاً لا تنسى أبداً اتجاه طريقك.

هل تذكر عندما كنا نعبر إيطاليا في طريق عودتنا إلى اليونان؟ قررنا حينها أن نذهب إلى بوندو[16] هذا الأقليم الذي كان في خطر آنذاك، أتذكر، ونحن في طريقنا نزلنا من القطار في بلدة صغيرة على عجل حيث لم يكن لدينا متسع من الوقت سوى ساعة واحدة حتى يأتي القطار التالي. دخلنا في حديقة خضراء كبيرة بجوار المحطة؛ أشجارها كانت ذوات أوراق عريضة، وبها أشجار الموز و عيدان القصب ذوات اللون الفضي الداكن تتماوج، والنحل يطير فوق أحد الأغصان المزهرة الذي بدا كأنه يرتعش من فرط السعادة لأن النحل يمتص رحيقه.

---

[16] بوندو: أحد أقاليم شرق اليونان سابقًا، أمّا الآن فيقع داخل الحدود التركية.

رحنا نتمشى في صمت مأخوذين كأننا في نشوة حلم. وفجأة عند منعطف أحد الدروب الخضراء المحفوفة بالأزهار، كانت هناك فتاتان تقرآن كتاباً أثناء سيرهما. لا أذكر إن كانتا جميلتين أو قبيحتين؛ أذكر فقط أن إحداهما كانت شقراء والأخرى سمراء وكانتا ترتديان قميصين ربيعيين.

وبتلك الجرأة التي يتحلى بها المرء في الأحلام، ذهبنا إليهما مبتسمين: «أياً كان ما يقرآنه كنا سنتناقش فيه معهما ببهجة!»

كانتا تقرآن غوركي. وبدأنا في الحديث بسرعة، فلم يكن لدينا الكثير من الوقت، فرحنا نتحدث عن الحياة، عن الفقر، عن ثورة الروح، عن الحب....

لن أنسى أبداً سعادتنا وحزننا. كما لو كنا أصدقاء قدامى وبيننا حميمية قديمة مع هاتين الفتاتين الغريبتين، كنا نشعر كما لو أن لدينا مسؤولية تجاه روحيهما وجسديهما وكنا على عجلة من أمرنا، لأننا بعد لحظات معدودة سنغادر للأبد؛ كان الهواء يعصف نشوة وموتًا.

وصل القطار مطلقاً صافرته، هممنا كأننا نستيقظ من النوم، صافحناهما. كيف أنسى احتضان الأيادي الوديع، الأصابع العشر لم تكن لديها رغبة في الافتراق! كانت إحداهما عابسة بينما الأخرى كانت تضحك وترتعش.

وأذكر أنني قلت لك حينها: «ماذا تعني كلمة الوطن - اليونان - وماذا يعني الواجب؟ هذه هي الحقيقة إذن!» وقد أجبتني: «لا الوطن يعني شيئاً ولا اليونان ولا الواجب، ومن أجل هذا اللا شيء لنضع ونهلك عن طيب خاطر!»

لكن لماذا أكتب إليك هذا الآن؟ أكتب هذا كي أقول لك أنني لم أنسَ أي شيء من كل الذي عشناه سوياً، لاشيء. ولأنني أجد الآن الفرصة أن أعبر من خلال كلماتي هذه عن مشاعري ما لم تتحه لنا عادتنا - السيئة أو الجيدة. التي كانت دائماً تقف عائقاً أمامنا وهي - أن نكبح مشاعرنا.

والآن، ولأنك لست أمامي ولا أراك ولا ترى تعبيرات وجهي ولأنني لا أواجه مخاطرة أن أبدو مرهف الحس أو مضحكاً، أقول لك أني أحبك.»

انتهيت من كتابة الخطاب الذي كنت أتحاور فيه مع صديقي، شعرت بارتياح شديد. ناديت زوربا. كان قابعاً تحت نتوءٍ صخريٍّ كي لا يبتل، يجرب مخططه لإقامة المصعد الهوائي المعلق.

- تعال يا زوربا، ناديته؛ انهض، هيا لنتمشَ إلى القرية.
- يبدو أن مزاجك رائق يا سيدي؛ الجو ممطر. ألا تذهب وحدك؟
- مزاجي رائق بالفعل، وأشعر بالسعادة ولن أفقد هذا الإحساس إذا ذهبنا معاً؛ هيا.

ضحك زوربا.

- يسعدني أنك بحاجة إليّ؛ هيا، لنذهب!

ارتدى معطفه الصوفي ذو القبعة المدببة الذي كنت قد أهديته إياه، وبدأنا السير في الطريق الموحل.

كان المطر يسقط، توارت قمم الجبال، لم تكن هناك رياح، الأحجار كانت تلمع. غطى الضباب تل الفحم، كان وجه المرأة المرسوم على التل يعتريه الحزن، وكأن المرأة قد أصيبت بإغماءة تحت المطر.

- قال زوربا، إن قلب الإنسان ينقبض ساعة المطر، ولا يصح أن تثيره في ساعة المطر.

انحنى عند قاعدة أحد الحواجز وقطف زهرة نرجس برية؛ نظر إليها لوقت طويل بشهوة عجيبة، كأنه يرى النرجس البري لأول مرة، وضعها تحت أنفه وشمها وهو مغمض عينيه، تنفس بعمق وأصدر زفيراً عميقاً وأعطاني إياها.

- لو كنا نعرف ماذا تقول الحجارة يا سيدي، والأزهار، والمطر! فمن الممكن أنها تصرخ، تنادينا، ونحن لا نسمعها. كما نناديها نحن ونخاطبها أحياناً ولا تسمعنا. متى سيفتح العالم آذانه يا سيدي؟ متى سنفتح عيوننا لنرى؟ متى سنفتح أحضاننا للحجارة للزهور للمطر وللبشر كي يضمنا حضن كبير؟ قل لي يا سيدي بربك؟ ماذا تقول الكتب؟

-- «اللعنة على الكتب، فليأخذها الشيطان! قلت مستخدما لغة زوربا في التعبير؛ اللعنة؛ هذا ما تقوله الكتب ولا شيء أخر.

أمسك زوربا بذراعي.

- سأقول لك فكرة يا سيدي، لكن لا تغضب:

أجمع كل ماتملك من كتب وأحرقها. عندئذ، من يدري، إنك لست أحمقاً،بل أنت انسان سوي.... لكن ستستطيع حينها أن تفهم شيئاً!

«صحيح، صحيح! صرخت بداخلي؛ صحيح، لكني لا أستطيع!»

توقف زوربا قليلاً، فكر ثم قال:

- سأفهم أنا.... قال.

- ماذا؟ ماذا قلت، أخبرني يا زوربا!

- لا أدري؛ لكن هكذا يبدو لي، أنني حينها سأفهم الأمر....

- لكني لو قلت هذا أو حاولت، فلربما أفسده أو أخلط الأمور. لكن في يوم ما، عندما سيكون مزاجي رائقاً، سأعبر لك عنه راقصاً.

بدأ المطر يهطل بقوة. وصلنا إلى القرية. بعض البنات الصغار كن في طريق عودتهن من رعي الأغنام، كان الفلاحون قد فكّوا ثيرانهم من السواقي وتركوا حقولهم نصف محروسة، وراحت النساء يلملن أطفالهن من أزقة القرية. كانت هناك فرحة طاغية تسيطر على القرية من قوة المطر المفاجئ؛ كانت النساء تصيح وأعينهن تلمع من السعادة، ومن لحى الرجال كانت تتجمع وتتساقط حبات المطر الغليظة؛ وانبعثت من الأرض رائحة الحشائش والطين المبلل.

تبللت ملابسنا، بل غرقت؛ فانعطفنا إلى المقهى - الجزار المسمى: الحشمة، كان مكتظاً بالناس، كان البعض يلعب الورق، والآخرون يتحدثون بصوت عال مثل الثوار على الجبال. أمام أحد الموائد في العمق وعلى مرتفع من باقي الموائد، تحلق شيوخ القرية حول العم أناغنوستي، كان يرتدي قميصاً أبيض اللون بأكمام واسعة، مافروأندوني كان صامتاً، جاداً يدخن النارجيلة، وعيناه مثبتتان على الأرض، المعلم نصف الكريتي النحيل

ذو الملامح الشرقية، يستند على عصا غليظة ويستمع بابتسامة متعالية إلى رجل ضخم كثيف الشعر عاد لتوه من القلعة ويحكي قصصاً وحكايات عجيبة عن البلاد البعيدة الكبيرة. صاحب المقهى كان يقف في مكانه خلف منضدته يسمع ويضحك بينما يراقب بعينيه الإبريق على النار. فور أن رآنا العم أناغنوستي نهض وقال:

اقتربوا من هنا يا أهل بلدي، قال؛ إن سفاكياناكولي يحكي لنا كل ما رأى وحدث له في البلاد البعيدة.... كم هذا مسل، اقتربوا لتسمعوا.

التفت إلي صاحب المقهى:

- كأسان من العرق يامانولاكي، قال.

جلسنا. الرجل الضخم عندما رأى غرباء تقوقع على حاله وصمت عن الكلام.

- وذهبت هناك إلى المسرح يا كابتن نيكولا؟ سأله المعلم، كي يجعله يكمل حديثه. كيف بدا لك؟ إحك لنا.

فرد سفاكياناكولي يده الكبيرة وأمسك بكأس النبيذ وشربها جرعة واحدة؛ فتشجع.

- طبعاً ذهبت إلى المسرح. فقد كنت أسمع الجميع يتحدث عن كوتوبولي كوتوبولي، فرسمت علامة الصليب على صدري مصلياً وقلت: لمَ لا أذهب كي أرى بنفسي عمَّ يتحدثون وما هو كوتوبولي بحق الشيطان!

- هيا أكمل يا نيكولا، وماذا رأيت إذن؟ سأله العم أناغنوستي.

- وماذا أرى، لم أرَ شيئاً يذكر. فعندما تسمع الجميع يتحدث عن المسرح تظن أنك سترى العجب. لكن خسارة النقود التي دفعتها. كان هناك مقهى مستدير على شكل درّاسة الأرض ويشبه الحانة مليئًا بالكراسي والأضواء والناس. دارت الدنيا بي، أبهرتني الأضواء، قلت:

« لا أعتقد أنهم يمارسون السحر، اللعنة على هذا، سأرحل من هذا المكان!» جاءت فتاة وسحبتني من يدي. «إلى أين تذهبين بي» قلت لها، لكنها سارت بي وعادت لتقول لي: «اجلس!» جلست. كان الناس من أمامي وعلى يميني وعلى يساري ومن كل الاتجاهات. ظننتني سأختنق، فلا يوجد هواء! التفت نحو الجالس بجواري وسألته: «يا بن العم من

أين تخرج كل هذه الراقصات؟» - أجابني من هنا من الداخل» قال وهو يشير إلى ستارة في العمق. فبدأت التحديق نحو الستارة.

كان الرجل على حق، بعد قليل دقت الأجراس، فتحت الستارة وخرجت كوتوبولي التي يحكون عنها. لكن أقسم أنها لم تكن كوتوبولي، فهذه امرأة. امرأة بكل المعاني وبكل أعضائها، وراحت تهز مؤخرتها وعندما تململ الناس ولم تعد لديهم قدرة على التحمل راحوا يصفقون ويصفرون فهرعت إلى الداخل ثانيةً.

انفجر القرويون في الضحك، فغضب سفاكياناكولي وأصابه الخجل؛ والتفت نحو الباب.

- قال محاولاً تغيير الموضوع، إن المطر شديد اليوم.

التفت الجميع نحو الباب؛ وفي نفس اللحظة مرت امرأة مهرولة رفعة فستانها الأسود إلى ركبتيها وشعرها على كتفيها كانت امرأة ممتلئة ذات قوام مشدود وكانت ملابسها قد التصقت على جسدها مظهراً مفاتنها بشكل مغر وشهي، وبدت مثل سمكة جاهزة للأكل.

ارتعدت في مكاني. قلت في نفسي يا لها من وحش كاسر، إنها مثل نمرة آكلة للحوم البشر.

التفتت المرأة ونظرت نظرة خاطفة نحو المقهى للحظة فبدا وجهها اللامع وعيناها ذاتا البريق المبلل.

- يا للعذاراء! تمتم أحد الشباب الصغار ذو لحية ناعمة وعليها زغب بداية الرجولة كان يجلس بجوار النافذة الزجاجية للمقهى.

- اللعنه عليك أيتها الساقطة! انفجر مانولاس خفير القرية؛ تشعلين نيران الرجال ولا تطفئينها بعد ذلك.

الشاب الجالس بجوار النافذة الزجاجية راح يغني؛ بهدوء وتردد ثم علا صوته قليلاً وراح يغني بصوت متحشرج:

من وسادة الأرملة تفوح رائحة السفرجل

ومنذ أن شممته أنا، لم يهدأ فؤادي

صرخ فيه مافروأندوني وهو يرفع بخرطوم نارجيلته، اخرس!

سكت الشاب. وانحنى رجل عجوز على خفير القرية مانولاكي وقال له:

- قال بصوت خفيض، لقد غضب العم ثانيةً؛ لو كان الأمر بيده لقطع هذه البائسة بيده إرباً - أطال الله في عمرها، ليرحمنا الرب!

- قال الخفير: أيها العجوز أندروليو، أظن أنك تهرول خلف تنورة الأرملة أيضاً. ألا تستحي يا رجل وأنت شماس في الكنيسة؟

- اسمع ما أقوله لك جيداً، ليرحمها ويرحمنا الرب! ألم ترَ كيف يولد أولاد القرية مؤخراً؟ فهم ليسوا أطفالاً، بل ملائكة. ولماذا تظن؟ ليرحم الرب تلك الأرملة! فهي بمثابة عشيقة القرية بأكملها: عندما تنطفئ المصابيح وتظن أنك تحتضن زوجتك، لكنك في مخيلتك تحتضن الأرملة. وهكذا يخرج أطفال القرية بهذا الجمال.

صمت العجوز أندروليو للحظة؛ ثم بعد قليل قال:

- يا لسعادة الأفخاذ التي تعانقها! همس العجوز؛ لكم أتمنى لو كنت شاباً في العشرين مثل بافلي ابن مافرواندوني.

- سنراه الآن عائداً إلى البيت، قال أحدهم ضاحكاً.

راحوا ينظرون نحو الباب؛ كان المطر يهطل بشدة، فكان ارتطامه بحجارة الأرض يُحدث صوتاً كالقهقهة، وراح البرق يومض من وقت لآخر في السماء. كان زوربا لا يزال مذهولاً منذ مرور الأرملة، التفت نحوي قائلاً بإشارة ما:

- يبدو أن المطر توقف يا سيدي، هيا بنا!

على الباب ظهر صبي صغير أشعث الرأس حافي القدمين ذو عينين زائغتين، كان يبدو مثل أيقونة ضخمة للقديس يوحنا المعمدان بعينيه الجاحظتين من الجوع والصلوات.

- مرحباً ياميميكو! صاح البعض ضاحكاً.

لكل قرية مجذوبها، وإن لم يكن لديها صنعته، فقط من أجل أن يمضوا أوقاتهم؛ كان ميميكو مجذوب هذه القرية.

- يا أهل القرية، صاح ميميكو بصوت نسائي مستعار؛ يا أهل القرية، إن الأرملة سورميلينا قد أضاعت نعجتها؛ من يجدها سيربح خمس جالونات من النبيذ!

-- اخرج من هنا أيها المجذوب، قال مافروأندوني.

تقوقع ميميكو مرتعباً في ركن بجوار الباب.

- اجلس يا ميميكو، اشرب كأساً من العرق حتى لا يقتلك البرد! قال العم أناغنوستي الذي رق لحال المجذوب. كيف كان سيكون حال قريتنا بلا مجذوب!

شاب بوجه باهت وذقن بزغب نابت وعينين زرقاوين ظهر عند الباب لاهثاً يقطر الماء من شعره على جبهته.

- أهلاً ببافلي! صاح مانولاكي؛ بينما كان ابن عمه ينضم إلى الصحبة.

التفت مافرواندوني نحو ابنه، ضم حاجبيه وقال. «هذا هو ابني: فكر قليلاً ثم قال. هذا التافه الصغير، من يشبه بحق الشيطان؟ كم أود أن أمسك به من قفاه وأضربه على صخرة مثل الأخطبوط!»

كان زوربا يجلس وبدا كأنه يجلس على جمر. كانت الأرملة قد أشعلت رأسه، لم تعد جدران المكان تتسع له...

-- هيا بنا يا سيدي... كان يقول لي من وقت لآخر؛ سنختنق هنا!

بدا له كما لو أن السحب قد تبددت وأن الشمس قد سطعت.

التفت نحو صاحب المقهى:

- من هي هذه الأرملة. سأل وهو يتصنع اللامبالاة.

-- إنها فرس أصيلة، أجابه كوندومانولي

وضع إصبعه عند شفتيه وأشار بعينيه وراح يحدق في الأرض ثانية.

وكرر قائلاً:

- إنها فرس، لكن دعنا لا نتكلم عنها كي لا تصيبنا اللعنات!

نهض مافروأندوني ولف خرطوم النارجيلة حول عنقها.

- معذرة، قال؛ سأذهب إلى البيت. هيا يا بافلي، اتبعني!

أخذ ابنه الذي سار أمامه واختفيا في المطر. نهض مانولاكي وذهب خلفهم.

راح كوندومانولي واستقر على المقعد الذي كان يجلس عليه مافروأندوني مباشرة.

- سيموت هذا المسكين من شره. قال هامساً حتى لا يسمعه الجالسون على الطاولات المجاورة. قد اشتعلت النار في بيته وحدث بلاء عظيم، فقد سمعت بأذني هاتين ابنه بافلي يقول له: «إذا لم أتزوجها فسأقتل نفسي!» لكن هذه الساقطة لا تريده؛ وتنبذه بعيداً عنها، وتقول إنه صبيٌّ صغيرٌ قذر

بدأت الديكة في الصياح، وتوقف المطر قليلاً.

-- هيا بنا يا سيدي، قال زوربا ثانية وهو ينهض.

قفز ميميكو من الركن الذي كان يقبع فيه وهرع في إثرنا.

كانت أحجار الشوارع تلمع، والأبواب مبللة وقد صارت سوداء من فرط ابتلالها، خرجت العجائز بالسلال ورحن يجمعن الحلزون.

اقترب مني ميميكو، لمس ذراعي وقال:

-- أعطني سيجارة يا سيد! علك تهنأ بكل من تحب.

مد يده النحيلة السمراء من حرقة الشمس.

أعطيته، وأشعلتها له. سحب الدخان بعمق وقد أغمض عينيه قليلاً ثم تمتم قائلاً:

- كما الباشا سعيد أنا الآن.

- إلى أين أنت ذاهب؟ سألته.

-- إلى بستان الأرملة قال. فقد قالت إنها سوف تطعمني إذا وجدت نعجتها الضائعة.

كنا نسير على عجل. انقشعت السحب قليلاً، وظهرت الشمس. بدت القرية مغسولة وضاحكة.

- هل تعجبك الأرملة يا ميميكو؟ سأله زوربا وبقي فكه السفلي متهدلاً.

همس ميميكو ضاحكاً.

-- ولمَ لا؟ ألم أخرج من نفس السرداب يا بن العم؟

-- نفس السرداب؟ قال متسائلاً. ماذا تريد أن تقول يا ميميكو؟

-- أعني من بطن الأم.

قد أصابني الرعب. وفكرت أن شكسبير وحده الذي يستطيع في أكثر لحظاته إبداعاً أن يقول عبارة بهذه الواقعية والفجاجة ليفسر السر المظلم الكريه للولادة.

نظرت إلى ميميكو؛ كانت عيناه كبيرتان، منتفختان وبهما حول بسيط.

- كيف تمضي يومك يا ميميكو؟

- كيف أمضيه يا باشا؟ أستيقظ في الصباح، آكل قطعة من الخبز. ثم أقوم بالأعمال اليدوية أينما أجد، ألبي بعض الطلبات، أنقل الروث، أجمع وأنظف روث الخيل، لدي صنارة أذهب للصيد أحياناً. أقيم مع عمتي، السيدة لينو، هي نادبة محترفة. لابد أن تتعرفوا عليها، فكل الناس يعرفونها. قد قاموا بتصويرها في أحد الأيام. وعندما يحل الليل، أعود إلى المنزل أتناول شيئاً من الطعام، أشرب بعض النبيذ إذا كان موجوداً؛ إن لم يكن، فماء الرب وفير. تنتفخ بطني. ثم، تصبحون على خير!

- ولن تتزوج يا ميميكو؟

- أنا، وهل أنا مجنون؟ ماذا تقول يا صديقي؟ هل أبحث عن مشاكل أحشرها في رأسي؟ المرأة تحتاج إلى حذاء! أين أجده؟ أنا أمشي حافي القدمين.

- أليس لديك حذاء؟

- بل لدي، فقد توفي في العام الماضي أحد الرجال، فخلعت عمتي الندابة لينيو الحذاء من قدميه وأعطتني إياه. أنتعله عندما أذهب إلى الكنيسة في الأعياد أمام الكهنة. ثم بعد ذلك أخلعة وأعلقه في رقبتي وأعود إلى البيت.

- وأي الأشياء تحب يا ميميكو في هذا العالم؟

- أولاً، أحب الخبز. كم هو جميل! عندما يكون ساخناً ومصنوعًا من دقيق القمح! وحتى لو كان من الشعير! ثانياً، النبيذ. ثم بعد ذلك النوم.

-- والنساء؟

- أوف، أكل وشراب ونوم أقول لك! كل ما هو دون ذلك هو مجرد هموم!

- والأرملة؟

- عليها اللعنه، فليأخذها الشيطان، ابتعد عنها إن كنت تريد الخير لنفسك!

بصق خلفه ثلاث مرات ورسم علامة الصليب.

- وهل تجيد القراءة والكتابة؟

- ماذا! أرسلوا بي عنوة إلى المدرسة عندما كنت صغيراً؛ لكنني كنت محظوظاً فقد أُصبت بالتيفوس وأصبحت أبلهَ. وهكذا تم إنقاذي من المدرسة!

لكن زوربا قد أصابه الملل من هذا الحديث، كان ذهنه مشغولاً بالأرملة.

- يا سيدي... قال وسحبني من ذراعي.

اذهب أنت للأمام، قال آمراً ميميكو؛ ثم قال لي بصوت خفيض: لدينا ما نتحدث عنه. كان يبدو متأثراً بعض الشيء.

- يا سيدي، أريد أن أعتمد عليك في هذا الأمر، لا يجب أن تخذل جنس الرجال! إن الرب قد أرسل لك هذه اللقمة الشهية، لديك أسنان، لا تتركها! مد يدك وخذها! فلماذا خلق لنا الرب اليدين؟ كي نمسك بها الأشياء؛ تناولها إذن وأمسك بها! لقد رأيت في حياتي الكثير من النساء، لكن هذه الأرملة تحديداً تهز قلاعاً عليها اللعنة!

- لا أريد المشاكل! أجبته غاضباً.

غضبت، لأنني في أعماقي كنت أشتاق أن أضم هذا الجسد بين ذراعي، مثل وحش كاسر شبق يقطر مسكاً.

- لا تريد المشاكل! ردد زوربا مندهشاً؛ إذاً ماذا تريد يا سيدي؟

لم أجب.

- الحياة مشاكل، أكمل زوربا، لكن الموت ليس كذلك. أتعرف ماذا تعني أن تكون حياً؟ أن تفك حزامك وتبحث عن المشاكل والمتاعب.

لم أتكلم. كنت أعرف أن زوربا على حق، كنت أعرف أنه ليس لدي الجرأة. كانت حياتي قد تسير في درب خطأ، لم يعد اتصالي مع البشر سوى مونولوجاً داخلياً أو مناجاة للذات. لقد انهرت ووصلت إلى الحضيض، ولو تعين علي الاختيار بين حب امرأة وقراءة كتاب جيد، كنت سأختار الكتاب.

- لا تحسبها كثيراً يا معلم، اتبع زوربا، دعك من الأرقام واكسر هذا الميزان الأحمق، أقفل دكانك، اسمع كلامي كما أقول لك. فالآن إما أن تنقذ روحك أو تسجنها للأبد. اسمع يا سيدي، خذ منديلاً، واربط فيه بعض الليرات الذهبية، لا تضع نقوداً ورقيه فهي لا تبرق ولا تبهر العيون وأرسلها مع ميميكو إلى الأرملة، ولقنه ما سوف يقوله لها على لسانك: «تحياتي، من صاحب منجم الفحم، هذا هو منديلي. هدية بسيطة وحب كبير. لا تحزني على نعجتك، وإن ضاعت فلا يهمك شيء؛ فنحن هنا بجوارك؛ لا تخافي ولا تحزني! رأيتك تمرين من أمام المقهى وسرقت عقلي»

هذا هو. ثم بعد ذلك مباشرة في الليلة التالية - السرعة مطلوبة في مثل هذه الأمور - اذهب واطرق باب بيتها. لقد ضللت الطريق قل، وقد حل الظلام واطلب منها أن تعطيك مصباحاً. ثم، آه، سينتابك دوار مفاجئ، ستطلب منها كوباً من الماء. لا بل من الأفضل أن تشتري لها نعجة وتذهب بها إليها: «ها هي النعجة التي ضاعت منك يا سيدتي. قد وجدتها!» اسمع مني يا سيدي، والأرملة ستكافئك وتدعك تدخل البيت - آه لو كنت أنا في مكانك! - ستدخل كما أقول لك، مثل فارس يمتطي حصانه ويدخل إلى الجنة. إنها جنة أخرى أيها المسكين، لا تستمع إلى القساوسة؛ فهذه هي الجنة؛ لا توجد جنة أخرى!

اقتربنا من بستان الأرملة، تنهد ميميكو وراح يغني بصوته المخنث:

الكستناء يحب النبيذ والجوز يحب العسل

والفتى للفتاة، والفتاة للفتى.

سار زوربا بخطى واسعة، كانت فتحتا أنفه ترتعشان. توقف، أخذ نفساً عميقاً ثم نظر إلي:

-- حسناً؟ قال ثم انتظر متلهفاً.

- هيا إذن، لنذهب! أجبت مقاطعاً وأسرعت خطوتي أنا أيضاً.

هز زوربا رأسه وهمهم بشيءٍ لكني لم أسمعه.

عندما وصلنا إلى الكوخ، جلس متربعاً، وضع السانتوري على ركبتيه، رفع رأسه، غرق في تأمله كما لو كان يفرز الأغاني في رأسه، وبدأ يعزف لحناً حزيناً شديد المرارة...

من وقت لآخر كان يلقي عليّ نظرة بطرف عينه؛ كنت أشعر أنه كان يود أن يقول لي شيئاً لكن ليس بالكلام، كان يحدثني بالسانتوري. كيف أن حياتي راحت هباءً، كيف أنني أنا والأرملة ما نحن إلا دودتين نعيش لحظات تحت الشمس ومن ثم سنموت إلى الأبد. إلى متى! إلى متى!

نهض زوربا فجأة، فهم أن جهده يذهب هباءً. سند السانتوري على الحائط، أشعل سيجارة. ثم بعد قليل قال:

- سأفشي لك سراً قاله لي شيخ مسلم عجوز في سالونيكي، سأقوله لك وليذهب إلى الجحيم.

كنت بائعاً متجولاً آنذاك في سالونيكي. أطوف الأحياء وأبيع بكرات الخيطان والإبر وعطر القديسين والبخور والبهارات... كان لدي صوت قوي وجميل كالكروان، والنساء يستسلمن للصوت الشجي،(وما هو الشيء الذي لا يستسلمن له الخنزيرات!). ماذا يحدث في أحشائهن، ولا حتى الشيطان يعرف! يمكن أن تكون دميماً، أعرج؛ لكن إن كان صوتك عذباً في الغناء عندها تسلب عقولهن تماماً.

كنت بائعاً متجولاً إذن وكنت أمر على المحلات التركية؛ وكما يبدو أن ثرية تركية فتنت بصوتي. نادت على الشيخ العجوز وملأت كفه بحفنة من النقود الفضية. «يا إلهي، أمان أمان! اذهب وقل لهذا البائع أنني أريد أن أراه، فلم أعد أحتمل!»

جاءني العجوز: «أيها الروميّ، تعال معي، قال لي! - لن آتي معك، قلت له، إلى أين ستذهب بي؟

-- إلى إحدى الهوانم أيها الروميّ، صافية كالماء العذب، تنتظرك في دارها، تعال!» لكن كنت أعرف أنهم يقتلون المسيحيين في الأحياء التركية ليلاً. «قلت له لا، لن آتي معك! - وألا تخاف الله أيها الرومي الكافر، إن من يستطيع أن يأتي امرآة ولم يفعل، فإنه يرتكب إثماً عظيماً. أن تدعوك امرأة إلى فراشها ولا تذهب، انتهت روحك! فهذه المرأة تتنهد في يوم الحساب العظيم، وتنهدها هذا سيحطمك تماماً، أيًّا كنت أنت، وإن كنت أصلح الصالحين فسوف تحرق روحك في الجحيم!»

تنهد زوربا.

- لو أن هناك جحيماً، فسأذهب إلى الجحيم، وسيكون هذا هو السبب. ليس لأنني سرقت أو قتلت أو زنيت؛ لا، لا! كل هذه الأشياء يغفرها الرب. لكني سأذهب إلى الجحيم لأنني في تلك الليلة كانت هناك امرأة تنتظرني على فراشها ولم أذهب...

استيقظ، أشعل النار، راح يطهو طعاماً. نظر إلي بطرف عينيه. ابتسم باشمئزاز:

- إذا أردت أن تطرق باب الأصم، فاضرب عليه إلى الأبد! تمتم زوربا، وانحنى ينفخ في الحطب المبتل.

أصبح النهار أقصر؛ وفي ساعاته الأخيرة كان القلب ينقبض. حيث يعود إليه الرعب الأزلي الذي كان ينتاب الإنسان البدائي عندما كان يرى الشمس في شهور الشتاء تنطفئ مبكراً. «غداً سيختفي النور للأبد» كان يقول يائساً، وكان يسهر طوال الليل فوق قمم الجبال مرتجفاً تأكله الظنون والمخاوف: ستظهر الشمس أم لا؟

كان زوربا يعيش هذا الضيق والقلق بشكل أعمق وأكثر بدائية مني. ولكي يتفادى هذا الشعور كان لا يخرج من أنفاق المنجم التي شقها في باطن الأرض إلا عندما يأتي الليل وتسطع النجوم في السماء.

كان زوربا قد اكتشف عرقاً من الفحم، به القليل من الرماد والرطوبة وغني بالحريرات، كان زوربا سعيداً بهذا الاكتشاف لأنه ترجمه مباشرة إلى مكاسب مالية وتحولات عظيمة في حياته - سفر، نساء ومغامرات جديدة. لم يكن لديه صبر حتى يكسب الكثير من المال ليفرد جناحيه ويطير - فقد كان يسمي النقود أجنحة - ينفقها ليطير.

لهذا كان يسهر الليالي الكاملة ليختبر ويجرب النموذج الصغير الذي صنعه للمصعد الهوائي المعلق الذي يريد إنشاءه. من أجل أن يجد زاوية الميل الصحيحة، كي تهبط الأخشاب بشكل أنعم كما لو كانت تحملها الملائكة.

أخذ يوماً ورقة كبيرة وبعض الأقلام الملونة ورسم جبلاً وغابة، والجسر المعلق والأخشاب وهي تنحدر عليه وهي معلقة على الأسلاك، وقد رسم كل لوح من الخشب بجناحين زرقاوين. وفي الميناء المستدير رسم قوارب سوداء وبحارة بلون أخضر، مثل ببغاوات صغيرة. وبعض الزوراق تحمل جذوع أشجار. وأربعة كهنة يقفون في الأربعة أركان، ومن أفواههم كانت تنطلق شرائط بحروف سوداء كبيرة: «رب عظيم بديع الصنع!»

في الأيام الأخيرة، كان زوربا يشعل الموقد ويطبخ لنأكل بسرعة ثم يختفي في شوارع القرية. وبعد بعض الوقت كان يعود متجهماً.

-- أين كنت وأين تذهب يا زوربا؟ سألته.

-- دعك من هذا يا سيدي، ثم غير الموضوع.

ذات ليلة عندما عاد، سألني بقلق بالغ:

- هل هناك إله؟ أخبرني بصراحة يا سيدي، وإن كان الرب موجودًا - فكل شيء وارد - كيف تتخيله؟

رفعت كتفيّ، ولم أجب.

- فأنا، لكن لا تضحك يا سيدي، أتخيل الرب يشبهني تماماً. ربما يكون أطول قليلاً، أقوى، أكثر جنوناً؛ وخالداً. يجلس مسترخياً على فرو الغنم اللين الناعم، وكوخه الذي يسكنه في السماء. وبالطبع ليس مصنوعاً من صفائح الوقود الفارغة مثل كوخنا، لكنه مصنوع من السحاب. لا يمسك في يمينه سيفًا ولا ميزانًا - فهذه الأدوات للمجرمين والبقالين؛ الرب يمسك بإسفنجة كبيرة مليئة بالماء، مثل سحابة معبأة بالمطر. على يمينه الجنة وعلى يساره الجحيم. تأتي إليه الروح المسكينة صارخة عارية ترتعش لأنها قد فقدت جسدها. ينظر إليها الرب ويضحك من خلف شاربيه، لأنه يلعب دور الغول، «تعالي هنا، ويغلظ صوته، تعالي هنا أيتها الملعونة!» ويبدأ التحقيق. تسقط الروح تحت قدمي الرب.

«تصرخ، يا ويلاه؛ الرحمة!» وتبدأ في الاعتراف بكل ما اقترفت. تحكي وتقول وتسهب بلا نهاية. والرب يتململ ويتثاءب. «كفى؛ اصمتي، يصرخ فيها بحزم!» ويضرب ضربة واحدة بالإسفنجة فيمحو كل الذنوب. «اغربي عن وجهي واذهبي إلى الجنة! يقول لها. - يا ملاك الآخرة بطرس، ضع تلك المسكينة أيضاً في الداخل!»

فلا بد أن تعرف يا سيدي، أن الرب نبيل وعظيم؛ وعين النبل والعظمة هو أن تسامح وتغفر!

في تلك الليلة أذكر أنه عندما قال لي زوربا هذا، ضحكت كثيراً؛ لكن، من يومها وعظمة الرب قد تشكلت ونضجت بشكل كامل في داخلي، بأنه رؤوف، رحيم وقدير.

في الليلة التالية، بينما كنا جاثمين في كوخنا ونشوي حبات الكستناء على الموقد، التفت لي زوربا ونظر إلي طويلاً، وكأنه يريد أن يقول سراً خطيراً. وفي النهاية لم يطق صبرا:

- كنت أريد أن أعرف يا سيدي، قال، ما الذي يجعلك تتمسك بي ولا تشدني من أذني وتلقي بي إلى الخارج! ألم أقل لك أنهم يطلقون علي اسم العفن الفطري، وهذا لأنني أينما حللت تحل الكوارث... سينهار عملك وتسوء أحوالك؛ أنصحك بأن تطردني!

- إنك تعجبني يا زوربا، أجبته؛ ولا تسأل كيف أو لماذا.

- لكنك لا تفهم يا سيدي، إن وزن رأسي ليس هو الوزن الطبيعي ربما يكون أثقل قليلاً أو أخف قليلاً لكنه بالتأكيد ليس الوزن الطبيعي. ولكي تفهمني: منذ أيام وتلك الأرملة لا تجعلني أنعم بأي هدوء. ليس من أجلي، لا، أقسم لك. فأنا لا أهتم بأمرها، عليها اللعنة في كل الأحوال! فأنا أعلم أني لن ألمسها أبداً فليست لدي الأسنان لأمضغ وجبة كهذه... لكنني لا أريد أن تذهب هباءً. لا أريدها أن تنام وحيدة. هذا ليس من العدل يا سيدي، قلبي لا يحتمل هذا أبداً. أدور في الليل في بستانها - لهذا أختفي أحياناً وتسألني أين أذهب - أتعرف لماذا؟ لكي أرى إن كانت تذهب إلى أحد أو إن كان أحد يذهب إليها فقط من أجل أن يطمئن قلبي.

ضحكت.

-- لا تضحك يا سيدي! إذا نامت إمرأة وحيدة، فهذا ذنبنا نحن الرجال. سنسأل عن هذا أمام الرب في يوم الحساب. فالرب يغفر كل الذنوب كما قلنا، يحمل الإسفنجة ويمحوها جميعاً؛ إلا هذا الذنب فلا يغفره أبداً. الويل للرجل يا سيدي الذي يكون بمقدوره أن ينام مع امرأة ولا يفعل؛ والويل للمرأة التي يكون بمقدورها أن تنام مع رجل ولا تفعل. تذكر ماقاله لي الشيخ التركي المسلم.

صمت قليلاً؛ ثم قال فجأة:

- من الممكن أنه عندما يموت شخص، أن يبعث من جديد؟ سأل زوربا

- لا أظن ذلك يا زوربا.

- ولا أنا. لكن إن كان هذا محتملاً، فهولاء الناس إذن الذين يرفضون ويعصون ويذنبون في ذلك الأمر، لنسمهم المذنبين، سيعودون ثانيةً إلى الأرض - أتدري في أي صورة؟ في صورة بغال!

صمت مرة أخرى، ثم فكر؛ وفجأة برقت عيناه.

- من يدري، قال بسعادة، فمن الممكن أن تكون كل البغال التي نراها اليوم في عالمنا هذا، أن تكون هؤلاء المذنبين، الحمقى والمعوقين الذين كانوا يعيشون بيننا رجالاً منهم ونساء. ولهذا صاروا بغالاً؛ ولهذا فعندهم كل هذا العناد لذلك فهم يركلون ويرفسون. ما رأي سعادتكم يا سيدي؟

- حقاً، إن وزن رأسك أقل من المواصفات المتعارف عليها يا زوربا، أجبته ضاحكاً. قم وأحضر السانتوري!

- ليس هناك سانتوري الليلة يا سيدي، معذرة. أتكلم وأتكلم وأقول حماقات - لكن أتدري لماذا؟ لأن ذهني مشغول. الهموم كثيرة وكبيرة. النفق الجديد الملعون سيأكل رأسي. وأنت تحدثني عن السانتوري....

قال ثم أخذ حبات الكستناء من على الموقد، أعطاني حفنة، ثم ملأ الكؤوس بالعرق.

- ليوفقنا الرب! قلت وأنا أقرع الكأس.

- الرب لم يوفقنا، حتى الآن! قال زوربا. فلم نرَ جديداً بعد.

شرب السائل الناري جرعة واحدة ثم تمدد على فراشه.

- غداً، قال، لابد أن أحتفظ بكل قواي وأستجمعها؛ فسوف أحارب آلاف المردة والشياطين. تصبح على خير!

في اليوم التالي، وفي الصباح الباكر، غاص زوربا في النفق. كان العمل قد تقدم في النفق الجديد وعلى امتداد عرق الفحم، لكن الماء بدأ يرشح ويتساقط من السقف، فراح العمال يسدون مصادره بالطين.

كان زوربا قد أحضر جذوع الأشجار كي يوطد النفق؛ لكنه لم يهدأ؛ فلم تكن عروق الخشب غليظة كما ينبغي، وبغريزته وحدسه القويين الذين لا يخطئان عرف ما يدور في متاهة ذلك النفق وكأنه جسده، شعر أن هذه الدعائم لم تكن كافية ولا قوية وسمع صوتاً خيفاً ربما لا يسمع بالسمع المجرد صوت صرير وكأن الدعائم تتنهد من فرط ثقل سقف النفق عليها.

كما أن هناك شيئاً آخر جعل زوربا اليوم أكثر قلقاً: في اللحظة التي كان يستعد فيها لنزول النفق، مر قس القرية، القس ستيفانوس، مر عليهم ممتطياً بغلته وهو في طريقه نحو دير النساء المجاور لكي يقرأ على إحدى الراهبات تصارع سكرات الموت. وفور أن رآه زوربا، استطاع قبل أن يحدثه أن يبصق ثلاث مرات في صدره ليطرد النحس.

- صباح الخير يا أبانا! أجاب بنصف فمه مفتوحاً على تحية القس.

ثم قال بصوت خفيض:

-- أعوذ بالملكوت من لعناتك وشيطانك ونحسك يا ستيفانوس!

لكن لم يشعر أن تعويذته هذه كانت كافية كي تطرد النحس والشر، ثم هبط إلى النفق الجديد حانقاً متذمراً.

رائحة ثقيلة من الفحم والأستلين؛ كان العمال قد بدأوا قبل يوم أمس بتثبيت الدعائم وتوطيدها في النفق.

ألقى زوربا عليهم تحية الصباح بحنق واقتضاب وشمر ساعديه وانهمك في العمل.

كان حوالي عشرة من العمال يضربون عرق الفحم بالفؤوس فيتكوم الفحم تحت أقدامهم، والآخرون كانوا يضعونه بمجارفهم في عربات صغيرة ويحملونه إلى الخارج.

توقف زوربا لحظة؛ أشار إلى العمال؛ وراح ينصت. كما يفعل الفارس مع حصانه، والقبطان مع سفينته، كان زوربا قد امتزج بالمنجم و بدأ يشعر أن أنفاقه هي عروق تجري في جسده، كان يشعر بما لا تشعر به تلك الكتل السوداء في بطن الجبل، بقوة وشفافية

راح ينصت باهتمام بالغ كأنه يتسمّعُ شيئًا؛ وفي تلك اللحظة كنت قد وصلت أنا. كما لو كان لدي إحساس بشيء ما سيء، وكأن شيئاً قد دفعني للذهاب إلى هناك. نهضت من

فراشي وارتديت ملابسي وانطلقت إلى الخارج، لا أدري لماذا وإلى أين، لكن جسدي اندفع وأخذ الطريق نحو منجم الفحم. ووصلت في نفس اللحظة التي كان زوربا فيها ينصت إلى شيء ما.

- لا شيء.... قال بعد قليل؛ عودوا إلى العمل يا رجال!

التفت زوربا ولمحني، ثم عض على شفتيه:

- ما الذي أتى بك إلى هنا في هذه الساعة المبكرة يا سيدي؟

اقترب نحوي:

- لِمَ لا تصعد خارج النفق حيث الهواء النقي يا سيدي؟ همس لي بصوت خفيض. ربما تأتي في يوم آخر لتتسلى.

- ماذا يجري يا زوربا؟

-- لا شيء.... تخيلت بعض الأشياء. فلقد رأيت القس اليوم في الصباح الباهر، اذهب الآن!

- إذا كان هناك أي خطر، أليس من العيب والعار أن أذهب؟

- بلى، قال زوربا.

- أكنت سترحل أنت في حالة كهذه؟

- لا.

- إذن؟

- أجاب بغضب، ما يجب أن يفعله زوربا شيء، وما يجب على الآخرين شيء آخر. لكن إن كنت تعلم أنه من العار والعيب أن ترحل، فلا ترحل؛ ابقَ هنا.

أخذ فأساً، مد قدميه وأخذ يدق بعض المسامير الغليظة في دعامات السقف الخشبية. أخذت أحد المصابيح وذهبت نحو الأسفل أغوص في الطين، نظرت إلى عرق الفحم اللامع الداكن اللون كالكستناء؛ غابات ممتدة هائلة غاصت في الأرض منذ ملايين السنين، ابتلعتها الأرض وهضمتها وشكلتها الأرض كأطفال لها. الأشجار أصبحت فحماً، وجاء زوربا ووجده.

علقت المصباح في مكانه ورحت أرقب زوربا الذي كان مستغرقاً تماماً في عمله، اتحد مع الأرض والمطرقة والفحم تماماً كما لو صاروا كلهم في جسد واحد؛ كان يحارب ويعاني مع الدعائم الخشبية والسقف الذي ترهل. كان يحارب الجبل كله، كان يريد أن يأخذ الفحم ويرحل. كان يشعر بكل الثقة وهو يضرب ويصوب بنجاح قوته نحو الأماكن الضعيفة حتى يسيطر عليها. غطاه الفحم تماماً وصار مموهاً، كنت لا أرى منه سوى بياض عينه الذي كان يبرق، وكأن العالم قد تحول إلى كرة من الفحم وهو نفسه قد صار قطعة من الفحم كي يتمكن من مراوغة خصمه واختراق حصونه الداخلية.

- سلمت يمينك يا زوربا! صحت بإعجاب دون أن أشعر.

لكنه لم ينتبه ولم يلتفت. ليس لديه الوقت كي يتبادل أطراف الحديث مع كائن مرفه مثلي بدلاً من أن يمسك بفأس يمسك في يده قلم رصاص، كان مشغولاً ولم يقبل أن يتكاسل ويتحدث. «لا تحدثني عندما أعمل قال لي ذات ليلة؛ فمن الممكن أن أفقد أعصابي!» - تفقد أعصابك يا زوربا، لماذا؟ - دائماً تسأل لماذا لماذا، مثل الأطفال الصغار! كيف أشرح لك؟ أنا منهمك في عملي. مشدود من رأسي حتى أخمص قدمي، غارق في التفكير في الحجارة والفحم وأحارب معهم أو حتى مع السانتوري. إذا لمستني فجأة وأنا مستغرق أو حدثتني فمن الممكن أن أفقد أعصابي فجأة؛ لكن كيف تفهم أنت هذا!»

- نظرت في ساعتي؛ اقتربت من العاشرة.

- حان وقت الراحة يا رجال، لقد مر الوقت، قلت.

فوراً وبسعادة ألقى العمال معاولهم في الركن، وراحوا يمسحون عرقهم ويستعدون للخروج من النفق. كان زوربا لا يزال مستغرقاً في العمل، لم يسمع. حتى لو سمع لم يكن ليتحرك.

- انتظروا، قلت للعمال، انتظروا حتى أعطيكم سجائر.

بحثت في جيبي أبحث عن علبة السجائر، التف العمال حولي ينتظرون.

فجأة قفز زوربا وألصق أذنه بجدار النفق؛ وعلى ضوء مصباح الأستيلين لمحت فمه يرتعش.

- صحت، ماذا جرى يا زوربا؟

وفي هذه اللحظة، بدأ سقف النفق كله يرتعش فوقنا.

- اخرجوا! أخرجوا، صاح زوربا بصوت أجش.

هرعنا نحو المخرج؛ لكن قبل أن نصل إلى الدعامة الأولى، سمعنا صريراً آخر فوقنا أقوى هذه المرة. في هذه اللحظة رفع زوربا أحد الجذوع الضخمة ليسند الدعامة التي بدأت تنهار؛ إذا نجح في هذا ربما يتماسك السقف للحظات تُتاح لنا كي نخرج.

- اخرجوا! سمع الآن صوت زوربا مكتوماً كما لو كان يخرج من باطن الأرض.

هرعنا كلنا بكل الجبن الذي ينتابنا في تلك اللحظات نحو الخارج، دون أن يعنينا ما الذي يجري لزوربا.

بعد قليل من اللحظات، استجمعت قواي وعدت للخلف.

- صحت، زوربا، زوربا!

خيل إلي أنني أصيح، لكنني أدركت ان صوتي حشر في حلقي؛ كان الخوف قد خنق صوتي.

شعرت بالخزي. أخذت خطوة أخرى قافزًا للخلف مادًّا ذراعي. كان زوربا في هذه اللحظة قد نجح في تثبيت الدعامة الكبيرة وراح يجري بسرعة وقوة في الوحل ناحية المخرج. كان يجري بسرعة فاصطدم بي في الظلام فسقط فوقي ودون أن نشعر احتضن كل منا الآخر.

- اخرج لابد أن نخرج من هنا!

هرولنا، وصلنا نحو الضوء؛ كان العمال متجمعين عند المدخل صامتين مرعوبين شاحبين.

سمعنا صوت صرير ثالث أشبه بالتصدع لكنه كان أقوى في هذه المرة، مثل جذع شجرة يكسر من المنتصف. وفجأة صوت هدير وانهيار أحدث اهتزازاً في الجبل، وانهار النفق.

- لقد تركتوا معاولكم وفؤوسكم بالداخل: صاح زوربا بغضب.

صمت العمال.

- لمَ لم تأخذوها؟ صاح زوربا ثانيةً وكان في حالة هياج شديدة. هل تبوّل كل منكم في سرواله من شدّة الخوف، يا للرجال!. يا حسرتي على المعاول!

- وهل سننتبه إلى الفؤوس والمعاول في هذه اللحظة يا زوربا، قلت متدخلاً. لابد أن نشكر الرب أن أحداً لم يصب بمكروه؛ شكراً لك يا زوربا، كلنا مدينون لك بحياتنا.

- أنا جائع! قال زوربا؛ لقد فتحت شهيتي.

أخذ كيسه الذي يحتوي على طعام غدائه، حيث كان قد تركه على إحدى الصخور، فتحه، أخرج الخبز والزيتون والبصل وحبة بطاطا مسلوقة وقنينة من النبيذ.

- استريحوا لتأكلوا، قال وفمه ممتلئ بالطعام.

راح يأكل بنهم، كما لو أن كل قواه قد خارت فجأة ويحاول جاهداً يملأ قلبه بالدماء ثانية.

كان يأكل صامتاً متأملاً، أخذ قنينة النبيذ من عنقها ووضعها على فمه ليروي حلقه الجاف.

تشجع العمال وفتحوا حقائبهم وراحوا يأكلون. جلسوا جميعاً متربعين حول زوربا، كانوا يأكلون وينظرون إليه. كانوا يريدون تقبيل قدميه ويديه شاكرين، لكنهم كانوا يعلمون أنه غريب الأطوار ولا يستطيع أحدٌ أن يقدم على حركة كهذه.

وأخيراً قرر ميخائيل أكبرهم سناً وذو الشاربين الرماديين الكثيفين:

- لولاك يا رئيس ألكس لتيتم أولادنا.

- اخرس! قال له زوربا وفمه مليء بالطعام ولم يجرؤ أحدٌ بعد ذلك أن ينطق بكلمة.

«من ذا الذي خلق شيطان الشك، معبد العجرفة، جرة الذنوب، الحقل المنثور ببذور الخطيئة والكوارث، فم الجحيم، السلة التي تفيض دهاءً، السم الذي له طعم العسل، القيد الذي يربط البشر بالعالم - المرأة»

جلست متربعاً على الأرض بجوار الموقد، أكتب هذه الترنيمة البوذية وأعيد كتابتها. كنت أقاتل وأنا أعقد تعاويذَ فوق أخرى كي أطرد هذا الجسد المبلل من المطر بتموجاته وتضاريسه والذي يخطر على بالي في هذه الليالي الشتوية الرطبة ويمر بإلحاح على ذهني كأنه يأتي مع نسيم الليل. لا أدري كيف وأثناء انهيار النفق، حيث واجهت خطر الموت فجأة، قفزت هذه الأرملة إلى دمائي وراحت تنادي علي مثل وحش بري بعتاب وإلحاح.

«كانت تنادي؛ تعال، تعال، الحياة تمضي كالبرق، تعال بسرعة، تعال لتلحق بها قبل أن يفوت الأوان!»

كنت أعرف أنها مارا، روح الشر والمكر متجسدة في جسد إمرأة جذابة. كنت أكافح محاولاً صدها. جلست ورحت أكتب كلمة بوذا كما كان ينقشها القدماء البدائيون بالحجر المدبب وبالألوان والوحوش الكاسرة الجائعة تحوم حولهم؛ كانوا يحاربونها أيضاً ويرسمونها على جدران وصخور كهوفهم حتى لا تهاجمهم و تلتهمهم.

منذ اليوم الذي تعرضت فيه لخطر الموت، كان طيف الأرملة يلوح ويمر على خلوتي، تشير إلي وتهز ردفيها؛ في النهار كانت لدي القوة، كان ذهني متيقظاً، فكنت أستطيع أن أقاوم وأطرد هذا الطيف. رحت أكتب كيف أن شيطان الخطيئة كان يأتي إلى بوذا في هيئة امرأة مغرية، وكيف أنها كانت تلمس سيقان الناسك الراهب بنهديها الثريين. وعندما رأى بوذا الخطر شحذ كل قواه وطرد شيطان الغواية. كنت أكتب هذا وأطرد أنا أيضاً شيطان الغواية مع بوذا.

كنت أكتب وفي كل جملة أكتبها أشعر بارتياح وقوة، كنت أشعر أنني أطرد بالفعل ذلك الإغراء من أمامي بفضل التعويذة القوية، الكلمة. كنت أقاتل قدر استطاعتي وبكل

شجاعة في النهار؛ لكن في الليل كان عقلي يستسلم ويتخلّى عن كل أسلحته، وتُفتح الأبواب الداخلية كلها لتدخل الأرملة.

كنت أستيقظ في الصباح منهكاً مهزوماً، وتبدأ الحرب من جديد. كنت أستيقظ أحياناً ما بعد العصر، أدرك نور النهار وهو يهرب مطارداً، كان الظلام يهبط فجأة. الأيام تزداد قصراً، عيد القيامة يقترب، كنت أراقب تهادي الهواء الأبدي وأقول: «لست وحدي؛ هناك قوة كبرى، النور، يحارب أيضاً، ينتصر تارة ويُهزم تارة أخرى، وأحياناً ييأس؛ لكني سأنتصر معه!»

ما كان يمدني بالشجاعة والصبر أنني كنت أتخيل نفسي في إيقاع عالمي في كفاحي مع الأرملة. وقد اتخذت هذا الجسد، رحت أتأمل هذه المادة الماكرة تؤمر فتطيع بهدوء ونعومة وتنطفئ في داخلي جذوتها. كنت أقول: «إن الرب هو القوة المطلقة التي تحول الأشياء إلى أرواح؛ فكل انسان بداخله يحمل شيئاً من هذه المحركات الإلهية، ولهذا لديه القدرة على تناول الخبز والماء واللحم ويحولها إلى تفكير ويحول التفكير إلى فعل. كان زوربا على حق عندما قال: قل لي ماذا تفعل بما تأكله لأخبرك من أنت!» كنت أقاوم الآن هذا الشوق الجسدي العاصف لأتناوله وأحوله إلى «بوذا».

- فيمَ تفكر؟ لا أراك على ما يرام يا سيدي، قال لي زوربا ذات ليلة، وكانت عشية عيد يوم الميلاد، وكان قد فهم مع أي شياطين أحارب.

تظاهرت أني لا أسمعه؛ لكن زوربا لم يكن ليتركني بهذه السهولة.

- قال: أنت شاب يا سيدي، ثم فجأة؛ علا صوته واتخذ نبرة فيها شيء من الغضب والمرارة؛ أنت شاب، قوي، تأكل وتشرب جيداً وتتنفس هواءً نقياً، تستجمع كل القوة - وماذا تفعل بها؟ تنام وحيداً، يا للأسف لا تستغل هذه القوة! انهض، الآن، هذه الليلة، لا تُضع وقتاً، إن الحياة بسيطة والعالم بسيط، يا سيدي... كم مرة يجب أن أقولها لك؟ لا تعقد الأمور!

كانت أمامي مخطوطة بوذا، أتصفحها وأنا أستمع لزوربا، أدركت أن هناك طريقًا كبيرًا وأكيدًا يفتح أمامي، وللمرة الثانية كان صوت مارا الماكرة المحتالة يناديني.

كنت أستمع له صامتاً متخذاً قراري ومصراً على المقاومة وأقلب صفحات المخطوطة ببطء، ورحت أصفر لأخفي اضطرابي. لكن زوربا، كلما رآني صامتاً، ثارت أعصابه:

- الليلة عشية عيد الميلاد، اذهب بسرعة لتجدها، قبل أن تذهب إلى الكنيسة. المسيح يولد يا سيدي الليلة، قم أنت واصنع معجزتك!

نهضت غاضباً:

- كفى يا زوربا، قلت؛ كل إنسان يختار طريقه ويعيش على هواه، تماماً مثل الأشجار. هل تشاجرت يوماً مع شجرة تين لماذا لا تطرح كرزاً؟ اصمت إذن! الساعة تقترب من منتصف الليل، لنذهب إذن إلى الكنيسة لنرى ميلاد المسيح.

دس زوربا رأسه بعمق في قلنسوته الشتوية:

-- حسناً، قال متململاً، لنذهب. لكن لابد أن تعرف أن الرب سيكون أكثر رضىً وسعادة إذا ذهبت الليلة إلى الأرملة، مثل الملاك جبريل الذي إذا كان قد اتخذ طريق الرب لم يكن ليذهب أبداً إلى مريم العذراء ولم يكن ليولد المسيح أبداً. إذا سألتني ما هو طريق الرب، سأقول لك إنه الطريق الذي يؤدي إلى مريم؛ الأرملة.

صمت لينتظر جوابي دون جدوى؛ فتح الباب بقوة، خرج وضرب بعصاه الحصى.

- نعم، نعم، مريم العذراء هي الأرملة، قالها وراح يرددها بإصرار.

رحنا نسير بسرعة في الليلة الشتوية، كانت السماء صافية، والنجوم كبيرة مما يزيد بريقها ويجعلها تبدو قريبة من الأرض، كأنها كرات ضوء معلقة. بدت الليلة ونحن نسير على الشاطئ مثل وحش مقتول على شاطئ البحر.

«رحت أتأمل، اعتباراً من هذه الليلة، النور الذي قد حاصره الشتاء، بدأ ينتصر عليه؟ وكأنه يولد الليلة مع الوليد الرباني.»

تجمع الناس بكثافة داخل الكنيسة الدافئة وكانت تفوح منها رائحة عطرة؛ في الأمام الرجال وفي الخلف النساء. القس ستيفانوس، طويل نحيل، خارجٌ من صيام أربعين يوماً. مرتدياً حلته الكنسية المذهبة، كان يهرول في كل مكان مؤرجحاً مبخرته، يصيح ويتعجل

أن يرى المسيح وهو يولد ليذهب إلى بيته كي يلقي بنفسه في طبق حساء دسم ويلتهم النقانق واللحم الشهي...

إذا قالوا: «اليوم يولد النور» لم يكن قلب الإنسان ليشتاق، لم تكن لتولد الأسطورة أو الفكرة التي كانت ستحتوي العالم؛ كان اليوم سيبقى مثل أعجوبة من عجائب الطبيعة، لم تكن لتفجر الخيال، أو الروح. لكن النور الذي يولد في قلوبنا في الشتاء يصبح طفلاً، والطفل يصبح إلهاً، وعشرون قرناً الآن والروح تحفظه في صدرها وترضعه...

قليلاً بعد منتصف الليل انتهت المراسم؛ ولد المسيح، وهرول القرويون جائعين وسعداء نحو بيوتهم، كي يأكلوا حتى أعمق ما في بطونهم بالسر الإلهي المقدس في الخلق. المعدة هي أساس قوي؛ الخبز والنبيذ واللحم أولاً؛ وبدونها - لا يمكن أن يولد إله.

كانت النجوم تبرق في السماء كالملائكة، ونهر الأردن يتدفق بين جنبي السماء، نجمة خضراء تدق الاجراس فوقنا كزمردة. تنهدت.

التفت زوربا:

- أحقاً تصدق يا سيدي أن الرب أصبح إنساناً وأنه ولد داخل إسطبل، أتصدق هراء الناس هذا؟

- من الصعب أن أعطيك إجابة يا زوربا؛ فأنا أصدق ولا أصدق. وأنت؟

- أقسم لك أنني تائه. ماذا أقول لك: عندما كنت صبياً، وحكت لي جدتي هذه الأسطورة لم أصدقها؛ لكنني كنت أرتعش من فرط التشويق، كنت أضحك وأبكي، كأنني صدقتها. لكن عندما كبرت ونبتت لحيتي، أيقنت أنها أساطير تركتها ورحت أسخر منها، لكن الآن وفي كهولتي لابد أنني قد جننت يا سيدي، بدأت في تصديق هذه الأساطير ثانية... كم الأنسان غامض!

كنا قد أخذنا طريقنا نحو بيت مدام أورتانس، كنا نهرول مثل الخيل الجائعة.

- كم هم خبثاء القديسون! قال زوربا؛ أنهم يصلون إليك من خلال بطنك، فهل تستطيع المقاومة؟ هل تستطيع ألا تأكل اللحم لمدة أربعين يوماً، صيام؛ لماذا؟ كي تشتاق إلى اللحم! إيه، الكهنة السمان يعرفون كل الحيل والألاعيب!

زادت خطواتنا سرعة:

- أسرع يا سيدي، قال زوربا؛ فالديك الرومي سيكون شهياً جداً!

عندما دخلنا في حجرة السيدة ذات الفراش المزدوج، كانت المائدة معدة ومفروشة بالأبيض، والديك الرومي مقلوبًا تتصاعد منه الأبخرة وقدماه مفتوحتين والموقد لا يزال مشتعلاً يصدر الدفء العذب.

كانت مدام أورتانس قد صففت شعرها على شكل خصل وارتدت ثوباً طويلاً ذا أكمام طويلة بلون وردي تهرأ وانسلت شرائط الدانتيل منه بحكم الزمن؛ ووضعت عليه وشاحاً أصفر كلون الكناري وتحلت بشريط حول رقبتها كان يضغط على عنقها المجعد؛ ورشت إبطيها بماء الورد.

«رحت أتأمل مخاطباً نفسي، كيف أن كل الأشياء متناغمة في هذا الكون. وكيف أن الكون كله يتوافق مع هوى الإنسان! فها هي تلك المغنية العجوز التي عاشت حياة حافلة؛ تعيش الآن في هذه الغرفة على هذا الشاطئ المهجور وتجمع فيها كل دفء ونظام ونظافة وأنوثة المرأة.»

الطعام الوفير المعد بعناية على المائدة، الموقد المشتعل، الجسد المتزين التي تفوح منه رائحة ماء الورد، كيف أن كل هذه المتع الإنسانية والحسية البسيطة تتحول بهذه السرعة والبساطة إلى بهجة روحية عظيمة!

لوهلة اغرورقت عيناي عندما اعتراني حزن ما بأنني لست متزوجاً في هذه الليلة العظيمة، على شاطئ هذا البحر البعيد، لكن هذه المرأة المفعمة بالرقة والصبر تتحتويني بكل هذا الحنان والعطف والعناية كأم وأخت وزوجة. وأنا الذي كنت أظن أنني لا أحتاج إلى مثل هذه الأشياء ولا إلى أي شيء، شعرت فجأة أنني في حاجة إلى كل شيء.

يبدو أن زوربا شعر بهذا الشعور الدافئ أيضاً لأنه فور أن دخلنا هرع إلى العجوز المتزينة وعصرها في أحضانه.

- المسيح يولد! صاح؛ تحياتي إلى جنس الأنثى!

التفت إلي متبسماً:

- أرأيت يا سيدي كيف أن المرأة كائن مكار ومخادع؛ فهي تستطيع أن تربط الرب نفسه على خصرها.

جلسنا إلى المائدة، ارتمينا على الطعام والنبيذ ملتهمن، شبع البطن، ودب النشاط في القلب. واشتعل زوربا:

- وراح يصيح، كل واشرب، كل واشرب يا سيدي، ليعلو مزاجك، غنِّ معنا كالرعاة: «المجد للرب في السماء!...» ولد المسيح ليس هذا هراء؛ غنِّ أغنيتك ليسمعك الرب ويبتهج بعباده؛ فكفاه ذنوبنا ومراراتنا!

استعاد زوربا مزاجه العالي ولم يكن ليوقفه شيء.

- ولد المسيح يا سليمان الحكيم، أيها المثقف الهمام! لا تنبش في الأمور كثيراً: هل ولد أم لم يولد؟ ولد يا صاح، لا تكن أحمقَ! إذا أمسكت بمصباح لترى الماء الذي نشربه، كما قال لي مهندس ذات يوم، سترى كما يقول، أن الماء مليء بالديدان الصغيرة جداً، التي لا تظهر بالعين المجردة. سترى الديدان ولن تشرب. لن تشرب وستموت من العطش. حطم المصباح يا سيدي، حطمه هذا اللعين كي تختفي الديدان فوراً وتشرب الماء وتروي عطشك!

التفت نحو رفيقتنا المبهرجة وقال، اللعنة، ارفعي كأسك:

- فأنا يا سيدتي العذراء يا رفيقة النضال سأشرب هذا الكأس في صحتك! قد رأيت في حياتي الكثير من أشكال حوريات البحر المثبتات على مقدمة السفينة يمسكن أثداءهن وشفاههن وخدودهن مطلية بالأحمر. طفن في كل البحور، هبطن في كل الموانئ، وعندما ينتهي عمر السفينة، يتركن البحر ويقطن اليابس ويقضين باقي أعمارهن حتى النهاية معلقات على الحائط في أحد مطاعم السمك حيث يذهب القباطنة ليتسامروا.

يا سيدة البحار والقباطنة، الليلة أراك في هذا الشاطئ حيث أكلت وشربت وفتحت بصيرتي، تبدين لي كشكل من تلك الأشكال المعلقة في مقدمة إحدى السفن الكبيرة. وأنا ميناؤك الحنون، أنا حانتك حيث يأتي القباطنة ليشربوا؛ تعالي، اتكئي على كتفي، ارفعي أشرعتك! أشرب كأسي هذا المملوءة في صحتك يا حوريتي!

انهالت دموع مدام أورتانس من شدة التأثر ووضعت رأسها على كتف زوربا.

- همس زوربا في أذني، سترى، بهذه الكلمات الرقيقة سأضع نفسي في مشاكل؛ لن تتركني هذه العاهرة أغادر الليلة. لكن ماذا أفعل فأنا أشعر بالأسى من أجل هذه المخلوقات المسكينة، أشعر بالأسى!

شبك زوربا ذراعه مع ذراع المدام وشربا جرعة واحدة وهما متعانقان، ونظر كل منهما إلى الآخر بمعنى يفيد الافتتان.

كان الوقت قد اقترب من الفجر عندما رحلت وحيداً من الحجرة الدافئة وأخذت طريق العودة. كانت القرية قد أكلت وشربت جيداً وأغلقت البيوت أبوابها ونوافذها تحت سماء الشتاء الثقيلة ونجومها.

كان البرد قارساً والبحر هادراً، ونجمة أفروديتي تعلقت في شرق السماء متألقة متلألئة وراقصة. كنت أمشي بجوار الشاطئ، ألعب مع الأمواج التي كانت تهجم لتبللني فكنت أهرب منها، كنت سعيداً أقول: «هذه هي السعادة الحقيقية؛ إن السعادة الحقيقية هي ألاّ يكون لك أي طموح ولا عمل ولا لهاث خلف العمل، إنه يشبه تماماً كما لو كان لديك كل طموح الحياة؛ أن تعيش بعيداً عن الناس وتحبهم دون أن تحتاج إليهم. أن تكون في يوم الميلاد، أن تأكل وتشرب جيداً ثم تخرج وحيداً بعيداً عن كل الفخاخ، وتكون النجوم فوقك، على يسارك الأرض وعلى يمينك البحر - وأن تدرك فجأة في أعماق قلبك أن الحياة أنهت آخر معجزاتها وأضحت أسطورة»

الأيام تأتي وتمضي، وأنا أكافح كي أتحلى بالشجاعة، كنت ألهو؛ لكن في أعماق جدران قلبي كنت حزيناً. في أسبوع الأعياد هذا استيقظت في داخلي الذكريات، امتلأت أحشائي موسيقى ووحشة للأحباء. كنت أشعر أيضاً كم هي صحيحة تلك الأسطورة القديمة التي

تقول بأن قلب الإنسان ماهو إلا حفرة مملوءة بدمائنا ويسقط فيها الأحباء الأموات على وجوههم يشربون دماءنا كي يعودوا إلى الحياة؛ وكلما زادت محبتهم شربوا دمًا أكثر.

عشية رأس السنة. مجموعة من أطفال القرية يحملون مركباً ورقياً جاءوا حتى باب الكوخ ينشدون ترانيم رأس السنة بأصواتهم المرحة،

جاءنا بابا نويل من مكانه البعيد
بحديثه الطيب وهداياه الجميلة
وكأنه وصل إلى هذه القرية على شاطئ كريت يحيينا أنا وزوربا.

رحت أستمع إلى الأغاني ولا أتكلم. كنت أشعر أن سنة أخرى تسقط من شجرة العمر، وأن قلبي يخطو خطوة أخرى نحو القبر المظلم.

- ماذا بك يا سيدي؟ سألني زوربا الذي راح يغني مع الأطفال وأخذ الطبلة منهم وراح يقرعها؛ ماذا بك يا بنيّ؟ تبدو شاحباً وكأنك شخت يا سيدي. أنا في ليلة كهذه أشعر أنني عدت طفلاً صغيراً؛ أولد من جديد مثل المسيح. كيف يولد هو كل عام؟ هكذا أنا تماماً.

تمددت على الفراش وأغمضت عيني؛ كان قلبي مقبوضًا ومزاجي سيئًا للغاية ولم تكن عندي رغبة في الحديث.

لم أستطع النوم. وكأن الليلة كانت ليلة الاعتراف بكل ذنوبي، وحياتي كلها ظهرت أمامي بسرعة، مرتبكة، مهتزة، مثل حلم، ورحت أتأملها يائساً عابساً.

ومثل سحابة رقيقة راحت الزوابع تنفضها في السماء، كانت حياتي تغير شكلها، تتلملم وتنفصل، تعيد تجمعها ثم يتغير شكلها ويأخذ أشكالاً عديدة - بجعة، كلبًا، وحشًا، عقربًا، طاووسًا ذهبيًّا، قردًا، كل هذا والزوابع مستمرة تعصف بالسحابة في أرجاء السماء الممتلئة بالعواصف وبأقواس قزح.

كل الأسئلة التي طرحتها لحياتي لم تبق فقط بلا إجابة، بل ازدادت تعقيداً ووحشية. وانهارت كل آمالي أمامي بهدوء وسكينة...

طلع النهار. لم أفتح عينيّ، كنت أحاول جاهداً ان أستجمع شوقي، أن أعبر من خلال غلاف عقلي لأمر في داخل القناة السوداء الوعرة التي تجمع كل قطرة إنسان بالمحيط العظيم. كنت على عجلة في أن أمزق هذا الحجاب كي أرى ما سيجلبه لي هذا العام الجديد...

- صباح الخير يا سيدي، كل عام وأنت بخير!

صوت زوربا أطاح بي فجأة على الأرض. فتحت عينيّ ورأيت زوربا يكسر ثمرة رمان كبيرة على عتبة الكوخ فانطلقت حباتها اللامعة حتى الفراش، جمعت بعض هذه الحبات وأكلتها، فترطب حلقي.

- كل الأماني الطيبة بالصحة واليسر يا سيدي، وبنات ملاح علهن يسرقن قلوبنا! قال زوربا مرحاً وبمزاج رائق.

تحمم وحلق ذقنه وارتدى أفضل ما عنده - بنطالًا من الصوف الأخضر، سترة رمادية محلية الصنع وألقى فوقها سترة مبطنة بجلد الماعز؛ وارتدى قبعة روسية وبرم شاربيه:

- سأذهب أنا إلى الكنيسة يا سيدي، سأحضر نائباً عن الشركة. حتى لا يظنوا أننا من الماسونيين. ليس لدي ما أخسره، سأتسلى وسيمر الوقت.

التفت وغمز لي بعينه.

- ربما أمر على الأرملة، تمتم بعد ذلك.

الرب، سفير الشركة والأرملة يجتمعون بانسجام في عقل زوربا؛ سمعت صوت خطواته الخفيفة وهو يغادر؛ قفزت من مكاني، فقد تلاشى السحر وعادت روحي إلى سجنها في الجسد.

ارتديت ملابسي، رحت أتمشى على الشاطئ بسرعة، وكنت سعيداً، كما لو أنني كنت قد نجوت من خطر أو من ذنب عظيم؛ بدا لي أنه شيء من الدنس في هذا الصباح أن أحاول أن أرى أو أن أتنبأ بما سيحدث في المستقبل.

أذكر ذات صباح، رأيت شرنقة فراشة على غصن شجرة، في اللحظة التي كانت تشق فيها شرنقتها كي تخرج إلى العالم. انتظرت طويلاً هذه الروح حتى تخرج، لكنها تأخرت وكنت على عجلة من أمري؛ انحنيت فوقها ورحت أدفئها بأنفاسي. كنت أفعل ذلك غير صابرٍ، وبدأت المعجزة تحدث أمام عيني بشكل سريع وليس بشكل طبيعي؛ فتحت الشرنقة كلها، والفراشة خرجت. لكن لن أنسى أبداً مدى خوفي ورعبي: ظلت أجنحتها ملتوية، منطوية، كان كل جسدها يرتعش، كانت تحاول أن تفرد جناحيها لكنها لم تستطع؛ حاولت أنا بدوري أن أساعدها بأنفاسي ثانية. كانت المسكينة بحاجة إلى نضوج بطيء وخروج من شرنقتها تحت حرارة شمس دافئة، لكن فات الوقت لهذا؛ كانت أنفاسي قد دفعت الفراشة أن تخرج للحياة قبل موعدها، ضعيفة فقد ولدت قبل أوانها. خرجت إلى الحياة ضعيفة، حاولت جاهدة وباستماتة أن تبقى على قيد الحياة لكنها بعد قليل ماتت في راحة كفي.

هذا الجسد الرقيق للفراشة الميتة أظن أنه أثقل شيء أحمله في قلبي وضميري. واليوم فهمت بعمق: أنه ذنب مميت أن تخرق قوانين الطبيعة؛ فالمرء مجبر أن يتبع إيقاع الطبيعة بثقة وإيمان.

تقوقعت على صخرة حتى أستوعب أول تأمل في أول يوم من هذا العام. قلت لنفسي، آه لو أستطيع أن أرتب حياتي في هذا العام بدون تعجل هيستيري! هذه الفراشة التي قتلتها عجلتي في بعثها للحياة، لو كانت حية لكانت أشارت إلي نحو الطريق! وهكذا فإن فراشة ماتت قبل ساعتها، كان يمكن أن تساعد شقيقتها، أن ترشد روحًا إنسانية كي لا تتعجل مولدها، وتتأنى الخروج من شرنقتها؛ منسجمة مع إيقاع الطبيعة.

استيقظت من نومي سعيداً وكأنني تلقيت هدية العام الجديد. هواء بارد، سماء صافية وبحر يتلألأ.

أخذت الطريق نحو القرية؛ لابد أن القداس قد انتهى، كنت أسير وقلبي يدق بسرعة من سيكون أول إنسان أقابلة في هذا العام؛ من سيفتتح عالم روحي. هل سيكون طفلاً، تساءلت، يمسك بلعبة في يديه أم عجوزًا نشيطًا يرتدي قميصاً أبيضَ بكمّين واسعين سعيدًا أنه أدى واجباته على الأرض! كلما اقتربت من القرية زاد اضطرابي.

وفجأة تثاقلت ركبتاي؛ من أحد شوارع القرية، تحت أشجار الزيتون، لمحتها تسير متمايلة متوهجة متشحة بوشاحها الأسود متألقة، ظهرت الأرملة.

كانت تسير متهادية كنمرة سوداء، وبدا لي أنها تنثر رائحة مسك لاذع في الهواء. فكرت في الهروب لكن تهيأ لي أن هذا الوحش الكاسر الغاضب لن يبدي أي رحمة إذا ما تملك، والنصر الوحيد في هذه الحالة هو الهروب. لكن كيف أهرب؟ كانت الأرملة تقترب؛ صوت الحجارة تحت أقدامها يعلو كما لو يمر عليها جيش؛ هزت رأسها فانزلق وشاحها وظهر شعرها الأسود اللامع. لمحتني بطرف عينها وابتسمت؛ كان في عينيها دفء متوحش. وبسرعة ربطت الوشاح ثانية على رأسها، وكأن الخجل أصابها بعد أن بدا لي سر من أعمق أسرار المرأة - شعرها.

حاولت أن أحييها، أن ألقى التهاني بالعام الجديد، لكن حلقي تحشرج، مثل ذلك اليوم الذي انهار فيه النفق وتعرضت للموت. القصب في حديقتها كان يتمايل مع الريح، شمس الشتاء سقطت على أشجار الليمون والبرتقال ذات الأوراق الداكنة فكان كل البستان يتلألأ مثل جنة صغيرة.

توقفت الأرملة، مدت يدها لتدفع باب حديقتها، فتحت الباب. في هذه اللحظة كنت أمر من أمامها؛ التفتت، رفعت حاجبيها ورمقتني بنظرة.

تركت الباب مفتوحاً ورحت أشاهدها وهي تختفي وردفاها يتحركان يميناً ويساراً خلف أشجار البرتقال.

أخطو فوق عتبتها، أوصد الأبواب وأجري نحوها أشدها من خصرها ودون أن نقول كلمة واحدة نسقط في الفراش - هذا ما يعنيه في أن تكون رجلاً! هذا ما كان سيفعله جدي، وأتمنى أن يفعل ذلك حفيدي؛ لكنني تسمرت أمام الباب ورحت أتأمل....

- في حياة أخرى سأتصرف على نحو آخر، ربما، دمدمت بابتسامة مريرة!

هبطت نحو الوادي الضيق الأخضر، وشعرت بثقل على قلبي، كمن ارتكب إثماً مميتاً. رحت أدور سيراً هنا وهناك، كنت أرتعش من البرد الشديد. رحت أطرد من مخيلتي تهادي الأرملة وابتسامتها ونظرة عينيها ورسمة صدرها، لكنها كانت تأبى أن تتركني - كما لو كنت أجري وهي تلاحقني.

الأشجار لم تورق بعد، لكن براعمها كانت منتفخة؛ بشكل يجعلك تشعر أنها حبلى ممتلئة بالحياة، جاهزة أن تنطلق نحو النور، وتنجب أزهاراً وأوراقاً وثماراً معسولة. خلف كل الأوراق الجافة، ينسج الربيع خفية معجزاته الكبيرة.

وفجأة سمعت صوتاً مرحاً أمامي، شجرة لوز شجاعة قد أثمرت قبل كل الأشجار وتبشر بالربيع.

زالت الكآبة من على قلبي. هذا ما كنت أريده. تنفست بعمق عبقها اللاذع، انحرفت عن طريقي واستلقيت تحت فروعها المزهرة.

مر وقت طويل دون أن أتأمل شيئاً، بلا أي هموم، كنت سعيداً. وكأني أعيش روح الأبدية تحت إحدى أشجار الجنة.

فجأة صوت وحشي زعق فطردني خارج الجنة.

- لماذا تختبئ في الخندق يا سيدي. بحثت عنك في كل مكان؛ لقد انتصف النهار؛ هيا بنا!

- إلى أين؟

- إلى أين؟ هل تسألني؟ إلى حضرة الخنزير المشوي. ألا تشعر بالجوع، لقد خرج لتوه من الفرن ورائحته تثير اللعاب والشهية؛ هيا بنا، أسرع.

قمت وأنا أداعب جذع شجرة اللوز العجيبة التي استطاعت أن تنبت هذه المعجزة. كان زوربا يسير أمامي مسرعاً ممتلئاً حيوية وطاقة وجوعاً ومزاجاً رائقاً؛ الاحتياجات

الأساسية للإنسان - طعام، شراب، نساء ورقص. كان يمسك في يده شيئاً ملفوفاً في ورقة وردية اللون معقودة بشريط ذهبي.

- سألته، أ هذه هدية.

ضحك زوربا في محاولة منه أن يخفي تأثره.

- نعم، كي ندخل قليلاً من السعادة على قلب تلك المسكينة! قال دون أن يلتفت نحوي. كي تتذكر أيامها الخوالي.... امرأة هي، وكما قلنا هن كثيرات الشكوى.

- صورة؟ أ تهدي لها صورتك يا رجل؟

سترى... سترى، لا تتعجل الأمور؛ انه شيء صنعته بيدي. هيا أسرع.

شمس الظهيرة الدافئة هي من الأشياء التي تنعش عظام المرء. كان البحر أيضاً يتشمس سعيداً. على مبعدة من الشاطئ كانت هناك جزيرة جافة مهجورة يغطيها الصقيع، بدت كأنها تطفو على سطح البحر سابحة.

وصلنا إلى القرية؛ جاء زوربا إلى جواري وكان صوته يبتسم:

- أتدري يا سيدي، لقد رأيتها في الكنيسة. كنت أقف في المقدمة أمام المنشد؛ وفي لحظة رأيت المعبد يضيء؛ انعكس نور المسيح، العذراء والحواريون الإثنا عشر... «قلت ما هذا؟ ورسمت شارة الصليب على صدري؛ أهي الشمس؟» لكنها كانت الأرملة.

- دعك من الهراء يا زوربا، كفى قلت لك! قلت وأنا أحث الخطى.

لكن زوربا جرى خلفي:

- رأيتها على مقربة يا سيدي؛ لديها شامة على خدها تخطف العقل. ماهو سر الشامات على خد المرأة!

جحظت عيناه من الدهشة.

- ترى يا سيدي الجلد ناعماً مشدودا وفجأة بقعة سوداء. لكنها، تخلب لب الرجل! أتفهم أنت لماذا يا سيدي؟ ماذا تقول الكتب؟

- تقول الكتب دعك من الهراء يا زوربا!

ضحك زوربا فرحاً.

- هكذا يا سيدي؛ لقد بدأت تفهمني.

عبرنا من أمام المقهى بسرعة دون أن نتوقف. فقد كانت السيدة أورتانس قد طبخت لنا خنزيراً في الفرن وتنتظرنا واقفة على عتبة دارها.

كان الوشاح الأصفر كناري اللون ما زال يطوق عنقها، وقد وضعت على وجهها طبقات من البودرة ولونًا أحمر قرمزيًا على شفتيها فبدت مرعبة بعض الشيء. اهتز جسدها كله فور أن رأتنا وفرحت وراحت عيناها تتراقصان بدلال وهما تنظران إلى شاربي زوربا المفتولين. وهو بدوره ما إن أغلق الباب حتى طوقها من خصرها.

- كل عام وأنت بخير يا بوبولينتي، قال؛ انظري ماذا أحضرت لك!

وقبلها خلف رقبتها المجعدة.

أحست الحورية العجوز بقشعريرة لكن عينيها لم تتحركا عن الهدية؛ خطفتها من يد زوربا وحلت الشريط الذهبي وما إن رأتها حتى انطلق صوتها يصيح من البهجة.

انحنيت كي أرى: فقد رسم هذا المحتال على قطعة سميكة من الورق المقوى بأربعة ألوان مختلفة - أصفر ورمادي وأسود وذهبي - أربعة سفن حربية تبحر في بحر وردي وأمامهم رسم مدام أورتانس بيضاء عارية مسدلة الشعر وثدياها في الهواء على شكل حورية بحر ووشاح أصفر حول عنقها وكانت تمسك بأربعة خيوط تجر بها السفن الحربية الأربع التي ترفع أعلام الأربع دول إنجلترا وروسيا وفرنسا وإيطاليا. وفي كل ركن من اللوحة كانت تتدلى أربع لحى بألوان أربعة: الأشقر والأحمر والرمادي والأسود.

فهمت الغانية العجوز على الفور مغزى اللوحة.

- قالت وهي تشير إلى حرية البحر بفخر، هذه أنا! ثم تنهدت

- آخ، آخ، كنت قوة خارقة ذات يوم...

نزعت من فوق الفراش مرآة مستديرة بجوار قفص الببغاء وعلقت مكانها لوحة زوربا. تحت كم الطلاء والبودرة بدا وجهها شاحباً.

كان زوربا قد دخل إلى المطبخ في هذه اللحظة، كان جائعاً؛ خرج وصينية الخنزير في يديه، وضع أمامه قنينة من النبيذ وملأ الثلاث كؤوس.

- هيا، اقتربوا! صاح وهو يصفق. لنبدأ بالبطن؛ ثم يا بوبولينتي نذهب إلى ما يلي!

لكن الهواء قد شحب من تنهيداتها. ففي كل عام في مثل هذا اليوم تصاب بحالة من الحزن، وتذهب وتزن عمرها الضائع. في رأس هذه المرأة الفارغ، مغامرات ورجال، الملابس الحريرية والشمبانيا، اللحى المعطرة، كل هذا يبعث من جديد في مثل هذه الأيام من داخلها وتصرخ الذكريات.

- دمدمت بدلال؛ ليس لدي شهية، لن آكل....

جثت أمام الموقد وراحت تقلب الفحم، كان انعكاس النار يضيء خديها المتهدلين. خصلة من شعرها تعلقت ولمست النار؛ ففاحت في الغرفة رائحة عفنة من حريق شعرة من تلك الخصلة.

- لن آكل... لن آكل... دمدمت ثانية، عندما رأتنا لا نعيرها اهتماماً.

شدّ زوربا قبضته دليلاً على نفاذ صبره؛ بدا متردداً للحظة. كان من الممكن أن يتركها تدمدم ونواصل نحن أكلنا وشرابنا؛ كان يمكن أيضاً أن يجثو على ركبتيه أمامها، ويحيطها بين ذراعيه، وبكلمة رقيقة سيجعلها ترق. كنت أراقب تناقض تعابير وجهه تروح وتجيء بين الشيء ونقيضه.

وفجأة توقف وجه زوربا على تعبير واحد بعد أن اتخذ قراراً. جثا على ركبتيه وأمسك بركبة الحورية:

- إذا لم تأكلي يا بوبولينا قال لها بصوت متأثر، سيضيع العالم كله. ألا يحزنك ضياع العالم يا سيدتي إذا لم تأكلي قدم هذا الخنزير!

ووضع قدم خنزير مغموس في الزبد في فمها.

أخذها بين أحضانه وحملها ووضعها على المقعد بيننا.

- كلي، قال حتى يدخل بابا نويل في قريتنا! فإذا لم تأكلي لن يدخل. سيعود إلى موطنه، وسيأخذ هداياه معه، ولن يترك شيئاً حتى كعكة عيد الميلاد وألعاب الأطفال الصغار وسيرحل. افتحي إذن فمك يا بوبولينتي، وكلي!

ثم مد يده وداعبها تحت إبطها. فراحت العجوز في قهقهة عميقة ثم مسحت عينيها الحمراوين وعادت مرة أخرى لطبيعتها وراحت تأكل وتمضغ بتلذذ قدم الخنزير المشوية...

في هذه اللحظة سمعنا صوت قطتين تموءان في حالة عشق على السطح فوق رؤوسنا، ثم راحتا تصيحان بنهم وشبق، كان صوتهما يعلو ويهبط بضجيج عالٍ ثم سمعناهما تتدحرجان على السطح وبدأتا تتقاتلان.

-- مياو مياو.... قال زوربا وهو يغمز بعينه للعجوز.

فتبسمت هي وقبضت على يديه تحت المائدة. زالت حشرجة حلقها وراحت تأكل بشهية مفتوحة بعد أن اعتدل مزاجها.

تحركت الشمس ودخلت أشعتها من النافذة، جلس زوربا تحت قدمي بوبولينا. فرغت قنينة النبيذ، اقترب زوربا بشوارب قط وحشي نحو الأنثى. ومدام أورتانس متقوقعة ورأسها في كتفيها وشعرت بقشعريرة عندما أحست بأنفاسه الدافئة المشبعة بالنبيذ.

- أي لغز هذا يا سيدي؟ التفت نحوي زوربا قائلاً. كل الأشياء تأتي عكس ما أريد. عندما كنت طفلاً كانوا يقولون لي أني أشبه الرجل العجوز؛ أتحدث قليلاً، مزاجي ثقيل، صوتي خشن؛ كنت أشبه جدي على حد قولهم! عندما بلغت العشرين رحت أتصرف بجنون الشباب، لكن ليس بالقدر الكافي؛ عندما بلغت الأربعين شعرت أني ممتلئ حيوية وشبابًا وبدأت مغامراتي المجنونة.

الآن بعد أن تخطيت الستين - فأنا في السادسة والستين من عمري يا سيدي - لكن هذا سر بيننا - بعد أن بلغت هذا العمر أقسم لك يا سيدي أن العالم لا يسعني!

رفع كأسه والتفت بإيماءة نحو سيدته:

- في صحتك يا سيدتي النبيلة، قال بشكل رسمي؛ عل الرب يعطيك في العام الجديد أسناناً وحواجبَ وجلدا ناعماً مرمرياً وتتخلصين من أوشحتك الحمقاء القديمة التي تلفين بها عنقك! وتندلع الثورة مرة أخرى في كريت وتعود مرة أخرى القوى الأربع العظمى يا بوبولينتي بأساطيلها الضخمة، ولكل أسطول منها قبطان وكل قبطان بلحية مصففة

ومعطرة. وتنطلقين يا حوريتي وتقفزين فوق الأمواج - آه ضعنا وضاعت أغنيتنا! - عل الأساطيل تتحطم فوق الصخور.

قال زوربا هذا ووضع يديه الكبيرتين على ثديي المدام المترهلين.

لقد اشتعل زوربا ثانية واستعاد حيويته، تحشرج صوته من الشوق. ذات مرة شاهدت في السينما أحد الباشوات الأتراك يلهو في إحدى حانات باريس؛ كان يضع يده على ركبة إحدى الشقراوات؛ واشتعل الباشا، وكلما زاد اهتياجه كنت ترى خصلة طربوشه ترتفع وتتصلب في البداية بشكل أفقي ثم بعد ذلك تقف وحدها في اهواء.

- لماذا تضحك يا سيدي؟ سألني زوربا:

لكن المدام كان ذهنها شارداً فيما قاله زوربا.

- هل تظن هذا يا زوربا؟ إن الشباب لا يعود مجدداً!

اقترب زوربا منها حتى التصق الكرسيان.

- اسمعي ما أقوله لك يا بوبولينا، قال، محاولاً أن يفك الزر الثالث والأهم من قميصها، ما سأقوله لك هو هدية كبيرة: جاء طبيب جديد يصنع المعجزات. يعطيك قطرات من دواء، أو ربما مسحوق ما لست متأكداً، وتعودين صبية في العشرين. اهدئي أنت يا سيدتي وسأطلب لك هذا الدواء من أوربا...

قفزت الحورية وتوقف شعر رأسها الخفيف اللامع الأحمر وشعر جسدها كله.

- صحيح هذا يا زوربا؟ صاحت، أصحيح هذا؟

القت بذراعيها الغليظين حول عنق زوربا وقالت وهي تتمسح في جسده:

- إذا كان الأمر ممكناً يا زوربا لو كانت على شكل قطرات أما إذا كانت مسحوقاً....

- كيسًا كبيرًا كاملاً من أجلك! قال زوربا وكان قد انتهى من فتح الزر الثالث.

القطتان اللتان صمتتا للحظة عن ممارسة العشق العنيف، بدأتا في الصياح مرة أخرى؛ الصوت الأول كان ينوح ويتوسل، أما الثاني فكان يرفض ويهدد....

تثاءبت السيدة وانتفخت عيناها.

- هل تسمعين القطط؟ ألا تستحي؟ دمدم زوربا وهو يجلس على ركبتيه.

مالت برقبتها وتنهدت؛ فقد شربت كثيراً من النبيذ، أكثر مما تحتمل حتى اغرورقت عيناها.

- فيمَ تفكرين يا بوبولينتي واغرورقت عيناك هكذا؟

- أفكر في الإسكندرية... دمدمت الحورية الرحالة وهي تنوح على الإسكندرية؛ الإسكندرية... بيروت... إسطنبول... أتراك وعرب، شراب الفواكه، الأحذية الذهبية والطرابيش....

تنهدت مجدداً.

- عندما قضى معي علي بك تلك الليلة، يا لروعة شاربيه وحاجبيه وذراعيه! - كان ينادي عازف المزمار والطبال ويرمي لهم بالنقود من النافذة حتى يظلوا يعزفون حتى الصباح. كانت الجارت يغرن كثيراً ويثرثرن: «إن علي بك يقضي الليلة مع تلك السيدة...»

- ثم بعد ذلك في إسطنبول، سليمان باشا لم يكن يتركني في أي يوم جمعة حتى لا يراني السلطان وهو في طريقه إلى الجامع ويجن من جمالي فيضمني إلى حريمه... وكان عندما يخرج من بيتي كان يترك ثلاثة حراس من الأعراب يحرسونني، حتى لا يقترب أي رجل مني... آه يا سليماني!

أخذت منديلها وراحت تعضه وتصرخ كسلحفاة مائية.

تركها زوربا على الكرسي المجاور متذمرا؛ وراح يسير هنا وهناك، لقد اشتاط غضباً، لم تعد الحجرة تسعه، أخذ عصاه وخرج إلى الفناء، أسندها مقلوبة على الحائط وراح يصعد السلم بسرعة.

- من ستضرب يا زوربا: صحت؛ هل أنت ذاهب لتضرب سليمان باشا؟

- اللعنة على هذه القطط؛ لا تتركني أبداً هادئاً!

وبقفزة واحدة كان فوق السطح.

كانت مدام أورتانس ثملة، شعثاء الشعر أغمضت عينيها الملتهبتين، فقد غلبها النوم وذهبت إلى المدن الكبيرة في الشرق - إلى الحدائق المغلقة، في الحرملك المظلم، إلى عشاقها

من الباشوات. ثم بعدها عبرت البحر وراحت تحلم بأنها تصيد، حيث رأت أنها كانت تصطاد السمك وقد ألقت أربع صنارات واصطادت أربع سفن حربية عملاقة...

في نومها الهادئ وانتعاشها من البحر في رحلة الصيد هذه كانت الحرية تبتسم في نومها.

دخل زوربا يهز عصاه.

- نامت؟ قال وهو يرى المدام نائمة؛ نامت الخنزيرة؟

- نعم، أجبته، لقد أخذها الدكتور فورنوف الذي يعيد الشباب للعجائز يا زوربا باشا، هذه النائمة هي الآن بنت عشرين عاماً وتتمشى في شوارع الإسكندرية وبيروت....

- عليها اللعنة، عجوز عفنة! قال وهو يبصق على الأرض؛ ثم قال: انظر كيف تبتسم! هيا نذهب من هنا يا سيدي!

وضع قبعته ثم فتح الباب.

-- هل نغادر هكذا ونتركها وحيدة قلت، يا له من خزي؟؟

- هي ليست وحيدة، قال زوربا متذمراً، فهي مع سليمان باشا، ألا تراها: هي في السماوات السبع الآن، يا لها من عاهرة، هيا بنا!

خرجنا في الهواء البارد؛ كان القمر يسبح في السماء السعيدة.

- قال زوربا باشمئزاز: نساء؛ تفووووا! لكن ليس ذنبكن أنتن، بل ذنبنا نحن، أصحاب العقول الصغيرة من أشباه الـ سليمان باشا والـ زوربا!

وبعد قليل:

- ولا حتى ذنبنا نحن، بل المخطئ الوحيد ذو العقل الأصغر من السلطان سليمان وزوربا... أتدري من هو!

- إذا كان موجوداً ربما؛ أما إذا لم يكن...؟

- إذن فاللعنة على كل شيء!

سرنا لوقت طويل دون أن نتكلم. كان غارقاً في تفكير وحشي، حيث إنه كان يضرب الحصى بعصاه من حين لآخر ويبصق على الأرض.

فجأة التفت نحوي:

- قدس الله روح وعظام جدي. كان يدرك من هن النساء، لأنه كان يحبهن كثيراً وقد عانى منهن كثيراً أيضاً. قال لي ذات مرة «اذهب في رعاية الله يا أليكسي، واحترس من المرأة! عندما أخرج الله ضلعاً من آدم ليخلق المرأة، صار الشيطان ثعبان وخطف الضلع وهرب... راح الرب يحاول الإمساك به لكنه كان ينزلق فما بقي في يد الرب غير قرني الثعبان الذي هو الشيطان. لذلك يقول الرب، إن ربة البيت تغزل بملعقة؛ فخلق المرأة من قرني الشيطان. صنعها، ورحنا نحن الرجال في لعنة الشيطان يا أليكسي يا ولدي». أينما تلمس المرأة إنك تلمس قرني الشيطان يا بني! هي من سرقت التفاحة من الجنة، ووضعتها في صدرها، والآن تسير وتتهادى أمامنا مفتخرة وتهز ردفيها أمامنا، عليها اللعنة! فإذا أكلت هذه التفاحة أو لم تأكلها فأنت هالك لا محالة. بمَ أنصحك يا بني؟ افعل ما شئت!» هذا ما كان يقوله لي جدي، لكن لم يكن عندي استعداد للتعقل أبداً!

كنا نسير باتجاه القرية؛ كان القمر متوتراً ويدعو للتوتر، وكأنك ثملت ثم خرجت تتمشى بالخارج واكتشفت فجأة أن العالم تغير. صارت الشوارع أنهارًا من الحليب، والحفر امتلأت بالجير، والجليد غطى الجبال. وصارت يداك ووجهك ورقبتك تنضح بضوء فوسفوري مثل حشرة سراج الليل. والقمر قد تعلق على صدرك مثل وسام غريب من كوكب آخر...

كنا نسير بسرعة كالخيل، وكما كنا ثملين شعرنا بخفة أجسادنا، كأننا نطير. صعدت الكلاب على أسطح منازل القرية النائمة وراحت تنبح نباحاً أشبه بالعويل وأعينها تحدق في القمر؛ وكأن رغبة تلح عليك أن ترفع عنقك نحو القمر وتبدأ في العويل.

عبرنا الآن حديقة الأرملة. توقف زوربا؛ كان النبيذ والطعام والقمر قد أصابوا رأسه بالدوار. رفع عنقه وبدأ ينشد أغنية خليعة بصوته الحميري، ولأنه كان ثملاً إلى درجة كبيرة أظن أنه قد ارتجل هذه الأغنية في حينها:

أحب جسدك من الوسط وما أسفله
يخرج الثعبان حياً وفجأة تقتلينه!

-- قال زوربا: هذه هي أحد قرون الشيطان! هيا يا سيدي!

كان الشروق قد أوشك على الطلوع عندما وصلنا إلى الكوخ.

وقعت في الفراش منهكاً؛ تحمم زوربا وأشعل الموقد وصنع القهوة، جلس متربعاً أمام الباب، وأشعل سيجارة وجلس يدخن بهدوء، كان جسده ثابتاً مستقيماً ينظر إلى البحر. تعبير وجهه كان جاداً للغاية وفي منتهى التركيز؛ كان يشبه أحد الرسومات اليابانية التي أحبها: يجلس الراهب متربعاً، ملفوفاً بعباءة برتقالية، وجهه متلألئ وصلب، كأنه منحوت على لوحٍ من الخشب، مسودٌّ من المطر، وينظر بعنق متأهبة، متبسماً وبلا رعب إلى الأمام نحو الليل المظلم...

رحت أنظر إلى زوربا تحت ضوء القمر معجباً بالبساطة والحيوية اللتين توحد بهما مع العالم.

كان القمر على وشك الأفول؛ كان كامل الاستدارة ولونه أخضر شاحبًا. وكان هدوء لطيف وطاغٍ قد خيم على البحر.

ألقى زوربا سيجارته، مد يده وراح يقلب في سلة، أخرج خيطين وبكرات وعيدان خشبية، أشعل المصباح وبدأ يجرب مرة أخرى مشروع المصعد الهوائي المعلق.

انحنى على لعبته البدائية، كان غارقاً وتائهاً في حسابات كثيرة ومعقدة بالتأكيد، حيث كان بين الحين والآخر يحك رأسه بعنف وعصبية ويطلق اللعنات.

وفجأة، ودون سابق إنذار، بملل شديد، ركل بقدمه نموذج المصعد الهوائي المعلق الذي صممه فسقط على الأرض متحطماً.

غلبني النوم وحين استيقظت كان زوربا قد غادر. كان الجو بارداً، لم تكن لي رغبة في النهوض، مددت يدي وأخذت من فوق الرف الموضوع فوقي كتاباً أحبه كثيراً وحملته معي، أغاني مالارميه[17] . رحت أقرأ ببطء مقطوعات من هنا وهناك دون ترتيب، أغلقت الكتاب، ثم فتحته ثم ألقيت به. كل هذا بدا لي لأول مرة اليوم بدون حياة، أو دم أو رائحة أو معنى إنساني؛ كلمات فارغة ذات لون أزرق باهت تقرقع في الهواء. كلام ناصع كالماء النقي، بلا ميكروبات وبلا أي فائدة صحية؛ بلا حياة.

كما في الأديان التي فقدت بريقها فتصبح آلهتها مجرد أنماط شعرية، حلي لعزلة الإنسان والجدران، وهذه الأشعار تشبه هذا الوصف تماماً. شوق القلب الشاحب، الطين المليء بالبذور، الأمر أضحى لعبة ذهنية عقيمة ونماذج معمارية في الهواء.

فتحت الكتاب مرة أخرى، أعدت القراءة. لماذا، هذه الأغنيات تخلب عقلي كل هذه السنوات؟ شعر نظيف! الحياة تصبح لعبة شفافة، خفيفة، ولا تثقلها قطرة دم. إن الكائن البشري هو بدائي فظ قذر وشرس - العشق، الجسد، الصرخة - ليكن كل هذا فكرة مجردة، في بوتقة الروح يتحلل من خلال الكيمياء إلى كيمياء أخرى فتتخلخل جزيئاته ويتبخر!

كيف إن كل هذه الأشياء تبهرني، فهي تبدو لي في هذا الصباح مجرد ألعاب ذهنية بهلوانية! الحالة تشبه تماماً حالة انهيار الحضارات، ألعاب متقنة من السحر والشعوذة - الشعر النقي، الموسيقى الخالصة، الفكر المجرد - صراع الإنسان.

الإنسان الأخير الذي تيتّمَ من كل معتقد ووهم، والذي لم يعد ينتظر شيئاً، ولا يخاف شيئاً، يرى التراب الذي صنع منه قد تحول إلى روح، ولم يبقَ في هذه الروح ترابٌ تنمو فيه الجذور وتسمتد منه غذاءها.... لقد أفرغ الإنسان كل ما لديه ولم يعد لديه أي بذور ولا فضلات ولا دم. كل الأشياء أضحت كلمات، وكل الكلمات استحالت ألعابًا موسيقية،

---

[17] مالارميه: شاعر فرنسي.

والآن يجلس الإنسان الأخير في طرف صحرائه كي يفك رموز الموسيقى ويحولها إلى منطق رياضي أبكم.

قفزت من مكاني. إن بوذا هو الإنسان الأخير! صرخت. هذا هو معناه الموسيقي. بوذا هو الروح النقية التي فرغت ولايوجد أي شيء بداخلها... هو الذي ينادي «أفرغوا أحشائي، أفرغوا عقلي وروحي، أفرغوا قلبي!» أينما تطأ قدماه لا ينبع الماء ولا ينبت الزرع ولا يولد طفل.

فكرت وقلت في نفسي أنه حتما ولابد أن أحشد قوة الكلمة كي أستحضر هذه الروح، وأستحضر ذلك الصوت السحري أن أحاصره وأطرده، أن ألقي عليه شبكة الكلمات فيصبح أسيري، أن أتخلص وأتحرر!

لم تعد كتابة بوذا بالنسبة لي لعبة أدبية؛ بل معركة مع قوة مدمرة داخلي، معركة مع رفض كبير كان يأكل قلبي - معركة؛ مسألة حياة أو موت بالنسبة لي.

أمسكت بالمخطوطة مبتهجاً، فقد وجدت الآن الشجاعة، عرفت الآن إلى أين أوجه سهامي! بوذا هو الإنسان الأخير، ونحن ما زلنا في البداية، لم نأكل ولم نشرب، لم نعشق ولم نعش بما فيه الكفاية؛ في البدء جاءنا هذا العجوز الرقيق الحس الوديع ذو الحضور الخفيف، ويجب أن نتخلص منه سريعاً!

هكذا كنت أصرخ بداخلي، وبدأت أكتب. لم تكن هذه هي الكتابة، بل الحرب، الكر والفر، الحصار تعويذة كي يخرج الوحش من مخبئه. طقس سحري، الحقيقة هي الفن، كائنات ظلامية غائمة قاتلة تعيش في أحشائنا، دوافع للقتل والإدماء والكره وارتكاب الحماقات والشر؛ ويأتي الفن بأنغامه العذبة ليخلصنا.

رحت أكتب وأحارب طوال اليوم. عندما حل الليل كانت قواي قد أنهكت؛ لكنني كنت متأكداً، قد تقدمت، قد سيطرت اليوم على مواقع عديدة للعدو. كنت أتلهف قدوم زوربا، كي آكل وأنام لأستجمع قواي وأبدأ المعركة مجدداً في الصباح الباكر.

دخل زوربا مع حلول ظلام الليل؛ كان وجهه مشرقاً فقلت في نفسي:

«لابد أنه وجد ما كان يبحث عنه!» ثم انتظرت.

فقد بدأ صبري ينفذ معه وقد قلت له ذلك بغضب قبل ليلتين:

- لقد بدأ المال ينقص لدينا، يا زوربا، إذا كنا سنفعل شيئاً فعلينا أن نفعله بسرعة! لابد أن ننفذ فكرة المصعد الهوائي المعلق؛ وإذا لم تنجح الفكرة سنتاجر في الأخشاب. أو سنهلك.

حك زوربا رأسه.

- المال ينتهي يا سيدي؛ هذا شيء سيء!

- لقد نفد يا زوربا، لقد أنفقنا الكثير؛ راجع حساباتك مرة أخرى. كيف تسير تجاربك فيما يخص المصعد الهوائي المعلق؟

خفض زوربا رأسه؛ لم يجب. كان يشعر بالخزي، لابد أنه قد صمم على نجاح الفكرة، لهذا كان وجهه مشرقاً.

- وجدت حلاً يا سيدي! قال من بعيد. لقد وجدت الزاوية الصحيحة وصار الانحدار صحيحاً، كادت تهرب من بين يدي، لكني تمكنت منها في النهاية!

- هيا لنبدأ إذن! اطرق الحديد وهو ساخن يا زوربا! ما الذي تحتاجه.

- لابد أن أغادر غداً إلى المدينة لأشتري الخامات والمعدات - كابل فولاذي سميك، بكرات، مسامير وخطاطيف.... سأذهب وأعود بسرعة الطير.

أشعل النار بسرعة، طبخ وأكلنا وشربنا بشهية مفتوحة؛ فكلانا قد أرهق نفسه في العمل اليوم.

في الصباح رافقت زوربا إلى القرية. تحاورنا بهدوء وبشكل عملي حول العمل والمنجم؛ في أحد الشوارع المنحدرة تعرقل زوربا في حجر، وراح الحجر ينحدر بعيداً. توقف زوربا متفاجئاً كأنه يرى الحياة لأول مرة على أنها منظر بديع؛ التفت ونظر إلي لمحت في عينيه شيئاً من الخوف.

-- هل لاحظت هذا الشيء يا سيدي؟ قال زوربا أخيراً؛ إن الأحجار تستعيد حياتها فوق المنحدرات!

لم أتكلم، لكن سعادتي كانت غامرة. شبيهة بسعادة الحالمين وتنبؤات الشعراء الكبار، فهم يرون كل شيء لأول مرة. كل صباح هم أمام عالم جديد؛ لا يرون عالماً جديداً، بل يخلقونه.

إن العالم بالنسبة لزوربا مثل ما كان للإنسان البدائي، رؤية كثيفة، النجوم تلامسه، تنكسر أمواج البحر على صدغيه، يعيش دون أدنى وساطة من منطق زائف، التراب، الماء، الحيوان والرب.

كنا قد بلغنا مدام أورتانس فكانت في انتظارنا على عتبة الباب. متزينة بمساحيقها ومتأنقة، ومتوترة بعض الشيء. جعلت من نفسها مركب زينة في احتفالية يوم سبت؛ البغل كان جاهزاً خارج الباب، قفز زوربا فوق ظهره وقبض على اللجام. اقتربت الحورية العجوز على مضض ولمست البغل بصدرها وبيدها السمينة، كما لو أرادت أن توقف حبيبها وتمنعه من الرحيل.

- ماءت العجوز كالقطة... زوربا ثم وقفت على أصابع قدميها؛ زوربا....

أشاح زوربا وجهه بعيدًا؛ لم يعجبه هذا التصرف في الشارع، هراء العاشقين في الشارع. لكن البائسة مدام أورتانس رأت عيني زوربا وارتعبت؛ لكن يدها كانت لا تزال تضغط على صدر البغل.

-- ماذا تريدين؟ صاح فيها زوربا بعصبية.

- زوربا همست بدلال، كن طيباً... لا تنسني يا زوربا؛ كن طيباً...

شد زوربا لجام البغل دون أن يعطيها أية إجابة؛ وانطلق البغل في الشارع.

- إلى اللقاء يا زوربا! صحت، ثلاثة أيام لا أكثر؛ هل تسمع!

التفت وهز يده ملوحاً؛ الحورية العجوز بكت فحفرت دموعها خنادق في سطح المساحيق على وجهها.

- لقد وعدتك يا سيدي! إلى اللقاء!

واختفى بين أشجار الزيتون. بكت مدام أورتانس، كانت تبكي وتنظر بقعة أحدثها زوربا على البساط الأحمر الذي كانت تضعه ليجلس عليه حبيبها مرتاحاً. بعد قليل اختفت هي الأخرى وفرغ العالم من حولي.

لم أعد إلى الشاطئ؛ صعدت نحو الجبل. قبل أن أصل إلى الدرب المؤدي نحو الجبل سمعت صوت بوق؛ ساعي البريد كان يعلن عن وصوله إلى القرية.

- نادى علي وهو يلوح بيده.

اقترب مني وأعطاني حزمة من الصحف والمجلات وخطابين. أحدهما أخفيته في جيبي حتى أقرؤه في المساء، عندما ينتهي اليوم ويصفو الذهن؛ كنت أعلم من هو المرسل وكنت أود أن أؤجل قراءته حتى أطيل من زمن فرحتي.

الخطاب الآخر كنت أعرف أيضاً من هو المرسل من خط اليد العصبي ومن طابع البريد الغريب عليه؛ أرسله إلي زميل دراسة قديم اسمه كارايانيس من إفريقيا من فوق أحد الجبال بالقرب من تانجانيقا.

كان رجلاً متهوراً غريب الأطوار أسمر البشرة، له أسنان حادة شديدة البياض؛ وناب طويل أشبه بناب الكلب يخرج خارج فمه. لم يكن يتحدث أبداً، كان يصيح؛ لم يكن يتحاور، كان يتعارك. رحل عن وطنه كريت حيث كان يعمل استاذاً لعلم اللاهوت وهو شاب صغير يرتدي عباءة قس. كان قد عشق إحدى تلميذاته وتم القبض عليهما يتبادلان القبل في أحد الحقول ففضحه الناس وكالوا له السباب والشتائم. في نفس اليوم نزع الأستاذ عباءة الراهب واستقل المركب. ذهب إلى أحد اقاربه في إفريقيا وانهمك في العمل، أنشأ مصنعاً للحبال، وجمع مالاً وفيراً. كان يرسل إلي من وقت لآخر يدعوني أن أذهب إليه لأقيم ستة أشهر. وذات مرة وأنا أفتح أحد خطاباته وقبل أن أقرأه، شعرت بأن هناك ريحًا عاصفةً تهبُّ من صفحات خطابه المدرز دائماً بخيط، مما يجعل شعر جسدي ينتصب وفي كل مرة أتخذ قراراً أن أذهب إلى إفريقيا كي أراه، لكني لم أذهب ابداً.

انعطفت عن الدرب وجلست فوق إحدى الصخور أقرأ الرسالة:

«متى إذن ستأخذ القرار أيها المحار اليوناني اللعين لتأتي لزيارتي؟ لقد صرت روميًا حقيرًا ترتاد الحانات وتتمرغ في المقاهي. وليتها مجرد مقاهٍ كالمقاهي؛ إنها الكتب والمجلات عاداتك وعقائدك الثمينة. كلها مقاهٍ ياعزيزي. اليوم الأحد، ليس لدي عمل، أقضي اليوم في المنزل وقد خطرت ببالي. حرارة الشمس هنا حارقة، ولم تنزل قطرة مطر، عندما يهطل المطر هنا عادة في أبريل ومايو ويونيو فهذا يعني سيولاً وطوفانًا.

أعيش وحدي وأفضل هذا. هنا يوجد الكثير من اليونانيين. أكرههم. لا أحب اليونانيين، حتى هنا، يونانيون، هل يوجد مكان لم يذهب إليه اليونانيون؟ أشعر بالقرف منهم، اللعنة عليهم، لقد ألقيتم علينا كل جذامكم وأمراضكم بسبب مهاتراتكم السياسية؛ هذا ما سوف يدمر اليونان. الميسر والجهل والجسد.

أكره الأوربيين؛ ولهذا أطوف هنا في الجبال في بامباسا. أكره الأوربين؛ لكني أكره اليونانيين واليونان أكثر من أي شيء في حياتي. لن تطأ قدماي أرض اليونان ثانية. هنا سأموت لقد صنعت قبري بالفعل خارج بيتي، في جبل منعزل. وكتبت عليه بحروف محفورة بيدي بحروف كبيرة:

هنا يرقد يوناني يكره اليونان

أقهقه عالياً، أبصق، أسب وأضحك عندما أفكر في اليونان. وكي لا أرى اليونان واليونانيين غادرت هذه البلد إلى الأبد؛ جئت إلى هنا وأحضرت قدري معي - لم يأت بي القدر إلى هنا، فالإنسان يفعل ما يشاء! -- أحضرت قدري وأعمل مثل العبيد. أعمل وأكدح وسأظل أعمل وأكدح كثيراً. فهنا أحارب الارض والريح والمطر، والعمال والحمر والسود.

لا توجد لدي متع. بل لدي متعة واحدة ألا وهي العمل، العمل اليدوي والروحي؛ أحب أن أتعب في العمل وأتعرق، أن أسمع عظامي تطقطق. أكره المال، فأنا أبدد كل ما أكسبه في أي شيء أريد؛ فأنا لست عبداً للمال؛ بل المال عبد لي. فأنا عبد للعمل! وهذا شرف لي. أقطع الأخشاب، أبرمت عقداً مع البريطانيين وأقمت مصنعاً لصنع الحبال، الآن أزرع

القطن. لدي الكثير من العمال، سود وحمر وحمر سود. من كل الملل والأصناف كائنات قذرة وقدرية، مفسدون في الأرض وكاذبون. ليلة أمس بدأت قبيلتا الزنوج في المنطقة: الفويايون مع الفانجونيون تتقاتلان من أجل امرأة عاهرة. لقد جرح كبرياؤهما، تماماً كما يحدث في اليونان. سباب وإهانات ثم بعدها انطلقت الهراوات والعصي، وهشم أحدهم رأس الآخر، أسرعت النسوة لإحضاري في منتصف الليل كي أذهب وأحكم بينهم بعد أن أيقظنني بصراخهن. غضبت وقلت لهن أن يذهبن إلى الجحيم أو إلى البوليس البريطاني، إلا أنهن بقين ينحن ويصرخن أمام بيتي طوال الليل. خرجت مرغماً عند الفجر وحكمت بينهم.

في صباح الغد سأذهب لأتسلق جبال أوسومبار ذات الغابات الكثيفة الخضراء والمياه العذبة. أيها اليوناني القذر متى ستغادر أبراجك البابلية في أوربا وتأتي إلى هنا؟؟؟.... أوربا هذه العاهرة العجوز التي تجلس فوق عرش مياه كبير، والتي ضاجعها ملوك الأرض.... متى ستأتي لنتسلق هذه الجبال البرية؟

لقد أنجبت طفلة من امرأة سوداء. طردت أمها بعد أن جعلت مني ديوثاً أمام الملأ، ليل نهار وتحت كل شجرة خضراء في هذا المكان؛ مللت منها وطردتها... لكن الطفلة معي، تبلغ من العمر سنتين. تستطيع أن تمشي وقد بدأت تتكلم، أعلمها اللغة اليونانية، وأول جملة علمتها إياها هي: «أبصق على اليونان واليونانيين!»

هي تشبهني كثيراً؛ لم تأخذ من أمها سوى الأنف المفلطحة. أحبها كثيراً، لكن كما نحب كلباً أو قطة في البيت. تعال إلى هنا لتنجب أنت أيضاً ولداً من إمرأة زنجية كي نتسلى سوياً!

تركت الخطاب على ركبتي؛ اشتعلت بداخلي ثانيةً رغبة الرحيل؛ ليس لأنني أحتاج أن أترك هذا الشاطئ؛ فأنا سعيد هنا على هذا الشاطي الكريتي، كل شيء على ما يرام ولا ينقصني شيء؛ لكن هذه الرغبة تشغلني: أن أرى وألمس أكثر قدر ممكن من الأرض والبحر قبل أن أترك هذا العالم.

نهضت من على الصخرة. غيرت رأيي، لن أذهب نحو الجبل، نزلت نحو الشاطئ. تحسست الخطاب الآخر في الجيب الداخلي لسترتي ولم تعد لدي قدرة على الانتظار. لقد انتظرت كثيراً، وكأن طعم تلك البهجة الجميلة قد دام طويلاً.

وصلت إلى الكوخ، أشعلت النار، أعددت الشاي، أكلت خبزاً وزبداً وعسلاً وبرتقال. بدلت ملابسي واستلقيت على الفراش وفتحت الخطاب:

«أستاذي العزيز وتلميذي النجيب، تحياتي!

إن العمل هنا كثير وشاق، «حمداً للرب».

أكتب هذه الكلمة الخطيرة بين قوسين (كوحش كاسر محبوس في قفص)، كي لا يستشيط غضبك فور أن تفتح خطابي. إن العمل شاق جداً هنا، حمداً «للرب»! إن ما يقرب من نصف مليون من اليونانيين يخاطرون بحياتهم في جنوب روسيا والقوقاز. الكثير منهم يتحدثون التركية والروسية فقط، لكن قلوبهم تتحدث اليونانية بتعصب. إنهم من بني وطننا وتجري فيهم دماؤنا؛ يكفي أن ترى عيونهم كيف تشع، عيونهم الماكرة وشفاههم الشهوانية عندما يبتسمون، وكيف استطاعوا أن يصبحوا سادة وأصحاب عمل ويجعلوا العمال الروس يعملون تحت إمرتهم - كي تدرك كيف أن هؤلاء هم أحفاد أوديسيوس؛ ستحبهم حينئذ ولن تتركهم يهلكون.

أتدري لماذا يتعرضون للفناء. لقد خسروا كل ما يملكون، يتضورون جوعاً؛ تبدلت حيواتهم من يوم لآخر ويتعرضون لغزو البلاشفة من جهة والأكراد من الجهة الأخرى. لقد حوصروا من كل الجهات بين ولايات جورجيا وأرمينيا، ونزح اللاجئون؛ لايجدون طعاماً ولا ملبساً ولا دواء، يتجمعون في الموانئ يسرحون في أركان البحر ينتظرون أن تاتي مراكب يونانية لتقلّهم من هنا كي يعودوا إلى وطنهم اليونان. إنهم جزء من بني جنسنا يا معلمي، أي أنهم جزء من روحنا وقد سيطر عليهم الرعب.

إذا تركناهم يواجهون مصيرهم، سيهلكون. إن الأمر يحتاج إلى كثير من الحب والعقل والحماس والتنظيم - حتى يتسنى لنا أن ننقذهم وننقلهم إلى أرضنا الحرة، هناك حيث هو المكان الأمثل الذي يناسبنا - على حدود مقدونيا العليا، بعيداً عن حدود ثراكي. هذه

هي الطريقة الوحيدة التي نستطيع بها أن ننقذ مئات الآلاف من الأرواح اليونانية، وسننقذ أنفسنا معهم. حيث إنني منذ اللحظة التي وصلت فيها إلى هنا، رسمت خط سير وفقاً لتعاليمك، عبارة عن دائرة وسميتها: واجبي. وقلت: إذا أنقذت هذه الدائرة فقد أنقذت نفسي؛ وإذا لم أنقذها هلكت. وفي وسط هذه الدائرة هناك خمسمائة ألف من اليونانيين.

أجوب بلاداً وقرى، أجمع اليونانيين، أكتب تقارير، أرسل برقيات، أقاتل كي أقنع السلطات أن ترسل لنا مراكب، طعامًا وملابس وأدوية وأن يحملوا كل هذه الأرواح إلى اليونان. عندما تكافح بإصرار شديد فهذه سعادة، أنا سعيد. لا أدري كما تقول أن أقص السعادة على قدر حجمي؛ أتمنى ذلك، لأن حجمي عندئذ سيكون عظيماً. لكنني أفضل أن أزيد من حجمي على القدر الذي أظن أن فيه سعادتي، أي حتى حدود اليونان. لكن لا تجعلنا نسهب في التنظير؛ أنت الآن مستلق على شاطئك الكريتي، تنصت إلى البحر وإلى السانتوري، لديك الوقت، أنا ليس لدي أي وقت. طاقتي كلها تستهلك وأنا سعيد بالعمل، الفعل، إنه الخلاص الوحيد الذي أعرفه.
في البدء كان العمل -- وفي النهاية أيضاً.

إن تفكيري الآن بسيط للغاية، دفعة واحدة أقول: أن البنديين والقوقازيين وفلاحي كارس وهؤلاء التجار في منطقة تيفيذا في جورجيا وفاتوم ونوفورويسيك وراتسوف وأوديسا والقرم، هم من بني وطننا، لحمنا ودمنا، بداخله تقبع القسطنطينية عاصمة لوطننا. لدينا جميعاً نفس القائد؛ أنت تسميه أوديسيوس، آخرون يسمونه قسطنطين باليولوغوس[18]، ليس هذا الذي قتل في بيزنطة، ولكن الآخر الذي صار تمثالاً رخامياً في وجدان أساطيرنا و ينتظر ريح الحرية. أما أنا وبعد إذنك طبعاً، أسميّ زعيمنا أكريتاس. أحب هذه الكلمة كثيراً. إنه اسم صارم ويشي بالإصرار والعناد والجلد، ما إن تسمعه حتى تحضر في مخيلتك صورة هيلين الخالدة تحمل السلاح وتحارب دون كلل أو رأفة على كل الحدود والجبهات. على كل الجبهات في آن واحد: القومية والثقافية والذهنية،

[18] قسطنطين باليولوغوس: آخر أباطرة الإمبراطورية البيزنطية.

وإذا أضفت ذيجينيس[19] سيكون المعنى أعمق لقوميتنا، يحمل تلك التركيبة الرائعة بين الشرق والغرب والتي تجري في دمائنا.

أنا الآن في كارس، جئت إلى هنا لأجمع اليونانيين من القرى المجاورة؛ في نفس اليوم الذي وصلت فيه كان الأكراد قد قبضوا على عاملٍ وكاهنٍ يونانيين من خارج كارس وثبتوا حدوات حصان في قدميهما. تجمع الجميع في البيت الذي أنا فيه؛ نسمع أصوات مدافع الأكراد تقترب أكثر فأكثر منا. عيون الجميع مثبته علي كأنني أنا الذي لديه المقدرة على إنقاذهم جميعاً.

كان من المقرر أن أغادر غداً إلى تيفليذا، لكن الآن الوضع تغير وصار أكثر خطورة، سأشعر بالخزي إذا غادرت وتركتهم. سأبقى إذن. لا أدعي أنني لست خائفاً؛ بل إني خائف، لكنني أشعر بالخزي. ألم يكن ليفعل محارب رمبرانت نفس الشيء؟! سأبقى إذن؛ سأبقى أنا أيضاً. وإذا دخل علينا الأكراد، سيكون من الطبيعي أن يضعوا في قدميّ أنا أيضاً حدوة البغال. هذه ستكون نهاية بغل من تلامذتك يا معلمي، بالطبع لم تكن تتوقع نهاية كهذه.

بعد محاورات يونانية من النوع الطويل الذي يعتاد عليه اليونانيون؛ اتخذنا قراراً أن يتجمع كل اليونانيين ببغالهم وخيولهم وثيرانهم وأغنامهم ونسائهم وأطفالهم، وعند الفجر سنتحرك جميعاً نحو الشمال؛ وسأكون أنا في المقدمة. الكبش الذي يتقدم القطيع.

هجرة شعب من خلال سهول ووديان ذات أسماء أسطورية، وسأكون مثل موسى - أو موسى زائف - أقود الشعب المختار نحو أرض الميعاد، كما يطلق هؤلاء الناس على اليونان. كان من الأحرى كي أكون جديراً بمهمة كهذه المهمة الموسوية أن أتخلص من حذائي الأنيق الذي طالما كان موضع سخريتك، وألفُّ قدميَّ بجلد الغنم. وأن أطلق لحية طويلة مجعدة مبقعة بالدهن، والأحرى أن أضع قرنين أيضاً. لكن للأسف لن أفعل هذا

[19] ذيجينيس: فيلسوف يوناني.

وأمنحك هذه المتعة. إذ أنه كما تعرف تغير روحي أسهل لدي من تغيير ملابسي؛ أرتدي حذائي وأحلق ذقني وأنعمها وأنا أعزب.

معلمي العزيز، أتمنى أن تصلك هذه الرسالة، التي ربما ستكون هي الأخيرة. لا أحد يعرف ماذا يخفي لنا الغد. ليس لدي ثقة في تلك القوى الخفية التي تحمي الإنسان. أعتقد أنها قوى عمياء تضرب ذات اليمين وذات اليسار دون أن تكون شريرة لكن بدون أي هدف أيضاً لكنها يمكن أن تقتل أي أحد يصدف أن يكون بالقرب منها. إذا رحلت عن هذا العالم، أقول إذا رحلت حتى لا أقول تلك الكلمة فيصاب كلانا بالرعب، إذا رحلت إذن عن هذه الأرض، فالوداع يا معلمي الحبيب! أشعر بالعار أن أقولها، لكن لابد أن أقولها وأرجو أن تلتمس لي العذر: فلقد أحببتك كثيراً»

وفي الأسفل مكتوب بالقلم الرصاص على عجل:

«ملاحظة: ذلك الاتفاق الذي عقدناه في المركب عندما كنت في طريقي إلى المغادرة، لم أنسه؛ لو كنت سأغادر هذا العالم، فسأبلغك، يجب أن تعرف هذا، أينما كنت، فلا تدع الأمر يبث الرعب في نفسك»

مضت ثلاثة أيام، ثم أربعة، ثم خمسة أيام، وزوربا لم يظهر.

بعد ستة أيام تلقيت خطاباً غليظاً من المدينة، صفحات كثيرة مليئة بالهراء، مكتوب على ورق معطر ومرسوم على جانبه قلب يخترقه سهم.

احتفظت بالرسالة، ونسختها وحافظت على ألفاظها البديعة؛ عدلت فقط أخطاءها اللغوية المضحكة. يبدو أن زوربا يمسك بالقلم كأنه يمسك فأساً، كان يضربه بقوة وكان الورق مبقعاً بالحبر والثقوب.

«سيدي العزيز، الرأسمالي!

أود أن أسأل في البداية إذا كنت تتمتع بصحة جيدة. نحن هنا على ما يرام، حمداً للرب.

لقد أدركت منذ زمن بعيد أنني لم آتِ إلى هذا العالم كحصان أو ثور؛ فالحيوانات فقط تعيش لتأكل وتشرب. وأنا أنأى بنفسي أن أنضم إلى هذه الشريحة من المخلوقات، أعمل ليل نهار، أخاطر من أجل لقمة عيشي أو من أجل فكرة، أغير المقولة المأثورة الشهيرة دائماً «من الأفضل أن تخاطر من أجل عشرة عصافير على الشجرة بدلاً من أن تكون عصفورًا في قفص»

الكثير من الناس وطنيون دون أن يكلفهم هذا شيئاً؛ أنا لست وطنياً، ولن أكون ولا يهمني الأمر؛ الكثير يعتقد في الجنة ويعيش من أجلها؛ هذا لست أنا، أنا إنسان حر ولا أخاف الجحيم، ولا أتمنى الجنة ولا أعيش من أجلها، كل يحشو دماغه بأفكار يعيش من أجلها. أنا شخص غير متعلم ولا أستطيع أن أصيغ الأمور ببراعة، لكنك تفهمني يا سيدي.

الكثير يخشون الغرور والتفاخر! أما أنا فقد انتصرت على هذه الأشياء. الكثيرون أيضاً يفكرون كثيراً، أما أنا فلست في حاجة إلى أن أفكر. ليست لدي الحاجة إلى أن أفرح أو أن أحزن؛ فإذا علمت أن اليونانيين استولوا على القسطنطينية فإحساسي سيكون هو نفسه إذا ما استولى الأتراك على أثينا.

من كل ما أكتب لك، إذا كنت قد فهمت أي من هذا الهراء الذي أكتبه، أو كيف وصلت به إلى عمري هذا، فاكتب لي. أنا أطوف على المحلات في المدينة لأشتري الأسلاك الفولاذية

من أجل مشروعنا وأضحك. ويسألني الناس، «لماذا تضحك يا بن العم». لكن في اللحظة التي أمد فيها يدي لأرى جودة الأسلاك ينتابني التفكير في ماهية الإنسان ولماذا جاء إلى هذا العالم وفي أي شيء هو مفيد.... أنا أظن أن الإنسان لا يفيد في شيء. كل شيء كما هو: إذا كان لدي امرأة أم لا، إذا كنت شريفاً أو لصاً، إذا كنت من باشا أو حمالاً في الأسواق؛ فقط إذا كنت حياً أم ميتاً هذا الذي يعنيني وهذا ما يصنع الفرق بالنسبة إلي. إذا كنت سأذهب إلى جحيم الشيطان أو رحاب جنات الرب (ماذا أقول لك يا سيدي؟ أنا أعتقد أن الرب والشيطان هما شيء واحد)، سأموت، سأصبح جثة عفنة، وستفوح رائحتي وسيضطر الناس إلى أن يلقوا بي بعيداً حتى لا يصابوا بالاختناق من العفن.

وبما أن الكلام قد أتى بنا إلى هذا الموضوع، سأقول لك يا سيدي عن الشيء الذي يخيفني - شيء واحد ولا شيء آخر - ويؤرقني ليل نهار ولا أستطيع أن أستريح من فرط التفكير به: إن الشيخوخة هي التي تخيفني يا سيدي، أبعدها الله عنا! أما الموت فهو لا شيء، هو أشبه بأن تنفخ زفيرك في شعلة الشمعة فتنطفئ؛ أما الشيخوخة فهي خزي كبير.

أظن أنه عار كبير أن أعترف بأني عجوز، أن أفعل كل ما أستطيع كي لا يبدو عليّ أو يلاحظ أي شخص ملامح الشيخوخة عليّ: أقفز، أرقص، تؤلمني كليتاي، لكني أستمر في الرقص؛ أشرب حتى الثمالة، يدور العالم حولي، لكني أظل واقفاً صلباً، وكأني لم أشرب شيئاً ولم يصبني الدوار. أتعرق أغوص في البحر، يصيبني البرد وأود أن أسعل كي أخفف من آلام صدري، لكنني أشعر بالخزي يا سيدي، أبتعد عن الناس كي أسعل، هل رأيتني أسعل أبداً يا سيدي! ولن تراني ولن أسعل إذا كان حولي بشر، لكن عندما أكون وحيداً أسعل وأشعر بالخزي، أشعر بالخزي من زوربا يا سيدي، هل تصدق؟ إني أخجل منه؟

ذات مرة تعرفت على راهبٍ في جبال أثوس - كنت قد ذهبت هناك وليتني لم أذهب - كان الراهب يدعى لافرنتيو من جزيرة خيو. كان هذا المسكين يعتقد أن هناك شيطاناً داخل جسده، حتى أنه أطلق عليه اسم خوجا. «خوجا يريد أن يأكل اللحم في الجمعة العظيمة» كان يهيج ويزأر المسكين لافرنتيو ويضرب رأسه على عتبة الكنيسة: «خوجا

يريد أن يضاجع امرأة، خوجا يريد أن يقتل رئيس الدير. خوجا يريد هذا خوجا يريد ذلك، خوجا؛ لست أنا» وفي كل مرة يضرب رأسه في الصخر.

هكذا أنا يا سيدي، أظن أن ثمّة شيطاناً داخل جسد زوربا. زوربا الداخلي؛ وهو لا يريد أن يشيخ، لا، لا يريد أن يشيخ، إنه تنين، له قرون وشعر واثنتان وثلاثون سنًّا وزهرة قرنفل في أذنه. لكن مظهره الخارجي هو زوربا؛ شاخ وابيض شعره وتجعد جلده، وهن، تساقطت أسنانه، وأذناه أمتلأتا بشعرالشيخوخة الأبيض المدبب الذي يشبه شعر الحمار.

ماذا أفعل يا سيدي؟ إلى متى سيتقاتلان هذان الزورباوان؟ أيّهما سينتصر في النهاية؟ إذا مت سريعاً فهذا شيء حسن، لا يهم الأمر إذن؛ أما إذا عشت كثيراً، سأهلك؛ سأهلك يا سيدي. فسيأتي اليوم الذي سأصاب فيه بالخزي لا محالة. سأفقد حريتي، وستطلب مني ابنتي وزوجة ابني أن أرعى لهم طفلاً، وحشاً صغيراً، كي لا يحرق نفسه أو يقع أو لا تتسخ ملابسه، وإذا اتسخت ملابسه، فسيجعلانني أنظفه، تفووووو!

ستمر أنت بنفس الموقف يا سيدي، وإن كنت ما زلت شاباً، احترس! ولهذا، اسمع ما اقوله لك، سر على دربي، فليس هناك سبيل آخر للنجاة، لنطُف الجبال، نستخرج الفحم والنحاس والحديد والزنك، نكسب المال، كي يخاف منا الأقرباء، و يتملقنا الأصدقاء، ويرفع لنا الأثرياء قبعاتهم. وإذا لم ننجح في هذا، فالموت أفضل لنا يا سيدي، من ذئب أو دب أو أي وحش نصادفه أمامنا، حلال لحمنا له! لهذا خلق الله الوحوش في هذه الدنيا؛ ليأكلوا بعض البشر أمثالنا، كي لا يفضحوا»

وهنا رسم زوربا شيئاً بالألوان الرصاص، شخصاً نحيلاً يجري تحت شجرة خضراء، وخلفه سبع ذئاب حمراء اللون تطارده؛ وكتب تحتها بخط سميك: «زوربا والخطايا السبع».

ثم أكمل:

«من رسالتي هذه لابد أنك فهمت كم أنني إنسان حزين؛ لكن معك لدي بعض من الأمل عندما أتحدث إليك، أخفف من همومي الكثيرة. لأنك مثلي، لكن لا تدري،

فبداخلك شيطان أنت أيضاً لكنك لا تعرف اسمه بعد. ولأنك لا تعرف اسمه، لا تحير نفسك كثيراً، عمده، سمه اسماً وسترتاح كثيراً بعد ذلك.

كنت أقول كم أنا حزين؛ وأرى بوضوح أن ذكائي ما هو إلا غباء ولا شيء آخر؛ لكن تأتي لحظات أتوصل فيها بعقلي إلى أفكار عظيمة لا تخرج إلا من رأس عبقري، ولو كنت أستطيع أن أترجم هذه الأفكار التي يمليها علي زوربا الداخلي، لأدهشت العالم!

ولأن عقدي مع الحياة غير مشروط بمدة زمنية، أترك نفسي ولا أكبح جماحي عند أي منعطف خطير.

إن حياة كل إنسان ما هي إلا منحدرات ومرتفعات وعرة، وكل يسير في طريقه بحذر؛ لكن أنا، هنا تظهر مواهبي يا سيدي، لقد ألقيت كل ما يعطلني وراء ظهري منذ زمن بعيد، لأنني لا أخشى المخاطرة كما يحدث لنا نحن العمال عندما تخرج الآلة عن مسارها. اللعنة؛ فأنا لا أعبأ حتى بالمخاطر التي تصيبني أو التي أسببها؛ فأنا منطلق ليل نهار بكل طاقتي، أفعل ما يحلو لي، ولا أخشى السقوط، حتى لو تهشّمت عظامي. ماذا لدي كي أخسره؟ لا شيء. أ تدري؛ لو كنت أتوخى الحذر في كل تحركاتي لسقطت منذ زمن بعيد؛ اللعنة على كل شيء إذن!

الآن أنت تضحك معي يا سيدي، لأني أكتب إليك حماقاتي، أو أفكاري أو مواطن ضعفي - بربك، ما هو الفرق بين هذه الأشياء الثلاثة، فأنا لا أفهم - أنا أكتب لك، وأنت تضحك، إذا لم تكن متململاً. ,أنا أضحك لأنك تضحك - وهكذا الضحك في العالم لا ينتهي. كل إنسان له حماقاته؛ لكن الحماقة الكبرى في رأيي، هو ألا يكون لديك حماقة.

أنا أدرس حماقتي هنا في المدينة، وأكتب لك كل شيء يا سيدي، وأود أن أطلب مشورتك. فأنت ما زلت شاباً يا سيدي، هذه هي الحقيقة؛ لكنك قرأت كل كتب الحكمة والمعرفة، وصرت بهذا عجوزًا بعض الشيء، لا تؤاخذني؛ أريد أن أستشيرك في شيء.

حسناً، أنا أعتقد أن كل إنسان له رائحته الخاصة: لا نعيها بالضبط، لأن الروائح والعطور تختلط، ولا نعرف أياً منها رائحتي وأيها رائحتك أنت، ونسميها عفن الأنسان.

البعض يستنشقها كما لو كانت نبات الخزامى العطر. أما أنا فتولد لدي رغبة في التقيؤ. لكن هذا موضوع آخر، لنعد لما كنا نقوله.

كنت أود أن أقول، كنت سأطلق العنان لنفسي مرة أخرى - كيف أن النساء لديهن أنوف مبللة مثل الكلاب ويستطعن معرفة الرجل من رائحته إن كان يتوق إليهن أو لا يطيقهن. لهذا، ففي كل بلدة أدخلها حتى وأنا عجوز قبيح الوجه وغير مهندم المظهر، هناك اثنين أو ثلاثة من النساء سيطاردنني. لقد التقطت الكلاب كما ترى رائحتي، بارك الرب فيهن!

في الليلة الأولى التي وصلت إلى المدينة كان ظلام الليل حل عليها. هرعت على الفور إلى المحلات فكانت مغلقة، ذهبت إلى إحدى الحانات، وضعت طعاماً للبغل، أكلت أنا أيضاً، اغتسلت، أشعلت سيجارتي وخرجت أتمشى. لم أكن أعرف أي شخص في البلدة. لا أحد، كنت حراً. كنت أستطيع أن أصفر في الشارع، أن أضحك، أن أحدث نفسي، اشتريت بعض بذور التسلية ورحت آكلها وأبصق وأتسكع. كانت المصابيح قد أشعلت، والرجال يشربون العرق، والنساء عدن إلى بيوتهن، كان للهواء رائحة مساحيق تجميل وصابون ولحم مشوي. «قلت آه يا زوربا إلى متى ستعيش، وراح أنفي يرتعش مع الروائح، هل سأظل أسترق الشم، هيا خذ نفسًا عميقًا يا رجل!»

أخذت نفساً عميقاً ورحت أتسكع ذهاباً وإياباً في الساحة الكبيرة، تعرفها. إلى أن سمعت فجأة أغاني ورقصًا ونقرًا على الدفوف وغناءً شرقيًّا. استطالت أذناي ورحت أهرول نحو مصدر الصوت؛ كان مقهى صغيرًا به ملهى، لم أكن أبحث عن مكان أفضل من هذا، دخلت. جلست إلى إحدى الموائد الأمامية. وممَ أخجل؟ لقد كنت دوماً حراً ومقداماً!

كانت امرأة ضخمة ترقص على المنصة، كانت ترفع فستانها وتخفضه، لكنني لم أهتم. طلبت زجاجة بيرة وإذا بصغيرة تأتي وتجلس بجواري، حلوة سمراء لكن صبغت وجهها بشكل مبالغ فيه.

- هل تسمح لي يا جدي؟ قالت ثم ضحكت.

استشاط غضبي واعترتني رغبة عارمة في أن أدق عنقها! لكنني تماسكت، تملكني شعور بالحزن على جنس المرأة، فناديت النادل:

- شمبانيا! طلبت منه.

(اعذرني يا سيدي فقد أنفقت مالك، لكنها كانت إهانة عظمى، كان لابد ألا أفضح، وكان علي أن أنقذ سمعتنا وشرفنا، أن أجعل هذه الطفلة البائسة تجثو على ركبتيها أمامنا. لابد. أعرف أنك لن تتركني أعزل في هذه الساعة الصعبة، فأنا أعرفك جيداً. الشمبانيا أيها النادل إذن!)

جاءت الشمبانيا، ثم طلبت حلوى، طلبت شمبانيا أخرى. مر بائع الياسمين فأخذت كل ما لديه وألقيته في حضن الصغيرة.

شربنا وشربنا، لكن أقسم لك يا سيدي أنني لم ألمسها. أعرف ما أفعل؛ عندما كنت شاباً، كان أول شيء أفعله هو أن ألمس المرأة؛ الآن بعد أن شخت، أول شيء أفعله هو أن أنفق المال. أن أكون شهماً وأنثر المال؛ فالنساء يعشقن أن يعاملن بهذه الطريقة، يفقدن صوابهن العاهرات ويفتتنَّ بك، حتى لو كنت أحدبَ وعجوزًا هزيلاً وقبيح الوجه والهندام، ينسين كل ذلك ولا يرين العاهرات سوى اليد التي تخرج المال وتنثرها. لذا، كما أقول لك لقد أنفقت الكثير من المال - بارك الرب فيك يا سيدي، أدعو أن تعاد إليك مضاعفة، هذا وقد راحت تقترب مني الفتاة وتحك ركبتها الناتئة بي؛ لكنني لم أستجب، وإن كنت أذوب في داخلي. هذا ما يزيد جنونهن، لتعلم هذا إذا صادفك في حياتك. أن يعلمن أنك تحترق من الداخل لكن لا تلمسهن.

في النهاية، حل منتصف الليل ثم بزغ الفجر، وبدأ نور النهار يطلع، وأخذ الملهى يغلق أبوابه، أخرجت صرة المال ودفعت الحساب وأعطيت النادل بقشيشاً كبيراً.

تعلقت الفتاة بي.

- ما اسمك؟ سألتني بصوت ذائب.

- الجد! أجبتها بمرارة.

قرصتني الحمقاء بشدة:

- قالت لي تعال معي وغمزت لي بعينها.

أخذت يدها وشددت عليها بطريقة ذات معنى.

- هيا بنا يا صغيرتي.... أجبتها، وقد بح صوتي.

البقية معروفة. مارسنا الحب بجنون. ثم نمنا. عندما استيقظت عند الظهيرة. نظرت حولي، وماذا رأيت؟الحجرة الصغيرة كانت رائعة وفي غاية الأناقة بها كراسٍ ومغسلة وصابون وزجاجات عطر ومرايا من أحجام مختلفة، وثياب ملونة مزركشة على الحائط وصور كثيرة: بحارة ورجال جيش وأدميرالات ورجال شرطة، نسوة عاريات، وعلى السرير إلى جانبي تلك الفتاة الدافئة العطرة بشعرها الأشعث. من جنس حواء.

آه يا زوربا دمدمت وأغلقت عيني لقد دخلت الجنة حياً؛ يا له من مكان رائع، ابقَ هنا ولا تتزحزح!

كل إنسان يا سيدي كما قلت لك في مرات سابقة له جنته الخاصة؛ فبالنسبة لك الجنة ستكون مليئة بالكتب وزجاجات الحبر؛ وبالنسبة لشخص آخر ستكون مليئة ببراميل النبيذ والعرق والكونياك؛ وبالنسبة لغيره ستكون مليئة بجنيهات إنجليزية؛ أما جنتي أنا فهي هذه: غرفة صغيرة معطرة وبها فساتين زاهية الألوان وصابون معطر وسرير عريض بوسائد طرية، وبجواري أنثى.

الاعتراف بالذنب ينفيه؛ طوال اليوم لم أخرج خارج الحجرة؟ لأفعل ماذا؟ دعك من هذا، كنت على ما يرام. طلبت طعاماً من أفضل مطعم فجاء الطعام على أطباق مليئة بالطعام والخيرات عليها كل مالذ وطاب ويقوي الجسد ويعزز طاقته، كافيار أسود، لحم مشوي، أسماك، فواكه كثيرة، قطائف وحلويات؛ مارسنا الحب ثانية وعدنا للنوم؛ استيقظنا في المساء، ارتدينا ملابسنا وأخذت الصغيرة وذهبنا إلى نفس المقهى الذي تعمل فيه.

كي لا أطيل عليك ولا أرهقك بتفاصيل مملة يا سيدي، فهذا البرنامج الذي حكيته لك ما زال قائماً. لا تغضب؛ فأنا أحرص على عملنا أيضاً. من حين لآخر أخرج وأدور على المحلات، ألقي نظرة، سأشتري الأسلاك الفولاذية وكل ما نحتاجه، لا تقلق. ولا ضرر إن

أتيت يوماً مبكراً أو متأخراً، أو أسبوعاً بعد ذلك، تقول القطة، عند العجلة تلد هرات مشوهة؛ لا تتعجل إذن. فأنا أنتظر حتى أقرر قراراً صحيحاً وأرتب أفكاري كي لا أخدع. فالسلك لابد أن يكون على جودة عالية، أولاً، وإلا سيضيع كل مجهودنا هباء؛ تحلَّ بالصبر إذن، ثق بي.

ولا تقلق على صحتي أبداً؛ فالمغامرات تغذيني جيداً، في غضون أيام قليلة عدت شاباً في العشرين. لدية قوة كبيرة، لدرجة أنني أشعر أن أسناناً جديدة ستنبت لي؛ كانت كليتاي تؤلمانني من قبل أ تذكر؟ الآن صحتي ممتازة؛ كل صباح أنظر إلى المرآة وأتساءل كيف لم يسود شعري بعد.

ربما ستتساءل لماذا أكتب لك هذا الخطاب؟ أنت بالنسبة لي مثل كاهن الاعترافات فلا أخجل أن أعترف لك بكل ذنوبي؛ أ تدري لماذا؟ هكذا يبدو لي، فأنت لا تهتم إن كنت أحسن صنعاً أم لا. تحمل إسفنجة مبللة مثل تلك التي يحملها الرب، وتمحو كل شيء، الجيد والقبيح. لهذا لدي الشجاعة أن أحكي لك؛ اسمع إذن:

أنا مرتبك للغاية، فقد اختلطت علي الأمور وأكاد أجن؛ من فضلك، فور ان يصلك هذا الخطاب امسك بالقلم واكتب لي الإجابة فوراً؛ حتى يصلني ردك سأنتظر على أحر من الجمر. أظن أن الآن ومنذ سنين طويلة قد تم محو اسمي من سجلات الرب، أو الشيطان لا فرق عندي. أظن أن اسمي موجود في سجلاتك أنت فقط، لذا استمع لما سأقوله جيداً. هذا ما يحدث يا سيدي:

بالأمس بالقرب من القرية كان أهل البلدة يحتفلون بأحد أعياد القديسين. ولولا - عفواً لقد نسيت أن اقول اسمها، اسمها لولا - التفتت وقالت لي:

- يا جدي (إنها ما زالت تناديني جدي، لكن بدلال)، جدي أريد أن أذهب إلى الاحتفال.
- اذهبي، قلت لها، يا جدتي اذهبي.
- لكن أريد أن أذهب معك.
- أنا لن أذهب، أشعر بالملل؛ اذهبي أنت.
- إذن، فلن أذهب أنا أيضاً.

حدقت بعيني.

- لن تذهبي؟ لماذا؟ أليست لديك رغبة؟

- إذا جئت معي، نعم لدي رغبة؛ أما إذا لم تأت فليست لدي رغبة.

- لكن لماذا؟ ألست إنساناً حراً؟

- لا لست هكذا.

- لست حرة؟

- لا أريد!

لا أدري ماذا أقول يا سيدي؛ لقد صعقت.

- ألا تريدين أن تكوني حرة. صرخت.

- لا، لا أريد! لا أريد! لا أريد!

سيدي، أكتب إليك من حجرة لولا، على أوراق لولا، انتبه من فضلك: أنا أعتقد أن الإنسان يريد أن يكون حراً؛ المرأة لا تريد أن تكون حرة؛ هل المرأة إذن إنسان؟

من فضلك أجبني على الفور. أطيب تمنياتي:

«أنا، أليكسيس زورباس»

بعد وقت طويل من قراءة خطاب زوربا الطويل، أحسست بتشويش هائل ولم أستطع أن أتخذ قراراً. لم أدر، هل أغضب، أم أضحك أم أعجب بهذا الإنسان البدائي الذي خرق قشرة الحياة - المنطق والفضيلة والشرف - ووصل إلى جوهرها مباشرة. كل الفضائل الصغيرة المفيدة تغيب عنه، وبقيت لديه فقط فضيلة مزعجة خطيرة تدفعه بشكل لا يقاوم نحو حدود الهاوية.

هذا العامل الجاهل، الذي عندما يكتب يحطّم القلم من فرط طيشه، هو دائماً متحمس مثل الإنسان البدائي الذي هرب من سلالة القردة هو مثل الفلاسفة العظام، لا تشغله سوى المشاكل الأساسية للحياة ويعيشها مثل ضرورة وحاجة طارئة. مثل طفل يرى كل شيء لأول مرة، ودائماً يندهش ويسأل، وكل شيء يبدو له إعجازيًا، وكل صباح

يفتح عينيه ويرى الأشجار والبحر والأحجار والطيور، وينظر لها كل يوم باندهاش. ويصرخ يا لها من معجزة. ماذا تعني شجرة، بحر، حجرة وطير؟

أذكر ذات يوم، كنا نسير ناحية القرية فقابلنا عجوز يمتطي حماراً. ففتح زوربا عينيه على اتساعهما وراح ينظر إلى الحمار. كانت نظرته حادة للدرجة التي أزعجت العجوز الذي صاح مذعوراً:

- بحق الرب يا بن العم، لا تحدق فيه هكذا لتحسده!

ثم رسم علامة الصليب على صدره.

التفت إلي زوربا:

-- ماذا فعلت للعجوز ليصيح هكذا؟

- أنا؟ لم أفعل له شيئاً؛ كنت أنظر إلى الحمار؛ ألم يثر انتباهك يا سيدي؟

- ماذا؟

-- أن في هذا العالم يوجد حمير وبغال.

وفي يوم آخر كنت مستلقياً على الشاطئ أقرأ، وجاء زوربا جلس أمامي متربعاً، أخرج السانتوري ووضعه على ركبتيه ثم أخذ يعزف.

رفعت عيني ونظرت له. كان تعبير وجهه يتغير بين الحين والآخر، كانت تغمره فرحة وحشية، بهجة عارمة، مد رقبته المجعدة نحو السماء وراح يغني.

ألحاناً مقدونية وأغاني متمردين، وراح يطلق أصوات وحشية، وكأن حنجرة الإنسان قد عادت إلى العصر البدائي، حيث كانت الصرخة توليفة تحل محل ما نسميه اليوم بالموسيقى والشعر والانفعالات. «الـ آه والـ آخ!» كانت تخرج من أعماقه، فكانت تشرخ تلك القشرة لما نسميه نحن الثقافة والحضارة، وكان يقفز من داخله الوحش الخالد، الإله المشعر، الغوريلا الرهيب.

الفحم، الأرباح والخسائر، الـ بوبولينا، كل هذا اختفى. الصرخة هدمت كل شيء، لم نعد بحاجة إلى أي شيء؛ وقفنا نحن الاثنان على الشاطئ الكريتي المهجور، نحمل في صدورنا مرارة الحياة وحلاوتها، لم تكن هناك لا مرارة ولا حلاوة، الشمس غابت وجاء

الليل، كان النجم القطبي العجوز يرقص في زاوية السماء، صعد القمر وراح يراقب مرتعداً حشرتين تغنيان على الرمال ولا تخافان أحدًا.

- إيييه، يا له من وحش هذا الإنسان، قال زوربا فجأة وهو لا يزال مثاراً بوحشية من فرط الغناء؛ دعك من الكتب، ألا تخجل؟ إن الإنسان وحش بري، والوحوش لا تقرأ!

صمت قليلاً، ثم ضحكت:

-- قال زوربا: أ تدري كيف خلق الرب الإنسان؟ وما هي الكلمة الأولى التي قالها هذا الوحش الذي هو الإنسان للرب؟

- بالطبع لا؛ أنّى لي أن أعرف مثل هذه الأشياء؛ فأنا لم أكن هناك.

- صاح زوربا؛ أنا كنت هناك! قال وعيناه تشعان.

- قل إذن!

وبدأ زوربا وهو نصف مخبول ونصف ساخر يخلق أسطورة خلق الأنسان:

- حسناً؛ اسمع يا سيدي! لقد استيقظ الرب ذات يوم غاضباً وتساءل. «أي رب أنا، لم لا يكون لدي بشر يسبحون لي ويسبونني، كي يمر الوقت؟ لقد مللت أن أعيش وحيداً كغراب البين. تفوووو!» بصق في كفيه واستعد، وضع نظارتيه. أخذ حفنة من التراب، بصق فيها فصارت طيناً، أخذ يعجن فيها جيداً حتى صارت إنساناً ثم وضعه في الشمس. بعد سبعة أيامٍ كان قد نضج. نظر إليه الرب وضحك ثم قال:

- اللعنة، هذا أشبه بخنزير واقف على ساقيه. لقد كنت أريد أن أصنع شيئاً آخر. لكن لا بأس! أمسك به من قفاه وركله بقدمه:

- هيا، اذهب وأنجب خنازير كثيرة، هذه الأرض لك! وراح يعد له؛ واحد، اثنان، اقفز!

لكن هذا يا عزيزي لم يكن خنزيراً؛ فقد كان يضع قبعة على رأسه ويلقي سترة على كتفيه وبنطالاً خشناً ونعلاً تركياً بخصلة حمراء في مقدمته. وكان الشيطان قد أعطاه خنجراً منقوشًا على نصله الحاد «سوف أقتلك!»

وكان الإنسان! مد الله له يده ليقبلها، لكن الإنسان فتل شاربيه وقال:

- هيا أيها العجوز، دعني أمر!

توقف زوربا عن الكلام وهو يراني أنفجر ضاحكاً، فعبس وجهه وقال:

- لا تضحك، هذا ما حدث!

-- وكيف عرفت؟

- هكذا حدث أقول لك؛ فأنا هكذا كنت سأفعل إن كنت في مكان آدم. أراهن برأسي إن لم يكن هذا هو تصرف آدم. ولا تصدق ما تقرؤه وتقوله لك الكتب؛ اسمع مني أنا!

مد يده دون أن ينتظر مني أي رد وبدأ ثانية يعزف السانتوري.

كانت رسالة زوربا المعطرة لاتزال في يدي، برسمتها ذات القلب المرشوق، ورحت أتذكر كل الأيام التي قضيناها معاً كم كانت مليئة بأشياء إنسانية جوهرية. صار للوقت والزمن طعماً جديداً؛ لم يعد للأحداث تعاقبٌ زمنيٌّ ولا حسابيٌّ ولا حتى فلسفيٌّ معقدٌ، لكل شيء كان هناك حلٌّ وتفسيرٌ؛ كأن هناك رملاً دافئاً أشعر به يتسلل من بين أصابعي.

- همست، بارك الرب فيك يا زوربا، فقد أعطى لكل الأفكار المجردة التي ترتعش داخلي جسداً دافئاً. وعندما يغيب أشعر بالبرد مجدداً.

أخذت ورقة، ناديت على أحد العمال ليرسل تلغرافاً على عجل:

«عد سريعاً»

عصر يوم السبت في أول شهر مارس كنت أكتب وأنا متكئ على صخرة أمام البحر. رأيت أول طائر سنونو، وكنت فرحاً، كنت أكتب تعويذة بوذا على الورق بلا توقف، وصار صراعي مع التعويذة أكثر لطفاً، لم أكن متعجلاً، بل كنت واثقاً من النجاة.

فجأة شعرت بخطوات فوق الحصى؛ رفعت رأسي. رفعت عيني ووجدت الحرية العجوز تتدحرج على الشاطئ متزينة كفرقاطة لاهثة وبدت لي الحورية العجوز متوترة.

-- هل وصلت رسالة. سألتني بقلق.

-- نعم! أجبتها ضاحكاً ووقفت كي أستقبلها. يرسل لك الكثير من التحيات كما قال لي زوربا في الخطاب، إنه يفكر فيك ليل نهار ولا يستطيع أن يتناول لقمة طعام يقول، ولا ينام، إنه لا يقوى على فراقك.

-- وماذا يقول أيضاَ؟

حزنت من أجلها؛ أخرجت الخطاب من جيبي، تظاهرت أنني أقرؤه. ففغرت الحورية فمها الخالي من الأسنان، وضمت عينيها نصف إغماضة وراحت تنصت إلي متلهفة..

تظاهرت بالقراءة وعندما كنت أرتبك أتظاهر بأني لا أستطيع أن أقرا خط يده: «بالأمس ذهبت يا سيدي إلى أحد المطاعم الرخيصة لآكل شيئاً حيث إنني كنت جوعاناً. ورأيت فتاة رائعة الجمال مثل جنية حقيقية تدخل. يا ربي، كيف تشبه بوبولينتي! فراحت الدموع تنهمر من عيني، تحشرج حلقي، ولم أستطع أن أبتلع شيئاً، دفعت حسابي وغادرت المكان. وأنا الذي لا أتذكر القديسين أبداً، تأثرت كثيراً يا سيدي، هرولت إلى كنيسة القديس مينا وأشعلت شمعة،

دعوت القديس، أيها القديس؛ دعني أسمع أخبار سارة عن الملاك الذي أحب. واجعل لقاء جناحينا سريعاً»

-- ضحكت مدام أورتانس وأشرق وجهها.

-- لماذا تضحكين يا سيدتي؟ سألتها وتوقفت ألتقط أنفاسي وكي أجهز في ذهني أكاذيب أخرى. لماذا تضحكين؟ فأنا تأتيني رغبة في البكاء.

- أتعرف... آه لو تعرف.... ثم انفجرت ضاحكة.

- ماذا؟

- إنه يقول أجنحة هذا العفريت، بينما عندما نكون وحدنا يقول تلتحم أقدامنا ويسميها الآن أجنحة... وانفجرت في الضحك ثانية!

-- استمعي إلى ما يلي يا سيدتي ستذهلين....

قلبت الصفحة، تظاهرت بالقراءة:

«اليوم مررت ثانية على الحلاق؛ وفي تلك اللحظة كان الحلاق يسكب وعاء الماء بالصابون خارج المحل؛ ابتلت أرضية الشارع. وأنا تذكرت بوبولينتي وأجهشت بالبكاء. لم أعد أستطيع التحمل يا سيدي أن أكون بعيداً عنه، سأجن. سأفقد صوابي؛ في ليلة قبل الأمس لم يراودني النوم مطلقاً فجلست أكتب شعراً؛ اقرأه لها من فضلك يا سيدي حتى ترى كيف أعاني بعيداً عنها:

«آه لو نلتقي في درب

ويكون الدرب واسعًا بقدر آلامي

وإن قطعوني إرباً، وفرموا لحمي

لن تستريح عظامي إلا بجوارك»

راحت مدام أورتانس بعينها المنتفخة نصف المفتوحة تسمع بكل حواسها وبسعادة طاغية. حتى أنها نزعت الوشاح من حول رقبتها حيث كاد يخنقها وتركتها تجاعيد رقبتها حرة.

صمتت، تبسمت. كانت تعطي الإحساس أن عقلها يسرح بعيدا بعيداً في سعادة وكأن الماء قد جرفه إلى حيث لا ندري.

شهر مارس حيث العشب الرطب والزهور الحمراء والصفراء والبنفسجية، المياة الرائقة تسبح عليها أسراب من إناث البجع الأبيض وذكور البجع الأسود بمناقيرها القرمزية المفتوحة، تخرج الأسماك من الماء فتبرق ألوانها في أشعة الشمس وتلهو مع ثعابين البحر. مدام أورتانس صارت في الرابعة عشر من عمرها ترقص على السجاد

الشرقي في الإسكندرية وبيروت وأزمير والقسطنطينية ثم بعد ذلك على أسطح السفن في شواطئ كريت... راحت تخلط الذكريات وتتوتر، وصدرها يعلو ويهبط. كل الأشياء بدت لها شيئًا واحدًا، علا صدرها من النشوة واهتزت الشواطئ.

وفجأة بينما كانت ترقص، امتلأ البحر بالمراكب بواجهات ذهبية، وبأشرعة ملونة، ترفرف عليها رايات حريرية. وخرج منها باشوات بطرابيش حمراء ذوات خصلات ذهبية، وأثرياء عجائز متدينين بهدايا ثمينة في أيديهم، و أولاد بلحى ناعمة. خرج الأدميرالات بقبعاتهم المثلثة اللامعة، والبحارة بياقاتهم الناصعة البياض وبناطيلهم الفضفاضة. وخلفهم أولاد كريتيون بسراويلهم المنتفخة ذات اللون الأزرق الفاتح وأحذيتهم المدببة الصفراء اللون وعلى رؤوسهم مناديل سوداء. ويخرج زوربا بعدهم طويلاً نحيلاً من فرط ممارسة الحب، مرتدياً خاتم خطوبة ضخم في إصبعه وعلى رأسه الرمادي تاج من زهور الليمون...

خرج كل الرجال من المراكب إلى حيواتهم الطبيعية، كلهم بلا استثناء ولم يبق أيٌّ منهم؛ والبحار العجوز عديم الأسنان الأحدب، الذي خرجت معه تتنزه في مياه إسطنبول وكان الظلام قد حل ولم يكن هناك أحد على الإطلاق.... الجميع كان قد خرج، وفي الخلفية امتزجت ثعابين البحر مع البجع.

خرج الرجال وتحلقوا حولها، كانوا كلهم في حالة هياج شهوانية، يحومون حولها جاهزين للهجوم. وفي الوسط تقف أورتانس تتصبب عرقاً عارية بشفاه نصف مفتوحة وأسنان حادة - تقف ثابتة في الرابعة عشر من عمرها، في الثلاثين، الأربعين، الستين....

لم يضع شيء، لم يمت أي محبوب، في صدرها العطب عادوا جميعهم للحياة متسلحين. وكأن الفرقاطة ذات الثلاث أشرعة كانت مدام أورتانس وكل عشاقها في هذه السنوات الخمس و أربعين من العمل الدائم - يتسلقون على متنها، يصعدون إلى العنابر، وإلى جوانبها العلوية، والفرقاطة تواصل الإبحار، بعد أن حاربت وقصفت ودكت كثيراً، وتتوق دوماً أن تصل إلى ميناء آخر بعيد: الزواج وزوربا اتخذوا ألف وجه، تركي، أوربي، أرميني، إنجليزي، عربي، ومدام أورتانس تعانق كل أجناس الأرض...

الحورية العجوز أدركت فجأة أنني توقفت عن القراءة، فانقطع حبل خيالها ورفعت فجأة رمشها الثقيل:

- ألا يقول شيئًا آخر؟ دمدمت بعتاب وهي تلعق شفتيها بشراهة.

- ماذا تريدين أكثر من ذلك يا مدام أورتانس؟ ألا ترين؟ كل الخطاب يتحدث عنك. انظري، أربع صفحات كاملة.

هناك قلب على زاوية الأوراق يقول زوربا أنه رسمه بنفسه. نظرت إلى القلب وسهم العشق مغروس فيه، وأسفله زوج من اليمام يتعانقان ويتبادلان القبل؛ وعلى أجنحتهما، مكتوب بخط صغير لا يظهر جيداً مكتوب بخط متداخل بحبر أحمر: أورتانس - زوربا.

لم يكن هناك لا يمام ولا حروف ولا أسماء؛ لكن عينيّ الحورية العجوز اللتين اغرورقتا بالدموع كان لديهما الاستعداد أن تريا ما تشتاق إليه السيدة أورتانس.

- لا شيء آخر؟ لا شيء آخر؟ سألت ثانية غير راضية.

كل هذا - قديس، أجنحة، صابون الحلاق، طيور ويمام - كل هذا الكلام الرقيق وهواء وعشق؛ لكن عقل المرأة يحب التوابل فكانت تطلب المزيد، شيئًا ملموساً أكثر. كم مرة في حياتها قد سمعت هذا النوع من الهراء! وفيم أفادها. بعد كل هذه السنوات من العمل الشاق، بقيت وحدها بلا أنيس.

- لا شيء آخر؟ دمدمت مرة أخرى بعتاب؛ لا شيء آخر؟

نظرت إلي مثل غزالة مطاردة؛ أسفت لحالها.

- يقول شيئاً آخر، شيئاً في غاية الأهمية يا مدام أورتانس، قلت لها؛ وهذا ماتركته للنهاية.

- قل لي ما هو؟ قالت متلهفة.

- لقد كتب قائلاً إنه فور عودته كما يقول سوف يجثو على ركبتيه يتوسل إليك والدموع في عينيه كي تقبلي الزواج منه. فإنه لم يعد يحتمل. يريد أن يجعلك زوجته، مدام أورتانس زوربا، كي لا تفترقا أبداً....

الآن راحت الدموع تجري من عينيها. ها هي الفرحة الكبيرة، ها هو الميناء الكبير، ها هو شوق السنين الموجع، كفى!

مسحت دموعها.

- قالت: حسناً بعظمة النبلاء، قبلت. لكن عليك أن تكتب له من فضلك، وأن تقول له أن هنا في القرية لا توجد تيجان للزواج؛ لابد أن يحضر معه من المدينة تاج زواجنا. أن يحضر أيضاً شمعتين كبيرتين بشرائط وردية، وملبسًا باللوز من النوع الجيد. ويحضر فستان عرس أبيض، وجوارب حريرية وحذاء. لدينا ملاءات، اكتب له ألا يحضر. كما لدينا سرير.

رتبت طلباتها، جعلت من زوجها حمالاً يحملها ويحضرها. وقفت، وفجأة اتخذت هيئة امرأة متزوجة وقورة.

- قالت: لدي شيء هام أود أن أقترحه عليك.

- قولي يا مدام زوربا؛ تحت أمرك.

- إن زوربا وأنا نحبك؛ فأنت رجل كريم ولن تخذلنا. هل تقبل أن تكون وصيفاً في زواجنا؟

صدمت. لقد كان لدينا في بيت العائلة خادمة عجوز تدعى ذياماندو، كان عمرها فوق الستين عاماً. كانت مخبولة من عدم الزواج وعصبية، نحيفة جداً ليس لها صدر كباقي النساء، وعندها شعر تحت أنفها يشبه الشوارب. قد أحبت ميتسو ابن بقال الحي، كان ولدًا سمينًا قرويًّا أمردَ.

- كانت تسأله كل يوم أحد. متى ستتزوجني؟ كيف يمكنك أن تحتمل؟ فأنا لا أستطيع!

- ولا أنا أحتمل كان يجيبها البقال الماكر، الذي كان يحسن الحديث إليها كي يضمن أن تكون زبونة دائمة، ولا أنا أحتمل يا ذياماندو يا حبيبتي، اصبري قليلاً حتى تنبت لي شوارب....

وهكذا كانت تمر السنين على العجوز ذياماندو، كانت صابرة تنتظر. كان يهدأ أعصابها، ويهدأ ألم رأسها أيضاً. وتعلمت شفتاها المريرتان اللتان لم تقبلا أبداً الابتسام، فكانت تقوم بأعمال المنزل بشكل أفضل، وتغسل أحسن وتكسر أطباقاً أقل، ولم تعد تحرق الطعام.

- أ تقبل أن تكون وصيفاً؟ سألتني خلسة ذات مساء.

- نعم يا ذياماندو، أجبتها وحلقي تحشرج من المرارة.

هذه الوصافة أذاقتني الكثير من المرارة، فها أنا أسمع نفس الشيء من مدام أورتانس وها هو قلبي يرتجف.

-- نعم يا مدام أورتانس؛ إنه شرف لي...

- ها قد صرنا أقارب، لابد أن تعتاد على هذا، على الأقل عندما نكون بعيداً عن الناس... قالت وابتسمت بفخر.

نهضت. وعدلت من جدائل شعرها التي أفلتت من القبعة، ولعقت شفتيها.

- تصبح على خير! طابت ليلتك، قالت، أرجو أن يعود إلينا سريعاً...

رحت أراقبها وهي تتهادى بعيداً. تتمايل بجسدها العجوز كأنها صبية صغيرة تسير بدلال وتكاد تطير من الفرحة؛ وحذاؤها القديم المعقوف كان يترك آثاراً عميقة في الرمال.

لم تكد تبتعد عن الشاطئ، حتى سمعت أصوات بكاء ونحيب عالية على الشاطئ.

قفزت من مكاني وجريت نحو مصدر الصوت، رايت عند خليج البحر نساء يولولن وكأنهن ينشدن ندبة أو رثاءً؛ صعدت على إحدى الصخور، رأيت رجالاً ونساءً يهرعون إلى الأمام، وخلفهم كلاب تنبح، وحوالي ثلاثة رجال يمتطون أحصنة ينطلقون أمامهم، وكانت تتصاعد سحابة غبار كثيفة.

قلت في نفسي لابد أن هناك حادثًا، ورحت أجري نحو الخليج.

بدأ صوت الجلبة يعلو؛ كانت الشمس تغرب، وكانت ثلاث سحابات ورديات قد ثبتن في السماء. وشجرة تين السيدة الشابة مكسوة بأوراق خضراء.

فجأة وجدت مدام أورتانس أمامي؛ عادت شعثاء الشعر لاهثة، بفردة حذاء واحدة، الفردة الأخرى كانت تمسكها في يدها. كانت تجري وتبكي.

- كادت تسقط فوقي بعد أن تعرقلت وهي تجري فأمسكت بها.

- لماذ تجرين؟

وساعدتها أن ترتدي فردة حذائها.

- إني خائفة... خائفة....

- ممَ تخافين؟

- الموت.

لقد شممت رائحة الموت في الهواء وارتعدت. أمسكتها من ذراعيها المتهدلين لآخذها نحو المكان، لكن جسدها العجوز كان يقاوم ويرتعش.

- لا أريد... لا أريد... صاحت.

كانت البائسة تخاف أن تقترب من مكان ظهر فيه الموت.مثل جميع العجائز - حتى لا يراها الموت ويتذكرها...

مثل كل العجائز، كانت تحاول حوريتنا العجوز أن تختبئ تحت حشائش الأرض، أن تختبئ تحت التراب، أن تصبح خضراء اللون أو بنية اللون، حتى لا يستطيع الموت أن يراها أو يميزها عن التراب أو العشب. حشرت رأسها داخل كتفيها المكتنزين وهي ترتجف.

زحفت نحو شجرة زيتون، مدت معطفها المرقع وتمددت.

- دثرني، قالت دثرني ثم أذهب.

- أتشعرين بالبرد؟

- نعم، دثرني.

غطيتها بقدر ما أستطيع حتى لا تكون مميزة عن الأرض وذهبت.

اقتربت من الخليج حتى استطعت أن أميز النواح والندب. مر ميميكو من أمامي مهرولاً.

- ماذا يحدث يا ميميكو؟

- لقد غرق! غرق! أجابني دون أن يتوقف.. غرق!

- من؟

- بافلو ابن مافروأندوني!

- لماذا؟

- الأرملة....

ضاع صوته في صوت النواح. وعلقت الكلمة في الهواء، وامتلأ الهواء بقطع متناثرة من جسد الأرملة الخطير.

وصلت إلى الصخرة حيث كانت كل القرية مجتمعة.

الرجال كانوا صامتين، بدون غطاء رأس. النساء وضعن مناديلهن على أكتافهن ورحن يشددن شعورهن ويولولن بصوت حاد. وفوق الحصى كانت الجثة ممددة زرقاء ومنتفخة. العجوز مافروأندوني كان يقف ساهماً بلا حراك كنت أراه يضع يده اليمنى على عصاه وبيده اليسرى كان يمسك لحيته الرمادية.

- عليك اللعنة أيتها الأرملة! سُمع فجأة صوت حاد.

لينتقم منك الرب!

وثبت امرأة والتفتت نحو الرجال:

- ألا يوجد رجل في هذه القرية يذبحها تحت قدميه مثل النعجة؟ تفووو!

وبصقت على الرجال الذين نظروا إليها في صمت.

كوندومانوليو صاحب المقهى، انتفض:

- لا تحقري من شأننا يا كاترينا المجنونة، صاح؛ لا تحقري من شأننا، ففي القرية رجال أشداء وسترين!

- لم أحتمل:

-- هذا عيب يا رجال! صحت؛ وما ذنب المرأة؟ هذا مكتوب وهو قدر الرب. ألا تخشونه!

لكن أحداً لم يرد على كلامي.

مانوليس الصغير ابن عم الغريق بجسده العاري، انحنى واحتضن جثمان ابن عمه بين ذراعيه ورفعه وهم ذاهباً نحو القرية. راحت النساء ينحن ويولولن فور أن رأين الجثمان محمولاً، ورحن يهرولن خلفه كي يتعلقن به. لكن مافروأندوني العجوز لوح لهن بعصاه، وسار أمام الموكب. وخلفه تبعنه النساء وهن ينشدن رثاءهن، بينما سار الرجال في صمت.

اختفوا في الظلام. وسمع من جديد صوت البحر يتنفس. نظرت حولي؛ لقد صرت وحدي.

- هممت بالعودة. فهناك الكثير من المرارة في هذا اليوم، لنحمد الرب.

قطعتُ الدرب شارد الفكر؛ وفي الضوء الباهت ظهر العم أناغنوستي حيث كان لا يزال هنا يتكئ على صخرة؛ أسند ذقنه على عصاه الطويلة وراح ينظر إلى البحر.

ناديت عليه فلم يسمعني؛ اقتربت حتى رآني، وهز رأسه:

- عالم بائس! دمدم قائلاً. يا لخسارة الشباب! لكن الفتى المسكين لم يحتمل أحزانه، فألقى بنفسه في البحر وغرق. لقد نجا.

- نجا؟

- نجا يا بني، لقد نجا. ماذا كان يمكنه أن يفعل بحياته؟ إذا تزوج الأرملة كانت المشاجرات ستنشب وتجلب الفضائح. لأنها كالفرس، ساخنة وتصهل كلما رأت رجلاً. وإذا لم يتزوجها؛ كان سيبقى حزيناً طوال حياته، لأنه كان سيعتقد أنه فقد سعادة عظيمة في حياته. كان أمامه البحر وخلفه الهاوية.

- لا تتحدث هكذا يا عم أناغنوستي، فإنك تجلب اليأس لمن يسمعك.

- لا تقلق يا ولدي؛ من سيسمع؟ من يسمع ومن يصدق. هل كان أكثر حظاً مني؟ لدي أراض، وأشجار وزيتون ومنزل له طابقين، كنت مجتهداً؛ كنت محظوظاً في الزواج فلدي إمرأة طيبة، مطيعة وربة بيت رائعة؛ لم ترفع أبداً عينها في وجهي، وأولادي على ما يرام؛ ليس لدي شيء آخر. لدي أحفاد أيضاً؛ ماذا أريد من الحياة؟ لقد زرعت بذوراً جيدة وها هي تطرح وتزداد عمقاً. ولو كان علي أن أبدأ حياتي من جديد سأفعل ما فعله بافلي سأربط حجرًا حول رقبتي وألقي بنفسي في البحر. حتى وإن كان لديك حظ في الحياة فهي قاسية، اللعنة عليها!

- لكن ماذا ينقصك يا عم أناغنوستي؟ لماذا تتنهد هكذا؟

- لا ينقصني شيء، هل تجلس هنا وتتساءل ماذا يثقل قلوب الرجال!

صمت للحظة ثم نظر ناحية البحر ثانية وبدأ الظلام يهبط:

- أحسنت يا بافلي! صاح وهو يرفع عصاه؛ دع النساء تصرخ، فهن نساء، ليس لديهن عقل. أنت قد نجوت؛ وأبوك يعرف هذا، ولهذا فهو لا يبكي.

ألقى نظرة نحو السماء وحول الجبال التي بدأت تختفي في الظلام.

- لقد حل الليل، قال، سأذهب.

توقف كأنه ندم على شيء قاله؛ كأنه باح بسر عظيم وهو الآن يصارع ليسترده.

رفع يده الجافة على كتفي وقال مبتسماً:

- أنت شاب، لا تستمع إلى العجائز، فلو استمع العالم للعجائز سينهار. إذا صادفت في حياتك أرملة جيدة فلا تتردد! تزوجها، أنجب أطفالاً، لا تجبن؛ فالمتاعب خلقت للرجال الأشداء!

وصلت إلى الشاطئ، أشعلت النار ورحت أعد شاي المساء. كنت مرهقاً وجائعاً، والآن استرحت وأكلت بنهم، وشعرت بسعادة عميقة وأنا مستسلم لحيوانية الإنسان الأبدية.

وفجأة دس ميميكو رأسه المسطح من النافذة وراح ينظر إلي وأنا أمام النار آكل وابتسم لي بمكر.

- ماذا تريد يا ميميكو؟

- أتيت إليك بتحية من الأرملة؛ قفص من البرتقال. إنها الحبات الأخيرة من حديقتها كما تقول.

- من الأرملة؟ قلت مرتعداً. ولماذا ترسلها لي؟

- من أجل الكلمة الطيبة التي قلتها لأهل القرية اليوم.

- أية كلمة طيبة؟

- لا أدري: هذا ما قالته لي، هذا ما أقوله لك!

أفرغ السلة على الفراش؛ صارت رائحة الكوخ برتقالاً.

- قل لها إني أشكرها على الهدية وأن تحترس! تحترس ولا تخرج إلى القرية، أتسمع؟ قل لها أن تلزم المنزل حتى يمر بعض من الوقت وينسى الناس ما حدث. فهمت يا ميميكو؟

- هل تأمر بشيء آخر يا سيدي؟

- لا شيء، إذهب.

غمز لي ميميكو.

- لا شيء آخر؟

- اذهب!

غادر. قشرت برتقالة، كانت غضة وحلوة كالعسل؛ تمددت، أخذني النوم وطوال الليل كنت أحلم أني أسير في النسيم الساخن تحت أشجار البرتقال، وكان صدري عاريًا وممتلئًا، وكنت أضع غصن ريحان خلف أذني. كنت قروياً عمري عشرون عاماً، وأسير ذهاباً وإياباً في حديقة البرتقال أصفر وأنتظر... من كنت أنتظر، لا أدري؛ لكن قلبي كاد ينفطر بسبب الأرملة؛ برمت شاربيّ ورحت أنصت إلى البحر طوال الليل خلف أشجار البرتقال يتنفس، كأنه امرأة.

هبت رياح جنوبية ملتهبة من شمال إفريقيا محملة بالرمال. سحب من الرمال الناعمة تحوم في الهواء وتدخل إلى الحلق والأحشاء. تتسلل بين الأسنان وتحرق العيون، لابد أن يغلق المرء الأبواب والنوافذ جيداً إذا أراد أن يأكل قطعة خبز بلا رمال.

الجو حار مختنق. كان قد أصابني الأكتئاب والأعياء الذي يتلازم مع دخول فصل الربيع المتقلب.

أصابني الأعياء وآلام في الصدر، وخدر بكل جسدي ونوع من الحنين قد أصابني، لا أدري حنين إلامَ؟ - إلى سعادة بسيطة جداً. نفس النشوة، ونفس الألم لابد أن تشعر به براعم الأشجار في هذه الأيام، بالتأكيد ستشعر الشرنقة وهي تتفتح ويخرج المولود منها ويشعر بنفس الألم في أجنحته.

سرت على الدرب نحو الجبل، أتمشى ثلاث ساعات في المدينة الميناوية التي ظهرت من تحت الأرض بعد ثلاثة أو أربعة آلاف عام، لتتدفأ تحت الشمس الكريتية. قلت ربما إرهاق السير يخفف من اكتئابي الربيعي.

أحجار رمادية صخرية عارية تلمع في الضوء، الجبل كما أحبه تماماً، وعر خشن وجاف مقفر بلا أشجار أو جمال رومانسي.

بومة قد أعماها الضوء الشديد بعينين صفراوين كانت تجثم فوق صخرة، كانت جميلة هادئة ومليئة بالألغاز. كنت أمشي بخفة كي لا تسمعني، إنّما سمعها حاد جداً، خافت وطارت، وبين الصخور اختفت. كانت رائحة الزعتر تفوح في الأرجاء؛ كانت أزهار الجولق الصفراء الرقيقة تتفتح بين أشواكها.

عندما وصلت إلى مدينة صغيرة مهجورة. انبهرت. صرنا في الظهيرة والضوء كان عمودياً يغسل الأطلال. في مدن مهجورة ومهدمة هذه الساعة خطرة. الهواء مليء بالأصوات والأشباح. سمع صرير غصن يتحرك، سحلية تزحف، وعندما تمر سحابة تلقي بظلالها على المكان - يصيبك الرعب.

هناك قبر في كل شبر تطؤه قدمك - والموتى يصرخون.

بعد حين اعتادت عيناي على الضوء الشديد والآن داخل هذه الأحجار وبدأت أرى بوضوح ماذا صنعت يدا الإنسان بين هذه الأطلال: شارعان واسعان ممهدان بالحجر الجيري، وعلى جانبيهما يمينًا ويسارًا أزقة ضيقة ملتوية، ساحة دائرية في المنتصف، السوق العامة التي كانت منتدى للنقاش أيضاً وبجوارها وبتسامح ديمقراطي يقبع القصر الملكي، بأعمدته المزدوجة ودرجاته العريضة، ومخازنه الضيقة الطويلة.

وفي قلب المدينة، هناك حيث الأحجار المتآكلة من أثر أقدام الناس، ضريح الآلهة الكبير بثدييها الخشبيين والثعابين المقدسة أمامها.

وفي كل مكان محلات صغيرة وورش عمل - معاصر الزيت، وورش حدادة ونجارة وخزف. مدينة صغيرة مصممة بدقة وعناية فائقة مثل خلايا النمل، لكن النمل قد هجرها منذ آلاف السنين. في إحدى الورش أحد الصناع المهرة راح ينحت صخرة ذات عروق كثيرة لكن على ما يبدو لم يكن لديه الوقت الكافي لينتهي من عمل فني فريد. وسقط الأزميل من يده ليتم اكتشافه بعد آلاف السنين بجوار قطعته الفنية غير المكتملة.

الأسئلة الأبدية الحمقاء تخطر على ذهنك كي تسمم قلبك.: لماذا؟ ولأي سبب؟ هذا العمل الفني الذي انكسر منه جزؤه العلوي لماذا لم ينتهِ، في الوقت الذي كان الفنان الذي يصممه في أوج الثقة والسعادة؟ إنه شيء يملؤك حزناً وحسرة.

ظهر فجأة راعي غنم صغير، تركت الشمس أثرها على وجهه يعقد منديلاً على رأسه على شكل عمامة يغطي بها شعره المجعد، كان يقف منتصباً على أحد الأحجار بجوار أطلال القصر.

-- يا بن العم، نادى علي.

كنت أود أن أبقى وحيداً؛ تظاهرت أني لم أسمعه:

- لا تتظاهر أنك لم تسمعني! هل لديك سيجارة يا بن العم؟ ففي هذا المكان المعزول سيقتلني الملل.

مط هذا الجزء الأخير من كلماته بحرقة مما جعل قلبي يتألم من أجله.

لم يكن لدي سجائر، حاولت أن أعطيه نقوداً لكن الراعي غضب.

- اللعنه على المال؟ صاح. ماذا أفعل به؟ أقول لك أن الملل يكاد يقتلني، أعطني سيجارة!

- ليس معي، قلت له بإحباط، ليس معي!

- ليس معك، صاح الراعي بعصبية وضرب الأرض بعصاه بقوة. ليس معك! لكن ماذا لديك في جيوبك وتبدو منتفخة هكذا؟

- قلت له وكأني أعترف وأخرج ما في جيوبي، كتاب، منديل، أوراق، قلم، سكين صغيرة، هل أهديك السكين؟

- لدي كل شيء. ولدي خبز وجبن وزيتون وسكين وجلد لحذائي وقنينة ماء، كل شيء! لكن ليس لدي سيجارة؛ كأنني لا أملك شيئاً! وماذا تفعل أنت بين الأطلال؟

- أشاهد العالم القديم.

- وماذا تفهم من هذا؟

- لا شيء!

- وأنا أيضاً لا أفهم شيئاً. فقد مات القدماء، ونحن نعيش؛ هيا اذهب من هنا!

قال وكأنه هو صاحب المكان ويطردني.

- قلت مطيعاً، سأذهب.

اتجهت بسرعة نحو الدرب الصغير، وفي لحظة التفت خلفي فرأيت الراعي الصغير الضجر لا يزال واقفاً منتصباً على الصخرة، وخصلات شعره المجعدة تتطاير مع الريح الجنوبية من تحت عمامته. وكان الضوء يغمره من جبهته حتى قدميه، كأنه تمثال لشاب برونزي. كان يضع عصاته على كتفه ويصفر.

سلكت شارعاً آخر وبدأت أهبط نحو الشاطئ. كان النسيم الإفريقي الساخن يمر من على رأسي مشبعًا بروائح الحدائق القريبة؛ كان للتراب رائحة مميزة، البحر يضحك، السماء زرقاء صافية تبرق مثل الفولاذ.

إن الشتاء يقبض الجسد والروح؛ ويأتي الآن الدفء فيريح الصدر.. وبينما كنت أسير كنت أسمع صرخات محشرجة في السماء؛ رفعت رأسي ورأيت مشهداً يقبض قلبي منذ

كنت طفلاً صغيراً: كان سرب طيور الكركي منظمًا كأنه في عرض عسكري، عائداً من بلاد دافئة قضى فيها فصل الشتاء. والآن تهاجر من البلاد الحارة حاملةً طبقاً للأسطورة على أجنحتها طائر السنونو أو في تجاويف عظامها.

إيقاع الفصول، عجلة العالم التي تدور، وجوه الأرض الأربعة؛ واحدًا بعد الآخر تضيئها الشمس، الحياة ترحل ونرحل معها، اضطرب قلبي.

دق صدى صوت طائر الكركي بداخلي مرة أخرى، هذا التحذير بأن هذه الحياة فريدة لكل إنسان، وهي الحياة الوحيدة، ليس هناك أخرى، فاسعد قدر ما تستطيع، تمتع هنا قدر ما تستطيع، فالحياة تمر بسرعة ولن تأتي مرة أخرى ولن تكون هناك أية فرصة أبداً.

عقل يسمع هذا التحذير القاسي غير الرحيم - والرحيم في نفس الوقت، يتخذ قراراً أن يسيطر على حمقاته وضعفه، أن ينتصر على كسله وآماله غير المجدية ويتمسك بكل قواه بكل لحظة تمر ولا تعود مجدداً.

نماذج عظيمة تقفز إلى ذاكرتي، وترى كيف أن الإنسان هو لا شيء، وأن حياته تضيع في متع صغيرة وأحزان صغيرة وحوارت ساذجة. فتصرخ وتعض على شفتيك «يا للعار، يا للعار»

سرب طيور الكركي شق السماء واختفى متجهاً نحو الشمال وما زالت تنعق بصوتها المحشرج، ظلت تحوم في رأسي وتصيح.

وصلت إلى البحر، رحت أسير على الشاطئ بسرعة. من الصعب أن تسير وحدك على شاطئ البحر؛ كل موجة، كل طير في السماء يصيح يذكرك بما يجب عليك أن تفعله. عندما تسير مع آخرين فإنك تضحك أو تتحاور وفي هذا الضجيج لا تسمع الأمواج ولا الطيور؛ ربما لا يقولون شيئاً. ربما ينظرون إليك تمر داخل هذه الأصوات والثرثرة الحمقاء وهم صامتون.

تمددت فوق الحصى الصخرية، أغلقت عيني. «ما هي الروح؟ رحت أفكر، ما العلاقة الخفية بينها وبين البحر، السحب والعطور....»

نهضت وتحركت ثانيةً، لقد اتخذت قراراً، ما هو؟ لا أدري.

فجأة سمعت صوتًا في داخلي:

- إلى إين أنت ذاهب يا سيدي؟ إلى الدير؟

التفت؛ كان عجوزًا قصيرًا نحيلاً بلا عصا، يربط منديلاً أسود على رأسه، يلوح لي بيده مبتسماً. كانت تتبعه زوجته العجوز، وخلفهما ابنتهما، فتاة شديدة السمرة وحشية النظرات تضع وشاحاً أبيضَ على رأسها.

- سألني العجوز مرة أخرى. إلى الدير؟

شعرت فجأة أنني قد اتخذت القرار نحو الدير بالفعل؛ كنت أريد أن أذهب إلى دير النساء الصغير منذ شهور الذي يقع بجوار البحر لكني لم أقرر أبداً، لكن جسدي كان قد قرر.

- أجبته، نعم؛ إلى الدير أريد أن أسمع أناشيد صلوات العذراء.

- باركت العذراء خطواتك!

أسرع من خطواته ولحق بي.

- هل أنت من يلقب بشركة الفحم؟

- نعم أنا.

- فلتمنحك العذراء ربحاً وفيراً. لقد فعلت خيراً بقريتنا؛ منحت سبل عيش للكثير من الفقراء والعائلات، بارك الرب فيك.

بعد قليل، أضاف العجوز النحيف الذي لا بد أنه نما إلى علمه أن أعمالنا لا تسير على ما يرام:

- حتى وإن لم تربح كثيراً يا ولدي، فلا تقلق! فأنت رابح بكل الأشكال؛ ستذهب روحك إلى الجنة...

- هذا ما أبغاه يا جدي.

- أنا لست شخصاً متعلماً؛ لكن ذات مرة سمعت في الكنيسة كلمات المسيح، وهذه الكلمات طبعت في ذهني ولم تمحَ منذ ذلك الحين: يقول؛ لابد أن تبيع كل ما تملك من

أجل أن تشتري لؤلؤة كبيرة.. وما هي قطعة اللؤلؤة الكبيرة؟ نجاة روحك يا ولدي. سعادتك في الطريق للحصول على اللؤلؤة يا سيدي.

اللؤلؤة الكبيرة! كم مرة لمعت في ذهني، في الظلام مثل دمعة كبيرة؟

كنا نسير أنا والعجوز في المقدمة، والنساء خلفنا تشبكان أيديهما. كنا نقول كلمة بين الحين والآخر - شيئاً عن أزهار الزيتون إن كانت ستسقط أم لا، هل ستمطر ليزداد محصول الشعير. يبدو أننا قد بدأنا نجوع، ولهذا تحول حديثنا عن الطعام ولم نغيره.

- ما هو طعامك المفضل يا سيدي؟

- كل الأطعمة محببة لدي يا ولدي؛ إنه ذنب عظيم أن نقول هذا الطعام جيد وهذا سيء!

- لماذا؟ ألا نستطيع أن نبدله؟

- بالطبع لا.

- لكن لماذا؟

- لأن ثمّة أناسًا جياعًا.

صمت خجلاً. فلم يصل قلبي أبداً إلى هذه الدرجة من السمو والشفقة.

جرس الدير أخذ يدق مبتهجاً كضحكة امرأة.

رسم العجوز علامة الصليب على صدره وراح يتمتم دعواته:

- أيتها العذراء العظيمة ساعدينا؛ أيتها الشهيدة بسكين في عنقك وتجري دماؤك.......

وبدأ العجوز يثني على العذراء كما لو كانت امرأة حقيقية، شابة لاجئة مضطهدة، طعنها الكفار في شرفها فجاءت باكية من الشرق تحمل ابنها.

- في يوم من السنة يسيل دم حقيقي ساخن من جراحها، أذكر ذات مرة في عيد العذراء، كنت شاباً صغيراً، نزلنا من كل القرى المجاورة كي نصلي لها. كان عيد العذراء الذي في الخامس عشر من شهر أغسطس؛ تمددنا نحن الرجال لننام في الساحة والنساء في الداخل. وإذا بي في منامي، يا إلهي يا سيدي! أسمع العذراء تصرخ قفزت ناهضاً من نومي، هرولت نحو أيقونتها، مددت يدي نحو عنقها وماذا أرى؟ ابتلت أصابعي بالدماء....

رسم العجوز شارة الصليب؛ التفت نحو الخلف، نظر إلى النساء ونادى عليهن:

- هيا، لقد أوشكنا على الوصول.

كان صوته مبتسماً:

- لم أكن قد تزوجت حينها؛ استلقيت على بطني ورحت أصلي لها وأخذت عهداً على نفسي أن أترك هذه الدنيا وأصبح راهباً...

ضحك.

- لماذا تضحك يا جدي؟

- وكيف لا أضحك يا بني؟ فعندما رأيتها في المهرجان السنوي في القرية وكأن الشيطان لبس زي امرأة ووقف أمامي؛ وكانت سيادتها!

قال وهو يشير بإصبعه للخلف دون أن يلتفت، إنها العجوز التي تتبعنا صامتة.

- لا تنظر إليها الآن، قال، فإن فكرة لمسها لا تحتمل. لكن آنذاك كانت لعوب مفعمة بالحياة مثل سمكة. كانت طويلة الأهداب وهكذا كانوا ينادونها. لكن الآن؛ يا لبؤس الحياة! ذهبت الأهداب وذهب كل شيء، كل شيء!

في لحظة، خلفنا، تنحنحت المرأة العجوز مثل كلب مقيّد؛ لكنها لم تقل شيئاً.

- ها هو الدير! أشار العجوز بيده.

عند شاطئ البحر، دير صغير يلمع من البياض محصور بين صخرتين كبيرتين. في المنتصف كانت هناك قبة الكنيسة، المطلية حديثاً بالجير الأبيض، صغيرة ومستديرة كاملة الاستدارة، كانت تشبه ثدي امرأة؛ حول الكنيسة خمس أو ست حجرات بأبواب مطلية باللون الأزرق، وفي الفناء ثلاث أشجار سرو كبيرة؛ وسياج من أشجار الصبار المزهرة.

أسرعنا خطواتنا، صوت الأناشيد والترانيم كان يخرج من نوافذ المعبد، الهواء المالح كان برائحة البخور. كان باب المدخل المقوس مفتوحاً، كان الفناء ممتداً ونظيفاً، مكسوًّا بالحصى الأبيض والأسود الذي تراه على الشاطئ، وعلى امتداد الجدران يميناً ويساراً اصطفت أصص من أزهار الريحان والمردقوش والنعناع.

هدوء وسكينة، والشمس تغرب والجدران المطلية بالجير اتخذت لوناً وردياً.

الكنيسة الصغيرة كانت دافئة نصف مضيئة وتفوح فيها رائحة الشمع؛ كان الرجال والنساء يتحركون وسط سحابات البخور وخمس أو ست راهبات يرتدين عباءاتهن السوداء ينشدن بعذوبة صوت ذي نبرة عالية مزمور «رب القوى». وكان جميع الحضور يستغفرون، كان يسمع صوت هفهفة عباءاتهن كلما سجدن مثل رفرفة جناحي طائر.

مرت سنوات طويلة منذ أن سمعت تراتيل العذراء. بعد فترة التمرد في أول سنوات شبابي حيث كنت أحضر إلى الكنيسة وقلبي معبأ بالكراهية؛ لكن مع السنين هدأت وخف غضبي. ومن حين لآخر كنت أحضر القداس في الأعياد الكبيرة الأساسية، ميلاد المسيح، التهجد، عيد القيامة؛ وكنت أفرح أن يبعث الطفل الذي ظل بداخلي. يعتقد البوهيميون بأنه عندما تفقد آلة موسيقية قدرتها القدسية، تصدر صوتاً منسجماً. تلك هي السعادة الجمالية التي بقيت من الدين داخلي.

وقفت في أحد الأركان، اتكأت على المقصورة التي صقلتها ونعمتها أيادي المؤمنين، وسمعت من عمق الزمن ألحان بيزنطية: «*سلام على مريم، سموك لا يدركه عقل بشر، عمق لا تراه عيون الملائكة... سلام على مريم، عروس السماء، الوردة الطاهرة*.....»

ورحن الراهبات يسجدن فهفهفت عباءاتهن ثانية مثل رفرفة جناحي الطائر.

كانت اللحظات تمر مثل أجنحة الملائكة تفوح منها روائح البخور، ويمسكن زنابق لم تتفتح بعد، وينشدن ثناء لمريم العذراء. غربت الشمس، وغطتنا زرقة قاتمة. لا أذكر كيف وجدنا أنفسنا في الفناء وكنت قد بقيت وحدي مع كبيرة الراهبات وراهبتين شابتين تحت أكبر شجرة سرو في الفناء. قدمن لي حلوى الفاكهة المنقوعة في المربى والماء البارد، وحوارًا هادئًا....

تحدثنا عن معجزات العذراء، وعن الفحم، وعن الدجاج الذي سوف يرقد على بيضه الآن وقد حل الربيع. عن الراهبة افذوكسيا التي أُصيبت بالصرع وسقطت على أرض الكنيسة تتخبط مثل السمكة وفمها يزبد وتمزق ملابسها

- إنها في الخامسة والثلاثين من عمرها، قالت كبيرة الراهبات بعد أن تنهدت متألمة، مرحلة سنية قاسية، عل الشهيدة العذراء تساعدها وتشفيها من مرضها...

- دمدمت متنهدًا، عشرة، خمسة عشر عاماً...

- وما هي عشرة أو خمسة عشر عاماً قالت كبيرة الراهبات بحدة؛ ألا تفكر في الخلود؟

صمت؛ فأنا أعرف أن الأبدية أو الخلود هي كل لحظة نعيشها؛ قبلت يد كبيرة الراهبات، يدًا بيضاء مكتنزة تفوح منها رائحة البخور، ثم غادرت.

حل الليل. كان هناك اثنان أو ثلاثة من الغربان تعود مسرعة إلى أعشاشها، كانت البوم تخرج من تجاويف الأشجار بحثاً عن الطعام، والحلزون يخرج من الأرض، واليرقات والديدان والفئران لتكون طعاماً للبوم.

أفعى غامضة تأكل ذيلها، الأرض تلد أطفالها، ثم تأكلهم، ثم تعيد ولادتهم لتعيد التهامهم. إنها دائرة الحياة المحكمة.

تلفت حولي؛ كان الظلام حالكًا، صرت وحيداً تماماً.

كان آخر القرويين قد غادروا، لا أحد يراني. نزعت حذائي، ووضعت قدمي في البحر، تدحرجت على الرمال. كنت في احتياج إلى أن ألمس الحجارة والماء والهواء بجسد عارٍ. «الخلود» تلك الكلمة التي قالتها كبيرة الراهبات قد أثارتني، سقطت علي مثل الحبل الذي يصطادون به الخيول البرية. نهضت محاولاً أن أهرب من الرغبة في لمس هذه الأشياء بدون ملابس، صدري على صدر الأرض والبحر، أن أشعر بالطمائنينة في أنّ هذه الأشياء الحبيبة إلى قلبي موجودة.

«أنت هنا، وحدك، صرخت في أعماقي، يا أيتها الصخرة والتراب والماء والهواء؛ وأنا، يا أيتها الأرض، أنا ابنك المحروم أمسك بثديك ولن أتركه. إنك لا تدعينني أعيش لحظة واحدة، إلاّ وتحولت هذه اللحظة إلى ثدي أرضع منه»

خيل إلي بأنني سأقع في كلمة «الخلود» هذه الكلمة آكلة لحوم البشر؛ رحت أجتر الذكريات متى كان؟ ربما في العام الماضي، حين توقفت عند هذه الكلمة وأغمضت عيني وفتحت يدي لأسقط سقوطاً حراً.

عندما كنت في الصف الأول في المرحلة الابتدائية كانت لدينا قصة ندرسها لنتعلم الأبجدية:

كانت تقول؛ سقط ولد في بئر فوجد مدينة جميلة - حدائق مديدة، أتذكر، بها عسل وأرز باللبن وألعاب... كنت أتهجى، وكل مقطع ألفظه يأخذني أعمق في القصة. وذات ظهيرة، وأنا في طريق عودتي من المدرسة، دخلت البيت مهرولاً، واندفعت نحو حافة البئر في فناء البيت، تحت العريشة، انحنيت ونظرت مأخوذاً لوجه الماء الأسود. وتخيلت أني رأيت المدينة الجميلة، بيوتًا وشوارع وأطفالاً وشجرة كروم كبيرة مملوءة بعناقيد العنب. لم أعد أحتمل؛ ثنيت رأسي إلى أسفل، مددت يدي وركلت الأرض بقدمي كي أثب وأسقط. لكن في هذه اللحظة رأتني أمي، وصرخت، هرولت نحوي وفي آخر لحظة استطاعت أن تمسك بي من خصري في الوقت المناسب.

عندما كنت صغيراً، كدت أسقط في البئر؛ وعندما كبرت، كدت أسقط في بئر كلمة «الخلود»؛ وفي كلمات أخرى كثيرة: «الحب»، «الأمل»، «الوطن»، «الرب». كل سنة يخيل لي أنني أنجو وأتقدم إلى الأمام. لم أكن أتقدم أبداً؛ بل كنت أغير الكلمة، وكنت أسمي هذا نجاة. وفي السنتين الأخيرتين، أتعلق في كلمة: «بوذا».

لكن، وبفضل زوربا، هذا هو البئر الأخير، الكلمة الأخيرة، وسأنجو بعدها للأبد. للأبد؟ أقول هكذا فقط كي أريح عقلي.

نهضت. كل جسدي من كعب قدمي وحتى عقلي كان في سعادة. نزعت ملابسي، سقطت في البحر، كانت الأمواج تضحك، وأنا أضحك معها، ورحنا نلعب. وعندما تعبت خرجت وجففت جسدي في هواء الليل. انطلقت بخطوات خفيفة وواسعة في الطريق، بدا لي كما لو أنني نجوت من خطر عظيم، وبأنني ما زلتُ أمسك بقوة بصدر الأم.. وأرضع.

ما إن اقتربت من شاطئ الفحم حتى توقفت فجأة؛ كان هناك ضوء في الكوخ، قلت في نفسي «لابد أن يكون زوربا قد عاد»

جاءتني رغبة أن أجري نحو الكوخ لكنني تماسكت. «لابد أن أخفي ابتهاجي، قلت؛ لابد أن أبدو غاضباً وأبدأ توبيخه. لقد أرسلته في مهمة عمل، وذهب هو ليبدد أموالي، تورط في علاقة مع غانية ومكث اثني عشر يوماً. لابد أن أظهر أنني غاضب جداً، لابد...»

كنت أقترب بخطوات بطيئة، كي يكون لدي الوقت أستجمع غضبي. حاولت أن أهيج نفسي، عصرت قبضتي، قطبت حاجبي، فعلت كل الإيماءات كي أغضب. لكنني لم أغضب. وكلما اقتربت ازدادت بهجتي.

اقتربت على أطراف أصابعي؛ نظرت من النافذة؛ كان زوربا جالساً على الأرض وقد أشعل الموقد لصنع القهوة. ذاب قلبي وصرخت:

- زوربا!

فتح الباب فجأة وخرج زوربا حافي القدمين لا يرتدي قميصاً؛ مد عنقه في الظلام يبحث عني وفور أن رآني فتح ذراعيه، لكنه تماسك فجأة وأنزل ذراعيه.

- قال بتردد، وقد وقف ساهمًا حزيناً، سعيد برؤيتك ثانية يا سيدي.

حاولت أن أتحدث بصوت عصبي:

- مرحباً بعودتك! قلت ساخراً. لا تقترب مني فرائحتك صابون معطر، أضفت.

- دمدم قائلاً، آه لو تعرف يا سيدي كم اغتسلت وفركت جسدي. لقد نظفت نفسي وكشطت جلدي بقوة قبل أن أقابلك! ساعة كاملة كنت أغتسل. لكن هذه الرائحة الملعونة... لا أدري ماذا أفعل لها، على أي حال ستزول شاءت أم أبت.

- هيا لندخل، قلت.

كنت أشعر أنني أود أن أنفجر في الضحك ولم أعد احتمل أن أكتمه أكثر من هذا.

دخلنا؛ كانت رائحة الكوخ عطرًا ومساحيق وصابونًا ورائحة نسائية.

- ألا قلت لي ما هذا؟ صحت عندما رأيت صندوقاً مليئًا بالصابون المعطر وجوارب نسائية ومظلة حمراء وزجاجتي عطر.

- هدايا... دمدم زوربا وهو ينظر إلى الأرض خافضًا رأسه.

- هدايا؟! قلت وأنا أحاول أن أتظاهر بالغضب.

- هدايا يا سيدي، لا تغضب؛ من أجل بوبولينا المسكينة... لقد اقترب عيد الفصح، أليست إنسانة هي الأخرى.

استطعت أن أكتم ضحكي.

- لكنك لم تجلب لها أهم شيء؟

- ماذا؟

- أكاليل الزواج.

ثم قصصت عليه ما فعلته بالحورية العاشقة العجوز.

حك زوربا رأسه وفكر قليلاً.

- لم تحسن صنعاً يا سيدي، قال في النهاية؛ لم تحسن صنعاً، لكن اعذرني. فهذه الدعابات يا سيدي كما تعرف... المرأة كائن ضعيف، رقيق، كم مرة يجب أن اقول لك هذا الشيء؟

فهن مثل المزهريات الهشة. يحتجن الكثير من العناية يا سيدي.

شعرت بالخجل. لقد ندمت على ما فعلت، ولكن جاء الندم متأخراً.

غيرت الموضوع.

- ماذا عن المعدات والأسلاك؟

- لا تقلق يا سيدي، لقد أحضرت كل شيء! لقد فعلت كل شيء، أطعمت الكلب ولا تزال الكعكة كاملة. سكة الحديد المعلقة، لولا، بوبولينا، الوضع تحت السيطرة تماماً يا سيدي؟

رفع إبريق القهوة من على النار وملأ فنجاني، أعطاني كعكاً بالسمسم قد أحضر معه حلاوة بالعسل أيضاً حيث يعرف كم أحبها.

- أحضرت لك صندوقاً من الحلاوة هدية! قال لي بود شديد؛ لم أنسكَ. وقد أحضرت كيساً من الفستق العربي للببغاء. كنت متيقظاً لكل شيء.

أكلت الكعكة وشربت القهوة، كنا جالسين أنا وزوربا متربعين على الأرض، كان زوربا يشرب قهوته ويدخن، نظر إلي وكانت عيناه تلعب كالثعبان.

- هل وجدت حلاً للمشكلة التي كانت تعذبك أيها العجوز الملعون؟ سألته وقد رق صوتي الآن.

- أي مشكلة يا سيدي.

- إذا كانت المرأة إنسان.

- آآآه! لقد حلت المشكلة! أجاب، وهو يهز يديه. هي إنسان مثلنا تماماً.

- وربما أسوأ! فهي في اللحظة التي ترى فيه كيس أموالك تصاب بالدوار وتلتصق بك، تخسر حريتها وتسعد لأنها تفقدها؛ لأنها ببساطة تنظر إلى بريق أموالك. لكن بسرعة.... دعك من هذا يا سيدي، اللعنة!

نهض وألقى بسيجارته من النافذة.

- قال: لنتحدث في أمور رجالية الآن. أسبوع الأعياد المقدس يقترب، لقد أحضرنا الأسلاك، لقد حان الوقت أن نصعد إلى الدير ونقنع هذه الكائنات السمينة أن توقع على الأوراق والوثائق المطلوبة لنستغل الغابة... قبل أن يشاهدوا الخط الهوائي ويغالون في مطالبهم، أتفهمني؟ الوقت يمر يا سيدي، وليس من الصحيح أن نتكاسل، لابد أن نبدأ في الحفر، أن تأتي السفن تحمل ما نستخرجه، أن نعوض خسائرنا... هذه الرحلة الملعونة إلى المدينة تكلفت كثيراً كما ترى....

صمت؛ حزنت لحاله. كان مثل طفل قام ارتكب حماقة ولايدري كيف يصلح الأمور. ويرتعش قلبه.

«قلت لنفسي، يا للعار، كيف تترك روحاً كهذه ترتعش أمامك؟ انهض، أين وكيف ومتى ستجد زوربا آخر؟ قف، خذ الإسفنجة وامحُ كل شيء!»

- صحت، زوربا بعصبية، اللعنة، لسنا بحاجة لهذا الهراء! لننس كل ما حدث.

هات السانتوري!

فتح ذراعيه، كما لو أنه أراد أن يعانقني؛ لكنه أغلقهما ببطء متردداً. وبسرعة وصل إلى الجدار ونزع السانتوري من على الحائط. وحين اقترب من ضوء المصباح، رأيت شعره: أسودَ كالقطران.

- صحت، ماهذا الشعر أيها الملعون؟ من أين لك؟

ضحك زوربا.

- لقد صبغتها يا سيدي، صبغته فقد كان نحسًا وأردت أن أغير حظي.

- لماذا؟

- هكذا، ربما كبرياء. ذهبت مرة إلى لولا وأمسكت يدها. ليس بالضبط... أطرافها.. انظر هكذا! وجاء صبي من خلفنا وصاح «أيها العجوز الملعون، إلى أين تأخذ حفيدتك؟»

فخجلت لولا المسكينة، وخجلت أنا أيضاً. ولكي لا أجعلها تخجل، ذهبت في نفس الليلة إلى الحلاق وصبغت شعري.

ضحكت بينما كان زوربا ينظر إلي بجدية.

- هل تظن هذا مضحكاً يا سيدي؟ لكن اسمع، كيف أن الإنسان لغز محير. منذ اليوم الذي صبغت فيه شعري، أشعر أنني إنسان مختلف. أكاد أصدق أنا نفسي أن شعري أسود اللون - الإنسان ينسى بسهولة كل ما لا يلائمه، أترى؟ - أقسم أن قواي قد زادت. لقد لاحظت لولا هذا أيضاً. أتتذكر تلك الآلام التي كانت تمزق كليتي؟ انتهت! لا تصدق، نعم فهذه أشياء لا تكتب في الكتب...

ضحكت ساخراً، لكنني ندمت على الفور.

- اعذرني، قال. فإن الكتاب الوحيد الذي قرأت في حياتي هو قصة السندباد؛ ولم أرَ منه أية فائدة.

عرى السانتوري بهدوء وحنان.

- دعنا نخرج من هنا، قال. الجدران الأربعة لا تسع السانتوري؛ فهذا الوحش يحب الرحابة.

خرجنا خارج الكوخ. كانت النجوم تومض في السماء. وكأن نهر الأرض يفيض من جانب السماء ليصب في الجانب الآخر. وكان البحر يفور.

جلسنا متربعين على الحصى؛ وراحت الأمواج تلعق أقدامنا.

- علاج الفقر هو أن تمضي وقتاً طيباً، قال زوربا. وهل يظن الفقر أنه سينتصر علينا؟ تعال هنا أيها السانتوري!

- قلت، اعزف لنا لحنًا مقدونيًّا من بلدتك يا زوربا.

- بل كريتي من بلدتك! قال زوربا؛ سأغني لك رباعية كريتية تعلمتها في المدينة ومنذ أن تعلمتها تغيرت حياتي.

فكر قليلاً:

- لا، لم يغير حياتي، قال؛ لكن الآن أفهم أن به حكمة كبيرة.

مد أصابعة الغليظة على السانتوري، رفع عنقه. وراح صوته الوحشي المبحوح المليء بالحزن يحرك الهواء.

إذا عزمت فلا تخف ولا تتردد

أطلق العنان لشبابك فالشجاع أبداً لا يندم.

ذهب كل القلق وتلاشت الهموم التافهة وبلغت الروح ذروتها. لولا، الفحم، المصعد الهوائي المعلق، «الخلود»، هموم صغيرة وكبيرة كل هذا صار دخانًا وتبدد، لم تبقَ سوى روح الإنسان، هذا الطائر الفولاذي، وراح يغرد.

- حلال عليك يا زوربا! صحت بعد أن انتهى من عزفه المبهر؛ حلال عليك كل ما فعلت - الغانية شعرك الذي صبغته، المال الذي بددته، حلال عليك كل شيء، كل شيء! أكمل الغناء!

مد عنقه النحيلة المليئة بالعروق:

تسلح بإيمانك وتقدم، وتقدم حيث يقودك قلبك

افعل ماتظنه صحيحًا، ولا يشغلنك ما سوف يحدث

عشرة من العمال الذين يبيتون خارج المنجم سمعوا صوت الرباعيات الكريتية؛ فاستيقظوا ونزلوا خلسة إلى حيث مصدر الغناء وتحلقوا حولنا ليسمعوا أغانيهم المحببة وقد أصاب الخدر سيقانهم.

لكنهم فجأة قفزوا في الظلام واقفين فلم يتمالكوا أنفسهم نصف عراة بشعورهم الشعثاء وسراويلهم الفضفاضة. تحلقوا حول زوربا والسانتوري وراحوا يرقصون فوق حصى الشاطئ الغليظ.

نظرت إليهم صامتاً ومنبهراً وقلت في نفسي:

«هذا هو العرق الحقيقي الذي كنت أبحث عنه؛ لا أريد غيره.»

في فجر اليوم التالي كانت أصداء زوربا وأصوات المعاول تتردد في المنجم. كان العمال يشتغلون بنهم شديد؛ لم يكن غير زوربا هو الذي يستطيع أن يسيطر عليهم ويشعل الحماس في أوصالهم. فمعه كان العمل يتحول إلى نبيذ، غناء، حب فكانوا ينتشون. كان العالم يستعيد الحياة في يديه، الحجارة، الفحم والخشب، حتى العمال كانوا ينسجمون مع إيقاعه، كانت طبول الحرب تدق في المنجم تحت الضوء الأبيض لمصابيح الأسيتيلين، وكان زوربا في المقدمة مع الجنود كتفاً بكتف. يعطي اسماً لكل نفق وكل عرق، كان يعطي وجهاً لكل القوى الخفية وهكذا كان يصعب عليها الهروب منه.

«عندما أعرف أن هذا هو نفق كانفارو (كان قد أعطى هذا الاسم لأول نفق)، أين يمكن أن يختفي؟ فأنا أعرف اسمه، ولن يجرؤ أن يراوغني أو يخدعني. ولا حتى النفق الأم ولا الأعرج. أقول لك أنا أعرفهم جميعاً وبأسمائهم.»

تسللت ذات يوم إلى النفق دون أن يلاحظ.

- كان يصيح في العمال: هيا هيا يا رفاق؛ هيا بنا نأكل الجبل! نحن رجال، وحوش كاسرة، يرانا العدو ويرتعد رعباً. أنتم كريتيون وأنا مقدوني، سنأكل الجبل، سنهزمه لن يأكلنا، لن يهزمنا! لقد هزمنا الأتراك أليس كذلك؟ هل سنخاف هذا الجبل التافه؟ هيا، هيا!

اقترب أحدهم من زوربا؛ رأيت تحت ضوء مصباح الأستيلين أنه ميميكو.

- نادى على زوربا بصوت مرتعش، زوربا...

- صاح فيه زوربا، ارحل من هنا! اغرب عن وجهي!

- جئت من عند المدام... ثم بدأ ميميكو يتلعثم.

- ارحل من هنا قلت لك! لدينا عمل!

خرج ميميكو مهرولاً؛ فبصق زوربا على الأرض بعصبية.

- قال؛ إن النهار للعمل، النهار رجل.

أما الليل فهو للهو والمرح؛ الليل امرأة. لا تخلطوا الأمور!

جئت في هذه اللحظة.

- يا رفاق، قلت، لقد انتصف اليوم؛ حان وقت الراحة وتناول الغداء.

التفت زوربا، رآني، وقطّب ملامحه.

- بعد إذنك يا سيدي، دعنا. اذهب أنت وتناول طعامًا من فضلك. لقد ضيعنا اثني عشر يوماً، لابد أن نعوض خسارتنا؛ أرجو لك شهية طيبة!

خرجت من النفق، نزلت نحو الشاطئ؛ فتحت الكتاب الذي كان بين يدي، نسيت الجوع بعد أن كنت جائعاً. «إن التفكير منجم، قلت في نفسي، هيا!»، وغصت في أنفاق العقل.

كتاب مثير للقلق - يصف جبال التبت الجليدية، الأديرة الغامضة، الرهبان الصامتين ذوي العباءات الصفر الذين يركزون في الرغبة الإنسانية ويجبرون الأثير أن يتخذ الشكل الذي يرغبونه.

قمم عالية كثيفة، الهواء معبأ بالأرواح، لا يصل هناك ضجيج العالم العقيم. الناسك الكبير يأخذ تلاميذه، صبية في السادسة والثامنة عشر من عمرهم ويذهب في منتصف الليل في بحيرة الجبل الجليدية. ينزعون ملابسهم، يكسرون طبقة الثلج، يسقطون ملابسهم في الماء المثلج، ثم يلبسونها لتجف على أجسادهم. ثم يسقطونها ثانية، ويجففونها مرة أخرى على أجسادهم، يفعلون ذلك سبع مرات. ثم بعدها يعودون إلى الدير للصلاة.

يرتقون إحدى القمم على أرتفاع ستة آلاف متر فوق سطح البحر.

يجلسون في هدوء، يتنفسون بعمق وبإيقاع، نصفهم العلوي عاري من الملابس دون أن يشعروا بالبرد. يحملون طاسة من الماء المثلج في أيديهم، يركزون، يلقون بقوتهم الروحية فوق الماء المثلج، ثم يغلي الماء؛ ثم يصنعون الشاي.

يجمع الناسك الكبير التلاميذ حوله ويصيح:

«الويل لمن لديه منبع السعادة في داخله!

الويل لمن يريد أن يكون مصدر إعجاب الآخرين!

الويل لمن لا يشعر بأن هذه الحياة والحياة الأخرى، هما شيء واحد!»

حل الظلام ولم أعد أرى كي أقرأ؛ أغلقت الكتاب ورحت أنظر إلى البحر. رحت أقول في نفسي، «لابد أن أنجو من هذه الكوابيس - بوذا، الرب، الوطن والأفكار.... ثم صحت، الويل لمن لا ينجو ولا يتخلص من بوذا والآلهة والوطن والأفكار!»

صار لون البحر أسود فجأة؛ وبدأ القمر الصغير يتدحرج في السماء. بعيداً عن الحدائق، الكلاب تعوي حزينة، فيتردد صدى عوائها، وكأن الوادي كله يعوي.

عاد زوربا يكسو التراب وجهه وملابسه، نزع قميصه وعلقه على الكرسي.

قبع إلى جواري.

- قال مبتهجاً، لقد سار اليوم على ما يرام، أنجزنا عملاً كثيراً.

سمعت كلام زوربا دون أن أفهمه؛ كان ذهني لا يزال شارداً في الصخور الوعرة.

- فيم تفكر يا سيدي؟ إنك مبحر بعيداً في أعالي البحار.

استجمعت أفكاري، التفت إلى زوربا؛ نظرت إلى رفيقي وهززت رأسي.

- أجبت، إنك تظن أنك سندباد بحري خطير جاب أرجاء العالم وتفتخر بذلك. لكنك لم تر شيئاً، ولا أي شيء أيها التعس!

ولا أنا. إن العالم أكبر بكثير مما نعتقد، نسافر ونجول ونطوف، ونكتشف في النهاية أننا لم نبتعد عن عتبة باب بيتنا.

زم زوربا شفتيه؛ لم يتكلم. تمتم فقط مثل كلب وفي عندما يضرب.

- هناك جبال في هذا العالم شاهقة وضخمة، مليئة بالأديرة. وفي هذه الأديرة يعيش رهبان يلبسون عباءات صفر، يجلسون القرفصاء دون حركة لمدة شهر أو اثنين وستة أشهر يتأملون شيئاً واحداً فقط. أ تسمع؟ واحدًا فقط؛ لا شيئين! لا يفكرون كما نفكر نحن في النساء أو الأنفاق، كتاب ونفق، يركزون يا زوربا عقولهم في شيء واحد ويصنعون المعجزات.

هكذا تحدث المعجزات. أ رايت يا زوربا، عندما تضع عدسة في مقابلة الشمس وتجمع أشعتها كلها في نقطة واحدة؛ هذه النقطة بعد قليل تشتعل، تدب فيها النار؛ لماذا؟ لأن قوة الشمس لم تتبدد، تجمعت كلها فوق هذه النقطة.

هكذا تماماً هو عقل الإنسان؛ يستطيع أن يصنع المعجزات، إذا وضعت عقلك كله في شيء واحد. أ تفهم يا زوربا؟

بدأ زوربا يتنفس بصعوبة؛ لبرهة قفز كأنه أراد أن يغادر. لكنه تماسك.

- أكمل! قال بصوت مخنوق.

لكن مباشرة هب واقفاً.

- صاح؛ اسكت! اسكت! لماذا تقول لي هذا يا سيدي؟ لماذا تسمم قلبي بهذه الأفكار، كنت على ما يرام، لماذا توترني؟ لقد كنت جائعاً وقد أرسل لي الرب والشيطان (اللعنة على الفرق بينهما) عظمة رحت ألعقها. وأهز ذيلي وأصيح: «شكراً، شكراً» والآن....

ضرب بقدمه على الحصى، أدار لي ظهره؛ حاول أن يذهب إلى الكوخ؛ لكن روحه كانت تغلي؛ فتوقف.

- أوووف! يا لروعة العظمة التي ألقى لي بها هذا (الرب - الشيطان!). حياة غانية، عاهرة قذرة!

أمسك بحفنة من الحصى وألقى بها في البحر.

- لكن من هو؟ صاح، من هذا الذي سيلقي لنا بالعظام؟

انتظر قليلاً ولما لم يتلق مني ردًا زاد هياجه.

- لمَ لا تقول شيئاً يا سيدي؟ إذا كنت تعلم شيئاً فقل لي لأعرف أنا أيضاً ما هو، لكن لا يهمك، أعرف كيف أتدبر أمري معه! لكن إذا كان هناك أي احتمال بعيد، فلي أن أعرف أي طريق أسلك؟ أم سألقي بنفسي في التهلكة.

- إني جائع، قلت؛ هيا، أحضر لنا شيئاً نأكله؛ دعنا نأكل أولاً!

ألا يمكننا أن نبقى ليلة بلا طعام يا سيدي؟ كان أحد أعمامي راهباً وكان لا يأكل طول الأسبوع سوى ماء وملح؛ في أيام الأحاد والأعياد كان يضيف قليلاً من النخالة. وعاش مائة وعشرين عاماً.

- عاش مائة وعشرين عاماً يا زوربا لأنه كان مؤمنًا؛ وجد الرب واطمئن قلبه، لم يكن لديه أي قلق. لكننا نحن يا زوربا، ليس لدينا رب يطعمنا؛ هيا أشعل النار، لدينا بعض الأسماك؛ اصنع لنا حساء ثقيلاً ببصل كثير وفلفل كما نحبه. ثم سنرى.

- ماذا سنرى؟ قال زوربا وقد جن جنونه. إذا أكلنا ستمتلئ بطوننا وسننسى.

- هذا ما أريده؛ لذا الطعام له فائدة... هيا اذهب واصنع لنا حساء السمك يا زوربا، كي لا تنفجر رؤوسنا!

لكن زوربا لم يتحرك؛ ظل واقفاً ساهمًا ينظر إلي.

- اسمع يا سيدي، سأقول لك، فأنا أعرف ما ترمي إليه. جاءتني الفكرة كالومضة بينما كنت تتحدث!

- وإلامَ أرمي يا زوربا؟ سألته ضاحكاً.

- إنك ترغب أن تبني ديراً، وتضع فيه بدلاً من رهبان، بعض الصغار أشباهك، معلمين صغار وكتاب؛ يقرؤون ويكتبون ليل نهار وتخرج من أفواههم مثل القديسين الصغار المنقوشين على الأيقونات، شرائط مطبوعة: هاه، أليس كذلك؟

خفضتُ رأسي في مرارة. أحلام الشباب القديمة، أجنحة كبيرة سقط ريشها، رغبات حمقاء ونبيلة... أن ننشئ مركزاً أو ديراً أشبه بلجنة ثقافية روحية، عشرة من الأصدقاء نسجن أنفسنا فيه - موسيقيين، رسامين، شعراء.... - نعمل طوال النهار ونتحاور ليلاً...

كنت أنا من كتبت لائحة اللجنة. و وجدت المقر؛ عند مضيق جبل أميتوس عند القديس يوحنا الصياد...

- لقد أصبت! قال زوربا بسعادة لما رآني صامتاً واحمر وجهي.

- أجبت، نعم؛ لقد أصبت يا زوربا، قلت وأنا أخفي تأثري.

- إذن؛ سأطلب معروفاً أيها الراهب المعلم: أرجو أن تعينني بواباً في هذا الدير، كي أهرب وأسرب بعض الأشياء من وإلى الدير المقدس - أشياء تافهة، نساء، آلات البوزوكي، زجاجات العرق خنازير مشوية... كي لاتتبدد الحياة كلها في هذا الهراء!

ضحك زوربا وهو ذاهب نحو الكوخ؛ جريت خلفه. نظفت الأسماك في صمت؛ أحضرت الأخشاب، أشعلت النار. وعندما جهز الحساء، أمسكنا بملاعقنا، وأكلنا من القدر مباشرة. لم ننبس ببنت شفة؛ لم نأكل شيئاً طوال اليوم، أكلنا بنهم شديد. شربنا قليلاً من النبيذ؛ اعتدل مزاجنا؛ وفتح زوربا فمه:

- لكم سيكون ممتعًا يا سيدي أن تدخل علينا الآن بوبولينا - طيب الرب ساعتها وحفظها، هذا ما ينقصنا في ساعتنا هذه. لن أفشي لك سراً يا سيدي إذا قلت لك انني اشتقت إليها، عليها اللعنة!

- لم لا تسأل من يلقي لك بهذه العظمة؟

- وما يشغلك يا سيدي؟ برغوث في كومة قش. دعك من اليد التي تلقيها. أليس طعمه لذيذ؟ به قليل من اللحم؟ هذا هو السؤال؛ كل الباقي....

- فعل الطعام معجزته! قلت وأنا أربت على كتف زوربا. إذا ما هدأ الجسد الجائع؛هدأت الروح الحائرة... أحضر السانتوري!

في اللحظة التي كان زوربا ينهض فيها، سمعنا صوت خطوات ثقيلة ومسرعة تدب على الحصى في الخارج. ارتعشت فتحتا أنف زوربا المشعرتان.

- يأتي الحمار على صوت صاحبه! قال زوربا بصوت خفيض وهو يضرب على فخذيه. ها هي قد جاءت، شمت رائحة زوربا وجاءت لتحصل هديتها.

- قلت وانا أنهض، سأغادر كي لا أشعر بالضجر. سأذهب لأتمشى قليلاً، امضوا وقتاً ماتعًا.

- تصبح على خير يا سيدي!

- ولا تنسَ يا زوربا؛ لقد وعدتها بالزواج، لا تجعلني كذاباً.

تنهد زوربا:

- هل أتزوج ثانية يا سيدي؟ لقد مللت من مرة واحدة.

رائحة الصابون المعطر قد وصلت.

- كان الرب في عونك يا زوربا!

غادرت على عجل؛ سمعت عندما أصبحت في الخارج لهاث الحورية العجوز.

في صباح اليوم التالي استيقظت من النوم على صوت زوربا.

- ماذا أصابك في هذه الساعة المبكرة، لمَ كل هذا الصياح؟؟؟ قلت له.

- ما هذا يا سيدي، لابد أن نأخذ الأمور بجدية. أحضرت بغلين، انهض لنذهب إلى الدير كي نوقع الأوراق، لابد أن نبدأ بإنجاز المصعد الهوائي المعلق. الأسود لا تخاف سوى من القمل. قم يا سيدي هيا بنا قبل أن يأكلنا القمل!

- من تقصد بالقمل؛ بوبولينا؟؟ قلت ساخراً.

لكن زوربا تظاهر بالصمم.

- هيا بنا يا سيدي؛ انهض قبل أن تتعامد الشمس.

لقد افتقدت صعود الجبل، ورائحة أشجار الصنوبر؛ امتطينا البغال وصعدنا. توقفنا قليلاً عند النفق، أعطى زوربا للعمال طلباتهم: لابد أن يحفروا في النفق الأم ويفتحوا مجرى نحو النفق الآخر وأن ينزحوا المياه....

بدت الشمس وهي تشرق كقطعة ماس. كلما صعدنا أكثر سمت أرواحنا وتطهرت. جربت مرة أخرى قوة تأثير الهواء النقي على الروح، يصبح التنفس خفيفاً في هذا الأفق الشاسع وتشعر بأن الروح هي حيوان بري له أنف ورئتان، يحتاج إلى الأوكسجين ويستلقي متمدداً على الأرض ويتنفس بعمق وسرعة.

كانت الشمس قد تعامدت عندما دخلنا غابة الصنوبر. رائحة العسل في الهواء الذي كان يهب فوق رؤوسنا ويصدر صوتاً مثل وشوشة أمواج البحر.

طوال الطريق كان زوربا يراقب انحدار الجبل، كان في كل بضعة أمتار ينصب أعمدة في مخيلته، يرفع عينيه ويرى السلك الفولاذي الممتد إلى الشاطئ يلمع تحت ضوء الشمس؛ وفوقه تتعلق جذور الأشجار المقطعة وتنزلق كالسهام.

راح يفرك يديه وقال:

- سيدر علينا هذا العمل الكثير من الذهب. سنجمع المال بالجرافات ونفعل ما نحلم به.

نظرت إليه مندهشاً.

- ممم، أتتظاهر بالنسيان! قبل أن نبني الدير الذي تحلم به، ونصعد إلى قمة الجبل الشاهق، ماذا كان اسمه؟ نعم؛ جبل الطيبات، الثيبات.

- التبت يا زوربا... لكن أنا وأنت. هذا المكان لا يسمح بدخول النساء.

- ومن تحدث عن النساء؟ هي كائنات مفيدة ومسكينة على أي حال، لا تحقر من شأنهن، لكن هذا يحدث عندما يتصادف ألاّ يكون لدى الرجال بعض الأعمال الرجولية - أن يستخرج فحماً مثلاً، أن يذهب إلى المدينة، أن يناجي الرب. ماذا بوسعه أن يفعل غير ذلك؛ هل ينفجر؟ يشرب النبيذ، يلعب النرد، يحتضن النساء. وينتظر حتى تأتي ساعته؛ إذا كانت ستأتي.

- كرر كلمته؛ إذا كانت ستأتي؛ إذ ربما لن تأتي مطلقًا.

وبعد قليل قال:

- لا أستطيع يا سيدي، لا أستطيع فإما أن تكبر الأرض أو أصغر أنا؛ وإلاّ هلكت.

ظهر راهب من بين أشجار الصنوبر؛ شاحب اللون ذو شعر أحمر رافعاً عباءته ويرتدي قبعة محلية. كان يحمل عصاة حديدية ويضرب بها الأرض وهو يسير. وعندما رآنا توقف ورفع العصا الحديدية:

- إلى أين أنتما ذاهبان يا أبناء الرب؟

- فأجابه زوربا: إلى الدير؛ ثم أضاف، كي نصلي.

- قال الراهب: عودا أيها المسيحيان! صاح الراهب وجحظت عيناه الزرقاوان واحمر بياضهما. عودا واسمعا نصيحتي! لا توجد بساتين العذراء هنا، إنها حديقة الشيطان. فقر، وطاعة، وعذرية وأكاليل العزلة.

- همس لي زوربا، هذا الرجل مضحك يا سيدي. ثم انحنى للراهب قائلاً:

- ما اسمك أيها الراهب؛ وإلى أين أنت ذاهب؟

- اسمي زكريا؛ أخذت متاعي وسأرحل، فلم أعد أحتمل. قل لي من فضلك يا بن وطني ما اسمك؟

- أجاب زوربا؛ كانافارو.

- لم أعد أستطيع يا أخ كانافارو. ففي كل ليلة يئن المسيح في أذنيّ ولا أستطيع النوم؛ أئن معه، فأرسل كبير الرهبان يستدعيني - عل جهنم تلتهم عظامه - باكر اليوم وقال لي: «يا زكريا، إن سلوكك يمنع الأخوة من النوم؛ سوف أطردك من الدير! قلت له، أنا لا أتركهم ينامون، أنا أم المسيح؟ فانفجر غاضبًا.» رفع عصاه الملعون وانظروا ماذا فعل!

- رفع قبعته وأشار إلى بقعة دم واضحة في رأسه.

- تعال معنا إلى الدير قال له زوربا، وسوف أقنع رئيس الدير. هيا تعال برفقتنا، ولترشدنا إلى الطريق أيضاً؛ لقد أرسلك لنا الرب.

فكر الراهب للحظة؛ وبرقت عيناه.

- ماذا ستعطونني؟ قال أخيراً.

- ماذا تريد؟

- أوقية من السمك المقدد المملح وزجاجة كونياك.

انحنى زوربا ونظر إليه:

- هل هناك شيطان في جسدك يا زكريا؟

قفز الراهب من مكانه:

- كيف عرفت؟ سأل بدهشة.

- أجاب زوربا، أنا من جبل أثوس؛ أعرف في هذه الأشياء.

أطرق الراهب رأسه؛ ثم دمدم قائلاً:

- نعم؛ هناك شيطان.

- وهو يريد سمكًا مملحًا وكونياك، أليس كذلك؟

- نعم، يريد الملعون!

- اتفقنا، هل يدخن أيضاً؟

ألقى له زوربا بسيجارة؛ فالتقطها الراهب بحماس ثم قال.

- نعم يدخن، يدخن، عليه اللعنة! وأخرج من صدرة قداح له فتيل وأشعل السيجارة وأخذ منها نفساً عميقاً.

- قال باسم الرب؛ ثم رفع قضيبه الحديدي، وتحرك أمامنا.

- ما اسم شيطانك؟ سأله زوربا وهو يغمز لي بعينه.

- أجاب الراهب دون أن يلتفت، اسمه يوسف.

هذه الرفقهة مع الراهب نصف المختل لم تعجبني؛ العقل المريض هو تماماً كالجسم المريض، يصيبني بخليط من مشاعر الإشمئزاز والعطف والقرف. لكني لم أكن أتكلم؛ تركت الكلام لزوربا، ليفعل ويقل ما يريد.

الهواء النقي فتح شهيتنا؛ جعنا. جلسنا على الأرض تحت شجرة صنوبر ضخمة، فتحنا حقيبة الطعام؛ انحنى الراهب بنهم ليرى ماذا لدينا من طعام.

- قال زوربا، لا تتلمظ كثيراً يا أبانا زكريا! إننا في أيام صيام مقدسة؛ لكننا كفرة سنأكل لحم الدجاج، ليسامحنا الرب. لدينا حلاوة بالعسل وزيتون من أجل قداستك، تفضل!

مسد الراهب لحيته القذرة وقال محبطاً.

أنا زكريا، صائم؛ وسوف آكل زيتوناً وخبزاً وأشرب قليلاً من الماء... لكن يوسف، الشيطان الملعون الذي بداخلي، ليس صائما؛ وسيأكل اللحم يا إخواني، وسيشرب قليلاً من نبيذكم.

رسم علامة الصليب، وراح يلتهم بنهم الخبز والزيتون والحلاوة، مسح فمه بكفه وشرب جرعة ماء. رسم علامة الصليب ثانيةً كأنه انتهى من طعامه.

- الآن، قال، هذا دور الشيطان الملعون يوسف... ثم انقض على الدجاجة.

- راح يدمدم بوحشية، وهو يلتهم قطعاً كبيرة. كل أيها الملعون، كل، كل.

- قال زوربا! مرحى أيها الراهب؛ أرى أن لديك رخصة مزدوجة للحسنات والذنوب. ثم التفت نحوي.

- كيف تراه يا سيدي؟

- قلت ضاحكاً، إنه يشبهك.

أعطى زوربا قنينة النبيذ للراهب وقال له:

- هيا يا يوسف، اشرب!

- قال الراهب؛ اشرب أيها الملعون، وخطف القنينة وألصقها بفمه.

كانت الشمس حارقة، فتحركنا نحو الظل. كان الراهب يفوح برائحة العرق الحامضة والبخور. كاد يذوب من حرارة الشمس فسحبه زوربا إلى الظل كي لا تزداد رائحته.

- سأله زوربا؛ بعد أن أكل جيداً وكانت لديه رغبة في الثرثرة، كيف أصبحت راهباً؟

قهقه الراهب:

- هل تظن بأنّي كنت أرغب أن أكون قديساً؟ على الإطلاق. لكن بسبب الفقر يا أخي، الفقر. فقد فكرت: ليس لدي مال ولا أستطيع أن أطعم نفسي: لما لا أذهب إلى دير حتى لا أموت من الجوع!

- وهل أنت سعيد؟

- حمداً للرب! أنا عادة أشكو وأتذمر، لكن لا عليك؛ فلا تهمني الحياة الدنيوية - أنا أتوق لحياة الجنة. أقص دعابات وأمرح مع الرهبان كي يضحكوا؛ يقولون عني بأنّني ممسوس ويهينونني؛ لكنني أقول «هذا مستحيل، فالرب يحب الضحك. سيقول لي ذات يوم، تعال إلى هنا أيها الحقير، تعال وأضحكني!» وهكذا سأدخل الجنة كمهرج.

- أظن أن عقلك على ما يرام ياصاح! قال زوربا ثم نهض واقفا، وأتبع قائلاً، هيا بنا قبل أن يحل الظلام علينا!

سار الراهب أمامنا كي يرشدنا إلى الطريق. صعدنا الجبل، خيل إلي أن الروح تصعد في المكان، تصعد من الهموم التافهة إلى أشياء أكثر سمواً، من عقائد أرضية سهله إلى نظريات وعرة شديدة الانحدار.

توقف الراهب فجأة:

- قال: العذراء المنتقمة، وهو يشير إلى كنيسة صغيرة ذات تصميم جميل.

نزلت من على البغلة ودخلت القبو الرطب. على ركن في الحائط أيقونة مسودة من الدخان، نذور فضية كثيرة مشغولة بشكل بدائي فج؛ وأمامها قنديل فضي مشتعل على الدوام.

نظرت إلى الأيقونة بعناية. العذراء قاسية محاربة، ذات عنق قوي مشدود ونظرة صارمة وعينين قلقتين؛ ولم تكن تحمل في يدها الطفل المقدس، بل تحمل رمحاً طويلاً.

الويل لمن يعبث بالدير! قال الراهب برهبة شديدة؛ تهجم عليه وترشقه بالرمح الذي تحمله. منذ زمن بعيد خرج الكفار وجاءوا ليحرقوا الدير؛ لكن انظر ماذا حل بهم هؤلاء الملاعين: في اللحظة التي غادروا فيها وهم يمرون على الكنيسة الصغيرة بعد أن أحرقوا الدير، خرجت عليهم العذراء برمحها وأوسعتهم ضرباً ومزقتهم شر تمزيق، قتلتهم جميعاً. جدي كان يذكر عظامهم التي كانت تملأ الغابة؛ ومنذ ذلك الحين سموها بالعذراء المنتقمة؛ قبل ذلك كانوا يسمونها بالعذراء الرحيمة.

- ولمَ لم تصنع معجزتها يا أبانا زكريا قبل أن يحرقوا الدير؟ سأله زوربا.

- هذه كانت إرادة الرب العليا! أجاب الراهب وهو يرسم شارة الصليب ثلاث مرات.

- أية إرادة عليا! دمدم زوربا وامتطى البغلة وصاح؛ هيا بنا.

بعد قليل، تراءى لنا دير العذراء مريم على هضبة واسعة محاطة بصخور عالية في وسط أشجار الصنوبر. هادئًا ولامعًا ومعزولاً عن العالم، قابعًا في جرف أخضر، مرتفعًا فوق قمة هذا الجبل النبيل ولطف الوادي، بدا لي هذا الدير كأنه المكان الأروع ليكون الملاذ الأخير لتأملات إنسان.

قلت لنفسي، هنا من الممكن لروح نقية أن تعطي سمواً دينياً يضاهي مكانة الإنسان؛ وتصنع هذا التوازن بين قمة الجبل شديدة الانحدار ووادي الشهوات البشرية، كل ما يلزم هنا، أن تسمو روح الإنسان دون أن تخسر لطف الإنسانية؛ فهذا المكان لا يصنع أبطالاً ولا خنازير؛ بل يصنع الإنسان المثالي.

هذا مكان يصلح أن يكون معبدًا في اليونان القديمة أو مسجداً إسلامياً؛ فالرب هنا سيهبط بطبيعة إنسانية، سيتمشى حافي القدمين فوق الأعشاب الربيعية ويتحاور بهدوء مع البشر.

- دمدمت، يا للروعة، يا للمعجزة، يا لجمال العزلة هنا، يا للسعادة!

نزلنا من على دابتينا، عبرنا البوابة الرئيسية الموصدة، صعدنا إلى غرفة الزوار؛ حيث قُدمت لنا وجبة بها عرق وحلوى الفاكهة وقهوة؛ وجاء كبير المضيفيين لمقابلتنا ومعه رهبان فأحاطوا بنا، بدأ الحديث. عيون ماكرة، شفاه شهوانية، لحى، شوارب، ورائحة عرق شبقي

- سألنا الراهب كبير المضيفين؛ لم تحضروا معكم أي جريدة.

- جريدة؟ قلت مندهشاً؛ وماذا تريدون أن تفعلوا بالجريدة هنا؟

- جريدة يا أخي، لنرى ما يحدث في العالم! صاح اثنان أو ثلاثة من الرهبان بسخط.

بدا لي وكأنهم غربان واقفة على قضبان الشرفة يصيحون. وراحوا يتحدثون عن إنجلترا وروسيا وعن فنيزيلو[20] وعن الملك بحماس شديد. لقد أقصاهم العالم، لكنهم لم يقصوا العالم من دواخلهم. فعيونهم مليئة بالمدن والمحلات والنساء والجرائد...

قام راهب سمين مشعر وقال لي:

- لدي شيئاً أريد أن أريك إياه، أريد أن أعرف رأيك فيه، سأذهب لأحضره.

ذهب وهو يضع يديه القصيرتين على بطنه، يزحف في حذائه الصوفي ثم توارى خلف الباب.

ضحك الرهبان في شماتة.

- إن الأب ذومايتيس، قال كبير المضيفين، سيحضر الراهبة الفخارية. لقد أعطاها له الشيطان، ذات يوم كان ذومايتيس يحرث الحديقة ووجدها فوضعها في حجرته، و منذها والراهب المبارك لم يغمض له جفن. وهو الآن على وشك أن يفقد صوابه.

---

[20] فنيزيلو: اليفثريوس فنيزيلوس أحد أهم السياسيين اليونانيين المؤثرين في تاريخ اليونان الحديث.

نهض زوربا واقفًا؛ فقد بدأ يمل ويختنق ثم قال:

- لقد جئنا إلى هنا لنقابل رئيس الدير من أجل أن نوقع بعض الأوراق....

- إن قداسة رئيس الدير ليس هنا اليوم، لقد غادر في الصباح ليذهب إلى القرية؛ تحليا بالصبر.

عاد الأب ذيوماتيس وهو يحمل شيئاً على كفيه المرفوعتن للأعلى كما لو أنه يحمل الكأس المقدسة.

- هذا هو! قال بعد أن فتح كفيه بعناية.

اقتربت؛تمثال فخاري صغير من تانغرا[21] لفتاة نصف عارية مبتسمة على كف الراهب السمينة؛ كسرت إحدى يديها وباليد الأخرى كانت تمسك رأسها.

- قال ذيوماتيس؛ إنها تشير إلى رأسها ولكي تفعل هذا، فهذا يعني أن في رأسها حجر كريم؛ أو ربما قطعة ماس أو لؤلؤة. ماذا تظن سعادتك؟

- قبل أن أتحدث؛ قفز تعليق لاذع من أحد الرهبان، هذا يعني أنها تعاني من الصداع.

لكن ذيوماتيس السمين كان ينتظر ردي وقد تدلت شفتاه كالجدي، وراح ينظر إلي بالتياع ثم قال.

- أظن أنني لابد أن أكسره لأرى. لا أستطيع النوم... ماذا لو أن في هذا الرأس لؤلؤة؟

نظرت إلى تمثال الفتاة الجميلة بنهديها الصغيرين المشدودين، منفية هنا وسط رائحة البخور والآلهة المصلوبة التي تلعن الجسد والسعادة والقبلات.

قلت لنفسي؛ لو أستطيع أن أخلصها!

أخذ زوربا التمثال في يده وراح يقلبه ويتفحص جسد المرأة النحيل توقف قليلاً عند حلمات النهدين النافرين ثم قال:

- لكن ألا ترى قداستك أنها هي الشيطان بعينه؟

---

[21] تانغرا: قرية يونانية يرجع تاريخها إلى العصور القديمة، وتعد موقعاً أثرياً هاماً.

ها هو، هو بعينه الملعون. لا عليك، فأنا أعرفه جيداً هذا الملعون؛ انظر إلى نهديها يا أب ذيوماتيس، مستديران مشدودان، صلبان ورطبان؛ هذا هو يا راهبي الفاضل صدر الشيطان!

دخل من الباب راهب جميل؛ أضاءت الشمس شعره الذهبي ووجهه المستدير ذي اللحية الخفيفة.

غمز الراهب الشاحب لكبير المضيفين وابتسما بخبث.

- يا أب ذيوماتيس؛ لقد جاء تابعك جبريل.

أخذ الراهب التمثال الفخاري في كفه بسرعة وذهب يتدحرج مثل البرميل نحو الباب؛ ذهب إلى الراهب الصغير بصمت وغابا في البهو العميق المتهالك.

أومأت لزوربا وخرجنا للفناء. كانت حرارة الجو لطيفة، وشجرة برتقال في منتصف الفناء قد أزهرت وفاحت رائحتها في الهواء. بجوارنا كان هناك صنبور على شكل رأس كبش قديم يضخ ماء من ينبوع ويسمع له خرير. وضعت رأسي تحته فانتعشت.

- يا إلهي، من هؤلاء الناس؛ قال زوربا باشمئزاز. ليسوا رجالاً ولا نساءً؛ هم بغال. تفووو؛ عليهم اللعنة!

وضع رأسه تحت الماء الفاتر هو الآخر، ثم ضحك وقال مرة أخرى:

- عليهم اللعنة! كل منهم لديه شيطان بداخله؛ فهذا يريد امرأة والآخر سمكاً مملحاً، والثالث يريد مالاً والأخير يريد جرائد... كم هم أغبياء! لم لا ينزلون إلى العالم ليشبعوا من متعه وتصفو عقولهم!

أشعل سيجارة وجلس على مصطبة تحت شجرة البرتقال المزهرة ثم قال:

- أنا عندما أشتهي شيئاً أتدري ماذا أفعل؟ آكل منه حتى أشبع للدرجة التي لا أطيقه ثانية فأنجو منه ولا أفكر فيه مرة أخرى. ذات مرة عندما كنت طفلاً، سأحكي لك لترى، كنت أعشق فاكهة الكرز. لم يكن لدي مال، كنت أشتري القليل منه، وكلما أكلتها اشتهيتها أكثر... وذات ليلة رمتني شهيتي على الكرز وراح لعابي يسيل، كنت أتعذب! إلى أن غضبت في يوم وخجلت من نفسي، لا أدري، لكني شعرت أن هذه الفاكهة تتحكم بي

وتفقدني صوابي. حسناً فاتخذت هذا القرار، نهضت في الليل من فراشي ورحت أفتش في جيوب أبي، وجدت عملة فضية كبيرة، سرقتها. وفي الصباح الباكر استيقظت وذهبت إلى البستان واشتريت سلة من الكرز. جلست في خندق وبدأت آكلها. ظللت آكل حتى انتفخت معدتي، وبدأ يؤلمني، فتقيأت. نعم تقيأت يا سيدي، ويومها نجوت من الكرز؛ ولا أستطيع الآن أن أراه. صرت إنساناً حراً. كنت أرى الكرز بعدها وأقول: لم أعد أحتاج إليك! نفس الشيء فعلت مع النبيذ ومع السجائر. ما زلت أشرب النبيذ وأدخن السجائر؛ لكن في اللحظة التي أريد! أستطيع أن أمتنع عنهما في لحظة، هكذا. أنا لا تحكمني الشهوة. نفس الشيء مع الوطن، تقيأت ذات يوم، ونجوت.

- وماذا عن النساء؟ سألته ضاحكاً.

- سيأتي دورهن، عليهن اللعنة، سيأتي! لكن حينها سأكون قد بلغت السبعين من عمري.

فكر للحظة، فبدت له المدة المتبقية قليلة؛ فتابع مصححاً:

- الثمانين من عمري. لا ينبغي أن تضحك يا سيدي! فهكذا يتحرر المرء، اسمعني، هكذا يتحرر - إما أن تصاب بالتخمة أو أن تصير راهباً. كيف تتحرر من الشيطان إذا لم تصبح شيطاناً مثله؟

ظهر ذيوماتيس في الفناء وهو يلهث والراهب الصغير الأشقر يتبعه.

- مثل ملاك غاضب... دمدم زوربا معجباً بخجله وشبابه.

اقتربوا من السلم الحجري الذي يؤدي إلى الغرف العليا؛ التفت ذيوماتيس ونظر إلى الراهب الصغير، يبدو بأنه قد قال له شيئاً فأشاح برأسه نحو السماء كأنه ينفي أمراً ما. لكن الراهب الصغير سرعان ما خفض رأسه في طاعة. احتضن العجوز من خصره وصعدا درجات السلم.

- أتفهم ما حدث، قال لي زوربا؛ كوارث ومصائب تحدث هنا يا سيدي!

ظهر راهبان وغمز كل منهما للآخر بخبث ثم همسا ضاحكين.

- يا له من شيء بغيض. قال زوربا، الغراب لا يفقأ عين الغراب؛ لكن يبدو أن الراهب يفقأ عين الراهب. فقط من أجل ممارسة مكرهن وخبثهن.

- ثم استدركت ضاحكاً ومصححاً؛ مكرهم وخبثهم.
- ليس هناك فرق يا سيدي، لا تشغل بالك! كلهم وكلهن بغال؛ نعم كما أقول لك. فتستطيع أن تناديهم حسب مزاجك، جبريل أو جبريلة؛ ذيوماتيس أو ذيوماتا.

دعنا نرحل من هنا؛ نوقع أوراقنا يا سيدي ونرحل من هنا بأقصى سرعة؛ فهنا يا سيدي من الممكن أن تقرف نفسك من النساء والرجال.
ثم قال بصوت متبسم:
- لدي خطة...
- ستكون فكرة مجنونة مثلك يا زوربا... هيا قل!
- ماذا أقول لك معذرة يا سيدي! فأنت شخص لطيف. شديد الحرص وتفعل ما في مقدورك لتسعد الآخرين. فأنت إذا وجدت برغوثاً في لحافك في الشتاء، ستغطيه جيداً حتى لا يبرد. كيف يمكنك أن تفهم متشرداً مثلي! فأنا إذا رأيت برغوثا سأسحقه؛ وإذا وجدت خروفاً سآخذه دون تردد وأذبحه وأشويه ثم أدعو أصدقائي لنأكله. لكنك ستقول لي: الخروف ليس لنا؛ وأنت على حق. لكن دعك من هذا يا أخي، لنأكل الخروف ثم بعدها نتحدث بهدوء عن لمن تعود أحقية الخروف وأنا أنظف أسناني بعود الثقاب.
صدى ضحكه ملأ أرجاء الدير. فظهر زكريا واضعاً سبابته على فمه واقترب على أطراف أصابعه وقال:
- ششش، صمتًا؛ لا تضحكا! فهناك، وأشار إلى نافذة عالية، يجلس الأسقف خلف هذه النافذة العالية في المكتبة يكتب ويكتب طوال اليوم.
- لم أكن أريد غيرك في هذه اللحظة يا أب يوسف! قال زوربا وأمسك الراهب من ذراعه وقال له، هيا بنا إلى غرفتك لنتحاور.
ثم التفت نحوي:
- اذهب أنت في نفس الوقت لتتفحص الكنيسة والأيقونات القديمة. أنا سأنتظر رئيس الدير إلى أن يأتي. لا تتدخل أنت في الأمر وتفسده! دعني أنا أتفاوض؛ فلدي خطة.

انحنى زوربا وهمس في أذني:

- سنأخذ الغابة بنصف الثمن... لا تقل كلمة!

ثم غادر وهو يمسك بذراع الكاهن نصف المخبول.

تخطيت عتبة الكنيسة ودخلت في الغرفة الداخلية حيث الجو الرطب والرائحة الزكية.

المكان تقريباً مهجور، نور القناديل الفضية باهت، كان هناك أيقونه كبيرة مزخرفة بالنقوش تحتل كل الحائط في العمق، عبارة عن عريشة مذهبة مليئة بعناقيد العنب، كل الجدران كانت مكسوة بالأيقونات القديمة المهملة: نساك لهم أشكال موحشة، آباء الكنيسة، تصوير لآلام المسيح، ملائكة بشعر مجعد وملفوف بشرائط.

على الدعامة العلوية، كانت أيقونة للعذراء بيدين ممدودتين باستعطاف.. قنديل ثقيل مشتعل أمامها وضوؤه المرتعش يسقط بنعومة على وجهها الطويل المعذب. لن أنسى أبداً نظرة عينيها المتألمة ولا فمها الصغير، وذقنها القوية الصارمة. قلت: ها هو الرضى التام، حتى وهي في أشد حالات ألمها، هي أم سعيدة؛ لأنها تشعر أنها وجدت في المخلوق الذي يخرج من أحشائها شيئاً خالداً...

عندما خرجت من الكنيسة، كانت الشمس تغرب. جلست على المصطبة تحت شجرة البرتقال سعيداً؛ قبة الكنيسة أخذت اللون الوردي وكأن الفجر بزغ؛ الرهبان انسحبوا إلى غرفهم ليستريحوا قليلاً فهم يسهرون الليل في الصلوات ولابد أن يستجمعوا قواهم؛ فاليوم ذكرى صعود المسيح نحو السماء ولابد لهم من مرافقته. خنزيرتان سوداوان بأثداء وردية نائمتان تحت شجرة خروب؛ اليمام الآن على الأسطح يمارس الحب. رحت أفكر: إلى متى سأعيش أسعد بهذه الأرض الطيبة والهواء، بالصمت ورائحة أزهار البرتقال؟ أيقونة القديس باخوس في الكنيسة جعلت قلبي يفيض نشوة وسعادة. إن ما يهز أعماقي هو: التوحد واستمرار المحاولة وقوة الرغبة، كل هذه الأشياء تجلت أمامي؛ شكراً لهذه الايقونة الصغيرة لهذا القديس المسيحي بشعره المجعد الذي يتدلى على جبهته مثل عناقيد العنب الأسود. الإله الإغريقي ذيونيسوس والقديس باخوس امتزجا فيه وكأن لهما نفس الوجه؛ تحت أشجار العنب بعباءة القس يدور بجسده الملفوح بالشمس اليونانية.

ظهر زوربا في الفناء.

- جاء رئيس الدير، قال لي على عجل، لقد تحدثنا قليلاً. إنه يطلب أكثر مما يستحق، الأمر يحتاج شيئاً من المداهنة والتملق. لكني سأنجح في مهمتي.

- ماذا يحدث؟ لقد اتفقنا على شيء؟

- لا تخلط الأمور يا سيدي، أوف! قال زوربا متوسلاً.

إنك ستفسد الأمر. ها أنت تتحدث الآن عن اتفاق قديم؛ لقد انتهى هذا الاتفاق! لا تقطب حاجبيك، انتهى أقول لك! سنأخذ هذه الغابة بنصف الثمن.

- لكن ما الذي تخطط له يا زوربا؟

- هذا ليس شأنك؛ سأضع زيتًا في العجلة حتى تلين وتسير - أفهمت؟

- لكن لماذا؟ أنا لا أفهم.

- لأنني أنفقت مالاً كثيراً في المدينة، هكذا! لأنه ليس صحيحاً أن تأكل لولا أموالك؛ هذا غير صحيح، أتظنني قد نسيت؟ ماذا تظن يا سيدي؟ أنا رجل شريف. لا أطيق ثقل ذبابة على سيفي. لقد بددت مالاً وعلي أن أعيده؛ لقد قمت بحساباتي؛ أنفقت سبعة آلاف على لولا؛ سأستقطع هذا المبلغ من ثمن الغابة. وسيدفع نفقات لولا، رئيس الدير، الكنيسة، العذراء. هذه هي الخطة - هل تعجبك؟

- على الإطلاق. وما ذنب العذراء، وكيف تكون مسؤولة لتدفع ثمن طيشك؟

- هي مسؤولة، ومسؤولة جداً بالطبع. هي التي أنجبت ابنها، الإله؛ وهذا الإله خلقني أنا ومنحني عدتي التي تعرفها؛ وهذه العدة والأدوات الملعونة تجعلني كلما رأيت أنثى يصيبني الدوار وأفقد صوابي وأفتح كيس نقودي. أفهمت الآن؟ ذنبها هي بالطبع، وقداستها مسؤولة مسؤولية تامة؛ عليها أن تدفع!

- لا يعجبني هذا يا زوربا؟

- هذا هو أمر آخر يا سيدي. دعنا نوفر السبعة آلاف دراخمة ثم نتناقش بعدها. «افعل ما أطلبه منك، - وبعدها سأصبح عمتك إن شئت» كما تقول الأغنية، أ تعرفها؟

ظهر كبير المضيفين السمين، وقال بصوت كنسي معسول:

- هيا، تفضلا، العشاء جاهز.

نزلنا إلى غرفة المائدة، طاولة طويلة وضيقة. رائحة زيت زنخ تفوح في المكان. في العمق كانت أيقونة باهتة للعشاء الأخير. الأحد عشر حواريًّا حول المسيح، وفي الجانب الآخر يقف يهوذا الحقير وحيداً بلحيته الحمراء؛ والمسيح ينظر إليه وحده.

جلس كبير المضيفين؛ جلست أنا على يمينه و زوربا على يساره.

- إننا صائمون، قال، لهذا فاعذرونا؛ لا زيت ولا نبيذ حتى للضيوف. على كل حال مرحباً بكما! أرجو لكما شهية طيبة.

رسمنا شارة الصليب على صدورنا، ورحنا نتاول الطعام، زيتونًا وبصلاً أخضر، بيض السمك المهروس، فولاً أخضر. ورحنا نمضغ نحن الثلاثة ببطء دون شهية.

- هذه هي الحياة الأرضية، قال كبير المضيفين؛ صيام. لكن إذا صبرنا، تأتي القيامة بلحم الغنم؛ تأتي لنا مملكة السماء.

سعل زوربا وداس على قدمي، كما لو أراد أن يقول لي بتهكم، ويحك يا رجل ماذا تقول!!

- رأيت الكاهن زكريا... قال زوربا ليغير الموضوع.

قال كبير المضيفين سائلاً بقلق:

- ماذا قال لكم هذا الممسوس؟ لقد سكنته ست أرواح شريرة، لا تستمعوا إليه! إنه روح قذرة لا ترى سوى القذارة.

دق جرس صلوات اليقظة للرهبان على نحو حزين. رسم كبير المضيفين شارة الصليب على صدره ثم نهض واقفاً.

- قال: أنا سأذهب. لقد بدأت آلام المسيح؛ هيا لنصلب معه. لكن الليلة بإمكانكم أن تستريحوا، فأنتما متعبان من السفر؛ لكن غداً سنكون معاً لصلوات اليقظة والقيام....

- دمدم زوربا وهو يكز أسنانه فور أن غادر الرهبان، محتالون! كذابون، بغال، بشر بغال خنازير!

- ماذا بك يا زوربا؟ هل قال لك زكريا شيئًا؟

- دعك من هذا يا سيدي، فليذهبوا جميعاً إلى الجحيم، لكنهم سيوقعون لا محالة!

ذهبنا إلى الغرفة التي أعدوها لنا؛ في أحد أركانها كانت هناك أيقونه: العذراء تضع خدها على خد ابنها؛ وعيناها الواسعتان مليئتان بالدموع.

هز زوربا رأسه:

- أتدري يا سيدي لماذا تبكي؟

- لا.

- لأنها ترى؛ لو كنت أنا رسام أيقونات لرسمت العذراء بلا عيون، بلا آذان، بلا أنف؛ لأنني سأكون آسفا عليها.

تمددنا على الفرش الصلبة. كانت رائحة الأعمدة مثل أشجار السرو، ومن النافذة المفتوحة كان الهواء يدخل محملاً بروائح الربيع. وبين الحين والحين كانت تسمع من الفناء أصوات هبوب الريح وبعض الأصوات الحزينة؛ صوت عندليب خارج النافذة يغني، ثم على مقربة منه عندليب آخر وآخر؛ كانت الليلة تفيض بالحب.

لم أستطع النوم؛ كان صوت العندليب يمتزج بحزن المسيح وكنت أصارع بين رائحة أزهار البرتقال ورحلة عذابات المسيح. مستدلاً ببقع الدم. في هذه الليلة الزرقاء الصافية حبات العرق البارد كانت تغطي جسد المسيح، ويده، كيف كانت يداه ممدودتين ترتعشان كأنه يستعطف أو يتسول... أهل بلدته الذين كانوا يهرولون خلفه يهتفون له بالمجد والخلود ويلوحون له بالسعف ويفترشون ملابسهم تحت أقدامه ليدوس عليها. كان ينظر إليهم بحب، لكن أحداً لم يكن يعرف: هو فقط الذي كان يعرف أنه ذاهب لموته. تحت النجوم، يبكي بصمت، كان يواسي الناس وقلبه كان يرتعش: «ومثل القمح يا قلبي لابد أن تنزل إلى الأرض لتموت. لا ترتعش. وإلا كيف ستصبح سنبلةً أيها القلب، وكيف ستطعم البشر الذين يتضورون جوعاً؟»

لكن في جوفه كان هناك قلب بشري يرتعش ويرتعش ولا يريد الموت...

شيئاً فشيئاً، صارت الغابة التي تحيط بالدير تصدح بالعنادل. كانت الأغاني تصعد على أوراق الشجر الرطبة، كلها حب ومشاعر دافئة؛ كانوا يغنون معه ويبكون ومعهم قلب البشرية يبكي وينتفخ ويفيض بالحزن.

وهكذا مع آلام المسيح وغناء العنادل دخلت في النوم، كما تدخل الروح إلى الجنة.

لم تمض ساعة على نومي حتى استيقظت مذعوراً:

- صاح زوربا، هل سمعت؟ طلقة من مسدس!

لكن زوربا كان جالساً على الفراش يدخن.

- لاتقلق يا سيدي، قال وهو يحاول كتم غيظه؛ دعهم يقتلوا بعضهم البعض.

سمعنا صوت جلبة في الممر، صوت أحذية صوفية ثقيلة تزحف على الأرضية، صوت أبواب تتصدع، صوت شخص يئن من بعيد وكأنه مصاب.

قفزت من على فراشي وفتحت الباب. عجوز نحيل قفز أمامي وكان يرتدي قلنسوة مدببة وقميصًا أبيض يصل حد ركبتيه.

- من أنت؟

- الأسقف... أجاب بصوت مرتعش.

كنت على وشك أن أنفجر في الضحك؛ أين حلة قداسته الذهبية والقبعة والصليب الكبير والمجوهرات والأحجار الكريمة متعددة الألوان. لأول مرة في حياتي أرى أسقفاً برداء النوم.

- ما صوت إطلاق الرصاص هذا؟

- لا أدري... لا أدري... دمدم ثم دفعني إلى الخلف.

كان زوربا على فراشه يضحك:

- هل أصابتك الرهبة يا أبانا؟ هيا ادخل أيها المسكين. لسنا رهباناً، لا تخف.

- قلت بصوت خافت، لا تتحدث هكذا يا زوربا؛ إنه الأسقف!

- يا عزيزي برداء النوم ليس هناك أسقف، هيا، ادخل إلى الغرفة أقول لك!

نزل زوربا، أخذه من ذراعه، وسحبه للداخل ثم أغلق الباب. أخرج من حقيبته قنينة عرق، ملأ كأساً.

- أشرب يا أبانا، قال له، كي يقوى قلبك.

شرب الرجل العجوز كأس العرق، واستعاد وعيه. جلس على الفراش واتكأ على الحائط.

- قلت: أيها الأب الموقر، ما صوت إطلاق الرصاص هذا؟

- لا أدري يا بني، لا أدري، فأنا كنت أعمل حتى منتصف الليل ثم استغرقت في النوم إلى أن سمعت صوت إطلاق الرصاص بجوار حجرة ذيوماتيس...

- آه، آه، قال زوربا؛ لقد كان زكريا على حق!

أطرق الأسقف برأسه:

- ربما كان لصاً... دمدم.

الجلبة في الممر كانت قد هدأت، وغاص الدير في الصمت مرة أخرى. نظر إلي الأسقف بعينيه الطيبتين الخائفتين بتوسل:

- هل أنت نعسان يا بني؟ سألني.

- أحسست أنه لم تكن لديه رغبة البقاء وحده في الغرفة؛ كان خائفاً.

- أجبته، لا، لا أشعر بالنعاس؛ ابق هنا قليلاً.

بدأنا نتحدث؛ كان زوربا متكئاً على وسادته ويدخن.

- يبدو لي أنك شاب مثقف ومتعلم، قال لي الأسقف؛ حمداً للرب. فأنا هنا لا أجد بشراً أتحدث معهم. لدي ثلاث نظريات تخفف عني الحياة؛ أود أن أطلعك عليها.

لم ينتظر ردي وتابع حديثه:

- أول نظرية هي: أن الشكل الذي تكون عليه الزهرة يؤثر على ألوانها؛ وألوان الزهور تؤثر على خصائصها؛ وهكذا كل زهرة لها تأثير مختلف على الجسد، وبالتالي على الروح. لهذا لابد أن نحترس جميعاً عندما نسير في حقل مزهر.

صمت، كأنه ينتظر رأيي. خيل إلي أنني أرى الأسقف يسير في حقل مزهر وينظر إلى الأرض، وبقشعريرة خفية راح يبحث في أشكال الزهور وألوانها - ويرتعش: كل البستان في الربيع يمتلئ بالأرواح...

- وهذه هي النظرية الثانية: كل فكرة لها تأثير حقيقي لها أيضاً وجود حقيقي. هي موجودة بالفعل، لا تحوم في الهواء كشبح هلامي بلا جسد؛ بل لها جسد حقيقي، عينان، فم،

أقدام، بطن...هي رجل أو امرأة؛ تطارد الرجال أو النساء.. ولهذا يقول الإنجيل: «تجسدت الكلمة...»

نظر إلي مرة أخرى بقلق.

- النظرية الثالثة، قال بتعجل، حيث إنه لم يعد يحتمل صمتي، هي كالتالي: هناك شيء من الخلود موجود في حياتنا العابرة؛ لكن من الصعب أن نجده وحدنا؛ فهمومنا اليومية تضللنا. قليل من الناس، المصطفين، لهم القدرة أن يعيشوا الخلود في هذه الحياة العابرة. بقية البشر هم ضائعون وفانون ولذلك أسف عليهم الرب فأرسل لهم الديانة.

- وهكذا؛ أصبح الناس قادرين على عيش الخلود أيضاً.

تحدث الأسقف وشعر بالارتياح. رفع جفنيه ونظر إلي مبتسماً. كأنه أراد أن يقول: «هذا هو ما لدي من حكمة، وها أنا أعطيك إياه.» شعرت بتأثر شديد أن يمنحني ثمار حياته بهذا الكرم وهو لا يكاد يعرفني.

نظر إلي كأنه يريد أن يعرف إذا ما كانت حياته ذهبت هباءً.

كان يرتعش، لكني كنت أعرف أن فوق الحقيقة هناك واجب للإنسانية أكبر وأهم بكثير.

- أجبته، إن هذه النظريات يا أبانا يمكن أن تنقذ أرواحاً كثيرة.

أشرق وجه الأسقف؛ وكأن هذا قد برر حياته كلها.

- همس وهو يربت على يدي بمودة، أشكرك يا بني.

قفز زوربا حينها من ركنه وقال:

- معذرة؛ فأنا لدي نظرية هائلة.

التفت نحوه الأسقف ونظر إليه بقلق وقال: قل يا بني وليبارك الله في نظريتك، ما هي؟

- قال زوربا بجدية: جمع اثنين واثنين هو أربعة!

نظر إليه الأسقف مندهشاً.

- ثم تابع زوربا، ونظرية خامسة يا أبانا: أن؛ مجموع اثنين واثنين ليس أربعة؛ خذ وقتك واختر ما تشاء!

- دمدم الأسقف وهو ينظر إلي كمن يطلب مساعدة... إني لا أفهم...

- ولا أنا! قال زوربا وهو يرفع صوته بالضحك.

التفت إلي الأسقف المندهش، وغيرت الموضوع:

- ما هي الأبحاث التي تقوم بها هنا في الدير؟

- أنا أنسخ مخطوطات الدير القديمة يا بني؛ وهذه الأيام أنسخ كل الألقاب التي منحتها كنيستنا للعذراء.

ثم تنهد قائلاً.

- لقد شخت، لم تعد لدي القدرة على فعل شيء. لكن أرتاح عندما أنسخ ألقاب العذراء فهذا ينسيني بؤس هذا العالم.

اتكأ على الوسادة وراح يدمدم كأنه يهذي:

- «وردة الذبول، أرض خيرة، شجرة كروم، ينبوع، نهر، صنبور يصب المعجزات، درجات السماء، جسر، فرقاطة، ميناء، مفتاح الجنة، فجر، شمعة مضيئة، برق، عمود ناري، قائد بطل، قلعة حصينة، جدار منيع، سقف، ملاذ، عزاء، سعادة، عصا الأعمى، أم الأيتام، طاولة، طعام، سلام، صفاء، عبق، وليمة، عسل وحليب....»

- قال زوربا... إن المسكين يهذي؛ دعنا ندثره حتى لا يصيبه البرد....

نزل من على السرير، عدل من وضع الوسادة تحته وألقى عليه بطانية.

- لقد سمعت أن هناك سبعةً وسبعين نوعاً من الجنون، لكن يبدو أن هذا النوع هو الثامن والسبعون.

بدأ نور الصباح يشرق. سمعنا صوت قرع من الفناء. أطللت من النافذة ورأيت راهباً نحيفاً يرتدي غطاء رأس أسود ويحرك أداة ما في الفناء ويقرعها بمطرقة خشبية. كان يصدر صوتاً ونغماً حلواً راح يفيض في هواء الصباح. صمتت عنادل الليل وراحت عصافير الصباح ترفرف وتغني فوق الأشجار.

وأنا مطلاً من النافذة فتنت بالألحان الجميلة لتلك الآلة الخشبية ورحت أفكر كيف أن إيقاع الحياة السامي هذا يمكن أن ينحط، ويحتفظ فقط بشكل الحياة الخارجي

مليئاً بالنبل الخارجي فقط. إن الروح ترحل لكنها تترك مكانها التي ظلت تبنيه بتفاصيله في قوقعة الزمان.

قواقع فارغة كهذه، رحت أفكر، هي تلك الكاتدرائيات الرائعة في المدن الملحدة؛ وحوش ما قبل التاريخ قد انقرضت وبقيت هياكلها متآكلة على الصخور ومن حرارة الشمس.

طرق أحدهم باب غرفتنا؛ سمع صوت كبير الضيافة الغليظ:

- انهضوا لصلاة القيامة يا أخوة!

نهض زوربا بعصبية:

- ماذا كان صوت إطلاق الرصاص؟

انتظر قليلاً؛ اصمت. لابد أن الراهب ما زال واقفًا أمام الباب فلم نسمع صوت خطواته يرحل. اشتعل زوربا غيظاً:

- ماذا كان صوت إطلاق الرصاص أيها الراهب؟ صرخ زوربا.

سمعنا خطوات الراهب يخطو مسرعاً ليبتعد. لكن بقفزة واحدة كان زوربا عند الباب وفتحه:

- تفووو، أيها المهرجون! قال وبصق نحو الراهب الذي غادر. قساوسة ورهبان وراهبات وشماسون أبصق عليكم جميعاً.

- دعنا نرحل من هنا؛ فأنا أشم رائحة دم.

- لو كانت رائحة دم فقط! قال زوربا مدمدمًا. اذهب أنت يا سيدي إلى الصلاة إذا كانت لديك رغبة؛ أما أنا فسأبحث لأعرف.

- قلت؛ دعنا نرحل، من فضلك لا تحشر أنفك في ما لا يعنيك.

- على العكس تماماً يا سيدي، لأن هذا يعنينا أريد أن أحشر أنفي، قال بعد أن فكر وابتسم بمكر؛ قائلاً:

- إن الشيطان يسدي لنا معروفاً كبيراً! أظن أنه يجلب لنا الأمور يا سيدي، كم يمكن أن تكلف الدير هذه الرصاصة؟ سبعة آلاف دراخمة!

نزلنا إلى الفناء. روائح الأشجار المزهرة كانت تعبق المكان؛ كان زكريا ينتظرنا، هرول وأمسك بزوربا من ذراعه.

- يا أخ كانافارو، دمدم وهو يرتعش، هيا نرحل من هنا!

- ماذا كان إطلاق الرصاص؟ هل قتل أحد؟ تكلم أيها الراهب وإلا خنقتك!

كان فك الراهب السفلي يرتعش. نظر حوله؛ كان الفناء خاوياً، الغرف مغلقة، كانت الأنغام تفيض كالموجات من داخل الكنيسة.

- قال زكريا؛ اتبعاني... كوارث ومصائب!

سرنا بجوار الجدار، عبرنا الفناء، خرجنا خارج الحديقة.

على مبعدة من الدير كانت هناك مقبرة؛ دخلنا فيها.

وطأنا القبور، دفع زكريا باب الكنيسة الصغير ودخلنا وراءه. في المنتصف فوق حصيرة كان هناك جسد مسجى وملفوف بعباءة راهب.

كانت هناك شمعة موقدة عند رأسه وأخرى عند قدميه.

انحنيت فوق الجثمان؛ رفعت الغطاء من على الوجه.

- إنه الراهب الصغير! قلت مرتعشاً؛ إنه الصغير الأشقر صاحب ذيوماتيوس!

على باب المصلى، كانت أجنحة الملاك ميخائيل تتلألأ وهو واقف يحمل سيفه.

- صاح الراهب؛ أيها الملاك ميخائيل! أحرقهم جميعاً، افعل شيئاً، اترك أيقونتك ومزقهم بسيفك؛ ألم تسمع صوت الرصاص.

- من قتله؟ من؟ ذيوماتيس؟ تكلم يا لحية العنزة!

تخلص الراهب من يد زوربا وسقط عند أقدام الملاك ميخائيل؛ مكث بعض الوقت خافضًا رأسه، وفمه مفتوح كأنه يتصنت على شيء.

وفجأة هب واقفاً بسعادة.

- سأحرقهم! قال بحزم؛ لقد هز الملاك لي رأسه بالموافقة.

رسم شارة الصليب على صدره.

- حمداً للرب، قال مرتاحاً!

أمسك زوربا بالراهب من كتفيه.

- تعال إلى هنا يا يوسف، هيا بنا، وستفعل ما أقوله لك.

التفت نحوي:

- أعطني المال يا سيدي؛ سأوقع أنا على الأوراق. هذا مكان مليء بالثعالب واعذرني فأنت كالخروف البريء، سيأكلونك؛ دعني أتعامل معهم ولا تشغل نفسك أنت، فأنا أمسك بخصاهم في يدي؛ عند الظهيرة سنرحل من هنا والغابة في جيبنا، هيا بنا يا زكريا!

تسللا نحو الدير كل منهما؛ أما أنا فرحت نحو أشجار الصنوبر.

تعامدت الشمس وأنارت السماء والأرض، كان الندى يرتعش على الأوراق. طار شحرور أمامي وجلس على شجرة كمثرى برية، راح يهز ذيله، فتح منقاره ونظر إلي وغرد ثلاث مرات بمرح.

من بين أشجار الصنوبر كنت أرى فناء الدير والرهبان يخرجون من الكنيسة مطرقي الرؤوس؛ فيما أغطية رؤوسهم مرخية على أكتافهم. انتهت الصلوات وكانوا ذاهبين باتجاه غرفة الطعام.

«يا للحسرة، رحت أفكر، كل هذا التقشف والنبل كيف يكون بلا روح!»

كنت مرهقاً، فلم أنم ليلة أمس. تمددت على العشب. كانت رائحة البنفسج البري والمريمية تهب مع الهواء؛ والحشرات تطن جائعة، فراحت تخرق الزهور لتمتصّ عسلها.الجبال هناك كانت تتلألأ مشرقة شفافة، زرقاء، كانت تشبه دخانًا يحوم تحت لهيب الشمس الحارقة...

أغمضت عيني هادئاً. فتملكتني فرحة أثيرية - وكأن تلك الخضرة التي تحيط بي هي الجنة، وكأن هذه النداوة هي الرب، وهذا السرور في الشعور بأن الرب يتخفى خلف كل هذه الأقنعة. تارة يرتدي قناع كوب من الماء المثلج، تارة طفل نراقصه على أرجلنا، وأخرى امرأة فاتنة وتارة نزهة صباحية.

شيئاً فشيئاً ودون أن أشعر تحولت الأشياء إلى حلم؛ النوم واليقظة اتخذا نفس الوجه، كنت نائماً وأحلم بالواقع وأنا سعيد. الأرض والجنة اتحدتا؛ صارتا شيئاً واحداً.

بدت لي الحياة مثل وردة برية وقطرة عسل كبيرة في قلبي، وروحي مثل نحلة برية تطير في المكان.

نهضت مفزوعاً فجأة من هذا الحلم الجميل؛ سمعت خلفي صوت خطوات وحوارًا هامسًا، وصوتًا مبتهجًا يناديني!

- هيا بنا يا سيدي!

كان زوربا أمامي وفي عينيه بريق شيطاني.

- هل سنغادر؟ قلت بارتياح؛ هل انتهى كل شيء؟

- كل شيء! قال زوربا وهو يضرب على جيب سترته؛ ويقول هنا؛ الغابة هنا. مبروك يا سيدي! وها هي السبعة آلاف دراخمة التي أنفقتها على لولا! وأخرج من صدريته لفافة من الأوراق المالية.

- خذها، قال، لقد أوفيت بديني لك ولم أعد أخجل بعد اليوم. هنا الجوارب والحقائب والعطور وهدايا السيدة بوبولينا. وفستق الببغاء وحتى الحلوى التي أهديتك إياها.

- قلت، حلال عليك يا زوربا، خذها كلها، اذهب الآن وأشعل شمعة كبيرة بحجمك للعذارء التي أخطأت في حقها.

التفت زوربا خلفه؛ فظهر الراهب زكريا بعباءته القذرة التي بدأ لونها يتغير جرّاء القذارة ويتحول إلى الأزرق، وحذائه المهترئ، فأشار له زوربا بلفافة الأوراق المالية وقال:

- سنتقاسمها أنا والأب يوسف، هيا خذها واشتر مائة أوقية من السمك المقدد المملح لتأكل أيها المسكين حتى تصاب بالتخمة وتتقيأ! افتح كفك وخذ!

خطف الراهب لفافة النقود وأخفاها في صدره.

- سأشتري كيروسين... قال.

ابتسم زوربا وانحنى على أذن الراهب هامسًا:

- لابد أن يكون الوقت ليلاً وأن يكونوا نائمين؛ وتكون الرياح شديدة... سترش أركان الجدران الأربعة؛ ستبلل خرقاً أو قطع قطن كبيرة وتشعلها... فهمت؟

كان الراهب يرتعش.

- لا ترتعش أيها الراهب، ألم يعطك الملاك ميخائيل أمراً من السماء؟ كيروسين والرب المقدس! على بركة الرب!

- هل علمت أي شيء يا زوربا عن طلقة المسدس أمس؟ سألته.

- عن طلقة المسدس لا تسأل يا سيدي؛ لا تتعب نفسك، فكما يقول زكريا؛ هنا تحدث الكوارث! لقد قتل ذيوماتيس الراهب الصغير الوسيم.

- ذيوماتيس! لماذا؟

- لا تحاول أن تشغل بالك وتبحث في الأمر يا سيدي، فهي مجرد قذارة وعفن.

التف نحو الدير. كان الرهبان يتجهون نحو غرفة الطعام، وغرفهم مغلقة.

- امنحوني قوة لعناتكم أيها الآباء المقدسون! صاح زوربا.

أول من قابلناه عندما عدنا ليلاً إلى الشاطئ كانت بوبولينا التي كانت تجلس متقوقعة أمام الكوخ.

عندما أشعلنا المصباح ورأينا وجهها، فزعت.

- ما بك يا مدام أورتانس؟ هل أنت مريضة؟

منذ اللحظة التي برقت في ذهنها فكرة الزواج، تخلت الحورية العجوز عن كل مظاهر تبرجها وإظهار فتنتها. كانت تصارع كي تمحو الماضي بأسره، أن تخلع من فوقها كل أجنحة الماضي المبهرجة التي زينها بها الباشوات والقباطين...

كانت تتوق إلى أن تكون امرأة جادة، ربة بيت عادية ومحترمة. لم تعد تخشى ألا تتزين أو تتعطر، كانت تظهر على طبيعتها.

لم يتكلم زوربا؛ كان يبرم شاربيه المصبوغين حديثاً بعصبية. انحنى وأشعل الموقد ووضع عليه إبريق القهوة.

- إنك قاسي القلب! سمعنا فجأة صوت المغنية العجوز الأجش.

رفع زوربا رأسه، نظر إليها؛ ورقت عيناه. لم يكن يحتمل أن يسمع امرأة تكلمه بتوسل دون أن يرتبك أو يرق قلبه؛ كان يمكن أن يغرق في دمعة امرأة.

لم يتكلم؛ وضع البن والسكر في الإبريق وراح يقلبهما.

- لمَ لم تتزوجني حتى الآن؟ قالت الحورية العجوز. لم أعد أجرؤ أن أظهر في القرية. لقد ضاع مني شرفي! أنى أشعر بالخزي والعار! سأقتل نفسي!

كنت متعباً ومستلقيًّا على الفراش متكئاً على وسادتي وأستمتع جدًّا بهذا المشهد الكوميدي المؤثر.

اقتربت مدام أورتانس من زوربا ووضعت يداها على ركبتيه.

- لمَ لم تحضر أكاليل عرسنا؟ سألته وهي تتمزق.

شعر زوربا بيدي بوبولينا المكتنزتين ترتعشان على ركبتيه. وكأن هاتين الركبتين كانتا المكان الوحيد الآمن والصلب الذي يمكن أن تتمسك به تلك الغريقة لتنجو بحياتها.

بدأ زوربا يستفيق ويفهم ويرق قلبه.

لكنه ظل صامتاً؛ راح يصب القهوة في الفناجين الثلاثة.

- لمَ لم تحضر الأكاليل يا زوربا؟ سألته مرة أخرى بصوت مستعطف.

- لم يكن لديهم في المدينة أكاليل من نوع جيد، أجاب زوربا.

أعطى لكل منا فنجانه وتقوقع في أحد الأركان.

- لقد أرسلت إلى أثينا، تابع زوربا حديثه، لكي يرسلوا إلينا أكاليل جيدة؛ أرسلت لهم أيضاً طلباً لشموع بيضاء وحلوى الملبس بالشوكولا واللوز المحمص...

كلما استمر في الحديث راحت مخيلته تشتعل؛ وعيناه تشعان وميضاً، ومثل الشاعر في لحظة استقبال الإلهام والإبداع، كان يتأرجح في الهواء هناك حيث يمتزج الكذب والحقيقة ويصبحان شيئًا واحدًا.

جلس يستريح الآن متكوراً ويرشف قهوته بصوت عال، وأشعل سيجارته - فقد سار يومه على ما يرام ولديه عقد الغابة في جيبه، كان سعيداً. وانطلق:

- إن زواجنا يا بوبولينا لابد أن يحكي عنه العالم. لابد أن تري فستان العرس الذي طلبته لك! لهذا مكثت أياماً كثيرة في المدينة يا حبيبتي. لقد أحضرت خياطتين مشهورتين من أثينا؛ وقلت لهما: «إن المرأة التي سأتزوجها ليس لها مثيل في الشرق ولا في الغرب! كانت ملكة القوى الأربع العظمى، والآن صارت أرملة، فقد انهارت القوى العظمى، ماتت، وقبلت أن تجعلني زوجها. لذلك إذن أريد أن تصنعا لها فستان زفاف ليس له مثيل؛ مصنوع كله من الحرير واللؤلؤ، ولابد أن تزينا ذيله بالنجوم الذهبية، وعلى الصدر لابد أن تضعا على اليمين الشمس وعلى اليسار القمر! - لكن قالت الخياطتان، سيكون هذا مبهراً جداً لكن أحداً لن يستطيع النظر إليه، سيصابون بالعمى! - فليصابوا! قلت: لا يهمني، كل ما يهمني أن تكون حبيبتي سعيدة!»

كانت مدام أورتانس تنصت وهي مستندة بظهرها على الحائط. راحت تبتسم ملء وجهها السمين المتجعد، والوشاح الوردي الذي تربطه على رقبتها يكاد يتمزق.

- همست وهي تنظر إلى زوربا نظرة ذائبة... أريد أن أهمس بشيءٍ في أذنك.

غمز لي زوربا بعينه وانحنى نحوها.

- همست العروس في أذن زوربا المشعرة وكادت تخرقها بلسانها، لقد أحضرت لك شيئاً الليلة.

أخرجت من صدرها منديلاً معقوداً وأعطته لزوربا.

امسك زوربا المنديل بين أصابعه وألقاه على ركبته اليمنى ثم التفت للخارج وراح ينظر للبحر.

- ألن تفك العقدة يا زوربا؟ قالت. لا يبدو أنك متعجل على الأطلاق؟

- أجاب، دعيني أشرب قهوتي أولاً، وأدخن سيجارة، فأنا أعرف ماذا فيه على أيه حال.

- قالت الحورية متوسلة... فك العقدة، فك العقدة.

- ألم أقل سأدخن سيجارتي أولاً!

نظر لها زوربا بإحتقار وقال، كما لو لم أقل شيئاً: «هذا ذنبك»

راح يدخن على مهل وينفث الدخان من أنفه وينظر إلى البحر.

- غداً ستهب رياح شرقية، قال، لقد تغير الطقس. ستنتفخ الأشجار ولن تتسع قمصان البنات لنهودهن... الربيع المحتال من بدع الشيطان!

صمت قليلاً ثم قال:

- كل ما هو جميل في هذه الدنيا هو من صنع الشيطان. المرأة الجميلة، الربيع، النبيذ، كل هذه الأشياء من صنع الشيطان؛ أما الرب فصنع الرهبان والصيام وشراب المريمية والنساء القبيحات، تفوو؛ عليهم اللعنة!

قال هذا وألقى نظرة وحشية على المدام البائسة التي انكمشت في ركنها تنصت لما يقوله.

- زوربا... زوربا.... كانت تقول متوسلة بين الحين والآخر.

لكن زوربا أشعل سيجارة أخرى وراح ينظر جهة البحر.

- في الربيع يسود حكم الشيطان؛ ترخى الأحزمة وتفتح أزرار القمصان، تتنهد النساء العجائز...

أبعدي يديك يا سيدة بوبولينا!

- زوربا... زوربا... راحت تتوسل مجدداً وانحنت، أخذت المنديل وحشرته في كفه المفتوح ونظرت إليه.

- قال لها زوربا بقرف، ماهذا يا سيدة بوبولينا؟

- خاتمان... خاتمان يا حبيبي... خاتما الخطوبة...

همهمت الحورية العجوز وهي ترتعش. إن وصيفنا في الزواج هنا، والليلة جميلة والجو بديع، والرب يشاهدنا، هيا اخطبني يا زوربا!

راح زوربا ينظرُ إلي تارة، وإلى مدام أورتانس أخرى، ثم إلى الخاتمين تارة ثالثة. إن شياطين كثيرة تتصارع في داخله الآن ولم ينتصر أحد منهم بعد؛ كانت المرأة البائسة ترنو إليه برعب.

- راحت تناديه بصوت أشبه بالخرير، زوربا... زوربا يا حبيبي...

استويت على سريري ورحت أراقب وانتظر؛ ترى أي الدروب سيسلك زوربا؟

فجأة هز رأسه، لقد اتخذ قراراً، أشرق وجهه؛ ضرب كفيه، هب واقفاً.

- هيا بنا نخرج! صاح زوربا؛ هيا بنا تحت النجوم ليرانا الرب يا وصيفي، خذ أنت الخاتمين؛ أتستطيع أن تنشد؟

- أجبت، لا، لكني كنت قد قفزت من على الفراش ورحت أساعد المدام لتنهض.

- لقد نسيت أن أخبرك، لقد عملت منشداً في جوقة الكنيسة وكنت أتبعها في مراسم الزواج والتعميد والجنازات، حفظت كل أناشيدهم عن ظهر قلب. تعالي يا بوبولينتي، تعالي يا بطتي، تحركي، هيا يا فرقاطة الأسطول، قفي على يميني!

من كل شياطين زوربا، انتصر هذه الليلة أيضاً الشيطان الطيب اللعوب. لقد أسف لحال المغنية، أوجعت قلبه عندما رأى عينيها وقد اغرورقتا وتعلقتا عليه بهلع.

«دمدم وهو يأخذ القرار؛ إلى الجحيم؛ إذا كان يمكنني أن أهدي فرحة لأنثى من بنات حواء، فلمَ لا؛ هيا بنا!»

أسرع نحو الشاطئ، وأخذ المدام في يده، أعطاني الخاتمين، التفت نحو البحر وراح ينشد:

«تبارك الرب إله العالم الأبدي، آمين!»

التفت نحوي:

- انتبه يا سيدي...

- ليس هناك سيدي الليلة، قلت؛ قل لي يا وصيف.

- انتبه يا وصيفي إذن عندما أصيح:

«بسرعة ضع الخاتمين».

قال وبدأ مجدداً بصوته الناشز ينعق وينشد: «لعبد الرب أليكسيس وأمة الرب أورتانس، يخطب كل منهما الآخر، نطلب منك الرحمة والمباركة يا إلهنا!»

- يا رب الرحمة! يا رب الرحمة! رحت أردد وأنا اقاوم الضحك والبكاء بصعوبة بالغة.

- لا تزال هناك أشياء كثيرة، قال زوربا، لكن ليأخذني الشيطان إن كنت أذكرها! لنذهب إلى لب الموضوع:

- هيا! أسرع! ومد يده الكبيرة إلي.

- مدي يدك أنت أيضاً يا سيدتي الجميلة، قال لخطيبته.

مدت نحوي يدها المكتنزة والمهترئة من فرط الغسيل وكانت ترتعش. مررت الخاتمين في أصبعيهما، وراح زوربا يصرخ بجنون كالدراويش: «لقد خطب عبد الرب أليكسيس أمة الرب أورتانس بسم الأب والأم والروح القدس، آمين! تمت خطبة أمة الرب أورتانس على عبد الرب أليكسيس...»

- ها هو، قد انتهى، مبروك! تعالي هنا يا مدام زوربا إلى جواري لأعطيك أول قبلة شريفة في حياتك!

لكن مدام أورتانس انهارت وسقطت على الأرض، احتضن زوربا قدميها وراح يبكي. هز زوربا رأسه مشفقاً وغمغم قائلاً:

- مسكينات هؤلاء النساء! يا لهن من حمقاوات.

نهضت مدام أورتانس ونفضت فستانها، ثم فتحت ذراعيها.

- صاح فيها زوربا معنفاً إياها، اليوم الثلاثاء المقدس، انزلي يديك، هذه فترة صيام!

- زوربا حبيبي... دمدمت ذائبة.

- صبراً يا سيدتي، حتى عيد الفصح، وسنأكل اللحم. وسنكسر البيض الأحمر. الآن، حان الوقت أن تعودي إلى البيت. ماذا سيقول الناس إذا رأوك تعودين إلى البيت في وقت متأخر؟

نظرت له بوبولينا بتوسل

- لا، لا، قال زوربا، في عيد الفصح! تعال معنا يا وصيف!

انحنى على أذني:

- لا تتركنا وحدنا بربك! ليس لدي أي مزاج الليلة.

أخذنا الطريق نحوالقرية؛ كانت النجوم تومض في السماء، رائحة البحر تحيطنا وطيور الليل تئن فوقنا. الحورية العجوز متعلقة بيد زوربا،كانت تسير بجواره سعيدة وحزينة في نفس الوقت.

وأخيراً وصلت الليلة للميناء التي كانت تتوق إليه طيلة عمرها. كانت تغني البائسة طوال حياتها وتلهو، أمضت أوقاتاً ممتعة في الماضي، كانت تسخر من السيدات المحتشمات، لكن قلبها كان يحترق. عندما كانت تمر متزينة وتفوح منها رائحة العطر وترتدي الثياب المبهرجة في الإسكندرية وبيروت وإسطنبول وترى نساء فقيرات يحملن أطفالهن، كان صدر مدام أورتانس المسكينة يتمزق، وينتفخ ثدياها وتتصلب حلمتاهما وتطلب هي الأخرى أفواه رضع تمتص منها الأمومة.

«أريد أن أتزوج وأنجب طفلاً...» كان هذا هاجسًا مزمنًا في عقلها طيلة حياتها، كانت تتنهد وحيدة وتحلم. لكنها لم تبح لأحد بهذا الألم قط. والآن حمداً للرب! متأخراً بعض الشيء لكن لا بأس، دخلت أخيراً الميناء المنتظر بعد أن لطمتها الأمواج بعنف ولسنوات طويلة...

كانت ترفع عينيها من وقت لآخر لتنظر خلسة إلى إلى هذا الأحمق الطويل الذي يسير بجوارها. راحت تفكر، إنه ليس ثرياً ولا من الباشوات بالخصلات الذهبية في طربوشه؛ وليس وسيماً مثل الأثرياء؛ لكن لا بأس، هو أفضل من لا شيء، حمداً للرب!»

كان زوربا يشعر بأنها تتكأ على ذراعه بثقلها كله وهو كان يجرها متعجلاً كي يصل إلى القرية وينجو.

وكانت المسكينة تتعثر بحجارة الشارع، وكادت أظافر قدميها أن تقتلع، وجروح أقدامها تؤلمها، لكنها لم تتذمر شاكية. لمَ تشكُ أو تتكلم؟ كل شيء على ما يرام، حمداً للرب!

كنا قد عبرنا شجرة تين سيدتنا الشابة وحديقة الأرملة، وظهرت أول منازل القرية. فتوقفنا.

- طابت ليلتك يا حبيبي، قالت المغنية بسعادة ووقفت على أصابع قدميها وارتفعت كي تصل إلى فم خطيبها.

لكن زوربا لم ينحنِ.

- هل تدعني أقبل قدمك يا حبيبي، فهمّت المرأة أن تجثو على الأرض لتستعد للطقس الرومانسي.

- لا، لا قال زوربا متأثراً بعد أن التقطها بين أحضانه. أنا الذي يجب علي أن أقبل قدميك! هذا واجب علي أنا.... لكني لا أشعر في الرغبة الآن... طابت ليلتك!

افترقنا. عدنا سالكين نفس الطريق صامتين؟ كنا نتنفس بعمق الهواء العطر؛ لكن زوربا التفت نحوي ونظر إلي.

- ماذا سنفعل يا سيدي؟ قال؛ هل نضحك أم نبكي؟ انصحني أرجوك.

لم أجب؛ فكانت لدي عقدة في حلقي ولم أعرف ماهيتها - هل هي من البكاء أم الضحك.

- قل لي يا سيدي؛ ما اسم هذا الإله الإغريقي زير النساء الذي كان لا يترك للنساء أي شكوى في الحياة؟ كنت قد سمعت شيئاً عن هذا. كان يصبغ لحيته هو الآخر، ويرسم أوشاماً على ذراعه، حوريات وقلوب، وكان يتنكر كما يقال، كان يصبح ثوراً، بجعة، جديًا وحمارًا أحياناً، كان يفعل ما يحلو له وما يعجب أي فتاة. هيا قل لي؛ ما اسمه؟

- أظن كان اسمه زيوس؛ لمَ تذكرته الآن؟

- قدس الله روحه! قال زوربا وهو يرفع يده نحو السماء. فقد كان يعاني كثيراً، ويتألم كثيراً، إنه شهيد عظيم، اسمع مني أنا، يا سيدي، فأنا أعرف عن هذه الأشياء. أنت تقرأ

الكتب، لكن فكر ولو مرة من يكتبها! أووف! أساتذة! وماذا يفهم الأساتذة عن النساء وأزيار النساء؟ لا شيء!

- ولماذا لا تكتب أنت كتاباً عن زوربا، لتشرح لنا كل أسرار العالم والحياة؟

- لماذا؟ لأنني ببساطة، أعيش أسرار العالم والزمان. أعيش الحياة، وأعيش المرأة، والنبيذ والسانتوري، وليس لدي وقت كي أمسك بالأقلام البائسة. هكذا وقع العالم في أيدي الكاتبين الناسخين؛ لأن الذين يعيشون أسرار العالم ليس لديهم وقت ليكتبوا؛ ومن لديهم وقت، لا يعيشون أسرار العالم. أ فهمت؟

- حسناً، زيوس إذن؟ لنعد إلى موضوعنا الأصلي، لا تغير الموضوع.

- آه، هذا الرجل المسكين! قال زوربا وهو يتنهد. أنا أعرف فقط أنه عانى الكثير. كان يحب النساء كثيراً، هذه حقيقة، لكن ليس كما تظنون أنتم معشر الكتاب، لا، على الإطلاق! هو كان يتألم من أجلهن؛ كان يفهم مزاج كل منهن، ويضحي من أجلهن. كان عندما يرى في الريف أي عانس تتألم في وحدتها، وكانت امرأة جميلة - وحتى وإن لم تكن جميلة، وإن كانت في قبح وحش - أو يغيب عنها زوجها ولا تستطيع النوم، كان يرسم شارة الصليب هذا الرجل الحنون، ويبدل ملابسه، ويلبس قناع الوجه الذي في عقل المرأة ويدخل حجرتها.

ليس لديه مزاج للمداعبة أو ممارسة الحب، صدقني، فقد كان في أغلب الأحيان منهك القوى، - ومعه حق - فالعدد كبير، تفهم ذلك، ماذا عساه أن يفعل المسكين! مرات عديدة يكون متململاً، ليس لديه رغبة. أرأيت يا سيدي في حياتك جديًا يضاجع هذا الكم من العنزات؟ يسيل لعابه وتغبش عيناه ويبدأ في السعال ولا تكون له القدرة في أن يقف على قدميه. بهذه الحالة كان زيوس المسكين يمر كثيراً. يعود إلى بيته عند الفجر ويقول: آه، متى يا إلهي، سأستلقي لأنام؟ لا أستطيع أن أقف على قدمي! ثم يعاود مسح اللعاب من على فمه.

لكن فجأة يسمع تنهدات من مكان ما في الأرض، ثمة امرأة ألقت ملاءات سريرها، خرجت إلى سطح منزلها تتنهد وتتلوى من الحرمان. فإذا بقلب زيوس يرق ويذوب. آخ، آخ،

لابد أن أهبط ثانية إلى الأرض، يدمدم ويقول، سأهبط مرة أخرى إلى الأرض، إن ثمة امرأة تتأوه، فينزل إليها المسكين يواسيها!

واستمر هكذا إلى أن قضت عليه النساء، ضاعت صحته ونقص وزنه ومرض وراح يتقيأ، أصيب بالشلل ثم مات. وجاء بعده وريثه المسيح ورأى مصير الإله الذي سبقه فقال: «احذروا النساء»

كنت أسمع زوربا معجباً بعقله اليقظ وانفجرت ضاحكاً.

- اضحك، يمكن أن تضحك يا سيدي، لكن إذا كتب الرب. الشيطان لأعمالنا أن تنجح - وما أراه مستحيلاً، لكن على أي حال! - أتدري أي نوع من المحلات سأفتح؟ وكالة للزواج! وكالة زواج، زيوس! ستأتي إذن كل النساء المسكينات اللائي لم يستطعن العثور على رجل للزواج، العوانس، القبيحات، العرجاوات، المصابات بالحول، ذوات السيقان المقوسة، الحدباوات، وسأستقبلهن أنا في صالة معلق على جدرانها صورًا لشباب أقوياء وسيمين وسأقول لهن: اخترن من تحببن يا سيداتي. وسأجد أنا فيما بعد أي شاب يشبه الصورة قليلاً سألبسه ملابس كما في الصورة، سأعطيه بعض المال وأقول له: شارع كذا، رقم كذا، أسرع وابحث عن هذه المرأة، وضاجعها بشبق. لا تشمئز، سأدفع لك أنا، نم معها؛ قل لها حديثًا طيبًا مثل الذي يقوله الرجال للنساء والتي لم تسمعه هذه المسكينة من قبل في حياتها، أقسم لها أنك ستتزوجها، أعطها قليلاً من السعادة تلك البائسة، حتى وإن كانت السعادة التي تشعر بها النعاج، والسلاحف وأم أربعة وأربعين.

أما إذا صادفت مُهرًا عجوزًا مثل السيدة بوبولينا طيب الله ساعتها، ولن يرضى أحداً مهما دفعت لها أن يواسيها، حينها سأرسم أنا شارة الصليب على صدري وأتولى المهمة بنفسي، مدير الوكالة شخصياً. وسيردد الجميع العجوز المجنون! أليس لديه نظر، أليس لديه حاسة شم؟ - نعم أيها الحمقى، لدي يا أصحاب القلوب المتحجرة، عين لأرى وأنف لأشم وقلب أيضاً يشعر بالأسف والحزن! وعندما يكون لديك قلب، فلا جدوى للعيون والأنوف! كل هذا تلغى أهميته تماماً!

«وعندما سأصاب بالشلل من كثرة المهمات، سأموت، عندها سيفتح لي خادم الجنة القديس بطرس أبوابها ويقول لي: ادخل يا زوربا ادخل أيها المسكين، اذهب واستلقِ بجوار رفيقك زيوس لتستريح، ادخل أيها الشهيد؛ لقد عانيت وتألمت كثيراً في حياتك!»

كان زوربا يتكلم، يطلق مخيلته التي تنصب له فخاخاً ويقع هو نفسه فيها، فكان شيئاً فشيئاً يصدق القصص التي يحكيها، وعندما انتهى كنا نمر أمام شجرة تين السيدة النبيلة، تنهد ورفع يده كما لو كان سيلقي قسماً ثم قال:

- يا بوبولينتي، يا مركبي القديمة المتهالكة العفنة! لا عليك يا بوبولينتي، لن أتركك وسأواسيك دوماً! لقد هجرتك القوى الأربع العظمى، الشباب، الرب، أما أنا، زوربا، فلن أتركك!

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما وصلنا إلى شاطئنا.

اشتدت الريح القادمة من إفريقيا فكانت الريح الجنوبية الدافئة تنفخ أشجار الكروم وأثداء جزيرة كريت. كل الجزيرة، مستلقية على البحر وقد دبت فيها الحياة من أنفاس الرياح الجنوبية. كان زيوس، زوربا. الرياح الجنوبية الشهوانية كلهم يمتزجون الليلة داخلي، وتراءى لي شكل وجه ذكوري بلحية سوداء وشعر أسود دهني - ينحني ويلامس شفتي مدام أورتانس الحمراوين، الأرض.

استلقينا على سريرينا؛ راح زوربا يفرك يديه سعيداً.

- كان يوماً طيباً يا سيدي، قال؛ وماذا يعني هذا؟ ستسألني: سأجيبك؛ مليئًا! فكر قليلاً: في الصباح كنا في عين الشيطان، في الدير، ووضعنا رئيس الدير في جيبنا - عليه كل اللعنات!

بعد ذلك عدنا إلى أراضينا، وجدنا السيدة بوبولينا، تمت خطبتنا، والدليل هو ذلك الخاتم في إصبعي. من الذهب الخالص؛ كان ما زال لديها جنيهان إنجليزيان، من أواخر القرن الماضي كان قد أعطاها إياهما القبطان الإنجليزي؛ كانت تحتفظ بهما كما تقول من أجل جنازتها؛ حفظها الرب وأطال في عمرها؛ ذهبت وأعطتهما للصائغ، وصنع لها هذين الخاتمين، إن الإنسان لغز كبير.

- قلت: نم يا زوربا؛ استرخ، فهذا يكفي ليوم واحد. غداً لدينا المراسم الرسمية لندق أول مسمار في أول عمود لإنشاء المصعد الهوائي المعلق. أرسلت للقس ستيفانو ليأتي غداً.

- خيرًا فعلت يا سيدي، فكرة طيبة؛ ليأتِ القس صاحب لحية العنزة وليأت جميع وجهاء القرية، نوزع شموعاً ونشعلها، هذه الأشياء تولد انطباعاً جيداً وتفيد العمل. لا تنظر إلي هكذا؛ فلدي إلهي الخاص وشيطاني الخاص؛ لكن بقية البشر...

ضحك؛ لم يستطع زوربا النوم فكان عقله مشتعلاً.

- آه يا جدي! قال بعد قليل، ليقدس الرب عظامك! فقد كان زنديقاً مثلي تماماً - لكن النذل ذهب إلى الأراضي المقدسة عندما كبر سنه وصار حاجاً. يعلم الرب لمَ فعل هذا. عندما عاد إلى القرية، جاءه أحد أصدقائه وكان لصًّا حقيرًا وقال له: إيه يا صاح، لمَ لم تحضر لي قطعة من الخشب المقدس من الأراضي المقدسة! - أجابه جدي الماكر، كيف لم أحضر لك؛ وهل يعقل أن أنساك! تعال في المساء إلى منزلي وأحضر القس معك ليباركنا وسوف أعطيه لك. أحضر معك خنزيرًا مشويًا ونبيذًا ليجلب لنا الحظ السعيد!

عاد جدي إلى بيته في المساء، قطع قطعة خشب من باب قديم في حجم حبة أرز، ورش عليه قليلاً من الزيت وجلس ينتظر صديقه. بعد قليل، جاء الصديق والقس والخنزير. فهم القس وأقام القداس والمباركة وتسليم قطعة الخشب المقدس، ثم هموا بالخنزير المشوي. هل تصدق يا سيدي أن هذا الصديق صلى لقطعة الخشب وعلقها في عنقه ومنذها تغير وأصبح إنساناً صالحاً. انطلق نحو الجبل وانضم إلى الثوار وراح يحرق قرى الأتراك، ويهجم على الأعداء لا يهاب النار ولا الرصاص بشجاعة عجيبة، لمَ يخاف؟ فهو يحمل الخشب المقدس الذي يحميه من الرصاص.

انفجر زوربا في الضحك.

- كل شيء هو فكرة، قال. إذا صدقتها؛ أياً كانت، حتى لو كانت قطعة خشب من باب قديم وصارت من الخشب المقدس؛ أما إذا لم تصدقها؛ فيمكن للصليب المقدس أن يصبح قطعة خشب من باب قديم.

أينما تلمس روح زوربا تجدها مشتعله وتصدر شرراً.

- هل ذهبت إلى الحرب يا زوربا؟

- لا أدري؟ أجاب متجهماً. لا أذكر؛ أي حرب تقصد؟

- أردت أن أسأل إذا كنت قد حارب من أجل وطنك.

- لما لا تدعك من هذا الهراء، حماقات مضت؛ حماقات نسيت.

- هل تسمي هذا حماقات يا زوربا؟ ألا تخجل يا رجل؟ كيف تتكلم هكذا عن الوطن؟

مد زوربا عنقه ونظر إلي. كنت مستلقياً أنا أيضاً على الفراش تحت القنديل المشتعل؛ نظر إلي طويلاً وبحدة؛ ثم أمسك شاربيه بيده وقال:

- هذا هو الهراء بعينه... لكن ماذا تنتظر من عقلية المدرسين... هذا ما يجعلني أعتقد أن كل ما قلته لك ذهب هباءً وأنك لم تفهم منه شيئًا، وأندم عليه.

- قلت معترضاً لكني أفهم يا زوربا أقسم لك أني أنني فهمت كل شيء!

- نعم، هذا ما تقوله بعقلك. تزن الأشياء وتقول هذا صحيح وهذا خطأ؛ وهذا محق وسواه غير محق. لكن فيمَ يجدي هذا؟ أنا أنظر إلى الأمام، أنظر إلى جسدك وأنت تتكلم؛

جسدك الذي يبقى صامتاً وأنت تتكلم ولا يقول شيئاً. كما لو أنه لا توجد به قطرة دم واحدة، كيف تستطيع أن تفهم؟ برأسك؟ أوف!

- لكنك لم تجبني يا زوربا، لا تحاول المراوغة! صحت كي أثيره؛ أعتقد أنك لست وطنياً ولا تهتم كثيراً بالوطن.

غضب زوربا، وضرب بقبضته الحائط فاهتزت صفائح الكيروسين.

- إن الرجل الذي أمامك والذي توجه له هذا الكلام قد طرز بشعره أيقونه القديسة صوفيا وعلقها في رقبته تعويذة. نعم، صنعتها بيدي هاتين، وبشعري هذا عندما كان أسود كلون الغراب. كنت أدور مع بافلوس ميلاس[22] ، في جبال ماقدونيا - نعم؛ أنا الذي ترى أمامك - كنت شاباً قوياً ضخمًا كالوحش، بردائي الشعبي؛ التنورة، والطربوش والتعويذات الفضية والتمائم. كنت مغطى بالفولاذ والحديد، وعندما كنت أسير أرفع سحابات الغبار كما لو أن حصانًا يمر. انظر هنا... انظر هنا... انظر هنا...!

فتح قميصه وأنزل بنطاله.

- قرب المصباح من هنا! قال كأنه يصدر أمراً عسكرياً.

قربت المصباح من جسده النحيل، آثار لجروح عميقة، وحفر غائرة من الرصاص، كان جسده أشبه بالمصفاة.

- انظر هنا أيضاَ!

استدار وأراني ظهره.

- أترى، من الخلف لا يوجد جرحٌ واحد... أتفهم؟ خذا هذا المصباح بعيداً عني الآن!

ارتدى قميصه وبنطاله، جلس على الفراش.

- زمجر بوحشية، هراء. ألا تخجل، متى سيصبح الإنسان إنسانًا؟ نرتدي السراويل والياقات المنشاة والقبعات ونحن مازلنا بغالاً، وذئابًا وثعالبَ وخنازيرَ. ونقول إن الله خلقنا على شاكلته! من؟ نحن؟ أبصق على وجوهنا جميعاً!

---

[22] بافلوس ميلاس: أحد العسكريين الوطنيين في أواخر القرن التاسع عشر.

صعد إلى رأس زوربا كم هائل من الذكريات المرعبة التي كانت تجعله يزداد غضباً. وبدأت تخرج من بين أسنانه المجوفة كلمات غير مفهومة. نهض وأمسك بإبريق الماء وراح يشرب ويشرب حتى هدأ.

- إذا لمست أي مكان في جسدي ستجدني أئن؛ إنني مثخن بالجراح. ماذا يعني كل هذا الهراء عن النساء؟ عندما أدركت أني رجل حقيقي، لم ألتفت أو أهتم بالنساء. وإذا فعلت كان هذا يحدث للحظة وعلى عجل مثل الديوك، وكنت أرحل بعدها. كنت أشمئز منهن وأقول إنهن يردن أن يمتصصن قواي، اللعنة عليهن!

حملت إذن بندقيتي وخرجت إلى الشارع! انضممت إلى الثوار والفدائيين. في أحد الأيام، عند الغروب تسللت إلى إحدى القرى البلغارية في أحد الإسطبلات. وفي بيت القس البلغاري، الذي كان قاتلاً شرساً لا يرحم. كان يخلع عباءة القس في الليل ويرتدي ملابس راعي غنم ويركب عربته ويذهب في اتجاه القرى اليونانية؛ كان يعود في الصباح يغتسل من الدماء ويذهب إلى القداس. في تلك الأيام قتل مدرساً يونانياً على فراشه حيث كان نائماً. حسناً، دخلت إسطبل القس وانتظرت. تمددت فوق الروث خلف الثيران وانتظرته. وعندما دخل ليلاً القس إلى الإسطبل ليطعم المواشي؛ نزلت فوقه وذبحته مثل الخروف. قطعت أذنيه وأخذتها؛ نعم فعلت هذا، أترى كانت لدي مجموعة من الآذان البلغارية؛ أخذت أذنيه وغادرت.

بعد أيام قليلة دخلت إلى نفس القرية في وضح النهار، تظاهرت بأنني بائع متجول؛ تركت أسلحتي في الجبل ودخلت إلى القرية أشتري ملحًا وأحذية للشباب. وكان خارج أحد البيوت خمسة أولاد حفاة يشبكون أيديهم ويتسولون. ثلاث بنات وولدان؛ أكبرهم كان يبلغ العاشرة من عمره؛ وأصغرهم كان طفلاً رضيعاً كانت تحمله البنت الكبرى وتهدهده حتى لا يبكي.

لا أدري كيف، لكن الله أضاء بصيرتي واقتربت منهم وسألت الأطفال البلغاريين:

- أبناء من أنتم أيها الأطفال؟

- رد الولد الكبير بعد أن رفع رأسه نحوي:

- نحن أولاد القس الذي ذبح قبل الأمس بالإسطبل.

اغرورقت عيناي بالدموع وراحت الأرض تدور بي؛ اتكأت على الحائط حتى توقفت الأرض عن الدوران.

- اقتربت منهم وقلت لهم! تعالوا أيها الأولاد؛ اقتربوا.

أخرجت كيس نقودي الذي كان مليئاً بالنقود والعملات الفضية وأفرغته على الأرض.

- صحت، هيا خذوها، خذوها!

سقط الأولاد على الأرض وراحوا يجمعوا النقود والعملات الفضية بأيديهم الصغيرة.

- إنها لكم! صحت؛ خذوها!

ثم تركت لهم سلتي وبها كل ما اشتريته.

- هي لكم، خذوها!

وغادرت القرية مسرعاً، فتحت قميصي، أخرجت تعويذة القديسة صوفيا التي طرزتها بيدي، قطعتها وألقيت بها ورحت أركض.... أركض...

وما زلت أركض!

اتكأ زوربا على الحائط، التفت ونظر إلي:

- وهكذا نجوت، قال.

- نجوت من الوطن؟

- نعم، من الوطن، أجاب زوربا بصوت هادئ ونقي.

وبعد قليل قال:

- نجوت من الوطن، نجوت من الكهنة، نجوت من المال، وبدأت أفرز الأشياء. ومع الوقت أفرز الأشياء أكثر أغربلها وأصفيها كي أخفف من أعبائي. كيف أشرح لك؟ أتحرر منها، أصبح إنسانًا.

كانت عينا زوربا تتلألآن، وفمه الواسع كان يبتسم بسعادة.

بعد فترة من الصمت، راح قلبه يفيض بقوة، ولم تكن لديه القدرة على السيطرة عليه:

- ذات مرة قلت: هذا تركي أو بلغاري، هذا يوناني. لقد صنعت أشياء للوطن يا سيدي، تقشعر لها الأبدان؛ ذبحت، سرقت، حرقت قرى، خدعت نساء، خربت بيوتاً وعائلات... لماذا؟ لأنهم أتراك، بلغاريون. اللعنة عليكم يا حثالة البشر، أقول هذا لنفسي كثيراً فلتذهب إلى الجحيم أيها الغبي! أما الآن فقد رتبت أفكاري وأيقظت عقلي، أنظر إلى الناس وأقول: هذا إنسان جيد وذاك إنسان سيء. ولا يهم إذا كان بلغاريًّا أو يونانيًّا؛ فهو يعني نفس الشيء بالنسبة لي؛ جيد أو سيء، هذا ما أسأله لنفسي فقط.

وكلما كبر سني، وأقسم بالخبز الذي آكله، سأبدأ ألا أسأل حتى هذا السؤال، وماذا يعني وما الفائدة إذا كان جيداً أم لا، فأنا أحزن عليهم جميعاً وتتمزق أحشائي عندما أرى إنسانًا، وإن كنتُ أتظاهر بأنني لا أهتم. نعم، أقول ها هو البائس يأكل ويشرب ويحب ويخاف، لديه رب وشيطان، وسوف يموت ويدفن في التراب، وسيأكله الدود... آه يا أخواني... كلنا غذاء للدود!

وإن كانت امرأة، عندها تأتيني رغبة في البكاء. إنك تسخر مني يا سيدي لأني أعشق النساء؛ لكن كيف لا أحبهن؟ فهن كائنات ضعيفة، ولا يعرفن ماذا يجري لهن في هذه الدنيا، إذا مسست ثدي إحداهن تستسلم وتفتح كل الأبواب...

«ذات يوم دخلت إلى قرية بلغارية أخرى. يوناني حقير أبلغ البلغاريين عني فجاءوا وحاصروا البيت الذي كنت فيه. فصعدت إلى سطح المنزل ورحت أقفز فوق أسطح المنازل من سطح إلى آخر، كانت ليلة قمرية، رحت أقفز من شرفة إلى شرفة مثل قط محاولاً الهرب. لكنهم رأوا ظلي فراحوا يتبعونني صعدوا على الأسطح وراحوا يطلقون رصاصاً من بنادقهم. فماذا فعلت؟ سقطت في أحد الأفنية؛ حيث كانت امرأة بلغارية تنام في الفناء وترتدي قميص نوم، رأتني، وقبل أن تفتح فمها وتصرخ، مددت يدي وقلت لها اصمتي! ثم أمسكت ثديها. شحب وجه المرأة وانحنت ثم قالت. ادخل، لكن بهدوء قبل أن ينتبهوا لنا...

دخلت إلى المنزل فضغطت على يدي وسألتني: أنت يوناني؟ نعم يوناني لكن لا تسلميني لهم. أمسكت بها من خصرها وضاجعتها وكان قلبي يرتعش من المتعة. قلت آه يا زوربا،

هذه هي المرأة، هذا هو الإنسان! لا يهم إن كانت بلغارية أو يونانية أو من بلاد الماو ماو، فهي في النهاية إنسان، إنسان، ألا تخجل من القتل؟ عليك اللعنة!»

هذا ما كنت أقوله عندما كنت معها، في حضنها الدافئ؛ لكن لم يتركني الوطن الملعون! رحلت في الصباح أرتدي ملابس بلغارية محلية كانت قد أعطتها لي الأرملة البلغارية؛ أخرجتها من صندوق ملابس زوجها الراحل وقبلتني وتوسلت إلي أن أعود مرة أخرى.

نعم، نعم، في الليلة التالية، عدت إلى نفس القرية، وطني، أترى، وحش كاسر، عدت بصفيحة بنزين وأضرمت النار في القرية بأسرها. لابد أن هذه المسكينة قد احترقت أيضاً. كان اسمها لودميلا...

تنهد زوربا؛ أشعل سيجارة، واستنشق منها نفسين، ثم ألقى بها وتابع قائلاً:

- لا تصدق الوطن الذي يحكون عنه في الكتب.. صدقني أنا؛ طالما هناك وطن، سيبقى الإنسان حيوان شرس... لكن حمداً للرب، قد نجوت، تحررت، انتهى!ماذا عنك أنت؟

لم أجب. كل الأمورالتي أصارع أن أحلها أنا عقدة عقدة في عزلتي، وأنا جالس على مقعدي، هذا الإنسان قد حلها في الجبال، في الهواء النقي وبسيفه.

أغمضت عيني محبطاً.

- هل نمت يا سيدي؟ سأل زوربا متأففاً وقال؛ وأنا الأحمق أتحدث مع نفسي!

تمدد على الفراش وهو يدمدم وبعد قليل سمعت شخيره.

لم يراودني النوم طوال الليل؛ سمعت عندليباً يغرد في وحدتنا هذه، فملأ العالم ألم مرير لا يحتمل، وفجأة أحسست بالدموع تنهمر من عيني.

استيقظت عند الفجر، توقفت عند الباب أنظر إلى البحر واليابس، وخيل إلي كما لو أن العالم قد تغير أثناء الليل. كانت في مواجهتي فوق الرمال كومة من أعشاب الشوك، كانت بالأمس باهتة اللون واليوم قد ألقت براعم صغيرة وأزهار بيضاء، وامتلأ الهواء برائحة أشجار الليمون وأزهرت أشجار البرتقال. سرت بضعة أمتار على الأرض التي ارتدت زينتها الجديدة؛ لم أستطع أن أشبع عيني من النظر إلى المعجزة الأبدية.

فجأة سمعت خلفي صيحة سعيدة. التفت خلفي فرأيت زوربا نصف عارٍ يقف أمام الباب ويشاهد المنظر البديع منبهراً بالربيع.

- ما هذه الروعة يا سيدي! قال منبهراً؛ أقسم لك أنني أشعر كأني أرى العالم لأول مرة. ما هذه المعجزة يا سيدي، ومن هذا المجنون الذي يهتز هناك، ما اسمه: البحر؟ أليس كذلك، البحر؟ وهذا الذي يرتدي المريلة الخضراء المزينة بالورد؛ ما اسمه؟ الأرض؟ أي هيراكليس فعل هذا! أقسم لك يا سيدي، أن هذه هي أول مرة أرى شيئًا كهذا.

كانت عيناه قد امتلئتا بالدموع.

- هل جننت يازوربا، قلت.

- لا تسخر مني وتضحك يا سيدي! ألا ترى؟ يبدو أن ساحراً قد مر من هنا!

قفز إلى الخارج وبدأ يرقص، تدحرج على العشب مثل مُهر صغير.

أشرقتِ الشمس ومددت يديّ لتتدفآ. أشجار منتفخة وصدور منتفخة، فتحت روحي كالشجرة، شعرت بأن روحي وجسدي مصنوعان من نفس المادة.

نهض زوربا من على العشب، وكان شَعره قد امتلأ بالطين والندى.

- هيا بسرعة يا سيدي لنرتدِ ملابسنا ونتزين؛ اليوم لدينا قداس. فالقس ووجهاء القرية سيأتون بعد قليل؛ وإذا رأونا نتدحرج على العشب، سنجلب العار على الشركة! ارتدِ حلة أنيقة وربطة عنق، وضع وجهك الجاد! فلا يهم أن يكون لديك عقل، لكن يكفي أن يكون لديك قبعة أنيقة، تفووو على هذا العالم!

ارتدينا ملابسنا وكنا جاهزين، وصل العمال، لحق بنا الوجهاء.

- صبراً يا سيدي، لا تتعجل الضحك، لا تفضحنا.

في المقدمة كان القس ستيفانوس بلحيته القذرة وعباءة الكاهن ذات الجيوب العميقة التي تسع لكل شيء وأي شيء، وكان يلقي فيها عدته أيضاً للتعميد والزواج كلها مختلطة دون ترتيب مع الزبيب والكعك والفطير والخضراوات والكفتة والحلوى والملبس؛ وفي الليل تضع زوجته نظارتها وتبدأ في تفريغ جيوبه وفرز الأشياء وهي تتسلى وتقضم وتأكل منها.

خلف القس ستيفانوس، وقف الوجهاء: كوندومانوليوس صاحب المقهى، الذي يفخر بأنه يعرف العالم حيث إنه قد ذهب إلى خانيا ورأى الملك يورغيوس؛ العم أناغنوستي، بقميصه الأبيض ذي الأكمام الواسعة، كان يقف جاداً هادئاً. معلم القرية كان يبدو بعصاه منتصبًا، جاداً ورسمياً؛ والأخير بمشيته الثقيلة البطيئة كان مافروأندوني؛ كان يرتدي قميصاً أسود ويعقد منديلاً أسودَ على رأسه ويرتدي حذاءً كريتياً أسود. حيانا بنصف ابتسامة، كان يبدو متألماً على ضياع ابنه، كان يقف على بعد أمتار منا ويعطي ظهره إلى البحر.

- بسم الرب! قال زوربا بشكل رسمي.

تقدم الموكب وتبعه الآخرون بورع ديني.

في صدور هؤلاء القرويين استيقظت ذكريات لطقوس من عصور سحيقة؛ تسمرت عيونهم على القس، وكأنهم كانوا ينتظرونه يصارع ويطرد القوى الشريرة الخفية. منذ آلاف السنين والسحر يرفع يده ويرش الماء المقدس في الهواء ويتمتم بكلمات غامضة لها قوة جبارة، والأرواح الشريرة الماكرة كانت تهرب، أما الأرواح الطيبة فتخرج من الماء والطين لتساعد البشر.

وصلنا إلى الحفرة التي حفرناها بجوار البحر حيث سيدق أول عمود للمصعد الهوائي المعلق؛ رفع العمال جذع شجرة صنوبر كبير و غرسوه منتصبًا في الحفرة؛ ومر القس ستيفانوس بمبخرته وهو ينظر إلى جذع الشجرة طوال الوقت وينشد تراتيله بجدية كي يطرد الأرواح: «لتقم على أرض صلبة وتكون كصخرة لا تهزها ريح ولا تجرفها مياه... آمين!»

- آمين! قال زورا بصوت رخيم ورسم شارة الصليب.

- صاح جميع الأعيان، آمين!

- ليبارك الرب أعمالكم ويرزقكم كل الخير مثلما رزق إبراهيم وإسحق! دعا القس ستيفانوس، ووضع زوربا في يده ورقة نقدية.

- بارك الرب فيك! دمدم القس شاكراً.

عدنا إلى الكوخ، قدم لهم زوربا النبيذ ومقبلات فترة الصيام - أخطبوطًا مشويًا، كالاماري*، فولاً مغمسًا وزيتونًا - ثم غادر كل الأعيان متخذين طريق الشاطئ واختفوا. وانتهى طقس السحر.

- سار كل شيء على ما يرام! قال زوربا وهو يفرك يديه.

خلع ملابسه وارتدى ملابس العمل، هيا باسم الرب!

لم يترك زوربا العمل طوال اليوم؛ كانت لديه شهوة عجيبة للعمل. كل خمسين متراً كان العمال يحفرون خنادق ويثبتون فيها أعمدة ويسحبون الأسلاك الفولاذية نحو قمة الجبل. وراح زوربا يقيس ويعد ويعطي الأوامر، لم يأكل، لم يدخن، لم يسترح طوال اليوم. وهب نفسه تماماً للعمل.

- قال لي ذات يوم، إن أنصاف الأعمال، وأنصاف الأحاديث، وأنصاف الذنوب، وأنصاف أعمال الخير وصلت بالعالم إلى هذا الوضع الكارثي الذي هو فيه الآن. أكمل أيها الإنسان عملك حتى النهاية، لابد أن تصل حتى الطرف الآخر، اضرب ولا تخف! إن الرب يكره نصف الشيطان أكثر من الشيطان نفسه.

في المساء، عندما انتهى من عمله، تمدد على رمال الشاطئ منهكاً.

- سأنام هنا، قال، سأنتظر الفجر حتى نستكمل العمل. سأشكل مناوبات عمل كي نعمل ليلاً.

- لكن لمَ العجلة يا زوربا؟

تردد قليلاً.

- لأنني أريد أن أرى إذا كانت زاوية الانحدار صحيحة. إذا كنت قد نجحت في ضبطها وإلا هلكنا يا سيدي. وكلما أسرعنا لنرى النتيجة كان أفضل!

أكل على عجل وبنهم، ثم بعد قليل كان صدى شخيره يتردد على الشاطئ. بقيت ساهراً أراقب النجوم تتحرك في السماء وتبدل مواقعها؛ كنت أرى السماء كلها تغير موقعها وتتحرك وتحركت معها قشرة جمجمة رأسي مثل قبة رصد النجوم.

«راقب النجوم في مدارها كأنك تدور معها»... هذه الجملة التي قالها ماركوس أوريليوس كانت تملأ قلبي بالانسجام.

اليوم كان عيد الفصح وكان زوربا متأنقاً، ارتدى جوارب قرمزية اللون من مقدونيا يقول إن صديقة له من هناك قد حاكتهما له، كانت من أقاربه كما يدعي، صعد على ربوة بجوار طريق الشاطئ وأخذ يروح ويجيء واضعاً يده فوق حاجبيه السميكين وراح ينظر بعيداً نحو القرية بقلق.

- لقد تأخرت هذه الخنزيرة... تأخرت كثيراً هذه العجوز الشمطاء... هذه الراية المهلهلة...

فراشة خرجت من شرنقتها توا طارت وحطت على شارب زوربا؛ دغدغته فنفخ فيها وسرعان ما طارت بهدوء واختفت في الضوء.

كنا ننتظر مدام أورتانس لنحتفل بعيد الفصح معاً؛ شوينا حملاً صغيراً؛ فرشنا ملاءة بيضاء على الرمال، لونا البيض. قلنا أنا وزوربا، ما بين جد وهزل وتأثر، هيا نعد لها استقبالاً حافلاً. على هذه الرمال؛ هذا الشاطئ المهجور كانت هذه البدينة القصيرة الحورية العجوز التي تفوح منها رائحة العطر الرخيص، تضفي علينا شيئًا من المرح والبهجة. عندما تغيب عنا كنا نفتقد رائحة الكولونيا واللون الأحمر ومشيتها وهي تتهادى كالبطة، وصوتها المتحشرج وعينيها المندهشتين الشاحبتين.

قطعنا بعض الأوراق من نبات الغار والآس وصنعنا قوس نصر كي تمر من تحته؛ وفوق القوس رشقنا أربعة أعلام . لإنجلترا وفرنسا وإيطاليا وروسيا - و فوق الجميع ملاءة طويلة بأحزمة زرقاء. لم تكن لدينا مدافع، لكننا اقترضنا بندقيتين وقررنا أن نستقبلها من فوق التل عندما نراها تاتي متهادية مثل البطة أن نملأ الشاطئ بوابل من الرصاص. أردنا أن نحتفل بها على هذا الشاطئ المهجور في هذا اليوم لنعيد لها ذكرياتها وأمجادها؛ كي تسمتع وتلهو ولو بوهم مؤقت هذه التعسة ولو للحظات بأنها عادت شابة صغيرة بشفاه وردية ونهود صلبة، وحذاء لامع وجوارب حريرية. فما حكمة أن يبعث المسيح مراراً كل عام إذا لم يكن لهذا مردود علينا؛ ويعيد الشباب والبهجة فينا أيضاً؟ إن لم يجعل هذه الحورية العجوز تبدو في الحادية والعشرين مجدداً؟

- بين الحين والآخر كان زوربا يدمدم وهو يرفع جوربه القرمزي الذي كان ينزلق من ساقه: لقد تأخرت هذه الخنزيرة... تأخرت كثيرًا هذه العجوز الشمطاء... هذه الراية المهلهلة...

- تعال إلى هنا يا زوربا ودخن سيجارة تحت ظل شجرة الخروب؛ لن تتأخر كثيراً.

ألقى نظرة أخيرة بتلهف على الطريق المؤدي إلى القرية ثم جاء وجلس تحت شجرة الخروب؛ سينتصف النهار قريبًا، الجو حار. سمعنا من بعيد دق أجراس الكنيسة سريعة سعيدة بعيد الفصح؛ كان النسيم يأتي لنا بصوت القيثارة الكريتية؛ كانت القرية كلها تضج بالبهجة والحياة مثل خلية نحل في الربيع.

هز زوربا رأسه:

- تمر السنون، قال، كنت أشعر في كل عيد فصح أن روحي تبعث من جديد مع المسيح. لقد انتهى هذا! الآن فإن جسدي فقط هو الذي يبعث - لأن هذا يدعوك على شراب وهذا يدعوك على طعام والآخر يدعوك على طعام فتأكل وتأكل الطعام وتحشو بطنك ثم يتحول كل هذا إلى روث؛ لكن شيئاً منه ينجو ويتحول إلى مزاج جيد، رقص، موسيقى، مشاجرة - وهذا الشيء أسميه أنا بعثًا.

قفز واقفاً مرة أخرى، وألقى نظرة على الأفق. ثم تجهم.

- هناك طفل يجري في هذا الطريق، قال ثم قفز كي يلحق بالرسول.

وقف الطفل على أطراف أصابعه، وهمس شيئاً في أذن زوربا الذي هب غاضباً:

- مريضة؟ قال؛ مريضة؟ اغرب عن وجهي قبل أن أوسعك ضرباً!

التفت نحوي:

- سيدي، قال، سأذهب سريعاً إلى القرية لأرى ماذا جرى للخنزيرة... اصبر قليلاً لن أتأخر؟ هاتِ أعطني بيضتين حمراوين لأكسرهما معها؛ لن أتأخر؟

وضع البيضتين في جيبه، رفع جوربه وانطلق في الطريق.

نزلت من على الربوة وتمددت على الشاطئ على الحصى البارد، هبت نسمة خفيفة، كان البحر هادئاً، زوج من النوارس كانا يهبطان ببطنيهما على الموجة الصغيرة ويرتعشان في مرح متابعين إيقاع البحر.

كنت أتنبأ متعتهما وبهجتهما عندما يلعق الماء الفاتر بطنيهما؛ كنت أنظر إلى النورسين وأفكر: هذا هو السبيل؛ أن تجد الإيقاع المطلق وتتبعه بثقة.

- بعد ساعة تقريباً عاد زوربا وهو يفتل شاربيه سعيداً.

- لقد أصاب البرد تلك المسكينة؛ لا شيء.لقد حضرت صلوات القيام كلها في الأسبوع المقدس وكانت تذهب إلى الكنيسة في منتصف الليل، رغم أنها أجنبية، إلا أنها كانت تذهب من أجلي كما تقول. وأصابها ذلك بالبرد، لقد عالجتها بكؤوس الحجامة[23] وفركتها بزيت المصباح وسقيتها كأساً من الروم؛ ظريفة تلك المرأة؛ كانت تتدغدغ من الضحك وأنا أفركها بالزيت، كانت تهدل مثل الحمامة.

جلسنا لنأكل؛ ملأ زوربا الكأسين وقال:

- في صحتها! عل الشيطان يتأخر ولا يأخذ عمرها الآن؛ ليتأخر قليلاً؛ أتبع برقة.

أكلنا وشربنا وظللنا صامتين لفترة من الوقت؛ حمل لنا الهواء من بعيد ألحانا من القيثارات الكريتية أشبه بأزيز النحل؛ كان المسيح لازال يبعث من جديد على أسطح المنازل، وتحول خروف وكعك عيد الفصح إلى ألحان عاطفية.

أكل زوربا وشرب جيداً ووضع يده على أذنه الكبيرة:

- تمتم قائلاً...؛ إنها الليرة (القيثارة الكريتية)؛ إنهم يرقصون في القرية!

هب واقفاً؛ لقد شبع؛ النبيذ قد صعد إلى رأسه.

- ماذا نفعل هنا مثل غرابين؟ صاح؛ هيا لنرقص! ألا تأسف للحمل الذي أكلناه؟ هل تريد أن يذهب سدى؟ هيا لنغنِّ ونرقص! لقد بعث زوربا!

- انتظر يا زوربا، هل جننت؟

---

[23] كؤوس الحجامة: هي كؤوس الهواء؛ طريقة علاج شعبية، توضع قطنة مشتعلة مبللة بالكحول بكأس وتكتم على الجسد لتمتص منه الرطوبة.

- أقسم بشرفي يا سيدي؛ قل عني ما تشاء، لكنني آسف على الحمل المشوي؛ وعلى البيض الأحمر، وكعك عيد الفصح، والجبن الأبيض. أقسم لك، «إذا كنت أكلت خبزاً وزيتوناً، لكنت قلت إني ذاهب لأنام، ما شأني، والمرح والرقص والغناء؟ أي خير تنتظر من الخبز والزيتون؟ » لكن الآن؛ حرام أن يذهب سدى طعام لذيذ كهذا، صدقني! هيا لنحتفل يا سيدي!

- ليست لدي رغبة اليوم؛ أذهب أنت وارقص عني!

سحبني زوربا من ذراعي ورفعني لأعلى:

- لقد بعث المسيح يا بني! لو كنت في سنك! بحر، نساء، نبيذ، عمل وفير! لانغمست في كل هذا؛ في الحب والنبيذ والنساء ولن أخاف شيئاً ولا أحداً، لا ربًا ولا شيطانًا. هذا هو الشباب!

- لابد أن الخروف هو الذي يتحدث داخلك يا زوربا: لقد توحش وصار ذئباً! قلت ضاحكاً.

- الخروف قد صار زوربا، زوربا هو الذي يتحدث، صدقني! اسمع كلامي ثم سبني فيما بعد؛ أنا سندباد البحر؛ ليس لأني طفت حول العالم، على الإطلاق! لكن لأني سرقت، قتلت، كذبت، ضاجعت الكثير من النساء. فعلت كل الذنوب؛ خالفت كل الوصايا، كم هم؟ عشرة؟ حتى لو كانوا عشرين، خمسين، مائة، كنت سأنتهكها كلها، لكن لو أن هناك ربًا، لن أخاف أبداً أن أقف غداً أمامه. لا أعرف كيف أقول لك كي تفهمني، لكن كل هذا الذي فعلته ليس له أي أهمية. هل يهتم الرب بديدان تافهة على الأرض ويعد عليهم ذنوبًا وحسنات كي يحاسبها؟ وإن غضب، وشتم، وتغير مزاجه لأن أحداً ضل طريقه ونام مع دودة أنثى في بيت جاره، أو لأنه أكل قطعة لحم في جمعة الصيام المقدسة! تبا لكم أيها القساوسة!

- حسناً يا زوربا، قلت لأثيره؛ قد لايسألك الرب ماذا أكلت، لكن قد يسألك ماذا فعلت!

- وأنا إذن أقول لك، أنه لن يسألك عن هذا أيضاً! وكيف تعرف هذا يا زوربا يا جاهل؟ ستسألني. أقول لك أني متأكد، لأنني لو كان لدي ولدان أحدهما صالح مستقيم يخاف الرب؛ والآخر طالح فاسد، لص وزير نساء، سأطعمهما معًا على مائدتي؛ لكن لا أعرف

ربما قلبي سيميل إلى الثاني. ربما لأنه يشبهني؛ لكن من يقول لك أنني لا أشبه الرب أكثر من القس ستيفانو الذي يصلي ليل نهار، يجمع المال ولا يسقي الملاك؟

إن الرب عربيد يحب الملذات، يقتل، يظلم، يحب، يعمل، يصطاد الطيور المراوغة، مثلي تماماً. يأكل ما يحلو له؛ يضاجع أي امرأة يريد. ترى امرأة جميلة طازجة تسير على الأرض ويرقص قلبك؛ وفجأة تفتح الأرض فمها وتختفي. أين تذهب؟ من أخذها؟ إذا كانت صالحة نفترض: يأخذها الرب؛ أما إذا كانت لعوباً، نفترض: يأخذها الشيطان. لكني أقول لك يا سيدي مراراً وتكراراً: إن الرب والشيطان واحد!

صمت؛ التقط زوربا عصاه ولف قبعته على طريقة المشاكسين، نظر إلي بشفقة - هكذا بدا لي - كادت شفتاه أن تتحركا كما لو أراد أن يقول لي شيئاً لكنهما أبتا؛ لم يقل زوربا شيئاً ومضى مسرعاً وهو يبرم شاربيه نحو القرية.

رأيت في ضوء الغروب ظله العملاق فوق الحصى يتمدد وهو يهز عصاه؛ كان الشاطئ كله يستعيد حياته عندما يمر؛ مكثت لوقت ليس بالقليل أنصت إلى طرق خطوات زوربا، وشيئاً فشيئاً ابتعد واختفى. وفجأة عندما شعرت أنني بقيت وحدي، نهضت واقفاً. لماذا؟ إلى أين؟ لم أكن أعرف؛ لم أقرر شيئًا في قرارة نفسي؛ كأن جسدي قفز واقفاً وحده، اتخذ قراره دون أن يسألني.

- قال، هيا بقوة كأنه يعطي أمراً.

اتخذت الطريق نحو القرية. كنت أسير بحسم وعلى عجل؛ من وقت لآخر كنت أقف وأشم رائحة الربيع. كانت رائحته بابونج، وكلما اقتربت من البساتين كانت تأتي لي روائح أشجار الليمون والبرتقال ونبات الغار. عند الغروب بدأت نجمة المساء ترقص في السماء مبتهجة.

«بحر، امرأة، نبيذ، وعمل شاق!» تمتمت دون أن أشعر كلمات زوربا وأنا أمشي. «بحر وامراة ونبيذ وعمل شاق! أن تنغمس في العمل والنبيذ والحب وألا تخشى الرب ولا الشيطان... هذا هو معنى الشباب!» رحت أقولها وأعيدها في نفسي، كما لو كنت أشجعني وأنا أمشي.

توقفت فجأة. كأنني وصلت إلى المكان الذي قصدته. أين؟ نظرت حولي؛ إنها حديقة الأرملة. خلف سياج من القصب والصبار الحلو كان هناك صوت أنثوي عذب يغني في هدوء. نظرت خلفي وأمامي، لا أحد؛ اقتربت وأبعدت القصب؛ تحت شجرة البرتقال تجلس امرأة بثوب أسود، وصدر ثري، تقطع أغصان الزهور وتغني؛ تحت ضوء الغروب يشرق الشق بين نهديها.

اضطرب تنفسي وتسارعت ضربات قلبي. قلت في نفسي «إنها وحش بري وهي تعرف هذا. وهي ترى الرجال مخلوقات سخيفة ضعيفة مغرورة! إنها قوية وشرهة مثل بعض إناث الحشرات - فرس النبي، الجرادة والعقربة - لا تشبع طوال الليل وتلتهم الذكور عند كل فجر...»

وكأن الأرملة أحست فجأة بنظرتي المعلقة على جسدها، توقفت فجأة عن الغناء، التفتت حولها؛ نظراتها مثل البرق، التقت عيوننا؛ شعرت بأن ركبتي تتخليان عني - وكأني رأيت نمرةً خلف سياج القصب.

- من؟ قالت الأرملة بصوت مخنوق.

أرخت منديلها وغطت صدرها فأظلم وجهها.

حاولت المغادرة؛ لكن كلمات زوربا كانت تملأ قلبي، كن رجلاً - «بحر وامرأة ونبيذ...»

- أنا أجبت. هل تسمحين لي بالدخول!

فور أن قلت هذه الكلمات حتى أصابني الرعب؛ هممت مرة أخرى بالرحيل.

لكنني تمالكت نفسي؛ خجلاً من زوربا.

- من أنت؟

تقدمت خطوة بطيئة وبحذر وبصمت؛ مدت عنقها، أغمضت عينيها نصف إغماضة كي ترى بوضوح أكثر؛ تقدمت خطوة أخرى وهي منحنية، بحذر شديد وهي تثب على أطراف قدميها.

- رئيس المنجم؟ سألت بصوت محشرج

- نعم.

- تعال!

كان الفجر على وشك الولوج. كان زوربا قد عاد وينتظر خارج الكوخ. كان يدخن وينظر إلى البحر ينتظرني.

رفع رأسه فجأة عندما ظهرت راح ينظر إلي. كانت فتحتا أنفه ترتعشان مثل أرنب؛ مط عنقه وأخذ نفساً عميقاً وراح يشم. وفجأة أشرق وجهه؛ لقد شم رائحة الأرملة.

نهض ببطء؛ وابتسم وفتح ذراعيه:

- تعال كي أباركك! قال.

تمددت، أغلقت عيني، سمعت البحر يتنفس بهدوء شبه متناغم يشبه هدهدة الرضيع، بينما أنا كنت أصعد وأهبط فوقها مثل طائر نورس. وهكذا بهذه الهدهدة الرقيقة غرقت في النوم ورأيت حلماً: رأيت زنجية عملاقة تتربع على الأرض وبدت لي مثل سيكلوبروبان[24] منحوت من الجرانيت الأسود في معبد قديم. وكنت أدور حولها لأرى المدخل؛ كان حجمي يصل بالكاد عند إصبع قدمها؛ وفجأة، عندما حركت كعب قدمها، رأيت الباب الأسود مثل الكهف؛ وسمعت صوتاً ضخماً يقول لي:

- ادخل!

ودخلت.

استيقظت عند الظهيرة؛ كانت الشمس قد تسللت من النافذة وفاضت على الفراش لتنعكس بقوة من المرآة المعلقة على الحائط، وبدا أن الشمس ستحطمها ألف قطعة.

قفز الحلم مع العملاقة الزنجية إلى ذهني، البحر كان يهمهم بإغواء، أغمضتُ عينيّ ثانية وبدا لي أنني سعيد. أشعر بخفة جسدي، سعيد مثل حيوان خرج للصيد واصطاد فريسته وأكلها، وهو الآن ممدد في الشمس يلعق فمه. العقل، الجسد وهو، يستريحون في شبع؛ تظن أن الأسئلة الأبدية التي كانت تعذبه قد وجد لها أجوبة بكل بساطة.

---

[24] السيكلوبروبان: حيوان أسطوري.

كل سعادة الليلة الماضية كانت تتدفق من الأعماق، وتتفرع فتروي وتشبع الطين الذي أنا مصنوع منه. وكما كنت نصف نائم وعيناي مغلقتين، سمعت، أو هكذا بدا لي أن أعماقي تطقطق وتتمدد. لأول مرة في ليلة أمس تأكدت تماماً أن الروح هي الجسد، ربما الروح أسرع وأكثر شفافية وحرية؛ وكذلك الجسد هو الروح، ناعس قليلاً، منهك من كثرة الترحال، يحمل عبء إرث ثقيل يحمله؛ لكنه يستيقظ في اللحظات العظيمة، ينطلق، يستفيق وتتحول مخالبه إلى أجنحة.

ظل ما سقط فوقي؛ فتحت عيني: كان زوربا يقف أمام الباب وينظر إلي بسعادة.

- لا تنهض يا سيدي! لا تنهض... قال لي برقة أبوية. اليوم عيد، نم!

- شبعت من النوم، قلت ونهضت.

- سأصنع لك بيضاً مقلياً، قال زوربا مبتسما؛ إنه مغذٍ.

لم أتكلم؛ جريت نحو الشاطئ، غطست في البحر، جففت نفسي في الشمس. لكن كانت رائحة عذبة لا تزال في أنفي، على شفتي، على مسام يدي. مثل ماء ورد. مثل زيت الغار الذي تدهن به نساء كريت أجسادهن.

لقد صنعت كومة من أزهار الليمون بالأمس لتذهب بها إلى المسيح في الكنيسة حيث كان القرويون سيرقصون في ساحة القرية تحت أشجار الحور وستكون الكنيسة هادئة خالية من الناس. الأيقونات فوق فراشها كانت متخمة بأزهار الليمون التي كانت تظهر من خلالها العذراء ذات العيون الكبيرة حنونة وحزينة.

انحنى زوربا ووضع طبق البيض بجوار فنجاني مع برتقالتين كبيرتين وقطعة من الخبز المحلى من عيد الفصح. كان يخدمني بصمت وسعادة مثل أم تحنو على ابنها الذي عاد من الحرب. كان ينظر إلي بحنان ثم غادر:

- سأذهب لأضع بعض الأعمدة، قال.

كنت أمضغ طعامي بهدوء تحت الشمس، وأشعر بسعادة جسدية عميقة، كما لو كنت عائماً في بحر أخضر بارد. لم أدع عقلي يستحوذ على هذه المتعة الجسدية، ويقولبها ليصنع منها أفكاراً عقيمة. تركت جسدي كله يسعد بهذه الحالة من قمة رأسي وحتى

أخمص قدمي، مثل حيوان. رحت أنظر إلى معجزة العالم في داخلي وحولي بتمعن وأقول في نفسي: «كيف تكيف هذا العالم مع أرجلنا وأيدينا وبطوننا بهذا الانسجام؟» ثم أغمضت عيني مرة أخرى وصمت.

نهضت فجأة؛ دخلت إلى الكوخ، أخذت مخطوطة «بوذا» وفتحتها. كنت قد أوشكت على الانتهاء منها؛ كان بوذا مستلقياً تحت شجرة مزهرة، رفع يده وأمر العناصر الخمسة التي صنع منها - تراب، ماء، نار، هواء، روح - أن تذوب.

لم أعد بحاجة إلى هذا الوجه من عذاباتي، فقد تجاوزتها، لقد أنهيت خدمتي مع بوذا - رفعت يدي وأمرت بوذا الذي بداخلي أن يذوب.

وبسرعة كبيرة مستخدما التعاويذ القاهرة، الكلمات، أخفيت جسدي ثم روحي ثم عقلي بلا رحمة؛ كنت متعجلاً.

خربشت آخر كلماتي على الأوراق، ثم أطلقت الصيحة الأخيرة، نقشت اسمي بقلم أحمر كبير؛ وانتهيت.

أخذت خيطاً سميكاً، ربطت المخطوطة بقوة؛ شعرت بسعادة غريبة، كما لو كنت أقيد يدي وقدمي عدو لدود بالأصفاد؛ أو كما كان يربط البدائيون أحباءهم الموتى، كي لا يستطيعوا الخروج من قبورهم والتحول إلى أشباح.

بنت صغيرة حافية القدمين جرت نحوي؛ كانت ترتدي فستاناً أصفر اللون وتمسك في يدها بيضة ملونة بالأحمر. توقفت، ثم نظرت إلي متوترة.

- حسناً؟ سألتها باسمًا كي تتشجع؛ هل تريدين شيئاً؟

كانت تلهث وهي تتكلم:

- أرسلتني المدام إلى هنا؛ فالمسكينة تحترق في فراشها. هل أنت زوربا؟

- قلت، حسناً، سآتي.

أخذت بيضة حمراء في يدها وجرت.

نهضت، انطلقت؛ كانت جلبة القرية تقترب، أصوات نغمات من آلة الليرة الكريتية، أصوات سعيدة تحتفل، أصوات إطلاق الرصاص من بندقية وصوت رباعيات كريتية

مغناة؛ عندما وصلت إلى ساحة القرية، كان الفتيان والفتيات قد تجمعوا تحت أشجار الحور المزهرة حديثاً واصطفوا للرقص. حولهم على المصاطب كان العجائز يجلسون مسندين ذقونهم على عصيهم يتابعونهم؛ خلفهم كانت النساء العجائز. في المنتصف كان يجلس عازف الليرة الشهير، وكان يضع ورده خلف أذنه؛ ويمسك بعصا الليرة بيمينه ويضع الليرة على ركبته اليسرى؛ كان يجرب أوتارها بحركات سريعة فتنبعث منها ألحان شجية.

- المسيح قام! قلت وأنا أمر.

- حقاً قام! أسمع هدير أصوات سعيدة من كل الحاضرين نساء ورجال.

ألقيت نظرة سريعة؛ شباب اشداء بالسراويل الكريتية ذوو خصور نحيفة، يعقدون المنديل المحلي على رؤوسهم وتتدلى على جباههم و وجوههم شراشيبه السوداء الملفوفة، البنات ربطن أوشحتهن المطرزة بالترتر على أعناقهن، وقد أخفضن أعينهن ورحن يرتعشن من الترقب والانتظار.

- لمَ لا تتفضل معنا يا رئيس؟ سمعت بعض الأصوات - لكنني كنت قد عبرتهم بالفعل.

كانت مدام أورتانس ممددة على فراشها العريض، قطعة الأثاث الوحيدة التي حفظت عهدها معها طوال هذا العمر؛ كان خداها مشتعلين من الحمى، وتسعل بشدة.

ما إن رأتني حتى أطلقت تنهيدة شكوى:

- أين زوربا يا وصيفنا؟ ...

- إنه مريض؛ في اليوم الذي مرضت فيه سقط مريضاً هو الآخر؛ يمسك بصورتك ولا يكف عن التنهد.

- أكمل... قل... دمدمت الحورية المسكينة وأغمضت عينها بسعادة.

- والآن قد أرسلني كي أرى أن كنت تحتاجين شيئاً... يقول بأنه سوف يأتي الليلة، حتى لو اضطر أن يأتي زاحفاً على ركبتيه... فهو لا يطيق هذا الفراق.

- قل... تابع... أكمل...

- يقول إنه تسلم تلغرافاً من أثينا يقول إن فستان العرس قد صار جاهزاً، والأكاليل والحذاء وباقات الملبس وقد أعدوها أيضاً للشحن، إنها في الطريق... وكذلك الشموع المطرزة بالشرائط الوردية

- قل... أكمل... تابع...

قالت لكن كأن النعاس قد غلبها، فقد تغير إيقاع تنفسها، وبدأت بالهذيان. كانت رائحة حجرتها كولونيا، ونشادر وعرق؛ ومن النافذة المفتوحة كانت تدخل رائحة من روث الأرانب في الفناء.

قمت، وهممت بالمغادرة؛ على الباب قفز ميميكو أمامي. كان يرتدي حذاء جديدًا اليوم من النوع المحلي وعلى مقدمته خصلة زرقاء؛ وخلف أذنه غصن ريحان.

- ميميكو، قلت له، اذهب إلى القرية لتحضر طبيباً.

خلع ميميكو حذائة الجديد ووضعه تحت إبطه حتى لا يهترئ في الطريق.

- جد طبيباً وأبلغه تحياتي وأن يأتي على حصانه بسرعة، قل له أن المدام مريضة جداً؛ لقد أصابها برد شديد المسكينة. لا تنسَ شيئاً؛ هيا أسرع.

- إني ذاهب! قال وبصق في كفيه وضربهما لكنه لم يتحرك. نظر إلي مبتسماً.

- هيا اذهب أقول لك!

لكنه لم يتحرك؛ غمز لي بعينه مبتسماً بمكر شديد ثم قال:

- لقد أحضرت زجاجة من ماء الزهر إلى كوخك؛ هدية.

توقف قليلاً، انتظر حتى أسأله من الذي أرسلها، لكنني لم أقل شيئاً.

- لمَ لا تسألني من الذي أرسلها يا سيدي؟ قال وهو يكتم ضحكه. ثم قال، لتضع منه في رأسك قالت حتى تصبح رائحته عطرة.

- هيا اذهب بسرعة! وأغلق فمك!

ضحك، بصق في كفيه مرة أخرى وصاح وهو يهرول:

- هوب! هوب! قام المسيح!

ثم اختفى.

كانت احتفالية رقص عيد الفصح تحت أشجار الحور على أشدها. كان يقود الرقص فتى أسمر في العشرين تقريباً، شعر ذقنه لم تمسسه شفرة حلاقة بعد؛ فتح قميصه فظهر شعر صدره المجعد على جلده الأسمر؛ شعر رأسه مصفف نحو الخلف، كانت قدماه تضربان الأرض بقوة كجناحين، وبين الحين والآخر كان يلقي نظرة على إحدى الفتيات فكان بياض عينيه يلمع بشكل وحشي على وجهه الذي لفحته الشمس.

كانت مشاعري خليطًا بين السعادة والخوف. كنت عائداً من مدام أورتانس؛ كنت قد طلبت من إحدى النساء أن تقوم برعايتها قبل أن آتي إلى هنا لأشاهد الكريتيين يرقصون؛ اقتربت من العم أناغنوستي، جلست بجواره على المصطبة.

- من هو الشاب الذي يقود الرقص؟ سألته في أذنه.

ضحك العم أناغنوستي:

- كأنه رئيس الملائكة هذا الوغد، إنه يسلب الروح، قال بإعجاب. إنه سيفاكيس راعي الغنم، طوال العام يرعى الأغنام في الجبل ويأتي فقط في عيد الفصح ليرى الناس ويرقص.

تنهد.

- آه لو أني في فتوته! تمتم؛ لو كنت أمتلك شبابه لغزوت إسطنبول!

هز الشاب رأسه؛ وأطلق صيحة عالية مثل كبش هائج:

- اضرب يا فانوريو؛ اضرب عل الموت يفارق الحياة.

الموت يموت كل لحظة ويولد من جديد كل لحظة. منذ آلاف السنين والفتيان والفتيات يرقصون تحت أشجار - الحور والسنديان والبلوط الخضراء في الربيع وتحت أشجار النخيل المنتصبة - وسيرقصون آلاف سنين قادمة بوجوه تملؤها الرغبة. وجوه تذهب تحت الأرض، ووجوه أخرى تظهر، الوجوه تتغير كل عشرين سنة. لكن جوهر الأمر هو أن يظل الإنسان كما هو، عاشقًا، شابًّا في العشرين، يرقص ليبقى خالداً.

رفع الشاب يده ليبرم شاربيه، ليحكم حبكة الرقص الكريتي كجزء من الرقص .لكن لم يكن لديه شارب.

- صاح مرة أخرى؛ اضرب يا فانوريو كي لا أنفجر.

رفع يده لعازف الليرة، فعلا صوتها وتوحشت أنغامها وازدادت شجناً فقفز الشاب في الهواء وصفق بقدميه ثلاث مرات في الهواء، كانت قفزته عالية جداً حتى أنه لمس بحذائه المنديل الأبيض لحارس القرية مانولاكاس الذي كان يرقص بجواره.

- برافو يا سيفاكاس! سمعت صيحات الإعجاب وارتعشت الفتيات وخفضن أبصارهن نحو الأرض.

لكن الشاب كان صامتاً، لم يتحدث لأحد، كائن بري ملتزم، كان يضع يده اليسرى على فخذه القوي ويده الأخرى في الهواء، وثبت عينيه المتوحشتين بتواضع على الأرض.

فجأة توقف الرقص. ظهر الشماس أتدروليوس، رفع يده وصرخ.

- الأرملة! الأرملة! الأرملة! كان يصرخ بهلع.

كان مانولاكاس حارس القرية أول من توقف عن الرقص وهرع. كانت الكنيسة تظهر من الساحة، ما زالت عليها الزينة بأغصان الغار؛ توقف الراقصون عن الرقص غاضبين، قامت العجائز من على المصاطب؛ مدد فانوريوس الليرة على قدميه، ونزع الوردة من خلف أذنه وشمها.

- أين يا أندروليو؟ صاح الجميع بغضب، أين؟

- إنها في الكنيسة؛ لقد دخلت الآن الملعونة تحتضن حزمة من ورد الليمون.

- هيا نلحق بها يا رجال! صاح الحارس وكان أول الهارعين.

في هذه اللحظة ظهرت الأرملة عند عتبة الكنيسة؛ كانت تضع منديلاً أسودَ على وجهها.

- الحقيرة! العاهرة! القاتلة! سمعت الأصوات من ساحة الرقص. وبلغت بها الجرأة أن تأتي إلى هنا، إنها عار على قريتنا!

هرول الجميع مع الحارس نحو الكنيسة، الآخرون كانوا من الأماكن العليا يقذفونها بالحجارة. أصابها حجر في كتفها. صرخت الأرملة؛ ووضعت كفها على وجهها. انحنت

وحاولت أن تحمي نفسها وتهرب. لكن الشباب كانوا قد وصلوا إلى باب الكنيسة الخارجي واستل مانولاكاس سكينه.

راحت الأرملة تتراجع نحو الخلف وهي تصرخ بصوت مكتوم، حاولت أن تحمي نفسها وتجري لتدخل الكنيسة. لكن على باب الكنيسة كان العجوز مافروأندوني يقف صامتاً رافعاً يديه وقد سد فتحتي الباب.

قفزت الأرملة نحو اليسار وتعلقت بشجرة السرو الكبيرة في الفناء. لكن حجراً انطلق من بعيد وقد أطلق صفيراً فضربها في راسها، سقط المنديل من على رأسها فارتخى شعرها على كتفيها.

- راحت تنوح وتتوسل إليهم باسم المسيح! باسم الرب! باسم الرب! وهي ما زالت متعلقة بشجرة السرو.

كانت فتيات القرية مصطفات في الساحة ويعضضن على مناديلهن البيضاء؛ بينما العجائز وقفن عند الجدران يراقبن ويصحن:

- اقتلوها، اقتلوها!

ألقى شابان بنفسيهما عليها وأمسكا بها، تمزق ثوبها السوداء فلمع ثديها كالرخام. كانت الدماء تسيل من رأسها على جبهتها وخديها وعنقها.

- باسم الرب! باسم المسيح! ما زالت الأرملة تصرخ.

كانت دماؤها تسيل، وصدرها العاري اللامع كان يثير الشباب؛ فاستلوا الخناجر من أحزمتهم.

- صرخ مانولاكاس، انتظروا، إنها لي!

كان العجوز مافروأندوني لا يزال واقفاً عند باب الكنيسة، رفع يده فصمت الجميع.

- قال، مانولاكاس، بصوت رخيم، دم ابن عمك يصرخ؛ أرحه!

قفزت فوق السياج، الذي كنت تسلقته، رحت أهرول كي أصل إلى الكنيسة، تعرقلت قدمي بحجر فوقعت على الأرض. في هذه اللحظة كان سيفاكيس بجواري، انحنى وأمسكني من قفاي كما نمسك القطط ورفعني واقفاً، ثم قال لي:

- ماذا تفعل هنا أيها الأنيق؟ ارحل من هنا.

- ألا تشفق عليها يا سيفاكيس؟

جلجلت ضحكاته:

- وهل أنا امرأة لأشفق عليها؟ أنا رجل!

وبقفزة واحدة كان قد وصل إلى فناء الكنيسة.

وصلت خلفه مهرولاً. كان الجميع قد التفوا حول الأرملة؛ عم صمت ثقيل؛ لم يكن يسمع غير صوت لهاث الأرملة.

رسم مانولاكاس شارة الصليب، تقدم خطوة. رفع سكينه، العجائز فوق السياج كن يطلقن صيحات السعادة؛ الشابات أرخين مناديلهن ليغطين عيونهن.

خارت الأرملة عندما رأت السكين فوقها، وراحت تخور مثل بقرة. سقطت وراحت تزحف عند شجرة السرو وغاص رأسها في كتفيها. شعرها غطى الأرض، فظهر قفاها الأبيض الناصع.

- باسم الرب! صاح العجوز مافرواندوني ورسم شارة الصليب هو الآخر.

لكن في هذه اللحظة سمعنا صوتًا وحشيًّا يأتي من خلفنا:

- أنزل سكينك أيها القاتل!

التفت الجميع متفاجئين؛ رفع مانولاكاس رأسه؛ فوجد زوربا يقف أمامه، راح يحرك يده بعصبية ويصرخ:

- ألا تخجلون: قرية بأكملها تريد أن تقتل امرأة! إنكم تجلبون العار على كريت كلها!

- لا شأن لك يا زوربا؛ لا تتدخل في هذا الأمر! زأر مافروأندوني من مكانه.

التفت إلى بن أخيه وقال:

- مانولاكاس، اضرب باسم الرب والعذراء!

أمسك مانولاكاس بالأرملة، وطرحها أرضاً وداس بقدمه على بطنها ورفع السكين.

لكن زوربا لحق به وأمسك بذراع مانولاكاس، كان قد لف على قبضته منديلاً كبيراً وراح يصارعه ليأخذ السكين من يده.

نهضت الأرملة على ركبتيها، نظرت حولها بسرعة لتجد مفراً؛ لكن القرويين أغلقوا كل المخارج بعد أن تحلقوا حول ساحة الكنيسة ووقفوا على المقاعد، وعندما رأوها تتحرك ضيقوا الحلقة أكثر.

في هذ الوقت كان زوربا يصارع صامتاً، بخفة وبقوة وحزم؛ أما أنا فكنت واقفاً أراقب بقلق من مكاني بالقرب من باب الكنيسة. احمر وجه مانولاكاس من شدة الغضب؛ حاول أحد الشباب أن يساعده لكن مانولاكاس التفت ونظر إليه بغضب:

- عد إلى الخلف، ابتعد! لا أحد يقترب.

ثم هجم على زوربا ثانية بقوة ونطحه مثل الثور.

عض زوربا على شفتيه وصمت؛ كان يمسك يد الحارس بقوة وراح يميل إلى اليمين وإلى اليسار ليتفادى نطحاته. اندفع مانولاكاس الذي ثار غضبه ووضع أذن زوربا بين أسنانه وراح يعضها ليقطعها. سالت دماء زوربا.

- زوربا! صحت مرعوباً ورحت أحاول إنقاذه.

- ابتعد يا سيدي، صاح، لا تتدخل!

جمع قبضته ولكم مانولاكاس لكمة قوية تحت بطنه، عند خصيتيه. فأرخى مانولاكاس فكيه وشحب وجهه. وبدفعة واحدة طرحه زوربا أرضاً بعد أن أخذ منه السكين قذفه بعيداً فارتطم بالرخام وتهشّمت أجزاؤه.

مسح بمنديله الدماء التي كانت تسيل من أذنه ثم مسح العرق المتصبب على وجهه؛ غطت الدماء وجهه. استوى واقفاً وتطلع حوله كانت عيناه قد انتفختا وصارتا شديدتي الاحمرار؛ ثم صاح في الأرملة:

- انهضي تعالي معي!

وشدها في اتجاه بوابة فناء الكنيسة.

نهضت الأرملة لاهثة، استجمعت قواها ولم تكد تتقدم إلى الأمام حتى ألقى العجوز مافروأندوني بنفسه فوقها بسرعة البرق ودفعها على الأرض ولف شعرها ثلاث مرات حول ذراعه وقطع رأسها بحركة واحدة من سكينه.

- ألقى برأسها على عتبة الكنيسة وصرخ، أنا أتحمل هذا الذنب!

ورسم شارة الصليب على صدره.

التفت زوربا ورأى المنظر. نزع خصلة من شعر شاربه وتنهد بغضب. اقتربت منه أمسكته من ذراعه؛ انحنى ونظر إلي ودمعتان كبيرتان كانتا تتعلقان بعينيه.

- قال بصوت مخنوق، هيا نرحل من هنا يا سيدي.

في تلك الليلة، لم يستطع زوربا أن يأكل شيئاً. كان يقول «إن حلقي مسدود ولن يبتلع شيئاً » غسل أذنه بماء بارد، بلل قطنة بالعرق وربطها، كان جالساً على فراشه ويضع رأسه بين يديه وراح يفكر.

أما أنا فكنت جالسًا على الأرض، أتكئ على الحائط وكنت أشعر بأن دموعًا ساخنة تسيل على خديّ.

كان عقلي متوقفاً عن العمل تماماً، لم أكن أفكر في شيء؛ كما لو أنني غصت في حزن طفولي عميق ورحت أبكي.

رفع زوربا رأسه للحظة، انفجر وراح يصرخ، كأنه يكمل بصوت عال ما كان يقوله لنفسه قبل قليل:

- قلت لك يا سيدي، إن كل ما يجري في هذا العالم هو ظلم، ظلم، ظلم! وأنا لا أوافق عليه، أنا زوربا هذه الدودة البراقة! لماذا يموت الشباب والشابات ويعيش العجائز؟ لماذا يموت الأطفال الصغار؟ لقد كان لدي طفل ذيمتري الصغير، ومات وهو في الثالثة من عمره، وأبدًا، أبدًا، لن أسامح الرب؛ هل تسمعني؟ وإذا كانت لديه الشجاعة فليظهر أمامي، إذا كان رباً بحق، لابد أن يخجل! نعم، نعم، سيخجل مني، سيخجل أن يظهر أمام هذه الدودة التي اسمها زوربا.

ارتسم على وجهه تعبير مؤلم؛ كانت الدماء تنزف مجدداً من جرحه؛ عض شفتيه حتى لا يصرخ.

- انتظر يا زوربا، قلت، تعال لأغير لك الضمادة.

غسلت أذنه بالعرق، أخذت ماء الزهر الذي أرسلته لي الأرملة، وجدته على الفراش، وغمست فيه القطن.

- ماء زهر؟ قال زوربا بعد أن استنشقه بلهفة؛ ماء زهر؟ ضع قليلاً منه على شعري، نعم هكذا، وصب في يدي قليلاً، صبه كله، هيا!

دبت فيه الحياة؛ نظرت إليه مندهشاً.

- أشعر أنني أدخل في حديقة الأرملة، قال.

ودب فيه الحزن ثانية.

- ودمدم قائلاً، كم سنة، كم سنة احتاجت الأرض لتصنع جسداً كهذا! كنت تنظر إليها وتقول: «آه لو كنت في العشرين من عمري وينتهي كل البشر من على الأرض ولا تنجو غير هذه المرأة كنت سأنجب منها أولاد، لا، ليس اطفالاً حقيقيين، بل كنت سأنجب منها آلهة تملأ الدنيا!» والآن...

نهض واقفا؛ وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

- لا أستطيع يا سيدي! لابد ان أخرج لأتمشى، أن أصعد الجبل وأنزله الليلة مرتين أو ثلاث حتى يصيبني الإرهاق كي يستريح عقلي... آه أيتها الأرملة، لا أحتمل، لابد أن أنشد لك مرثية.

انطلق إلى الخارج، ذهب نحو الجبل وتاه في الظلام.

استلقيت على فراشي، أطفأت المصباح وبدأت أنقل - حسب عادتي اللا إنسانية - الواقع وأجرده من الدم والجسد والعظام وأحوله إلى فكرة مجردة وأحفظها في القوانين الكونية، وأتوصل إلى النتيجة المرعبة أن كل ما حدث كان لابد أن يحدث.

كل ما حدث كان في دائرة إيقاع الكون، حتى يثري التناغم. وأصل في النهاية إلى هذا العزاء الكريه: إنه لم يكن حتمياً فقط أن يحدث ما حدث، بل كان يجب أن يحدث لأن هذا هو الصحيح.

ذبح الأرملة كان بمثابة رسالة مرعبة إلى عقلي، حيث إن كل شيء الآن في السنوات الأخيرة، قد تحول وصار تحت سيطرة الواجب والطاعة. إن هذه الرسالة هيجت قلبي؛

فجأة هجمت عليه كل النظريات لتغلفه وتحيطه بتلك الحيل كي يصير مستكيناً - بالضبط كما تغلف النحلات ذكر النحل الجائع عندما يأتي ليسرق عسلها.

وهكذا، بعد بضع ساعات، كانت الأرملة تسكن ذاكرتي، هادئة، ومبتسمة تقريباً، في هالة الرمز المقدس. الأرملة قد غلفها الشمع في قلبي بالفعل، لم تعد لديها القدرة أن تنشر الاضطراب داخلي وأن تشل عقلي. هذا الحدث الرهيب قد توسع وتمدد في مكان وزمان واسع، اتحد مع الحضارات العظيمة التي انتهت؛ الحضارات اتحدت مع قدر الأرض ومصيرها،والأرض اتحدت مع مصير الكون - وهكذا، عندما نعود إلى الأرملة، نجدها تخضع لقوانين الكون متصالحة مع قاتليها، في هدوء وصفاء إلهيين.

عاد الزمن في داخلي إلى جوهره الحقيقي؛ كأن الأرملة ماتت قبل آلاف السنين، وبنات كنوسوس بشعرهن الملفوف من حضارة بحر إيجة متن صباح اليوم.

غلبني النعاس مثل أي يوم آخر بالتأكيد - لا يوجد شيء أكيد أكثر من هذا - والموت، وانزلقت بهدوء في الظلام. ولم أسمع إذا كان زوربا قد عاد أم لم يعد؛ في الصباح وجدته فوق الجبل يصيح في العمال ويتناقش بحدة. لم يعجبه أي شيء مما كانوا يفعلونه؛ طرد ثلاثة من العمال الذين اعترضوا على أسلوبه، أخذ هو بنفسه الفأس وراح يفتح طريقاً بين تلال التراب والعشب والصخور كي تدق الأعمدة. صعد إلى الجبال ووجد بعض الحطابين يقطعون أشجار الصنوبر، صرخ فيهم؛ فضحك أحدهم وتمتم شيئاً، فهجم عليه زوربا ووقع فوقه.

في الليل نزل من على الجبل منهك القوى، بثياب مهلهلة، وجلس بجانبي على الشاطئ. كان يفتح فمه بصعوبة؛ وعندما كان ينطق بشيء كان يتحدث عن الأخشاب والأسلاك وأنفاق الفحم، مثل رجل أعمال رأسمالي طماع كان يتعجل قدر ما يستطيع أن يدمّر هذا المكان ليربح منه أكبر قدر من المال ويرحل.

في لحظة وفي حالة العزاء التي وصلت إليها، رحت أقول شيئاً عن الأرملة، فإذا بزوربا يمد يده الكبيرة ويغلق فمي.

- اسكت! قال بصوت مخنوق.

أغلقت فمي في خجل. هذا هو الإنسان الحقيقي، قلت في نفسي، خجلت من ألم زوربا وحزنه. إنسان يجري في عروقه دم ساخن وعظامه صلبة، عندما يتألم ويحزن يطلق دموعاً غزيرة وحقيقية، وعندما يفرح لا يأخذ فرحته ويمررها من فلاتر الميتافيزيقا العقيمة.

مرت ثلاثة أيام. لم يرفع زوربا رأسه عن العمل، لم يأكل، لم يشرب، كاد يذوب من فرط العمل.

في ليلة قلت له أن السيدة بوبولينا طريحة فراش المرض، ولم يأت الطبيب، إنها تهذي وتردد اسمه.

عصر قبضة يده.

- حسناً، قال.

في اليوم التالي ذهب إلى القرية وعاد سريعاً.

- هل رأيتها؟ سألته، كيف حالها؟

قطب زوربا حاجبيه.

- لا تعاني من شيء، قال؛ انها تحتضر.

وذهب بسرعة نحو الجبل.

في نفس الليلة، ودون أن يأكل شيئاً، أخذ عصاه، وخرج.

- إلى أين يا زوربا؟ سألته. هل أنت ذاهب إلى القرية؟

- لا؛ سأتمشى، لن أتأخر.

ذهب نحو القرية بخطوات سريعة واثقة.

كنت متعباً، تمددت؛ راح عقلي يطوف بالعالم، فأيقظ ذكريات ومرارات، كان عقلي يرفرف بعيداً في أفكار بعيدة وجاء وجلس فوق زوربا.

«ماذا لو صادف مانولاكاس في طريقه، رحت أفكر، سيهجم عليه الكريتي الغاضب ليقتله. كل هذه الأيام كنت أسمع أنه أغلق على نفسه ويبكي طوال الوقت من الخجل

ولا يريد أن يظهر في القرية ويهدد طوال الوقت أنه إذا أمسك بزوربا، سيقطعه إربا. وبالأمس عند منتصف اليل، أحد العمال رآه يحوم حول الكوخ مسلحاً.
لو تقابلا الليلة، ستحدث جريمة...»

قمت مفزوعاً، ارتديت ملابسي وانطلقت بسرعة ناحية القرية. كانت الليلة رطبة ولطيفة، وفاحت في الهواء رائحة البنفسج البري. بعد قليل استطعت أن أميز زوربا في الظلام كان يسير على مهل كأنه متعب. كان يتوقف بين الحين والآخر ينظر إلى النجوم، ينصت قليلاً؛ ثم يسير، كنت أسمع صوت عصاه تضرب الحجارة.

اقترب من حديقة الأرملة؛ انتشرت في الهواء رائحة زهر الليمون ونبات العسل المتسلق؛ وفجأة في تلك اللحظة من فوق أشجار البرتقال راح العندليب يصدح، ويغني بصوت حزين في الظلام، كان صوته يملأ القلوب بالحزن، فوقف زوربا مذهولاً من فرط العذوبة.

وفجأة تحرك قصب السياج وأصدر صوتًا من أثر احتكاكها بأوراقها الحادة كالفولاذ.

- يا وصيفي، سُمع صوت أجش، أيها العجوز الأخرق لقد وجدتك!

تجمدت في مكاني؛ فقد أدركت لمن يكون الصوت.

تقدم زوربا خطوة ورفع عصاه ثم توقف. كنت أرى بوضوح تحت ضوء النجوم كل حركاته.

- من أنت؟ صاح زوربا وهو يمط رقبته.

- هذا أنا، مانولاكاس.

- اذهب من هنا، امض في طريقك!

- لماذا، هل تخجل يا زوربا؟

- لا أخجل منك يا مانولاكاس، اذهب من هنا قلت لك. أنت رجل قوي وضخم الجثة؛ لكن الحظ لم يحالفك، تعلم هذا؟

- حظ أعمى أو حظ بصير، قال مانولاكاس وكنت أسمع صوت أسنانه وهي تكز، أنا أريد فقط أن أغسل عاري والليلة. هل لديك سكين؟

- لا، أجاب زوربا؛ لا أحمل سوى عصا.

- اذهب وأحضر سكينك؛ سأنتظرك هنا. اذهب!

لم يتحرك زوربا.

- هل أنت خائف؟ قال صوت مانولاكاس بسخرية. اذهب اقول لك!

- لأفعل ماذا يا مانولاكاس، ماذا أفعل بالسكين؟ قال زوربا وقد بدأ يستشيط غضبه؛ ماذا أفعل بالسكين؟ أ تتذكر عند الكنيسة، أظنك تذكر، كان لديك سكين وأنا لم يكن لدي؛ لكن أظن أنني أبليت بلاءً حسناً.

زمجر مانولاكاس غاضباً.

- أتسخر مني؟ لقد اخترت لحظة خاطئة لتفعل هذا، فأنا لدي سلاح وأنت ليس لديك، هيا أحضر سكينك أيها المقدوني وتعال لنتقاتلْ!

- ألقِ بسكينك وأنا سألقي بعصاي وتعال لنتقاتل! صرخ زوربا وكان صوته يرتعش من الغضب.

هيا أيها الحقير!

شمر زوربا ساعديه، ألقى بعصاه وسمعت صوتها تسقط على سياج القصب.

- ألقِ بالسكين! سمعت صوت زوربا يقول مرة أخرى.

اقتربت على أطراف أصابعي؛ لمحتُ بريق السكين وهو يسقط على القصب.

- هيا! صرخا وقفزا في الهواء ليلتحما ببعضهما.

لكن قبل أن يحدث هذا قفزت بينهما.

- توقفا! صحت. تعال إلى هنا يامانولاكاس، وأنت يا زوربا؛ ألا تخجلان!

اقتربا مني ببطء؛ أمسكت باليد اليمنى لكل منهما.

- تصافحا؛ أنتما رجلان طيبان وشجاعان، تصالحا!

- لقد جلب لي العار... قال مانولاكاس، محاولاً أن يسحب يده.

- وهل يجلب لك العار بهذه السهولة يا قبطان مانولاكاس! قلت. القرية كلها تتحدث عن شجاعتك؛ لا تنظر إلى ما حدث قبل الأمس عند الكنيسة؛ كانت ساعة نحس، وما حدث قد حدث، انتهى! ثم لا تنسَ أن زوربا مقدوني غريب، وهذا عار كبير علينا نحن الكريتيين

أن نرفع يدًا بالعدوان على غريب في أرضنا... هيا، مد يدك، هذا هو النبل وهذه هي الشجاعة، هيا، لنذهب ونحتسِ بعض النبيذ، لنشوِ عِرقًا من السجق - لتتوطد صداقتنا يا قبطان مانولاكاس!

أمسكت مانولاكاس من خصره، أزحته قليلاً وهمست في أذنه:

- إنه رجل عجوز، ولا يصح لشاب في حجمك وشجاعتك أن يتشاجر معه!

هدأ مانولاكاس:

- حسناً، لكن من أجلك فقط!

تقدم خطوة ناحية زوربا ثم مد يده بتململ:

- هيا يا زوربا، هيا يا بن العم، لقد انتهى الأمر، دعنا ننسه؛ أعطني يدك!

- لكنك قد أكلت أذني، قال زوربا، حلال عليك؛ وهذه يدي!

تصافح الرجلان، كان تصافحهما طويلاً وقوياً؛ كانا يعصران كفيهما بقوة وينظر كل منهما إلى الآخر بتوحش. خفت أن يتشاجرا مجددًا.

- إن قبضتك قوية، قال زوربا؛ أنت شاب قوي يامانولاكاس! لكن حاول أن تشد يدك أقوى من هذا، إن كنت تستطيع!

- كفى، صحت؛ هيا لنبلل صداقتنا بالنبيذ!

دخلت بينهما، كان زوربا على يميني ومانولاكاس على يساري، وسرنا نحو شاطئنا.

- سيكون الحصاد جيداً هذا العام... قلت كي أغير الموضوع؛ لقد كان المطر وفيراً.

لكن لم يجب أي منهما؛ كان الغيظ ما زال يملأ صدريهما. كانت كل آمالي معقودة على النبيذ؛ وصلنا إلى كوخنا.

- مرحباً يا قبطان مانولاكاس في كوخنا الفقير! قلت؛ اشوِ لنا السجق وقدمه لنا.

جلس مانولاكاس خارج الكوخ على أحد الصخور. أشعل زوربا الفرن، قام بشوي السجق، وملأ الكؤوس الثلاث حتى آخرها.

- نخبكما!، قلت وأنا أرفع الكأس الممتلئة؛ في صحتك يا قبطان مانولاكاس! في صحتك يا زوربا! وطرقنا الكؤوس!

صب مانولاكاس بعض النبيذ على الأرض وقال بصوت رسمي:

- ليسل دمي مثل هذا النبيذ إذا رفعت يدي عليك مرة أخرى! - ثم قال زوربا: وهكذا يسيل دمي أنا أيضاً وهو يصب بعض القطرات على الأرض، إذا لم أكن قد نسيت بالفعل أذني التي أكلتها يا مانولاكاس!

عند الفجر استيقظ زوربا وجلس على فراشه وأيقظني:

- هل أنت نائم يا سيدي؟

- ماذا جرى يا زوربا؟

- لقد رأيت حلماً. حلمًا غريبًا؛ أعتقد أننا على وشك سفر. اسمع لتضحك. كان، طبقاً للحلم، هنا في الميناء مركب كبير، مثل مدينة. وكان يصفر قبل رحيله. وأنا كنت أجري من القرية لألحق به؛ وكنت أمسك ببغاء في يدي. وصلت وتسلقت المركب، وجاء القبطان وصاح: «تذكرة». «كم ثمنها؟» سألته وأنا أخرج من جيبي حفنة نقود.

«ألف دراخمة يا للهول. - لمَ لا تكون ثمانمئة دراخمة - لا، ألف دراخمة.. - ليس معى سوى ثمانمئة، خذها! - بل ألف ولا أقل! وإلا، اخرج من هنا بسرعة!» غضبت جداً وقلت له: «اسمع أيها القبطان، خذ ما لدي الآن وإلا سأستيقظ من نومي ولن تأخذ حتى هذا المبلغ!»

انفجر زوربا في الضحك:

- آه، أي آلة هو الإنسان! تضع فيها خبزًا ونبيذًا ولفتًا وتخرج لك تنهدات، وتأوهات وضحك وأحلام. مصنع! في رؤوسنا، أعتقد أنه آلة عرض سينمائي كالتي يحكون عنها.

قفز زوربا من فراشه:

- لكن لماذا الببغاء؟ قال بقلق. ماذا يعني الببغاء الذي كان كنت أحمله معي في السفر؟ أووخ، أخشى أن....

لم يكد ينتهي من كلمته؛ إلا وجاء رسول قصير بدين بشعر أحمر يشبه الشيطان، دخل علينا وهو يلهث.

- بحق الرب! إن المدام المسكينة تصيح لكي تحضروا لها الطبيب! تقول بأنها تحتضر، ستموت المسكينة، وتقول إن ضميرك سيعذبك.

شعرت بخجل شديد؛ ففي هذا الارتباك الذي حط علينا مؤخراً، قد نسينا تماماً صديقتنا العجوز.

- إن المسكينة تتألم، تابع القصير ذو الشعر الأحمر، إنها تسعل سعالاً شديداً تهتز معه كل القرية. إن سعالها أشبه بنهيق الحمار.

- اخرس ولا تهزأ منها. صحت بالرجل.

امسكت بورقة وكتبت عليها رسالة:

- خذ هذه الرسالة إلى الطبيب ولا تعود إلا بعد أن تراه قد امتطى فرسه؛ أ تسمع؟ اذهب الآن.

أخذ الرسالة ودسها في حزامه وانطلق.

كان زوربا قد نهض وارتدى ملابسه بسرعة في صمت شديد.

- انتظر، سآتي معك، قلت له.

- أنا متعجل جداً... قال وهو يتحرك نحو طريق القرية.

بعد دقائق قليلة انطلقت أنا في نفس الطريق.

حديقة الأرملة تبدو مهجورة؛ كان ميميكو جالساً على باب بيتها متكوراً منهاراً مثل كلب ضرب بقسوة. نقص وزنه بشدة وقد تحلقت عيناه وغارتا نحو الداخل بشدة، التفت ورآني ثم أمسك بحجر.

- سألته وأنا أسرق نظرة متلهفة نحو الحديقة. ماذا تفعل هنا يا ميميكو؟

شعرت بذراعين قويين يطوقان عنقي... ورائحة أزهار الليمون وزيت الغار. لم نتحدث؛ رأيت عينيها السوداوين المتقدتين في ضوء الفجر؛ وأسنانها الحادة التي كانت تفركها بورق الجوز تتلألأ في بياضها.

- لمَ تسألني؟ صاح ميميكو؛ هيا اذهب إلى عملك!

- هل تريد سيجارة؟

- لا، لقد امتنعت عن التدخين. راح يقول لاهثاً وهو يبحث عن كلماته بصعوبه، كلكم، كلكم، جميع الناس..... خنازير... حمقى... كذابون... قتلة! قال كأنه وجد الكلمة التي كان يبحث عنها وهو ينهض ويضرب كلتا كفيه:

- قتلة! قتلة! قتلة! راح يصيح ثم يضحك بعصبية.

كاد قلبي يعتصر ألماً لما رأيته هكذا.

- أنت على حق يا ميميكو، أنت على حق! دمدمت وأنا أرحل بخطوات سريعة.

على مشارف القرية كان العم أناغنوستي منحنياً على عصاه، ينظر بتفحص إلى الفراشات الصفراء التي تحوم فوق العشب الربيعي. الآن وقد كبر سنه ولا تأكله الهموم من أجل الحقول، والنساء والأولاد، لديه الوقت أن يتأمل العالم. رأى ظلي على الأرض فرفع رأسه:

- إلى أين أنت ذاهب في باكرًا هكذا؟ سألني.

لكنه لابد أنه قد رأى ملامح القلق على وجهي، ودون أن ينتظر إجابتي قال:

- هيا يا بني أسرع؛ ربما تلحق أن تراها حية... آه، يا للمسكينة!

كان فراشها الذي أهلكته كثرة الاستخدام، أكثر الأشياء إخلاصاً لها في حياتها، القابع في منتصف الغرفة يكاد يغطي كل مساحتها. فوق رأسها انحنى كاتم أسرارها الخلوص، بسترته الخضراء وتاجه الأصفر، بعينيه المستديرتين الفطتين، شارداً وقلقاً، الببغاء. راح ينظر إلى سيدته ولا يستطيع أن يصرخ؛ ويلتفت لينظر إليها وهي تكتوي على فراشها تحتضر وهو غير قادر على الصراخ ويميل برأسه الذي يشبه رأس إنسان وينصت.

لا، لا، هذه التنهدات والتأوهات ليس مصدرها متعة ممارسة الحب، فتلك يعرفها جيداً، إنها تشبه المداعبات وأنين اليمام الرقيق... أما العرق الذي يسيل بارداً على وجه سيدته وشعرها المنفوش الملتصق على خديها، وهذه التشنجات الغريبة على الفراش كان الببغاء يراها لأول مرة... كان يريد أن يصيح: «كانا فارو! كانافارو» لكن صوته لم يستطع عبور حنجرته المخنوقة.

كانت السيدة البائسة تئن في فراشها، ذراعاها المتهدلان لم يتوقفا عن رفع الملاءات من على جسدها، كانت تشعر بالاختناق. كان وجهها عارياً من الطلاء، منتفخاً، وتفوح منها رائحة عرق كريهة ورائحة لحم بدأ في التعفن. حذاؤها المهترئ كان يظهر من تحت الفراش، يكاد قلبك يعتصر ألماً وأنت تشاهد زوج الأحذية المهترئ هذا أكثر من رؤية السيدة التي تملكه.

كان زوربا يجلس بجوار وسادة المريضة ولا يستطيع أن يرفع عينه عن حذائها المهترئ؛ كان يعض على شفتيه محاولاً أن يقاوم البكاء. عندما دخلت الغرفة وقفت خلفه لكنه لم يشعر بي.

كانت المسكينة تنتفض محاولة أن تتنفس، تكاد تختنق. أخذ زوربا قبعة كبيرة مزدانة بالورود الصناعية كانت معلقة في مسمار على الحائط وراح يحرك الهواء أمام وجهها بسرعة؛ كانت يده تتحرك بشكل أخرق كما لو كان يهوي فحمًا مشتعلاً.

فتحت عينها مرعوبةً؛ نظرت حولها؛ كان العالم يبدو شاحباً لها، لم تتعرف على أحد؛ ولا حتى زوربا وهو يمسك بقبعتها المزدانة بالورود.

كانت لا ترى شيئاً حولها سوى الظلام وأبخرة زرقاء تصعد من الأرض وتأخذ أشكالاً متعددة، تارة أفواه تزمجر وتارة مخالب تقترب منها وتارة أجنحة سوداء.

غرزت البائسة أظافرها في وسادتها المتسخة المبقعة من فرط البكاء واللعاب والعرق وصاحت:

لا أريد أن أموت! لا أريد!

لكن نادبتي القرية سمعتا بالخبر وجاءتا؛ تسللتا إلى داخل الحجرة وجلستا على الأرض مستندتين بظهريهما على الحائط.

رآهما الببغاء وغضب، فمد عنقه وراح يصرخ: «كاناف...» لكن زوربا مد يده بسرعة بغضب داخل القفص وأخرس الببغاء.

سُمع صياح المسكينة مرة أخرى:

- لا أريد أن أموت! لا أريد.

ظهر شابان أسمران عند الباب ونظرا إلى المريضة، أشار كل منهما إلى الآخر بسعادة ثم اختفيا.

وفجأة سمعنا من الخارج أصوات رفرفة مرعوبة كما لو أن أحداً كان يطارد الدجاج ليمسك به.

الندابة الأولى، العجوز مالاماتينا، التفتت إلى رفيقتها وقالت:

- هل رأيتهما يا عمة لينيو، رأيت؟ إنهما متعجلان، سيقومان بخنق الدجاجات وتمزيقها. لقد تجمع كل رعاع القرية استعدادًا لنهب البيت!

التفتت نحو فراش المريضة:

هيا موتي بسرعة، دمدمت في أعماقها، موتي بسرعة لكي نستطيع أن نغنم شيئًا من هذا البيت!

- أقول لك الحقيقة بحق الرب، قالت العمة لينيو، وهي تضم فمها الخالي من الأسنان، الحقيقة يا سيدة مالاماتينا، إنهم سيفعلون الصواب...

اخطف لتأكل واسرق ما تحتاج إليه، هكذا كانت أمي تقول لي. هيا نردد رثاءنا نحن حتى نلحق بحفنة من الفتات، لنخطف حصتنا، ولو لفافة خيطان إذا لحقنا. كي نبارك روحها. ليس لديها لا كلاب ولا أولاد، من سيأكل هذا الدجاج والأرانب، من سيشرب كل هذا النبيذ؟ من سيرث كل هذا الصوف والأمشاط والحلوى؟ آه، يا سيدة مالاماتينا، ليسامحني الرب؛ فكم أرغب أن أهجم الآن لآخذ هذه الأشياء الآن!

- انتظري يا عزيزتي، لا تتعجلي، قالت السيدة مالاماتنينا وقد شدت على ذراع رفيقتها؛ لقد خطرت ببالي فكرة لابد أن أقولها لك، لكن انتظري حتى تفيض روحها أولاً!

في هذا الوقت كانت المسكينة مدام أورتانس تبحث تحت وسادتها عن شيء، وكأنها تريد شيئاً. شدت من صندوقها بعد أن شعرت بالخطر صليباً ذهبياً مشغولاً على عظم لامع ووضعته تحت رأسها. كانت قد نسيته لسنوات طويلة محشورًا بين القمصان وخرقها المخملية البالية، كان في قاع الصندوق. وكأن الرب هو عقار يأخذه المرء عندما يمرض مرضاً شديداً؛ عندما نعيش ونأكل ونشرب ونكون بصحة جيدة؛ لا نحتاج هذا العقار.

وجدت الصليب المشغول بعد أن نبشت الصندوق وألصقته على صدرها المبلل بالعرق.

- وراحت تردد بصوت خافت؛ يا إلهي... يا إلهي بحب وحنان وتقبل الصليب - عاشقها الأخير.

كان كلامها خليطًا بين اللغة اليونانية والفرنسية، لكنه كان مفعماً بالحب والرقة. وشعر الببغاء أن نبرة صوتها قد تغيرت، فتذكر سهرات وليال طويلة مضت قفز من فرط فرحته:

- كانافارو! كانافارو! كان صوته قد تحشرج مثل صوت قرصان يصيح تحت لفح الشمس.

لم ينهض زوربا هذه المرة كي يكتم صوته. كان ينظر بعطف إلى المرأة وهي تبكي وتقبل المسيح المصلوب ويفيض وجهها بعذوبة رغم الآلام.

فتح الباب ودخل العم أناغنوستي بحركة بهلوانية وهو يحمل قبعته في يده واقترب من المريضة وانحنى، ثم قال لها بندم:

- اغفري لي يا مدام، سامحيني ليغفر لك الرب. اغفري لي إذا كنت يوماً تحدثت إليك بشكل غير لائق، نحن بشر ونخطئ، سامحيني!

لكن المدام الآن كانت مستلقية في هدوء، غارقة في سكينة لا توصف، ولم تسمع العجوز أناغنوستي. لقد محيت كل عذاباتها، العجز والفقر، كل سخرية البشر، مرارة الوحدة، والأمسيات الحزينة أمام باب بيتها وهي تغسل الجوارب. الباريسية المدللة المغوية التي كانت تلعب بقوى العالم الأربع على ركبتيها!

البحر عميق الزرقة، الأمواج يعلوها الزبد، السفن الحديدية تتهادى راقصة على سطح البحر، أشكال وألوان من الأعلام التي ترفرف على صواريها. الطيور والأسماك تشوى عليها وتأتي الفواكة مثلجة في أطباق كريستالية، وتنطلق سدادات زجاجات الشمبانيا حتى السقوف الحديدية.

لحى سوداء وكستنائية ورمادية وشقراء، روائح أربع انواع مختلفة من العطور، عطر البنفسج، المسك، العنبر والكولونيا، تغلق أبواب الكبائن الحديدية، تشد الستائر السميكة، تضاء المصابيح الكهربية - ومدام أورتانس تغمض عينيها على كل حياتها وعذاباتها --

آه! يا إلهي، هل كانت لحظات أم لم تكن...

تتنقل من ركبة إلى أخرى، تعانق سترات مطرزة بالذهب، تحشر أصابعها في لحى كثيفة حريرية. ماذا كانت أسماؤهم، لا تذكر، لا هي تذكر ولا حتى الببغاء؛ لا يذكر سوى كانافارو، لأنه كان أكثرهم كرماً، وكان الاسم الوحيد الذي يستطيع نطقه؛ كل الأسماء الأخرى كانت صعبة ومعقدة، وهكذا نسيت وضاعت.

أخذت مدام أورتانس نفساً عميقاً واحتضنت الصليب الذهبي بعنف وحماس.:

- كانافارو... كانافارو يا حبيبي... راحت تدمدم بهذيان وهي تضمه إلى صدرها المتعرق المترهل.

- إنها لا تدرك ما تقول، قالت العمة لينيو بصوت خافت.

لابد أنها رأت ملاكها وخافت... هيا نحل مناديلنا ونقترب.

- ألا تخافين من الرب، قالت السيدة مالاماتينا. هل سنندب عليها وهي حية:

- قالت العمة لينيو متذمرة، ألا ترين صندوق ملابسها والمحل في الخارج والدجاج والأرانب التي في الفناء، وتقولين انتظري حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة، لا أقول لك إن من سيتحرك أولاً سيأخذ كل شيء!

قالت، ثم نهضت واقفة، وسارت الأخرى خلفها غاضبة. حلتا منديلي رأسيهما، حلتا العقد الأخيرة في شعريهما الأبيض، و وقفتا على جانبي السرير. وراحت العمة لينيو تصيح نادبة بصوت ثاقب رفيع بعد أن أعطت إشارة البدء:

ييييييييييييييييييييييييييييي

هب زوربا وأمسك بالعجوزتين من شعريهما وألقى بهما إلى الخارج:

- اخرسا أيتها البومتان العفنتان! صاح فيهما؛ إنها ما زالت حية، اذهبا إلى الجحيم!

- أيها العجوز الأحمق! صاحت السيدة مالاماتنيا وهي تعقد منديل رأسها. من أين جاءنا هذا العجوز المتطفل!

سمعت مدام أورتانس القبطانة العجوز هذه الصيحة المدوية، واختفت نظرتها الوجيعة، غرقت الفرقاطة والمشويات والشمبانيا واللحى المعطرة وسقطت ثانية على

فراش الموت العفن، هنا على حافة العالم الأخيرة. حاولت أن تنهض كأنها تحاول الهروب، لكنها سقطت مرة أخرى وراحت تصيح بصوت خافت:

لا أريد أن أموت... لا أريد...

انحنى زوربا فوقها، ووضع يده على جبهتها المتقدة، وأبعد الشعر الملتصق عن وجهها، اغرورقت عيناه الكبيرتان.

- اهدئي يا سيدتي، تمتم؛ أنا هنا، زوربا، لا تخافي!

وفجأة عادت الرؤية من جديد مثل فراشة عملاقة وغطت الفراش بأكمله. أمسكت المحتضرة يد زوربا، ومدت ذراعها ببطء ولفته حول عنقه بعد أن انحنى؛ وراحت شفتاها ترتعشان:

- كانافارو... كانافارو

تدحرج تمثال المسيح من على الوسادة وسقط على الأرض فتهشم؛ وسمع صوت رجالي من الفناء.

- هيا ضع الدجاجة أقول لك، إن الماء يغلي!

فك زوربا ذراع مدام أورتانس من حول رقبته. نهض واقفاً؛ كان وجهه شاحبا. مسح عينيه بظهر كفه حيث كانت دموعه تسيل؛ ونظر إلى المريضة فلم ير شيئاً؛ فمسح عينيه مرة ثانية ورآها تهز قدميها المتورمتين وتلوي فمها. اهتزت مرة ثم أخرى، انزلقت الملاءات وبدت نصف عارية، كان العرق يغطي جسدها المنتفخ المتورم، وبدا لون جلدها شاحباً. أطلقت صرخة مثل طير يذبح؛ ثم ثبتت تماماً، وبقيت عيناها الزجاجيتان مفتوحتين مرعوبتين.

قفز الببغاء إلى الطابق السفلي في قفصه وتشبث بقضبان القفص راح ينظر إلى زوربا الذي مد يده فوق السيدة وأغلق عينيها برقة لا توصف...

- هيا بسرعة يا أولاد، لقد فاضت روحها! صاحت النادبتان، واندفعتا نحو الفراش.

أطلقتا صيحة طويلة وراحتا تهزان جسدها من أعلى إلى الأمام والخلف، ضمتا قبضتيهما وأخذتا تضربان صدريهما؛ وهكذا شيئاً فشيئاً وفي هذا الطقس الجنائزي

البليد حلت عليهما حالة الدوار والمرارة السحيقة، كسرتا قشرة الجوز وبدأتا أناشيد الرثاء:

- *لا ينبغي ولا يليق بك أن يصبح فراشك في بطن الأرض.....*

خرج زوربا إلى الفناء؛ سيطر عليه البكاء لكن الخجل منعه من أن يبكي أمام النساء. أذكر أنه قال لي ذات مرة: «لا أخجل أن أبكي أمام الرجال، فنحن الرجال نفهم بعضنا، لكن إنه من العار أن تظهر دموعك أمام النساء؛ فلابد أن نبدو دائماً شجعانًا؛ لأننا إذا بدأنا البكاء أمامهن، ماذا سيحدث لهن هؤلاء المسكينات؟ سيهلك العالم»

غسلوها بالنبيذ، فتحت العجوز صندوق الملابس وألبستها ملابس نظيفة، وألقت عليها زجاجة كولونيا أخذتها من الصندوق أيضاً؛ جاء ذباب الموت من البساتين المجاورة ووضع بيضه على خياشيمها وفي جوانب عينيها وعلى أطراف أصابعها.

بدأ الغروب يخيم على المكان. كانت السماء ناحية الغرب تبدو لطيفة، لون بنفسجي قاتم فوق السحب المحمرة محلاة بالذهب عند أطرافها كانت تغير من أشكالها بين الحين والآخر - تارة تأخذ شكل السفن، وتارة شكل البجع، وتارة شكل وحوش قطنية وخرق من حرير. ومن خلال قضبان القصب في الفناء كان يبدو البحر يهدر بعيداً وتتلاطم أمواجه متلألئة.

زوج من الغربان المكتنزة طارا من فوق شجرة تين وحطا على أرضية الفناء؛ غضب زوربا فأخذ حجرًا وألقاه عليهما ليبعدهما.

في الركن الآخر من الفناء تجمع رعاع القرية وقد أعدوا وليمة ضخمة. وضعوا في الخارج مائدة المطبخ، بحثوا ووجدوا الخبز والأطباق والسكاكين والملاعق، أحضروا من القبو قنينة نبيذ كبيرة، طهوا ثلاث دجاجات، وراحوا الآن يأكلون بتلذذ ويشربون ويقرعون كؤوسهم في سعادة.

- ليغفر لها الرب! وليذب كل ما فعلت من ذنوب في رحمة الرب!

- ويجعل كل عشاقها ملائكة يحملون روحها.

- انظر إلى العجوز زوربا، قال مانولاكاس، إنه يطارد الغربان! لقد صار أرملَ المسكين، دعنا نناديه ليشرب على روح المرحومة! يا زوربا، تعال إلى هنا يا بن بلدتنا!

التفت زوربا. مائدة معدة، البخار يتصاعد من الدجاج المطهو، النبيذ في الكؤوس، شباب قوي لفحته الشمس، بالمناديل الكريتية معقودة على رؤوسهم، جالسين مستمتعين ممتلئين بالحيوية والشباب.

«زوربا، زوربا، همهم، تماسك يا رجل؛ إن الشدائد للرجال»

اقترب، شرب كأساً من النبيذ ثم اثنين فثلاثة كل على دفعة واحدة؛ أكل قطعة دجاج، كانوا يتحدثون إليه وهو لا يرد، كان يأكل ويشرب بنهم على عجل يشرب الكأس جرعة واحدة ويأكل لقمات كبيرة، صامتًا تماماً. لف وجهه نحو الغرفة حيث مرضت وكانت تحترق من الحمى ثم تخشبت وماتت فيها صديقته العجوز وهو يسمع التراتيل الجنائزية التي كانت تنبعث من النافذة المفتوحة. من وقت لآخر كان يتوقف صوت النحيب والتراتيل ويسمع صوت عراك وفتح وغلق دواليب وأصوات خطوات تجري بسرعة كما لو كانوا في معركة؛ ثم تبدأ أصوات الندب والنحيب والتراتيل الجنائزية من جديد، رتيبة، حزينة ناعمة مثل طنين النحل.

كانت النادبتان تجريان في أرجاء غرفة الميتة، تنحبان وتبحثان بجنون. فتحتا دولاباً صغيراً ووجدتا خمس أو ست ملاعق، قليلاً من السكر، صفيحة بن، وصندوقًا من الحلوى. العمة لينيو اندفعت وخطفت الحلوى والبن، والعجوز مالاماتينيا خطفت السكر والملاعق؛ اندفعت وخطفت قطعتين من الحلوى، حشرتهما في فمها، وبدأت أناشيد النواح تخرج من فمها مكتومة ومخنوقة من خلال الحلوى:

- *فلتسقط الزهور فوقك والتفاح تحت قدميك.....*

دخلت امرأتان عجوزان أخريان إلى الغرفة، هجمتا على الصندوق ودستا يديهما داخله، خطفتا بعض المناديل ومنشفتين أو ثلاثة؛ ثم دستاها في صدورهن، التفتتا نحو الميتة ورسمتا شارة الصليب.

رأت السيدة مالاماتينا العجوزتين تنهبان الصندوق فاستشاطت غضباً.

- أكملي أنت في التراتيل، وسألحقك بعد قليل! صاحت في العمة نينيو، ودست رأسها في الصندوق.

خرق من الساتان، روب بنفسجي باهت اللون، قمصان حمراء مهترئة، مروحة يد مكسورة، مظلة حمراء صغيرة، وفي القاع قبعة أدميرال مثلثة؛ كانت هدية منذ زمن بعيد. كانت ترتديها عندما تبقى وحيدة أحياناً وتتطلع إلى نفسها في المرآة بجدية وتؤدي التحية العسكرية.

اقترب أحد من الباب؛ انسحبت النساء العجائز، وراحت العمة نينيو تضرب صدرها وتصيح:

- *... لتكن أكاليل القرنفل ملفوفة حول عنقك.....*

دخل زوربا؛ نظر إلى المرأة الميتة هامدة ساكنة في صفاء، شاحبة اللون يملؤها الذباب، وذراعاها متصلبان على صدرها وشريط بنفسجي حول عنقها.

«راح يفكر، حفنة من التراب، تجوع وتضحك وتضاجع. كتلة من الطين تبكي. والآن؟ أي شيطان يأتي بنا إلى الحياة وأي شيطان يأخذنا منها؟»

بصق على الأرض؛ ثم جلس. لقد أكل وشرب وعادت إليه قواه.

في الخارج، في الفناء كان الشباب يستعدون للرقص؛ لقد جاء فانوريوس عازف الليرة، أزاحوا المائدة وصفائح الكيروسين وحوض الحمام وسلة الغسيل كي يفسحوا مكاناً للرقص؛ وبدأوا يرقصون.

وصل أعيان القرية، العم أناغنوستي بعصاه الطويلة المدببة وقميصه الأبيض ذي الأكمام الواسعة؛ كوندومانوليو البدين القذر؛ المدرس وهو يضع محبرة في حزامه وريشة خلف أذنه. لم يأتِ العجوز مافروأندوني؛ لقد هرب إلى الجبل.

- سعدت برؤيتكم يا شباب! قال العم أناغنوستي وهو يشير بيديه محيياً الجميع. جميل أنكم تستمتعون بوقتكم! تأكلون وتشربون، بارك فيكم الرب، لكن لا ترفعوا أصواتكم؛ لابد أن تخجلوا فإن الميت يسمع يا شباب!

راح كوندومانوليوس يشرح:

- جئنا لنجرد ممتلكات المرحومة ونوزعها على فقراء القرية. لقد أكلتم وشربتم، لكن يكفي هذا! لا تهدموا المكان على أركانه وتجردوه من محتوياته! قال وهو يلوح بعصاه مهدداً.

خلف الثلاث أعيان ظهرت حوالي عشر من النساء حافيات وعاريات الرأس بشعور شعثاء وملابس مهلهلة. كل منهن تحمل كيسًا فارغاً تحت إبطها وسلة على ظهرها. اقترين خلسة، خطوة خطوة وبصمت.

العم أناغنوستي التفت ورآهن واستشاط غضبه:

- أيتها الغجريات، صاح فيهن! ماذا تفعلن هنا يا جالبات النحس؟ أننا هنا نجرد كل شيء ونكتبه على الورق ثم بعد ذلك سنوزعه بالترتيب والعدل على الفقراء. هيا، ارجعن من حيث أتيتن، هيا، قبل أن أرفع عصاي وأنهال عليكن ضرباً!

نزع المدرس الحبارة من حزامه، فرد صفحة من الورق السميك واتجه نحو الدكان ليبدأ الجرد من هناك.

لكن في هذه اللحظة سمع ضجيجاً هائلاً - صوت طرق صفائح وقدور وأدوات مطبخ وأصوات أكواب وفناجين تكسر. كان كل هذا الضجيج يأتي من المطبخ.

هرع العم اناغنوستي وهو يهز عصاه. لكن فور أن وصل إلى هناك! عجائز، رجال، أطفال، كانوا يهرولون من الباب ويقفزون من النافذة ومن فوق السياج، يحملون ما يستطيعون حمله وخطفه: مقلاة، قدور، وسائد، أرانب... البعض كان يخلع الأبواب والنوافذ ويحملها على كتفيه.

ميميكو أيضاً قد أخذ زوجًا من أحذية المرحومة، ربطهما برباط وعلقها في عنقه - تشعر وكأنه حمل المدام على عنقه وهرول، وقد بقي منها الحذاء فقط....

قطب المدرس حاجبيه وأعاد المحبرة إلى حزامه، طوى الورقة التي أخرجها دون أن ينبس بكلمة، ولملم كبرياءه المجروحة وخرج عبر الباب مغادرًا.

العم أناغنوستي المسكين؛ راح يصرخ ويتوسل ويرفع عصاه:

- عار عليكم أيها الناس، إن الميت يسمع!
- هل أذهب وأجلب القس؟ قال ميميكو.
- أي قس أيها الأحمق؟ أجاب كوندومانوليوس غاضباً. إنها كانت أجنبية، ليست على ملتنا، ألم ترها كيف كانت ترسم شارة الصليب على صدرها؟ بالأصابع الأربع الكافرة! هيا نواريها في التراب حتى لا تتعفن جثتها وتصيب القرية بالطاعون!
- لقد بدأت الديدان تظهر على جسدها، أقسم بالصليب! قال ميميكو وهو يرسم شارة الصليب.

العم أناغنوستي هز رأسه الصغير:
- وما الغريب في هذا أيها الأحمق: ألا تعرف أن رأس الإنسان مملوء بالديدان منذ اليوم الذي يولد فيه، لكننا لا نراها؛ لكن الديدان عندما تشعر أن الجسد بدأ يتعفن، تخرج من ثقوبها - بيضاء بيضاء، مثل الجبن!

بدأت النجوم الأولى تظهر في الهواء وترتعش مثل أجراس فضية؛ وراحت الأجراس تهتز وتقرع في السماء.

نزع زوربا قفص الببغاء من فوق فراش المرحومة. الطير اليتيم تكور في ركن في القفص؛ راح ينظر ويتطلع دون أن يفهم ماذا يجري؛ وضع رأسه بين ريشه وانكمش.

ما إن حمل زوربا القفص حتى نهض الببغاء وراح يصيح، لكن زوربا مد يده ليسكته:
- اسكت، قال له بدلال، اسكت؛ تعال معي.

انحنى زوربا، نظر إلى الجسد الميت؛ ظل ينظر إليه بعضًا من الوقت، اختنق حلقه؛ راح ينحني فوقها ويقبلها لكنه تماسك.
- الوداع، همهم.

أخذ القفص وخرج إلى الفناء. رأيته بطرف عيني واقتربت منه:
- هيا بنا نغادر... قال لي بصوت خفيض وهو يمسك بذراعي.

كان يبدو هادئاً، لكن شفتيه كانتا ترتعشان.
- هذا مصيرنا جميعاً... قلت، كي أواسيه.

انتظر يا زوربا، الآن يحملونها؛ انتظر لنرى... هل تحتمل؟

- أحتمل... أجاب مختنقاً.

وضع القفص على الأرض وعقد ذراعيه.

خرج من غرفة المرحومة العم أناغنوستي وكوندومانوليو بلا غطاء رأس وهم يرسمون شارة الصليب.

خلفهم كان أربعة شباب من الراقصين، وأعواد الزهور ما زالت خلف آذانهم، يبدون في مزاج رائق، نصف ثملين، كانوا يحملون الباب الخارجي للمنزل من زواياه الأربع وفوقه كانت الجثة ممددة. خلفهم كان عازف الليرة حاملاً آلته بيده، حوالي عشرة رجال في مزاج رائع، كانوا لا يزالون يمضغون شيئاً في أفواههم، وحوالي خمس أو ست نساء، كل منهن كانت تحمل قدور طهي أو مقاعد!

خرج ميميكو أخيراً، بالحذاء المهترئ معلقاً حول عنقه.

- قتلة! قتلة! قتلة! راح يصيح ويضحك.

هب نسيم ساخن، وبدا البحر يصخب ويهدر؛ رفع عازف الليرة قوسه - صوته العذب الدافئ المرح انتشر في الليلة الدافئة:

أيتها الشمس لمَ تتعجلي الغروب...

- هيا بنا! قال زوربا؛ لقد انتهى كل شيء.

سرنا صامتين في شوارع القرية الضيقة. كانت البيوت سوداء من الظلام، من وقت لآخر كنا نسمع كلبًا ينبح، ثورًا يخور. وراحت الريح تحمل لنا من بعيد مع الهواء الساخن مثل أمواج لعوب أنغام الليرة.

خرجنا من القرية وأخذنا الطريق نحو الشاطئ.

- قال زوربا، كي يقطع هذا الصمت المميت، ما هذه الريح؟ هل هي الريح الجنوبية؟

لكن زوربا كان يسير في المقدمة يحمل قفص الببغاء كأنه يحمل فانوساً فلم أجبه.

عندما وصلنا إلى شاطئنا، التفت إلي زوربا:

- هل أنت جائع؟ سألني.

- لا، لست جائعاً يا زوربا.

- هل بك نعاس؟

- لا.

- ولا أنا. دعنا نجلس على الحصى؛ أريد أن أسألك شيئاً.

كنا متعبين، لكن لم تكن لدينا رغبة في النوم. لم تكن لدينا رغبة أن نضيع مرارة هذا اليوم؛ النوم كان يبدو لنا هروبًا في ساعة خطر؛ فكنا نخجل أن ننام.

جلسنا بالقرب من البحر؛ وضع زوربا القفص بين ركبتيه وظل لوقت طويل صامتاً. ظهرت مجموعة من النجوم فوق الجبل، وحش ضخم بذيل حلزوني، وبين الحين والآخر كانت نجمة تنفصل عن هذا الجسد.

نظر زوربا إلى النجوم، وفمه مفتوح من الدهشة كأنه يراها لأول مرة.

- ماذا يجرى هناك! همهم.

بعد قليل اتخذ القرار وتكلم:

- أتستطيع أن تخبرني يا سيدي، قال، وكان صوته يبدو رسمياً عميقاً في هذه الليلة الحارة، أيمكنك أن تقول لي ماذا يعني كل هذا؟ من الذي صنعه؟ لماذا صنعه؟ وفوق كل هذا، (كان صوته يزداد غضباً ورعبا) لماذا نموت؟

- لا أدري يا زوربا! أجبت، وخجلت كأنني سئلت عن أبسط الأشياء، وأكثرها أهمية، ولم أستطع لها إجابة.

- لا تعرف! قال زوربا وقد جحظت عيناه.

كانت قد جحظت عيناه في ليلة أخرى عندما قلت له أنني لا أعرف أن أرقص.

صمت قليلاً ثم انفجر:

- إذن ما هي كل هذه الأكوام من الأوراق التي تقرؤها؟ لماذا تقرأ؟ إذا كانت الكتب والأوراق لا تقول هذا، فماذا تقول؟ وما الفائدة منها؟

- الكتب تحكي عن حزن وحيرة الإنسان الذي لا يستطيع أن يجيب عما تسأله يا زوربا، أجبته.

- وماذا أفعل بالحزن والحيرة! قال زوربا وهو يضرب الحصى بقدمه.

انتفض الببغاء فورًا، سمع الأصوات وراح يصيح:

- كانافارو! كانافارو! وكأنه يطلب المساعدة.

- اخرس أنت أيضًا! قال له زوربا وضرب على القفص بيده.

التفت نحوي مرة أخرى.

- أريد أن تقول لي من أين أتينا وإلى أين سنذهب. بربك كل هذه السنوات ذبلت فوق حكم سليمان وعصرت ثلاثة آلاف طن من الأوراق! بماذا خرجت من كل هذا؟

كان صوت زوربا محملاً بالألم وكانت أنفاسه تتقطع وهو يتكلم؛ آه لو كان بمقدوري أن أعطيه إجابة!

شعرت في أعماقي أن السمو الذي يمكن أن يصل إليه الإنسان ليس هو المعرفة أو الفضيلة، ولا الخير أو النصر؛ لكنه شيء آخر أسمى، أكثر بطولة ويأساً: الرعب، الرهبة المقدسة. ما هو أبعد من الرهبة المقدسة؟ عقل الإنسان لا يستطيع أن يصل إليها.

- لا تجيب؟ قال زوربا بقلق.

جربت أن أجعل رفيقي يفهم ما هي الرهبة المقدسة:

- نحن ديدان صغيرة متناهية الصغر يا زوربا، أجبت، فوق ورقة شجر عملاقة. هذه الورقة هي الأرض؛ والأوراق الأخرى هي النجوم التي تراها تتحرك في الليل. نزحف فوق هذه الورقة ونتفحصها بلهفة؛ نشمها، لها رائحة طيبة أو عفنة؛ نتذوقها؛ تؤكل؛ نضربها، يصدر منها صوت وتصرخ مثل شيء حي.

بعض الناس، الذين لديهم الجرأة يصلون حتى حافة هذه الورقة؛ وعند حافتها ننحني بآذان منصتة وعيون مفتوحة ونتطلع إلى أسفل نحو الفوضى، وتقشعر أبداننا.

نخمن كم أن الهاوية تحتنا مخيفة، نسمع من بعيد صوت الحفيف الذي يصدر من أوراق الشجرة العملاقة الأخرى. نشعر بالرحيق يداهمنا من جذر الشجرة وتنتشي قلوبنا وتحيا. وهكذا عندما ننحني نحو الهوة نرتعد خوفاً. ومن تلك اللحظة يبدأ....

توقفت. أردت أن اقول: «في تلك اللحظة يبدأ الشعر» لكن زوربا لن يفهمني؛ فصمت.

- ماذا يبدأ؟ سأل زوربا بلهفة. لماذا توقفت؟

- .... يبدأ الخطر الكبير يا زوربا، قلت. البعض يصاب بالدوار ويهذي، والبعض يخاف ويصارع كي يجد إجابة تقوي قلبه ويقولون: «إله»؛ آخرون ينظرون عند حافة الورقة بهدوء وشجاعة ويقولون: «هذا يعجبني».

فكر زوربا لبعض من الوقت؛ كان يحاول أن يفهم.

- قال أخيراً، أنظر في كل لحظة إلى الموت؛ أنظر إليه ولا أخاف؛ لكن لم أقل أبداً، أبداً: هذا يعجبني، أو أحبه. لا، لا أحبه ولا يعجبني على الإطلاق! أنا لست حراً. لا أوافق!

صمت، لكن بسرعة صاح مرة أخرى:

- لا، لن أمد يد الموت إلى عنقي وأقول لها: «هيا، إذبحيني مثل الخروف، فأنا أريد أن أذهب إلى الجنة!»

بقيت صامتاً؛ ثم التفت ونظر إلي غاضباً.

- أنا لست حراً؟ صاح مرة أخرى.

لم أتكلم.

قل «نعم» عند الحاجة لتحول المحتوم إلى إرادة حرة - ربما هذا هو الطريق الإنساني الوحيد للنجاة.

كنت أعرف هذا ولذلك لم أتكلم.

رأى زوربا أنه لم يعد لدي شيء لأقوله، فأخذ القفص ببطء، كي لا يوقظ الببغاء، وضعه بجوار رأسه وتمدد.

- طابت ليلتك يا سيدي، قال؛ كفى.

لم أستطع النوم ولم تكن لي رغبة فيه. لم أكن أفكر بشيء؛ كنت أشعر فقط أن في هذه الليالي الحارة شيئاً، أو أحداً ما ينضج بداخلي. كنت أرى، أعيش هذه المعجزة: أن أتغير. إنه ما يحدث دوماً في قاع أنفسنا المظلم، يحدث الآن بوضوح، أمامي ويبدو مكشوفاً للغاية. كنت متقوقعاً على حافة البحر أراقب المعجزة.

بهت ضوء النجوم، أضاءت السماء، وفوق هذا الضوء ارتسمت مبتهجة الجبال والأشجار وطيور النورس. بزغ الفجر.

مرت عدة أيام؛ ارتفعت عيدان المحاصيل ومالت رؤوسها من ثقل الثمار؛ زيز الحصاد راح يحوم فوق أشجار الزيتون وينشر في الهواء، راحت الحشرات تتلألأ في الضوء. كان البخار يتصاعد من البحر.

تحرك زوربا في صمت نحو الجبل فجرًا، لقد كان تركيب المصعد الهوائي المعلق قد شارف على الانتهاء، تم تثبيت الأعمدة وشد الأسلاك الفولاذية وتركيب البكرات. كان زوربا يعود من العمل ليلا منهكاً؛ يوقد النار ويطهو الطعام، ونأكل، كنا نتحاشى أن نوقظ التساؤلات الشيطانية في داخلنا، ونتجنب الحديث في أمور مثل الحب والموت والخوف.

لم نثر أبداً أي حديث حول الأرملة ولا عن مدام أورتانس، ولا حتى عن الرب. كنا ننظر بصمت إلى البحر.

ذات صباح، استيقظت واغتسلت؛ وكما لو أن كل العالم استيقظ وراح يتلألأ كعالم جديد؛ أخذت الطريق نحو القرية؛ على يساري البحر هادئ ولونه قاتم؛ وعلى يميني الحقول الذهبية وقد انتصبت عيدان القمح فيها، مررت على شجرة التين النبيلة، مليئة بالأوراق الخضراء وثمار التين الصغيرة، رحت أمر على عجل دون أن ألتفت نحو حديقة الأرملة، دخلت إلى القرية. رأيت الفندق الصغير الذي تيتم وصار مهجوراً؛ عارية غرفه من الأبواب والنوافذ، الكلاب تمرح في الفناء والغرف خاوية وقذرة. وفي غرفة المرحومة لا يوجد شيء، لم يعد هناك فراش ولا صندوق ولا مقاعد؛ لقد نهبوا كل شيء، لم يبق سوى خرقة مهلهلة في أحد الأركان، وفردة من حذاء منزلي أحمر مهترئ. ما زالت تحتفظ بقالب قدم المدام بإخلاص؛ فردة الحذاء هذه كانت أكثر رحمة من قلوب البشر، فلم تنس حبيبها، تلك القدم المعذبة.

تأخرت في العودة، كان زوربا قد أشعل الموقد ويستعد للطهي؛ وعندما رفع رأسه ورآني فهم على الفور أين كنت؛ فقطب حاجبيه. وبعد أيام عديدة، فتح قلبه مرة أخرى؛ وتكلم:

- قال وكأنه يريد أن يبرر نفسه: عندما أتألم يا سيدي؛ في كل مرة ينشطر قلبي؛ لقد أصبح قلبي مثخناً بالجراح؛ لقد زات الجراح وزاد علي الألم ولم أعد أحتمل.

- لقد نسيت بوبولينا بسرعة يا زوربا، قلت بنبرة صوت حادة دون أن أقصد.

تضايق زوربا ورفع صوته:

- طريق جديد، صاح، خطط جديدة، لقد أقلعت عن تذكر الماضي، وعن سؤال السماء؛ ماذا يجري الآن، هذه هي اللحظة، هذا ما يعنيني. أقول: «ماذا تفعل الآن يا زوربا؟ - إني نائم. - إذن نم جيداً! - ماذا تفعل الآن يا زوربا؟ - أعانق امرأة. - إذن احتضنها بقوة يا زوربا. - انس كل شيء، لا يوجد شيء في هذا العالم سوى أنت وهذه اللحظة، هيا!»

- عندما كانت تعيش بوبولينا، لم يشعرها أيّ كانافارو بالسعادة مثلما فعل زوربا العجوز. ستسأل لماذا؟ لأن كل الكانافاروهات الذين كانوا يقبلونها، في نفس اللحظة التي يقبلونها كانوا يفكرون في أساطيلهم وممالكهم ونياشينهم ونسائهم؛ لكن أنا؛ كنت أنسى كل شيء، وتلك الحمقاء كانت تفهم هذا وتشعر به - لا توجد سعادة في الحياة للمرأة أكثر من هذه!

المرأة الحقيقية لابد أن تعرف، تستمتع أكثر بالسعادة التي تعطيها وليس بالسعادة التي تأخذها من الرجل.

انحنى ووضع الحطب في النار؛ وقال بعد قليل:

- بعد غد سنفتتح المصعد الهوائي المعلق؛ لأشعر أنني لا أطأ الأرض بقدمي، أشعر كأني صرت هوائياً، وأن أكتافي معلقة ببكرات!

- أتذكر يا زوربا الطعم الذي ألقيته إلي في المقهى في ميناء بريوس؟ إنك تصنع أفضل حساء في العالم - وكانت الصدفة العجيبة - أنا هذا هو طعامي المفضل؛ كيف عرفت هذا؟؟؟

هز زوربا رأسه:

- وأنى لي أن أعرف يا سيدي؟ هذا ما جاء في رأسي حين رأيتك تجلس هادئاً منزوياً في ركن المقهى وترتعش منحنياً فوق كتابك - لا أدري، ربما أفترضت أنك تحب الحساء. لا أدري هذا ما خطر على بالي.

صمت فجأة وراح يطرق السمع.

- انتظر، قال؛ يبدو أن أحدهم قادم!

صوت خطوات متعجلة ولهاث عميق لشخص يجري وفجأة على ضوء النار المرتعش قفز أمامنا راهب بعباءته السوداء وبلا غطاء رأس، وبلحية نصف محروقة ونصف شارب. كانت رائحته كيروسين.

- مرحباً بالأب زكريا! صاح زوربا! مرحباً بالأب يوسف. لماذا تبدو في هذه الحالة الرثة؟

سقط الراهب على الأرض بجوار النار؛ كان فكاه يصطفقان.

انحنى زوربا وغمز له بعينه.

- نعم، أجاب الراهب.

قفز زوربا في الهواء فرحاً.

- أحسنت أيها الراهب! الآن ستذهب إلى الجنة، لكن هناك أيضاً ستحمل صفيحة من الكيروسين.

- آمين! همهم الراهب ورسم شارة الصليب.

- كيف حدث؟ متى؟ هيا احكِ لنا!

- لقد رأيت الملاك ميخائيل يا أخ كانافارو؛ وأعطاني الأمر: كنت في المطبخ أنظف فاصولياء؛ كنت وحدي تماماً، كان الباب مغلقاً، الكهنة يصلون صلوات المساء، والهدوء يخيم على المكان. رحت أنصت إلى الطيور التي تشبه الملائكة. كنت هادئاً تماماً، فقد جهزت كل شيء. كنت قد ابتعت صفيحة من الكيروسين وخبأتها في الكنيسة الصغيرة في المقابر، تحت المذبح، حتى يباركها الملاك ميخائيل...

حسناً، بينما كنت أنظف الفاصولياء، كانت فكرة الجنة تسيطر على عقلي: «يا إلهي أدخلني الجنة، حتى لو ستجعلني أنظف الخضراوات في مطابخ الجنة للأبد!» في هذا كنت أفكر والدموع تسيل من عيني. وفجأة إذا بي أسمع صوت رفرفة أجنحة؛ فهمت، خفضت رأسي. وسمعت عندئذ صوتًا يجلجل: «يا زكريا، ارفع عينيك ولا تخف!» لكني كنت أرتعش وسقطت على الأرض. «ارفع عينيك يا زكريا!» سمعت نفس الصوت مرة أخرى. رفعت عيني: قد فتح الباب، والملاك ميخائيل يقف عنده بالضبط كما هو مرسوم على بوابة محراب الدير: بأجنحة سوداء، وصندل أحمر، وخوذة ذهبية. لكنه لم يكن يحمل سيفاً، كان يحمل شعلة متقدة: «أهلاً يا زكريا ومد يده إلي، شعرت أن يدي تحترق. لكن الملاك اختفى؛ رأيت فقط من الباب خطًّا من النار في السماء، كأن نجمًا سقط.

مسح الراهب العرق من على وجهه؛ صار وجهه شاحباً. وراحت أسنانه تصطك كما لو أن حمى أصابته.

- حسناً، قال زوربا؛ تمالك نفسك يا زكريا؛ أكمل أيها الراهب!

- في تلك اللحظة كان الرهبان يخرجون من صلواتهم المسائية ويدخلون حجرة الطعام. ركلني بقدمه رئيس الدير وهو يمر كما لو كنت كلبًا. ضحك الرهبان، وأنا؛ لم أنطق بكلمة. كانت رائحة الهواء تعبق بأثر مرور الملاك؛ لكن أحداً لم يشعر بها. جلسوا في حجرة الطعام، «ألن تأكل يا زكريا؟ سألني مسؤول الطعام في الدير» لم أجبه. «إنه يشبع من خبز الملائكة!» قال ذوميتايوس اللوطي؛ ضحك الرهبان مرة أخرى. فنهضت من على

المائدة وذهبت نحو المقابر؛ نزلت على ركبتي أمام الملاك فشعرت بثقل قدمه وهي تدوس على رقبتي مرت الساعات كالبرق؛ هكذا تمر الساعات والقرون في الجنة. عند منتصف الليل، خيم الهدوء، نام الرهبان، وقفت ورسمت شارة الصليب وقبلت قدم الملاك. «لتكن مشيئتك!» قلت، أخذت صفيحة الكيروسين، فتحتها، كنت قد حشوت عباءتي بالخرق، وخرجت.

كان الظلام حالكًا. لم يظهر القمر بعد، كان الدير مظلماً كالجحيم. دخلت إلى الفناء، صعدت الدرج، وصلت حتى القاعة الرئيسية؛ سكبت الكيروسين على الباب والنوافذ والجدران، جريت نحو غرفة ذوميتيوس وبدأت من هناك أسكب على الغرف في الرواق الكبير - كما أخبرتني. ثم دخلت إلى الكنيسة، أخذت شمعةً وأشعلتها من قنديل المسيح وأشعلت النار...

صمت الراهب وهو يلهث؛ كانت عيناه مليئتين باللهب.

- حمداً للرب، زأر ورسم شارة الصليب على صدره؛ فليتمجد الرب! فجأة اندلعت النيران في الدير كله. وصحت بصوت عال «إلى نار الجحيم!» ورحت أجري. جريت بأقصى سرعتي، سمعت صوت الأجراس تدق، الرهبان يصيحون، وأنا أجري أجري...

عندما طلع النهار. اختبأت في الغابة. كنت أرتعش. عندما أشرقت الشمس، سمعت الرهبان يهرولون في الغابة ينادونني؛ لكن الرب ألقى على عيونهم غشاوة ولم يرني أحد منهم. عند الغروب سمعت صوتاً يقول لي: «انزل نحو الشاطئ وارحل! - أيها الملاك، وجهني»

صرخت ورحت أجري في الطريق. لم أكن أعرف إلى أين أنا ذاهب، لكن الملاك كان يوجهني؛ تارة بوميض، وتارة على شكل طائر أسود على الأشجار، وتارة على شكل درب هابط من الجبل. وأنا كنت أجري خلفه بثقة وإيمان، إن رحمته كبيرة! إلى أن وجدتك يا كانافارو ونجوت.

لم يتكلم زوربا؛ لكن على وجهه ارتسمت ابتسامة عريضة شيطانية وصلت من فمه حتى أذنيه الكبيرتين المشعرتين.

كان الطعام جاهزاً فأنزل القدر من على النار.

- ما هو طعام الملائكة يا زكريا، سأله زوربا؟

- الروح، أجاب الراهب وهو يرسم شارة الصليب.

- الروح، أي الريح بمعنى آخر؟ أي: لا تشبع، هيا أيها المسيحي لتأكل خبزا وحساء السمك لتستعيد قواك؛ لقد أنجزت عملك على أحسن وجه، هيا لتأكل!

- لست جائعاً قال الراهب.

- إن زكريا لا يشعر بالجوع، لكن ماذا عن يوسف؟ ألا يشعر هو أيضاً بالجوع:

- يوسف، قال الراهب ببطء، كما لو اكتشف سراً خطيراً، لقد احترق يوسف اللعين، حمداً للرب!

- احترق! صاح زوربا ضاحكاً. كيف؟ متى؟ هل رأيته؟

- لقد احترق يا أخ كانافارو في اللحظة التي أشعلت فيها الشمعة من قنديل المسيح. رأيته، بعيني هاتين وهو يخرج من فمي، مثل شريط أسود بأحرف من نار؛ سقطت على شعلة الشمعة ثم تقوقعت مثل ثعبان وصارت رماداً. لقد انزاح من على قلبي حمل ثقيل، حمداً للرب. أظن أنني في الجنة بالفعل.

نهض من مكانه بجوار النار حيث كان قابعاً متقوقعاً.

- سأذهب لأنام على الشاطئ؛ عندي أمر بذلك.

ذهب نحو الشاطئ واختفى في ظلام الليل.

- ستحمل ذنبه في عنقك يا زوربا، قلت؛ إذا وجده الرهبان، سيهلك.

- لن يجدونه، لا تكل هماً يا سيدي؛ فأنا أعرف هذه الألاعيب جيداً. غداً في الصباح الباكر سأحلق له لحيته وأعطيه ملابس أخرى مما يلبسها البشر وسألقي به في أي سفينة مبحرة. لا تقلق يا سيدي. فهذا أمر تافه... هل الحساء جيد؟ كل طعام البشر بشهية ولا تقلق.

- أرأيت؟ مات الشيطان الذي كان بداخله. والآن أفرغ نفسه منه؛ صار فارغاً! انتهى المسكين، لقد صار مثل الآخرين.

فكر للحظة ثم قال فجأة:

- هل تظن يا سيدي أن هذا الشيطان كان...

- بالتأكيد، أجبت. لقد سيطرت عليه فكرة حرق الدير؛ حرقه وهدأ. هذه الفكرة هي التي كانت ترغب في أن تأكل اللحم وتحتسي النبيذ، أن تتحول وتنضج لتصبح فعلاً. زكريا الآخر، لم تكن لديه حاجة للنبيذ واللحم؛ فهو كان يتحول وينضج بالصيام.

قلب زوربا الأمر في رأسه مراراً وتكراراً.

- آه؛ أظن أنك على حق يا سيدي، قال؛ أظن أن بداخلي أنا أيضاً خمسة أو ستة شياطين!

- كلنا لدينا يا زوربا، لا تخف. وكلما زاد عدد الشياطين بداخلنا كلما كان هذا أفضل. لكن بشرط هام؛ أن يكون لهم هدف واحد وإن أرادوا أن يصلوا إليه من طرق مختلفة.

هذه الكلمات أصابت زوربا بالاضطراب، فوضع رأسه بين ركبتيه وراح يفكر.

- أي هدف؟ سأل أخيراً وهو يرفع عينه.

- لا أدري يا زوربا، إنك تسألني سؤالاً صعبًا، ماذا أقول لك؟

- اشرح لي بكلمات بسيطة كي أفهم؛ فأنا تركت كل شياطيني حرة ترتع وتفعل ما تشاء، وتسلك أي طريق شاءت - ولهذا يقول البعض أني أحمق، آخرون يقولون عني أمين أو مجنون والبعض الآخر يصفني بأنني حكيم مثل سليمان. وأنا كل هذا وربما أكثر من هذا، لكن هذه سَلَطَة روسية؛ اشرح لي إذن إن استطعت؛ أي هدف؟ أي غاية؟

- أظن يا زوربا، لكني ربما أكون مخطئاً، أن البشر ثلاثة أنواع: هناك نوع من البشر غايتهم أن يعيشوا، أو كما يقولون يقضون حياتهم؛ يأكلون، يشربون، يضاجعون، يجمعون المال، يبحثون عن المجد... ثم هناك نوع آخر غايتهم ليست حياتهم هم، بل حيوات الآخرين؛ يشعرون أن كل البشر واحد ويكافحون كي يبصروهم وينيروا دربهم ويحبوهم بقدر ما يستطيعون. وهناك النوع الأخير من البشر وغايتهم هي أن يعيشوا حياة الكون؛ كل الكون بما فيه من بشر وحيوانات ونباتات ونجوم - كلنا في النهاية شيء واحد، مصنوعون من مادة واحدة والكل يكافح في هذا الصراع المرعب؛ أي صراع؟ أن نصل بهذه المادة وننضج بها لتصبح روحًا.

حك زوربا رأسه:

- أنا رجل غليظ الرأس بطيء الفهم، فلا أفهم هذه الأشياء بسهولة....

آه يا سيدي، آه لو كنت تستطيع أن تشرح لي هذه الأمور بالرقص!

عضضت على شفتي يائساً. كم كنت أتمنى لو كنت أستطيع أن أرقص كل هذه الأفكار والتأملات البائسة!

أو لو كنت تستطيع يا سيدي أن تقول لي كل هذ الأفكار على شكل حكايات. كما كان يفعل حسين أغا. هذا الرجل كان جاراً لي من الأتراك؛ عجوزًا جداً، فقيرًا جداً، ليس متزوجاً فلا زوجة له ولا أولاد. كانت ملابسه بالية لكن نظيفة؛ كان يغسلها بنفسه، يطهو وينظف، وعند الغروب في بيته كان يجلس في الفناء مع جدتي والنساء العجائز من جيرانه ويحيك الجوارب.

حسين أغا كان رجلا فاضلاً مثل قديس؛ ذات يوم وضعني على ركبتيه ووضع يده على رأسي كأنه يباركني:

يا أليكسي، قال لي، سأقول لك سراً؛ أنت صغير ولن تفهمه؛ لكن عندما تكبر ستفهمه. اسمع يا بني: إن طبقات السماء السبع وكذلك طبقات الأرض السبع لا تتسع للرب؛ لكن قلب الإنسان يتسع له. لهذا، انتبه يا أليكسيس يا بني، بارك الله فيك، ألا تجرح قلب إنسان أبداً!

كنت أسمع زوربا في صمت. كم أتمنى لو أن لدي المقدرة ألا أفتح فمي إلا عندما تصل الفكرة المجردة إلى أعلى قمة لها - عندما تصبح حكاية! كل هذا لا يقدر عليه سوى شاعر كبير، أو شعب بعد قرون عديدة من الحرث الصامت.

وقف زوربا.

- سأذهب لأرى رفيقنا قاذف النار. سآخذ له لحافًا أغطيه به كي لا يصاب بالبرد. سآخذ معي مقصاً، سنحتاجه.

ضحك.

- قال: عندما سيصبح البشر بشرًا؛ اسمًا على مسمى، سيكون لزكريا مكانٌ بجوار العصافير!

أخذ البطانية والمقص واتجه نحو الشاطئ. ظهر القمر غير مكتمل، فألقى بضوء باهت وحزين على الأرض.

وحيد، بجوار النار المدفأة، رحت أزن كلمات زوربا - مليئة بجوهر، وطين الإنسان ورائحته وثقله. كلماته تصعد من أحشائه وتحتفظ دوماً بدفء الإنسان الداخلي. كلماتي كانت ورقية، تنزل من الرأس ملطخة فقط ببقعة من الدم؛ وإن كانت لها قيمة، فهذه القيمة تكتسبها من بقعة الدم هذه.

استلقيت على بطني ورحت أقلب الجمر، لكن زوربا دخل فجأة مذهولاً وذراعاه يتأرجحان بجواره.

- يا سيدي، قال، لا تفزع...

نهضت واقفاً.

- الراهب مات.

- مات؟!

- وجدته مستلقياً فوق صخرة، تحت ضوء القمر، ركعت ورحت أقص له لحيته وشاربه. وهو رغم ذلك لم يتحرك أبداً؛ فأخذت أحف من شعره؛ لابد أنني قصصت نصف رطل من الشعر. إلى أن تملكني الضحك! «رحت أناديه، يا سنيور زكريا، ثم هززته، هيا قم لترَ معجزة العذراء!» لكنه لم يتحرك. هززته مرة أخرى، لا شيء! لا يمكن أن يكون قد مات هذا البائس؟! فكرت وفتحت عباءته، عريت صدره، وضعت يدي على قلبه لأسمع دقاته؛ لا شيء! هدوء تام. لم تعد الآلة تعمل.

أذهل الموت زوربا للحظة، لكنه سرعان ما استعاد حيويته وذاب الذهول في الهواء.

- الآن ماذا سنفعل يا سيدي؟ أنا أقول إن نحرقه. من قتل بالكيروسين، يقتل بالكيروسين. ألا يوجد في الإنجيل شيء كهذا إن عباءته مشبعة بالكيروسين والقذارة، سيشتعل مثل دمية يهوذا في الخميس المقدس.

- افعل ما شئت، قلت منزعجاً.

وغرق زوربا في التفكير.

- هذا شيء مزعج، قال زوربا، مزعج للغاية... إذا أحرقته عباءته ستصبح كالشعلة، لكنه نحيف هذا البائس؛ جلد على عظم، سيتأخر كثيراً حتى يصير رماداً؛ ليس به شحوم على الإطلاق كي يساعد النار على الاشتعال...

هز رأسه.

- لو أن هناك ربًّا، قال، لكان سيتوقع ما سيحدث له وكان صنعه بديناً، وكسى جسده بشحومات كثيرة، لو كان هذا، لأنقذنا الآن!

- لا تخلط الأمور يا زوربا؛ أقول لك وافعل ما تشاء، لكن افعله بسرعة.

- الأفضل أن تخرج معجزة من كل هذا. أن يعتقد الرهبان أن الرب صار حلاقاً ثم قتله، لأنه حرق الدير...

حك رأسه مرة أخرى.

- لكن أية معجزة؟ أي معجزة؟ ما الحل الآن؛ ماذا أنت فاعل يا زوربا.....

أوشك القمر الصغير على الغروب؛ لقد نزل في الأفق ولامس خط اتحاد البحر مع السماء. كان لونه ذهبيًّا مائل للحمرة مثل نحاس يحترق.

كنت منهكاً، تمددت. عندما استيقظت في الصباح، رأيت زوربا يجلس بجواري ويصنع القهوة.

كان لونه شاحباً؛ وعيناه منتفختان محمرتان جداً من السهر. لكن شفتيه الغليظتين كانتا تبتسمان في مكر.

- لم أنم يا سيدي طوال الليل؛ كنت أعمل.

- أي عمل يا وغد؟

- كنت أصنع المعجزة.

ضحك. ووضع إصبعه في فمه.

- لن أخبرك! غداً افتتاح المصعد الهوائي المعلق؛ سيأتي القساوسة السمان ليباركوا؛ وعندها سوف تسمع عن المعجزة الجديدة للعذراء المنتقمة، جلّت في عظمتها.

صب لي القهوة.

- أنا أصلح أن أكون رئيس دير يا صاح، قال. إذا فتحت ديراً، أراهنك أنني سوف أغلق جميع الأديرة وآخذ كل زبائنهم وأحتكر السوق. أتريد دموعًا؟ إسفنجة مبللة وكل الأيقونات ستبكي وتدمع؛ أتريد رعداً؟ سأضع آلةً تحت المذبح تصدر هديراً؛ أتريد أشباحًا؟ طوال الليل سأجعل اثنين من الرهبان المخلصين يحلقون فوق أسطح الدير وفوقهما الملاءات. وسوف أجمع كل العرجان والمكفوفين والمقعدين من كل قرية ليؤكدوا أنهم قد شفوا ويقفزون من الفرح ليرقصوا...

لا تضحك يا سيدي! كان أحد أعمامي قد وجد بغلاً عجوزاً على وشك الموت؛ تركوه في العراء ليموت. أخذه عمي، كان يخرج به للمرعى كل صباح ويعود به إلى البيت في المساء. «ماذا تفعل بهذا البغل العجوز يا عم خارالامبو، كان يقول له القرويون، إنه مصنع للروث!» كان عمي يجيبهم. أنا سأفتح ديراً يا سيدي، وسيكون مصنعاً للمعجزات.

عشية الأول من مايو ستبقى محفورة في ذاكرتي طيلة حياتي. المصعد الهوائي المعلق كان جاهزاً، الأعمدة، الأسلاك الفولاذية، البكرات تلمع تحت شمس الصباح، أكوام من جذوع أشجار الصنوبر عند قمة الجبل، العمال كانوا ينتظرون أن يعلقوها على السلك ويطلقوها لتتدحرج إلى الشاطئ.

علم يوناني كبير كان يرفرف عند قمة الجبل وآخر عن سفحه قريباً من الشاطئ. في فناء الكوخ أعد زوربا برميلاً من النبيذ وكان أحد العمال يشوي خروفاً سميناً على السفود ليقدم مع النبيذ إلى المدعوين الذين سيأتون للتهنئة بالافتتاح وتمني الازدهار.

وضع زوربا قفص الببغاء خارج الكوخ وثبته على صخرة عالية بالقرب من أحد الأعمدة.

- كما لو أني أرى سيدته، همهم وهو ينظر برقة إلى الببغاء وأخرج من جيبه حفنة من الفستق وراح يطعمه.

كان زوربا يرتدي أفضل ما لديه، قميصًا أبيض مفتوحًا وفوقه سترة رمادية، بنطالاً أخضر وحذاءً جديدًا ذا حواف مطاطية؛ بدأت الصبغة تبهت على شواربه فوضع عليها الزيوت المعطرة.

ومثل نبيل عظيم راح يستقبل النبلاء من الأعيان ويشرح لهم كيف سيعمل المصعد الهوائي المعلق وكيف سيجلب أرباحاً طائلة للقرية، وكيف ألهمته العذراء المقدسة لينفذه بهذه الدقة.

- وأخذ زوربا يشرح: هذا المشروع، هو مشروع عظيم؛ فلابد أن تجد الزاوية الصحيحة والانحدار الصحيح - إنها عملية علمية معقدة! لقد أخذ مني الأمر شهوراً طوالاً وأنا أحاول أن أصل إلى نتيجة. فكما يبدو أن عقل الإنسان يعجز أمام الأعمال العظيمة، فهي تحتاج إلى إلهام إلهي. رأتني العذراء في هذه المحنة العصيبة وأسفت لحالي: آه كم أنت مسكين يا زوربا؛ قالت، كم هو انسان طيب، فهو يريد الخير لهذه القرية، سوف أساعده. وها هي المعجزة!

صمت زوربا ورسم شارة الصليب ثلاث مرات.

- يا لها من معجزة! ذات ليلة جاءتني في المنام امرأة تتشح بالسواد - كانت العذراء، قدس الله مقامها، قدس الله مقامها! وكانت تمسك في يدها نموذجاً مصغراً جداً للمصعد الهوائي المعلق «وقالت، يا زوربا، أحضرت لك التصميم من السماء؛ ها هو، وها هي زاوية الانحدار، حلت عليك بركاتي!» قالت؛ واختفت؛ وثبت من فراشي، ركضتُ إلى حيث كنت أجري تجاربي - وماذا رأيت؟ لقد صار الحبل في مستوى الانحدار الصحيح وتفوح منه رائحة البخور؛ بالتأكيد قد لمسته يد مريم العذراء المقدسة!

فتح كوندومانوليو فمه ليسأل، لكنّ أربعة رهبان يمتطون البغال ظهروا عند الدرب الحجري؛ كان أمامهم راهب يهرول ويحمل صليباً خشبياً على كتفه. كان يصيح؛ دون أن نميز ما كان يقوله صائحاً.

سُمعَت تراتيل، كان الرهبان يحركون أيديهم، يرسمون شارة الصليب، والحجارة تحت حوافر بغالهم تقدح شرراً.

وصل الراهب الذي كان يسير على قدميه والعرق يتصبب منه؛ رفع الصليب عالياً وصاح:

- أيها المسيحيون، المعجزة! أيها المسيحيون، المعجزة! لقد أحضر الرهبان العذراء... اركعوا واتلوا الصلوات!

هرول القرويون متأثرين - أعيانًا وعمالاً - تحلقوا حول الرهبان ورسموا شارة الصليب. كنت أقف على مقربة؛ نظر إلي زوربا وكانت عيناه تشع بريقًا.

- اقترب يا سيدي، قال لي، اقترب لتسمع معجزة القديسة العذراء.

اسمعوا أيها المسيحيون. معجزة إلهية! اسمعوا أيها المسيحيون. لقد سيطر الشيطان على روح زكريا الملعون وجعله ليلة أمس يسكب الكيروسين ويشعل الحريق في الدير، رأينا النيران تشتعل في طرقات الدير والغرف في منتصف الليل. قرعنا الأجراس، صرخنا: «أيتها العذراء المنتقمة ساعدينا!» وجرينا بجرات المياه نحاول إخماد النار، مجد الرب العذراء المقدسة!

ذهبنا إلى الكنيسة الصغيرة حيث أيقونتها الخارقة وركعنا: «أيتها العذراء المنتقمة، دعونا، ارفعي رمحك واضربي المجرم!» تجمعنا في الفناء، اكتشفنا غياب زكريا، يهوذا. «هو الذي أحرقنا، نعم هو!» رحنا نبحث عنه طوال اليوم ولم نجده؛ بحثنا طوال الليل ولم نجده. واليوم عند الفجر ذهبنا إلى الكنيسة الصغيرة؛ وماذا رأينا أيها المسيحيون؟ معجزة إلهية! كان زكريا مستلقٍ تحت قدمي العذراء جثة هامدة؛ وعلى طرف رمح العذراء بقعة دم كبيرة.

- ارحمنا أيها الرب! الرحمة أيها الرب! همهم القرويون وجثوا راكعين يتلون الصلوات.

- ثم الأكثر رعباً تابع الراهب قائلاً وهو يبلع لعابه. عندما انحنينا لنرفع المجرم الملعون، تسمرنا في أماكننا وأفواهنا فاغرة: لقد قصت العذراء شعره وشواربه ولحيته - مثل كاهن أجنبي!

التفت بسرعة نحو زوربا محاولاً أن أكتم ضحكي:

- آه أيها الوغد، قلت له بصوت خفيض.

لكن زوربا راح ينظر إلى الراهب بعينين جاحظتين ورسم شارة الصليب أكثر من مرة بقنوت.

- عظيم أنت، عظيم أنت أيها الرب، كم هي عظيمة كل أعمالك ومعجزاتك، قال مهمهماً.

في هذه اللحظة وصل الرهبان، ترجلوا من على بغالهم، الراهب المضيف كان يحمل الأيقونة الخارقة بين يديه، وقف على صخرة وجرى الجميع وراحوا يركعون أمام الأيقونة. في الخلف كان ذيوماتيوس السمين يحمل صينية يجمع التبرعات ويرش ماء الزهر على جباه القرويين؛ وحوله ثلاثة رهبان واقفين يعقدون أيديهم المشعرة على بطونهم وراحوا يرتلون وهم يتصببون عرقاً.

- سندور على قرى كريت، قال ذيوميتيوس السمين كي يصلي المؤمنون ويتبرعون بما تلهمهم به العذراء... لابد أن نجمع المال لنعيد بناء الدير المقدس...

- المحتالون! غمغم زوربا؛ سيربحون من وراء كل هذا.

اقترب من رئيس الدير:

- أبانا، بعد إذن قداستك، قال، كل شيء جاهز لندشن مشروعنا؛ هلا باركته؟!

صارت السماء عمودية، واشتدت الحرارة، ولم تكن هناك نسمة هواء.

وقف الكهنة حول العمود الأول الذي يرتفع عليه العلم اليوناني؛ جففوا عرقهم بأكمامهم الواسعة وبدأوا بإنشاد تراتيل المباركة «أساس البناء»:

«أبانا الذي في السماء، إلهنا، لتقم هذه الآلة على أسس متينة، لا تهزها رياح ولا تجرفها مياه...»

وراحوا يرشون الماء المقدس من الإناء النحاسي على الأعمدة والأسلاك والبكرات وعلى زوربا ثم أنا وبعد ذلك على القرويين والعمال والبحر.

بعد ذلك رفعوا الأيقونة كما لو كانت سيدة مريضة و وضعوها على صخرة عالية بجوار الببغاء ووقفوا حولها ليشاهدوا الافتتاح بإعجاب. في الناحية الأخرى وقف الآخرون، في المنتصف كنت أنا و زوربا؛ تنحيت جانباً بجوار البحر وانتظرت.

كانت التجربة ستنفذ بثلاثة جذوع من أشجار الصنوبر فقط تبركاً بالثالوث المقدس؛ لكن احتفاءً بالعذراء المنتقمة وتمجيداً لها، وضعوا جذعاً رابعاً.

الجميع رسموا شارة الصليب؛ الرهبان، القرويون والعمال:

- باسم الرب والعذراء! تمتموا.

وبقفزة واحدة كان زوربا عند العمود الأول، شد الحبل، ارتفع العلم؛ كانت تلك هي الإشارة التي ينتظرها العمال فوق الجبل. تراجعنا كلنا ورفعنا أبصارنا نحو قمة الجبل.

- باسم الرب! صاح رئيس الدير.

الذي حدث بعد ذلك لا يوصف؛ حلت الكارثة كالرعد، ونجونا بأعجوبة. اهتز الخط الهوائي بأكمله؛ الجذع الذي وضعه العمال على السلك الفولاذي راح يهبط بسرعة خرافية، قدح الشرر وتطاير في الهواء، وفي لحظات معدودات وصل إلى أسفل، لم يتبق منه سوى قطعة خشب محروقة.

نظر إلي زوربا مثل كلب مضروب يملؤه الخزي؛ تراجع الرهبان والقرويون، البغال المقيدة كانت تحاول المشي وتركل. ذيوماتيس السمين سقط على الأرض:

- ارحمني يا إلهي! غمغم مرعوبًا.

رفع زوربا يده.

- لم يحدث شيء، قال، هكذا عادةً مع أول جذع فقط؛ الآن ستشتغل الآلة بشكل جيد؛ انظروا!

رفع العلم، أعطى الاشارة وابتعد مهرولاً.

- وباسم الابن! صاح مرة أخرى رئيس الدير بصوت مرتعش.

انطلق الجذع الثاني؛ اهتزت الأعمدة، انطلق الخشب، وراح يتراقص مثل دولفين، كاد أن يسقط فوقنا لكنه لم يصل أبداً، لقد تهشم وانتثرت أجزاؤه عند الجبل.

- اللعنة على هذا! همهم زوربا وهو يعض على شاربيه؛ زاوية الانحدار ليست صحيحة.

قفز غاضباً نحو العمود وأنزل العلم، أعطى الإشارة مرة أخرى؛ راح الرهبان خلف البغال يرسمون شارة الصليب؛ وكان القرويون يقفون في وضعية الاستعداد للهرب.

- وباسم الروح القدس! قال رئيس الدير لاهثاً وهو يلملم عباءته.

الجذع الثالث كان جذع شجرة صنوبر ضخم؛ وفور انطلاقه أصدر هديرًا هائلاً.

- انبطحوا أيها الناس! صاح زوربا وهو يهرب.

انكبّ الرهبان على بطونهم، والقرويون هرولوا هاربين.

طار جذع الشجرة بسرعة خارقة من فوق الأسلاك، أصدر شراراً، لكن قبل أن نتمكن من رؤيته، كان قد طار من الجبل نحو الشاطئ وقفز في البحر بعيداً مخلفاً رغوة هائلة. أعمدة كثيرة مالت وترنحت؛ قطعت البغال الحبال وهربت.

- هذا لا شيء! لم يحدث شيء! أخذ زوربا يصيح غاضبا؛ الآن ستنضبط الآلة، هيا!

رفع العلم مرة أخرى؛ كنت تشعر بمدى إحباطه ومدى تعجله ليرى نهاية كل هذا.

- وباسم العذراء المنتقمة، قال رئيس الدير متلعثماً وهو يختبئ خلف الصخرة.

انزلق الجذع الرابع؛ سمع صوت انكسار مدوٍ! ثم سمع مرة ثانية! وبعدها انهارت كل الأعمدة الواحد تلو الآخر مثل أوراق اللعب.

- ليرحمنا الرب! ليرحمنا الرب! صاح القرويون والعمال والرهبان وهم يهمون بالهرب.

جرحت شظية فخد ذيوماتيس؛ وشظية أخرى كادت أن تفقأ عين رئيس الدير. اختفى القرويون؛ لم يبقَ سوى أيقونة العذراء منتصبة فوق الصخرة بالرمح في يدها تنظر بحدة نحو البشر؛ وبجوارها الببغاء المسكين، يرتعش وقد ازبأرَّ ريشه الأخضر.

أخذ الرهبان أيقونة العذراء ورفعوا ذيوماتيس الذي كان يئن من الألم، جمعوا بغالهم، وامتطوها مغادرين؛ العمال الذين كانوا يشوون الخروف على السفود فروا وتركوا اللحم يحترق.

- سيتفحم الخروف! صاح زوربا وجرى ليقُلبَه.

جلست بجواره؛ الآن لم يبقَ أحد على الشاطئ؛ كنا وحدنا تماماً. التفت ونظر إلي بتردد وريبة... لم يكن يعلم ماهو وقع الكارثة علي، إلى أين ستأخذه هذه المغامرة. انحنى ثانية فوق الخروف، أخذ السكين، قطع قطعة من اللحم وتذوقها؛ رفع الخروف من على النار و وضعه أمامه.

- طيب، قال؛ لذيذ يا سيدي! هل تريد قطعة؟

- أحضر النبيذ والخبز، لقد جعت.

قفز زوربا بسرعة ودحرج برميل النبيذ بجوار الخروف، أحضر رغيف خبز كبير وكأسين. أخذ كل منا سكيناً، قطعنا شريحتين من اللحم والخبز ورحنا نأكل ونأكل بنهم.

- أرأيت كم هو لذيذ يا سيدي؟ قال زوربا. شهي. فالمرعى هنا جيد ولا يجعل الغنم مليئة بالدهون، عندما تأكل الحيوانات عشباً جافاً يصير لحمها شهياً. لم آكل لحمًا شهيًّا كهذا في حياتي إلاَّ مرةً واحدة. كان ذلك في زمن كنت أحمل فيه أيقونة القديسة صوفيا التي غزلتها بشعري حجاباً... كان ذلك منذ زمن بعيد!

- أكمل، قل!

- إنها حكايات قديمة يا سيدي! نعرات يونانية مجنونة!

- تابع يا زوربا، فأنا تعجبني هذه الحكايات!

- حسناً، كان البلغاريون قد حاصرونا. وقد حل الليل. كنا نراهم حولنا على الجبال يشعلون النار ويطرقون الطبول ويصرخون كالذئاب لإرهابنا. كان عددهم حوالي ثلاثمائة؛ وكنا ثمانية وعشرين، والقبطان روفاس - رحمه الله، إذا كان قد مات! - قائدنا.

- يا زوربا، قال لي، ضع الخروف على السفود!

- سيصبح شهياً جداً يا قبطان، قلت إذا شويناه في الحفرة.

- افعل ما تشاء؛ لكن بسرعة؛ فقد أصابنا الجوع!

حفرنا حفرة، وضعت الخروف و فوقه الكثير من الفحم، أخرجنا الخبز من حقائبنا، وجلسنا في دائرة.

- قال القائد روفاس: ربما تكون هذه وجبتنا الأخيرة؛ هل ثمة من هو خائف؟

ضحكنا كلنا؛ فلم يكن بمقدور أحد أن يجيب. وجئنا بالنبيذ.

- نخبك أيها قائد؛ لتكن طلقاتنا صائبة!

شربنا كأساً تلو أخرى، أخرجنا الخروف. لم آكل في حياتي أطيب منه، ما زلت أتذكره ويسيل لعابي، كان اللحم طرياً يذوب في الفم! ارتمينا عليه جائعين والتهمناه.

- لم أذق في حياتي لحماً أطيب منه! قال القائد. ليكن الرب معنا!

ثم شرب كأسه جرعة واحدة، ولم يكن يشرب أبداً.و قال:

- غنوا، أغنية جبلية كالتي يغنيها لصوص الجبال! احذروا. فهؤلاء على الجبال يصيحون مثل الذئاب، أما نحن فسوف نغني كالبشر. هيا....

شربنا بسرعة؛ واشتعل الغناء؛ وراح الصدى يرن في الوديان:

«لقد شبت يا أولاد... أربعون عاماً لصًا في كل واد»

ليعد علينا بالخير هذا الضحك يا شباب، قال القائد، هيا يا أليكسيس؛ ألقِ نظرة على هذا الخروف... ماذا يقول لنا؟

رحت أكشط بالسكين ظهر الخروف، حتى لامست النار.

- لا أرى شيئاً يا قائد؛ لا أرى موتًا. سننجو هذه المرة أيضاً على ما أظن.

- ليسمع منك الرب؛ قال أحد الشباب الذي كان قد تزوج حديثاً؛ علّني أتمكن من أن أنجب ولداً، ثم أتبع؛ فليكن ما يكون!

قطع زوربا قطعة لحم من جانب الخروف:

- إن هذا الخروف طيب أيضاً وشهي، قال، لا يختلف كثيراً عن ذاك.

- صب لنا النبيذ يا زوربا لنشرب كأسينا جرعة واحدة!

قرعنا كأسينا، شربنا. كان نبيذًا كريتيًّا من معصر شهير، قاتمًا مثل دماء الخيل؛ تشربه وتشعر كأنك تشرب دماء الأرض وتشفى. وتتدفق من عروقك القوة ومن قلبك الخير؛ إذا كنت جباناً تصبح شجاعاً، إذا كنت شجاعاً تصير وحشاً! تنسى تفاهات الدنيا، وتكسر كل الحواجز، تتحد مع البشر والحيوانات والرب، تصبحون واحداً.

- هيا نكشط نحن أيضاً ظهر الخروف كي نرى حظنا، قال. هيا، اكشط النبوءات يا زوربا!

أخذ يقطع شرائح اللحم من حول ظهر الخروف، نظفه جيداً بسكينه، وضعه نحو الضوء وراح ينظر بعناية.

- كل خير، قال؛ سنعيش ألف سنة يا سيدي؛ لدينا قلوب قوية.

انحنى ثانية وراح ينظر:

- إني أرى سَفرًا، قال؛ رحلة طويلة؛ وفي آخر الرحلة بيت كبير بأبواب كثيرة. ربما مدينة، يا سيدي؛ أو ربما دير وسأكون أنا البواب كما قلنا.

- صب النبيذ يا زوربا ودعك من النبوءات. سأقول لك أنا ما هو البيت ذو الأبواب الكثيرة؛ إنها الأرض التي بها شواهد القبور الكثيرة؛ هذه هي نهاية الرحلة؛ نخبكَ أيها الوغد!

- نخبكَ يا سيدي! إن الحظ أعمى كما يقولون؛ لا يدري أين يذهب، يتعثر بالمارة؛ وعندما يصطدم بأحد؛ يصفونه محظوظًا. ليذهب إلى الجحيم هذا الحظ؛ لا نريد حظاً كهذا يا سيدي!

شربنا وأكلنا حتى تركنا الخروف عظاماً، بدا العالم خفيفاً، والبحر يضحك، والأرض تهتز مثل السفينة، زوج من النوارس يسير فوق حصى الشاطئ و راحا يتحاوران كالبشر.

وقفت.

- هيا يا زوربا، صحت، علمني كيف أرقص!

انتفض زوربا وقد أشرق وجهه.

- هيا يا زوربا، غير حياتي هيا!

- سأعلمك أولاً رقصة الزيبكيكو؛ انها رقصة رجولية وحشية. كان يرقصها الثوار قبل المعارك.

خلع حذءه، ونزع جوربه القرمزي، بقي بقميصه؛ لكنه كان يختنق؛ فخلعه، ألقاه جانباً.

- انظر إلى قدمي يا سيدي وانتبه!

مد قدمك، المس الأرض بخفة، مد القدم الأخرى، هزها بقوة، بخطوات مبتهجة، تسمع صدى الأرض.

أمسك بكتفي:

- هيا يا رجل، الآن نحن معًا!

رحنا نرقص؛ كان زوربا يصحح خطواتي، كان جاداً وصبوراً، يفعل هذا برقة ومودة؛ كنت أتشجع، شعرت بأن قدميَّ الثقيلتين قد أنبتتا أجنحة.

- مرحى أيها التلميذ النجيب! كم أنت رائع، صاح زوربا وهو يصفق بإيقاع حتى تنتظم خطواتي. أحسنت يا رجل! إلى الجحيم الأموال والمتاع! إلى الجحيم الأرباح والمصالح. هيا يا صاح؛ أنت الآن ترقص وتتعلم لغتي، كم لدينا الكثير ليحكي كل منا للآخر!

رحت أدور بقدميَّ الحافيتين على الحصى وأضرب يديَّ مصفقاً.

أريد أن أقول لك شيئاً يا سيدي، لم أحبب رجلاً في حياتي مثلما أحببتك أنت، أريد أن أقول لك الكثير من الأشياء لكن لساني يعجز ولا يطاوعني. سأقول ما أريد أن أقوله لك راقصاً! ابتعد قليلاً حتى لا أدوس عليك! هيا! هوب! هوب!

راح يقفز في الهواء، قدماه ويداه صاروا أجنحة. واقفاً كان يهجم على الأرض، هكذا كما كنت أراه في عمق السماء والبحر، كان يبدو لي مثل ملاك عجوز ثائر. فرقص زوربا هذا كان نوعًا آخرَ من التحدي، العناد والتمرد. كما لو أنه يصرخ: «ماذا تستطيع أن تفعل بي أيها الرب الجبار؟ لا شيء، لا تستطيع أن تفعل شيئاً لي؛ يمكنك أن تقتلني فقط. اقتلني إذن، فأنا لا أهتم؛ افعل ما يحلو لك، فلقد قلت ما أريده؛ تمكنت من أن أرقص، والآن، لست بحاجة إليك!»

كنت أشاهد زوربا وهو يرقص وأشعر للمرة الأولى بتمرد الإنسان، وقدرته في أن يتحدى ثقل المادة، وقانون الجاذبية، هذه اللعنة البدائية. أعجبت بقوة احتماله وذكائه وكبريائه؛ كانت خطواته العنيفة الفنية الذكية تكتب على الرمال قصة الإنسانية الشيطانية.

توقف. تأمل ركام المصعد الهوائي المعلق المنهار أكوامًا متفرقة؛ كانت الشمس تميل نحو الغروب، والظلال تستطيل. جحظت عينا زوربا، كأنه تذكر فجأة شيئاً. التفت ونظر نحوي؛ ووضع كفه على فمه في حركة من حركاته المألوفة.

- آآه يا سيدي! قال، هل رأيت الشرر الذي كان يصدر من هذا الشيء الملعون؟

انفجرنا معًا في الضحك. ألقى زوربا بنفسه فوقي وعانقني وقبلني.

- لا أصدق أنك تضحك؟ قال لي برقة؛ أنت تضحك يا سيدي؟ هنأك الرب يا صاح!

رحنا نصيح من الضحك ونتصارع فوق حصى الشاطئ لفترة طويلة؛ وفجأة سقطنا وتمددنا على صخور الشاطئ ونمنا متعانقين.

استيقظت عند الفجر، وبدأت أسير بسرعة على الشاطئ نحو القرية، كان قلبي يرفرف من السعادة.

نادراً ما شعرت بسعادة كهذه في حياتي. لم تكن مجرد سعادة، بل كانت شيئًا أسمى، إحساسًا غير طبيعي، كنت في مزاج رائق ورائع بلا سبب. وليس فقط بلا سبب، بل على

العكس، فقد خسرت كل ما أملك - العمال، المصعد الهوائي المعلق، العربات، كنا قد بنينا ميناءً صغير للنقل؛ لكن الآن؛ لم يعد لدينا ما نشحنه أو ننقله؛ ضاع كل شيء.

ومع هذا كان ينتابني إحساس رائع بالخلاص. كأنني اكتشفت داخل جمجمة الحاجة القاسية، في ركن صغير، الحرية تلهو وتلعب وأنا ألهو وألعب معها.

عندما تفشل كل محاولاتنا، أية سعادة يمكن أن تختبر الروح لترى إذا كان لديها احتمال أو بها قيمة! يظن المرء أن العدو غير مرئي، أو شديد البأس - يسميه البعض الرب والبعض الآخر يسميه الشيطان - يهجم ليسقطنا، لكننا نصمد وننتصر، عندما نبدو من الخارج مهزومين هزيمة نكراء. الرجل الحقيقي يشعر بسعادة لا توصف عندما تتحول الهزيمة الخارجية إلى شيء سامٍ وهناء صعب المنال.

أذكر زوربا ذات ليلة قال لي:

- كنت فوق قمة أحد الجبال الثلجية في مقدونيا وهب هواء شديد راح يهز الكوخ الصغير الذي كنت أحتمي به وكاد ينهار. لكنني كنت قد ثبت دعائمه وقويتها، كنت أجلس وحيداً أمام المدفأة وأضحك وأسخر من الريح وأصيح فيها: «لن تدخلي خيمتي، لن أفتح لكِ الباب، لن تطفئ نار مدفأتي، لن تهزيمني!»

هذه الكلمات التي قالها زوربا قد قوت روحي؛ فهمت كيف ينبغي أن يتصرف المرء وماذا يقول في ساعة الضرورة.

كنت أسير على الشاطئ بسرعة، أتحدث مع عدوي الخفي وأصيح فيه: «لن تدخل روحي، لن أفتح لك الباب، لن تطفأ نار مدفأتي، لن تهزمني!»

لم تكن الشمس قد اعتلت الجبل بعد، كانت الألوان تتغير في سماء البحر، أزرق، أخضر، وردي ولؤلؤي، و في أشجار الزيتون البعيدة كانت الطيور الصغيرة تستيقظ وتبدأ التغريد.

رحت أمشي على حافة الماء كي أودع هذا الشاطئ المهجور، أن أحدد في عقلي ما الذي أريد أن أحمله معي وأنا أغادر.

لقد قضيت أوقاتاً سعيدة على هذا الشاطئ، الحياة مع زوربا قد وسعت قلبي وبعض كلماته أثرت عقلي ومنحته الصفاء، فهو يعطي حلولاً بسيطة لهموم محيّرة بداخلي. هذا الرجل بغريزته المعصومة من الخطأ، وعينه النسرية البدائية، كان يختصر طرقاً كثيرة ويصل من أبسط طريق، بدون مجهود ويصل إلى قمة المحاولة - بلا محاولة؛ إلى الحقيقة.

صحبة من النساء والرجال مروا بسلال مليئة بالطعام والخضراوات، كانوا في طريقهم إلى البساتين ليحتفلوا بأول أيام شهر مايو؛ صوت بنت صغيرة صعد مثل النافورة يغني. فتاة صغيرة بصدر ناهدٍ، عبرت مهرولة من أمامي وهي تلهث وصعدت على صخرة عالية لتنجو؛ حيث يطاردها رجل بلحية سوداء بدا شاحباً وغاضباً.

- انزلي... انزلي... كان يصيح فيها وقد تحشرج صوته.

لكن البنت بخديها المتقدين، رفعت ذراعيها ووضعتها خلف رأسها وراحت تغني وهي تهز جسدها بلطف:

- قلها لي بلطف، قلها لي بدلال،

قل لي لا تحبني، لكن أنا لا يهمني...

- انزلي... انزلي... صاح الرجل ذو اللحية السوداء وكان صوته يتوسل تارة ويهدد تارة أخرى.

وفجأة، وثب وأمسكها من قدمها بقوة، وكأن البنت كانت تنتظر هذا لتنفجر في البكاء.

عبرتهم سريعاً، كل هذه الأشواق كانت تسمم قلبي؛ حضرت إلى ذهني الحورية العجوز؛ بدينة، تفوح منها رائحة العطر بحياتها المشبعة بالقبل والعشاق، أصابها البرد في ليلة وها هي الآن تتوارى تحت أرضٍ ابتلعتها؛ لابد أن تكون قد انتفخت وتعفنت، وصارت طعاماً للديدان...

نفضت رأسي مذعوراً. أحياناً تصبح الأرض شفافة، ونرى بوضوح الصانع الكبير، الدودة الكبيرة تعمل ليل نهار بدأب في ورشة تحت التراب؛ لكن سرعان ما نشيح بأبصارنا عنه، لأن الإنسان يستطيع تحمل أي شيء ما عدا هذه الدودة الكبيرة.

عند مدخل القرية قابلت ساعي البريد، الذي كان يهم بنفخ البوق.

- نادى علي، وصلكَ خطاب يا سيدي! وأعطاني مظروفًا أزرق اللون.

قفزت فرحاً؛ فقد تعرفت على الخط الأنيق؛ أسرعت نحو القرية، دخلت بستان الزيتون، فتحت الخطاب بتلهف. كان الخطاب قصيراً، فقراته في نفس واحد.

«دخلنا حدود جورجيا، نجونا من خطر الأكراد، كل شيء على ما يرام، بدأت أعتقد الآن أنني أعرف معنى السعادة لأول مرة. الآن فقط أدركت لماذا أحيا، فقد أدركت معنى القول المسيحي المأثور: السعادة تعني أن تؤدي واجبك. وكلما كان واجبك صعباً كلما ازدادت سعادتك...

بعد أيام قليلة،هذه الأرواح اليونانية المشرفة على الموت ستتواجد في باطوم، تلقيت اليوم برقيةً تقول: " لقد ظهرت المراكب الأولى! "

آلاف من اليونانيين المجتهدين الأذكياء وزوجاتهم البدينات وأطفالهم، سينقلون إلى مقدونيا وثراكي[25] . سوف نضخ دماً جديداً متعافيًا في شرايين اليونان.

أخفيت الرسالة وأسرعت بخطاي، كنت أنا أيضاً أشعر بالسعادة. رحت أسير حتى الدرب العلوي المؤدي للجبل، كنت أفرك في يدي عودًا من نبات الزعتر، اقترب وقت الظهيرة. كان ظلي قاتمًا تحت قدمي، راح صقرٌ يحوم في السماء، كان جناحاه يتحركان بسرعة شديدة مما يجعل الناظر يتخيلهما ثابتين لا يخفقان؛ طائر الحجل سمع خطواتي فارتجف وطار من فوق الشجيرات و رنّت رفرفة جناحيه في السماء.

كنت سعيداً؛ لو كان بمقدوري، لغنيت حتى أنفس عما يجيش في صدري؛ رحت أطلق الصيحات فقط. «ماذا بك؟ قلت لنفسي بسخرية؛ لم أعهدكَ وطنيًّا؛ هل تحب صديقك؟ اهدأ، ألا تخجل؟ » لكن أحدًا لم يجبني؛ وأكملت طريقي نحو الجبل وأنا أصيح. سمعت أجراس قطيع من الماعز سودَ وبنية ورمادية كانت العنزاتُ تتلألأ في عَرقها؛ و قد كان الكبش في المقدمة بعنق متصلبة؛ و قد ملأت رائحته الهواء.

---

[25] ثراكي: مدينة في شمال شرق اليونان، ويقطنها بعض اليونانيين الناطقين بالتركية أيضاً.

- انتظر لتشرب قليلاً من الحليب وتروي عطشك! صاح الراعي ناحيتي وهو يقفز من فوق الصخور مقترباً مني.

- أنا مشغول! قلت له. كما لو أنّي سأقطع سيل سعادتي حين أقف وأتكلم.

- لا تقبل الحليب! قال الراعي منزعجاً؛ حظاً سعيداً إذن!

وضع أصابعه في فمه وأطلق صافرة ثم توارى وقطيع الماعز خلف الصخور.

وصلت بعد قليل إلى قمة الجبل؛ وكأن هذه القمة كانت مطلبي، فهدأت.

تمددت تحت ظل صخرة ونظرت إلى الحقول والبحر؛ رحت أتنفس بعمق، كانت رائحة الهواء مريمية وزعتر.

قمت وجمعت ملء ذراعي مريمية وجعلت منها وسادة ثم تمددت؛ كنت متعباً، فأغمضت عينيّ.

للحظة راح عقلي يسرح في المرتفعات العالية المغطاة بالجليد، حاولت أن أتخيل هذا القطيع من البشر والماشية يتجه نحو الشمال ويتقدمهم صديقي. لكن تشوش ذهني بسرعة وسيطر علي النعاس.

حاولت أن أقاوم النوم، فتحت عيني. كان الغراب قد حطَّ أمامي على الصخرة، عند حافة الجبل؛ جناحاه الأسودان المائلان إلى الزرقة كانا يتلألأن تحت أشعة الشمس، وكنت أرى منقاره الأصفر بوضوح. انزعجت، بدا لي أنه نذير شؤمٍ فرميته بحجرٍ؛ فتح الغراب جناحيه ببطء.. بهدوء، وطار.

أغمضتُ عيني غير قادر على مقاومة النوم، لقد غلبني النوم.

لم أنم سوى دقائق معدودات، عندما سمعت صوتاً عالياً فقمت مفزوعاً؛ راح الغراب يحوم فوق رأسي ثم رحل. جلست على الصخرة أرتعشُ؛ رأيت حلماً كالنبوءة.. مزق عقلي.

رأيت، أنني كنت في أثينا أصعد شارع إرمو[26] وحيداً. الشارع خاوٍ والشمس حارقة، المحلات مغلقة، لا أحد. وفجأة، وأنا أعبر شارع كابنيكارياس، رأيت من ميدان

[26] شارع إرمو: أحد الشوارع الرئيسية في وسط العاصمة اليونانية أثينا.

سينداغما[27] صديقي يهرول شاحباً خلف رجل طويل يسير بخطى عملاقة. كان صديقي يرتدي زياً دبلوماسياً، رآني وصاح بي وهو يلهث من بعيد:

«يا معلمي، كيف حالك؟ لم أرك منذ سنوات؛ تعال الليلة لنتحدث.»

«أين؟» صحت أنا بصوت عال، إذ كان بعيداً عني ولابد أن أصيح بكل ما أوتيت من قوة حتى يسمعني.

«في ميدان أمونيا[28] في المساء، عند الساعة السادسة. في مقهى: "صنبور الجنة ".»

«حسناً سأكون هناك، أجبته.»

«هكذا تقول، قال بشكوى، لكنك لن تأتي.»

«سآتي بالتأكيد! صحت؛ أعطني يدك!»

«أنا في عجلة من أمري.»

«لماذا أنت متعجل؟ أعطني يدك!»

مد يده؛ وفجأة انفصلت يده عن كتفه وطارت في الهواء وأمسكت بيدي.

فزعت من برودة يده، صرخت وقمت من نومي فزعًا.

ما زال الغراب يحوم فوق رأسي؛ كانت شفتاي تقطران سماً.

التفتُّ نحو الشرق، ثبت عيني في الهواء، كما لو كنت أريد أن اثقب المدى وأرى شيئاً؛ كنت متيقناً أن صديقي في خطر. صحت باسمه عاليًا ثلاث مرات:

- ستافروذاكي! ستافروذاكي! ستافروذاكي!

وكأني كنت أريد أن أمنحه الشجاعة؛ لكن صوتي تشتت في الهواء على بعد أمتار قليلة أمامي.

رحت أهبط الدرب نحو سفح الجبل، كنت أتدحرج تقريباً وأهبط مسرعاً، كنت أحاول أن أنهك جسدي كي أحول مجرى الألم من روحي إلى جسدي. لكن الشر كان يلعب بعقلي الذي كان يصارع كل تلك الرسائل الغامضة التي تستطيع أحياناً أن تخترق الجسد وتعبر

---

[27] ميدان سينداغما: من أهم الميادين في وسط العاصمة اليونانية أثينا.

[28] ميدان أمونيا: من أهم الميادين في وسط العاصمة اليونانية أثينا.

من خلاله إلى الروح وتملؤها رعباً، بيقين بدائي، أكثر عمقاً من المنطق وأكثر حيوية. نفس الخاصية ستكون بالتأكيد عند بعض الحيوانات، الخراف والفئران قبل الزلازل. استيقظت في داخلي روح الإنسان البدائي، الذي كان ملتصقاً بالأرض ويشعر بالحقيقة على التو دون أي تدخل من المنطق.

- إنه في خطر... إنه في خطر... همهمت؛ سوف يموت... من الممكن ألا يعرف حتى الآن؛ لكن أنا أعرف بالتأكيد.

نزلت الجبل مهرولاً، تعرقلت بالحصى فسقطت ومعي تدحرج سيل من الحصى. يداي وقدماي دامية، وقميصي ممزق.

- سوف يموت.... سوف يموت.... كنت أقول وفي حلقي غصة.

يبني الإنسان التعس حول روحه سياجًا يظنه منيعاً، يلتجئ إليه ويظنُّ بأنه يرتب حياته، وأمنه وأنظمته الجسدية والروحانية. هناك حيث كل الأشياء تتبعُ روتينًا مقدَّسًا، ضمن منظومة من القوانين البسيطة والفاعلة. في هذا المكان الغامض المحصّن تتحكم اليقينات وتزحف بثقة كما تفعل أم أربعة وأربعين. فيما العدو البغيض، العدو الأوحد الذي لم يتغير منذ آلاف السنين: اليقين الأعظم. وهذا اليقين انقضَّ من فوق الأسوار وهاجم روحي.

عندما وصلت إلى شاطئنا، وكأنني وصلت إلى خط دفاعي الثاني، وقفت ألتقط أنفاسي وأستجمع قواي.

«قلت لنفسي: إن كل هذه الأشياء هي وليدة قلقنا الداخلي، وتأخذ في نومنا شكلاً رمزياً مبهراً. نخلقها نحن بأنفسنا؛ لا تأتي إلينا من بعيد أو من مكان غريب؛ هي ليست رسائل تأتينا من جهة خفية غامضة ظلامية؛ نحن نملكها، دون أي قوة أو تدخل خارجي. روحنا لا تستقبل الأشياء، بل هي المصدر والمرسل؛ لا يجب أن نخاف»

هدأت؛ رتب المنطق الأمور داخل قلبي بعد هذه الرسالة الظلامية؛ قصقصت ريش الخفاش الأحمق وطردته بعد أن حولته إلى فأر، ثم هدأت.

عندما وصلت إلى الكوخ، ابتسمت سذاجتي وخجلت من أن عقلي ينتابه الذعر بهذه السرعة والسهولة؛ عدت بسلام إلى طريق الروتين المقدس، شعرت بالجوع والعطش والإرهاق وكانت الجروح التي أصابتني من أثر السقوط على الحصى تؤلم ألماً لاذعاً؛ لكنني رغم كل هذا كنت أشعر بالسكينة: العدو الغادر الذي قفز فوق أسوار الروح تم صده والتغلب عليه عند خط المقاومة الثاني للروح.

انتهى كل شيء. جمع زوربا كل الأسلاك والمعدات والعربات والحديد والخشب وكومها على الشاطئ إلى أن تأتي مركب تحملها.

- إنها هدية لك يا زوربا، قلت؛ كلها لك، حظًّا طيبًا!

ابتلع زوربا ريقه كأنه يحاول أن يتماسك كي لا يبكي، ثم همهم.

- هل سنفترق يا سيدي؟ إلى أين ستذهب؟

- سأسافر إلى الخارج؛ فالعنزة التي بداخلي تنتظرها أوراق كثيرة لتأكل.

- ألم تتعلم شيئاً يا سيدي؟

- تعلمت يا زوربا، والفضل لك؛ لكن علي أن أكمل طريقي؛ سأفعل مع الكتب ما فعلته أنت مع فاكهة الكرز؛ سآكل الكثير من الورق، حتى أشعر برغبة في التقيؤ كلما رأيت كتاباً، وهكذا سأنجو منها.

- وماذا سأفعل أنا دون رفيق يا سيدي؟

- لا تحزن يا زوربا، سنلتقي مرة أخرى، من يدري؟ فإن قوة الإنسان عظيمة، وعندما سنتقابل لننفذ مخططنا: سنبني الدير كما نريده نحن، بلا إله ولا شيطان، لكن به بشر أحرار، وستجلس أنت يا زوربا على البوابة، ستحمل المفاتيح مثل القديس بطرس، ستفتحه وتغلقه...

كان زوربا جالساً على الأرض ويتكئ بظهره على جدار الكوخ، كان يملأ كأسه كلما فرغت، يشرب ولا يتكلم.

خيم الليل، أنهينا طعامنا ورحنا نثرثر ونشرب؛ سنفترق غداً - سأذهب غداً إلى المدينة.

- نعم.... نعم... قال زوربا وهو يشد شاربيه ويشرب من كأسه.

سماء الصيف فوقنا كانت مليئة بالنجوم؛ الليل فوقنا يومض؛ قلوبنا كانت تريد الصراخ لكنها متماسكة.

«قلت لنفسي، ودع كل شيء، انظر إلى زوربا واملأ عينيك جيداً، فلن تراه بعد ذلك أبداً»

شعرت برغبة في أن أرتمي بين ذراعيه وأجهش في البكاء لكني خجلت من فعل هذا؛ حاولت أن أضحك لأخفي تأثري، لكن لم أستطع؛ غصة في حلقي منعتني من ذلك.

نظرت إلى زوربا يمط عنقه الرفيعة ويشرب بصمت؛ نظرت إليه وفكرت كم أن تلك الحياة في الحقيقة لغز محير وغامض، وكيف يلتقي الناس ثم يفترقون مثل أوراق شجر تذروها ريح ماطرة؛ وكيف تحاول بعينيك أن تحافظ على ملامح وجه شخص تحب لكن عبثاً تحاول فبعد سنوات قليلة لا تذكر أن كانت عيناه زرقاوين أم سوداوين...

«صرخت في أعماقي، لابد أن روح الإنسان مصنوعة من برونز قاسٍ أو من الفولاذ الصلب، لا الهواء!»

كان زوربا يشرب النبيذ ويحمل رأسه الغليظ منتصباً فوق كتفيه، ثابتاً. كأنه ينصت إلى خطوات تقترب أو تبتعد في أعماقه البعيدة....

- فيمَ تفكر يا زوربا؟

- فيمَ أفكر يا سيدي؟ لا شيء. لا شيء أقول لك:

- نخبك يا سيدي!

قرعنا كأسينا. فهم كل منا أننا لن نستطع مقاومة الحزن أكثر من هذا. كان لابد أن نجهش في البكاء أو نهم بالرقص حتى الثمالة.

- لما لا تعزف السانتوري يا زوربا! قلت مقترحاً.

- السانتوري؛ ألم نقل يا سيدي قبل ذلك أن السانتوري يحتاج إلى قلب كبير. سأعزف بعد شهر أو شهرين أو سنتين، لا أدري؟ وسوف أغني حينها أن اثنين من الرفاق يفترقان إلى الأبد.

- إلى الأبد! صرخت في أعماقي مرعوباً.

قلت لنفسي ورحت أردد هذه الكلمة التي لا شفاء منها في أعماقي لكن لم تكن لدي الشجاعة أن أسمعها بأذني؛ أصابني الذعر.

- إلى الأبد! قالها زوربا مجدداً، وهو يبتلع ريقه بصعوبه. إلى الأبد. ما تقوله لي أننا سنلتقي مرة أخرى ونبني ذلك الدير، كأنك تواسي شخصاً مريضاً على فراش الموت حتى تخلص

روحه... أنا لا أقبل هذا الكلام! لا أحب أن أسمعه! هل نحن نساء كي نحتاج العزاء والمواساة؟ لا أريد هذا الكلام. نعم، إلى الأبد إذن!

- يمكن أن أبقى... قلت، مذعوراً من هذه الرقة الوحشية لزوربا. يمكن أن آتي معك؛ أنا حر!

هز زوربا رأسه:

- لا، أنت لست حراً، قال؛ الحبل الذي يربطك هو فقط طويل بعض الشيء؛ ربما أكثر طولاً من حبال الآخرين، تروح وتجيءُ وتظن نفسك حراً؛ لكن هذا الحبل لابد أن يقطع. وإذا لم تقطع هذا الحبل....

- سأقطعه يوماً ما، قلت بإصرار، لأن كلمات زوربا هذه لمست جرحًا مفتوحًا وعميقًا في داخلي وأوجعتني كثيراً.

- صعب يا سيدي، صعب جداً. الحياة تحتاج إلى الجنون؛ أ تسمعني، جنون؟ أن تغامر بكل شيء! لكن أنت لديك عقل وهذا العقل سيهلكك يوماً ما. العقل مثل البقال، يمسك دفتر حسابات، يكتب الوارد والخارج، أعطيت كذا وأخذت كذا، هذه هي الأرباح وتلك هي الخسارة. هو مرتب ومنظم، يحسب كل شيء ويتملكه الحذر دائماً. لا يقطع الحبل أبدًا، لا! بل يحكم قبضته في يده حتى لا يفلت منه، فلو أفلت منه؛ هلك المسكين! إنه شيء أشبه بشراب البابونج المهدئ، وشراب الروم الذي يجعلك تقلب العالم رأساً على عقب!

- اعذرني يا سيدي، فأنا قروي؛ الكلام يلتصق على أسناني كما يلتصق الطين في الحذاء؛ لا أستطيع أن أزين كلامي وأتحدث بطريقة مهذبة؛ لا أستطيع؛ لكنك تفهمني.

أفرغ كأسه ونظر إلي.

- تفهمني! صاح، كما لو أن غضباً مفاجئًا قد تملكه؛ إنك تفهمني وهذا ما يعذبك! فلو لم تكن تفهمني لبدت عليك السعادة. ماذا ينقصك؟ أنت شاب، لديك مال، لديك عقل، صحتك جيدة، أنت إنسان طيب، لا ينقصك شيء بحق الشيطان! لكن شيئًا واحد ينقصك كما قلنا؛ الجنون. وهذا الشيء حين يغيب من المرء يا سيدي...

هززت رأسي، وصمت مجدداً.

كنت على وشك أن أجهش بالبكاء؛ كل ما قاله زوربا كان صحيحاً... عندما كنت صبياً، كنت أشعر في داخلي بطاقة ورغبات مجنونة تفوق طاقة البشر، كنت أجلس وحدي وأتنهد غضباً وأشعر بأن هذا العالم لا يتسع لي.

لكن شيئاً فشيئاً وبعد سنوات قليلة، ازددت حكمةً؛ وصرت أضع الحدود وأفرق بين المتاح والمستحيل، الإنساني والإلهي، كنت أمسك جيداً بطائرتي الورقية حتى لا ينفلت خيطها من يدي.

شهاب كبير سقط ورسم خطاً كبيراً في السماء. قفز زوربا من مكانه وجحظت عيناه وراح ينظر إليه مذعوراً، كأنها المرة الأولى في حياته التي يرى فيها شهاباً يسقط من السماء.

- أ رايت النجم؟ قال لي.

- نعم.

صمتنا.

لكن فجأة رفع زوربا عنقه النحيلة ونفخ صدره وأطلق صرخة يائسة وحشية. وفجأة تحولت هذه الصرخة البدائية إلى كلام بشري باللغة التركية وبدأ يصعد من أعماق زوربا هذا اللحن القاسي المليء بالأشواق والمرارة والوحدة. كسر قلب الأرض، وسال سم الشرق العذب، وتعفنت بداخلي كل الخلايا التي كانت تمنحني الفضيلة والأمل:

. Iki kiklik bir trpede otiyor

Otmede, kiklik, bemin dertim yetiyor,

aman, aman

صحراء، الرمل الناعم الممتد، الهواء يرتعش وردياً، أزرق وأصفر، خداك تحركا، وأطلق صوت الروح صيحة مدوية ويفرح بأن أحداً لم يجب. صحراء... صحراء... والعيون تمتلئ بالدموع.

- طائرا الحجل على التل صدح.

لا تصدح أيها الطائر، فيكفيني شوقي وآلامي، أمان، أمان، أمان!

صمت زوربا ومسح العرق من على جبهته بإصبعه ونفضه على الأرض. ثم أطرق ينظر إلى الأرض.

- ماهذه الأغنية يا زوربا؟ سألت بعد وقت ليس بالقليل.

- إنها أغنية راعي الجِمال. ويغنيها وهو في الصحراء. لم أكن أتذكرها ولا غنيتها لسنوات طويلة. والآن....

كان صوته جافاً وقد تحشرج حلقه.

- حان الوقت كي تنام يا سيدي، قال. لابد أن تستيقظ مبكراً غداً حتى تذهب إلى المدينة لتستقل المركب. طابت ليلتك!

- لا أشعر بالنعاس، أجبت؛ سأبقى ساهراً. إنها ليلتنا الأخيرة معاً.

- ولأنها كذلك؛ لابد أن ننتهي منها بسرعة، صاح زوربا وقلب كأسه الفارغة - كإشارة بأنه توقف عن الشراب. هكذا، كما يفعل الرجال ويتوقفون عن التدخين والنبيذ والميسر؛ بشجاعة.

أبي كان رجلاً شجاعاً؛ لا تنظر إلي أنا؛ فأنا لا أساوي نفحة فيه ولا أكاد أكون شعرة عشب تصل حد كعبه. كان مثل الإغريق كما يقولون؛ كان يصافحك ويكاد يهشم عظام كفك. أنا أتحدث كالبشر بين الحين والآخر أما أبي فكان يزأر ويصهل ويغني؛ نادراً ما كانت تخرج منه كلمة طيبة مثل البشر الطبيعيين.

كانت به جميع العيوب وامتنع عنها كلها مثل قطع السيف. كان يدخن مثل مدخنة؛ وذات صباح استيقظ وذهب ليحرث حقله، وعندما وصل إلى الجسر وضع يده في حزامه بتلهف ليخرج كيس التبغ ليلف سيجارة قبل أن يبدأ العمل. أخرج الكيس وكان فارغاً، إذ نسي أن يملأه قبل أن يغادر المنزل.

غضب وزمجر، وفجأة التفت وبدأ يجري نحو القرية، فقد كان الدخان يسيطر على مزاجه. لكن فجأة وهو يجري - إن الإنسان حقاً لغز غامض - توقف وخجل من نفسه، أخرج الكيس الفارغ و وضعه بين أسنانه ومزقه بعصبية شديدة وراح يسب:

- حماقة، قذارة، عاهرة!

ومنذ تلك اللحظة لم يدخن سيجارة في حياته.

«هكذا يفعل الرجال يا سيدي؛ طابت ليلتك»

نهض، ومشى نحو الشاطئ ولم يلتفت إلى الخلف، وصل إلى الشاطئ وتاه مني في الظلام.

لم أره بعد ذلك أبداً، جاء المكاري في الصباح، امتطيت البغل وغادرت. أعتقد وربما أكون مخطئاً أنه كان مختبئاً في مكان ما؛ لكنه لم يأتِ كيما نتبادل كلمات الوداع المعتادة، وحتى لا تذرف عيوننا الدموع ونلوح بالأيادي والمناديل ونتبادل القسم والوعود.

تم فراقنا كقطع السيف.

تسلمت برقيَّةً في المدينة؛ نظرت إليها لوقت طويل، كانت يدي ترتعش. كنت أعرف ما بداخلها؛ رأيت بيقين مذعور كم عدد الكلمات التي به وكم عدد الحروف.

تملكتني رغبة في أن أمزقه؛ لماذا أقرؤه إذا كنت أعرف ما به؟ لكن يا ويلنا! ليس لدينا يقين بما تمليه علينا أرواحنا، إنه العقل - البقال -، يسخر منها كما نسخر من الساحرات العجائز. فتحت البرقية، كان من تفليذا؛ كانت الحروف ترتعش أمام عيني، لم أعد أميز؛ لكن شيئاً فشيئاً بدأت الحروف تثبت أمامي، وقرأت:

«في مساء الأمس وبعد إصابته المفاجئة بالتهاب رئوي، مات ستافروذاكيس.»

مرت خمس سنوات، خمس سنوات طوال، عصيبة، انطلق فيها الزمن وراحت الحدود والبلدان ترقص، تتمدد وتنكمش مثل آلة الأكورديون. في لحظة افترقنا أنا وزوربا وجرفتنا العاصفة، وباعدت بيننا كانت الكوارث والجوع. من وقت لآخر كنت أتلقى منه بطاقة قصيرة.

مرة من جبل أثوس - أرسل لي بطاقة عليها صورة العذراء حارسة البوابات بعينيها المتألمتين وفكها الصلب، المفعم بالإصرار والإرادة؛ وكتب لي بقلمه الغليظ الذي كان يشق الورق: «لا يوجد عمل هنا يا سيدي؛ هنا الرهبان يدقون حدوات للبراغيث؛ سأغادر!»

وبعد أيام قليلة: تلقيت منه بطاقة أخرى. «لا أستطيع أن أعود إلى الدير، فأنا أحمل الببغاء في يدي مثل مهرج؛ لقد أهديته إلى كاهن يهوى الطيور ولديه شحرور علمه التراتيل ذلك الأحمق، سيعلم الببغاء المسكين كيف ينشد التراتيل هو الآخر... كم رأى هذا المسكين في حياته، الآن سيصبح الببغاء قساً! أتمنى لك التوفيق.»

توقيع. الأب أليكسيس الوحيد.

بعد ستة أو سبعة أشهر؛ وصلتني بطاقة أخرى من رومانيا عليها صورة امرأة بدينة: «ما زلت على قيد الحياة، أكل ماماليجا وأشرب البيرة، أعمل في حقول النفط، فأر ينقب عن الزيت. لكن يوجد هنا بغزارة كل ماتشتهي الأنفس؛ إنها جنة للعجائز الحمقى مثلي؛ تفهمني يا سيدي؛ الحياة عاهرة والرب مقدس. تحياتي وقبلاتي.

أليكسيس زوربيسكو. فأر البترول.

مر عامان وإذا بي اتلقى بطاقة جديدة من صربيا الآن: «ما زلت على قيد الحياة، البرد هنا قارس بشكل شيطاني، وأضطررت للزواج؛ انظر إلى خلف البطاقة إلى وجهها؛ قطعة فنية أنثوية. بطنها منتفخ قليلاً لأنها تعد لي زوربا الصغير. وأنا أرتدي الحلة التي أهديتني إياها، خاتم العرس الذي ترتديه هو خاتم بوبولينا المسكينة - قدس الرب عظامها (ليس مستحيلاً)! هذه اسمها ليوبا. السترة التي أرتديها هي من فرو الثعالب، كانت مهر زوجتي؛ أهدتني خنزيرة وسبع خنازير صغار، أمور عجيبة. هي أرملة ولديها ولدان من زوجها الأول. وجدت هنا منجم ماغنيسيوم في أحد الجبال، تورطت مجدداً مع رجل أعمال رأسمالي، أعيش حياة رغدة مثل الوجهاء. تحياتي وقبلاتي...

أليكسيس زوربوفيتش

على ظهر البطاقة كانت صورة زوربا ممتلئاً بعض الشيء يبدو في هيئة رائعة كعريس يرتدي قبعة من الفرو ويمسك بعصاه مفتخراً ويرتدي سترة طويلة على أحدث طراز. والحسناء الصربية متعلقة في ذراعه لا تبدو أكبر من 25 عاماً، فرس برية وشقية بصدر ممتلئ، ترتدي حذاء بعنق طويل. ومكتوب تحتها بخط زوربا السميك المعقوف: «أنا زوربا وهذه القضية اللامنتهية، المرأة؛ والآن أسمها ليوبا.»

كل هذه السنوات كنت أسافر إلى الخارج. كان لدي أنا أيضاً قضيتي اللامنتهية؛ لكن لم يكن لها لا صدر ممتلئ ولا معطف لتعطيني ولا خنازير. وذات يوم في برلين، وصلتني برقية تقول:

«وجدت حجارة خضراء بديعة؛ تعال في الحال. زوربا»

لم تكن لدي الشجاعة أن أترك كل شيء وأفعل ولو لمرة في حياتي فعلاً واحدًا مجنونًا.

منذ ذلك الحين لم يكتب لي مرة أخرى؛ دخلنا في أحداث اضطرابات عالمية، كان العالم ينهار مثل رجل ثمل، صار الحب والمعنى في هذه الأيام شيئاً مهملاً.

كنت أتحدث كثيراً مع أصدقائي وأتذكر هذه الروح العظيمة؛ كنا نفخر ونعجب بثقة وكبرياء الرجل غير المتعلم، فهو شيء بعيد عن الإدراك الذهني. هو قمة روحية تحتاج منا سنوات كثيرة وجهدًا عظيمًا كي نصل إليها، بكلمات بسيطة كان يصل إلى الحقيقة والحكمة، وكنا نقول: «إن زوربا هو روح عظيمة»؛ أو كنا نقول: «إنه مجنون».

كان الوقت يمر هكذا عذبًا ومريرًا من الذكريات. وظل الصديق الآخر الذي سقط ومات عندما كنت على الشاطئ الكريتي، في الفترة التي كنت فيها مع زوربا، كان يثقل روحي ولا يتركني - لأنني أبداً لم أتركه.

لم أكن أتحدث عن هذا الظل لأحد؛ كان قمة الحوار الذي أمارسه مع القمة الأخرى التي اعتدت أن أتصالح فيها مع الموت؛ كان جسرًا سريًّا لي نحو العالم الآخر. وعندما تمر هذه الروح الميتة، كنت أشعر كم هي منهكة وشاحبة، لم تكن لديها قدرة على التحدث، لم تكن لديها قوة كي تصافح يدي.

أحياناً أفكر بقلق - ربما لم يلحق صديقي أن ينقل جسده كلية من على الأرض، ربما ما زال يحاول أن ينقذ روحه في اللحظة الحاسمة من رعب الموت فتبعثرت روحه في الهواء. ربما، كنت أفكر، أنّه يواجه خطر الفناء، لأنه لم يكن لديه الوقت الكافي كي يخلد ما يمكنه تخليده من العالم الفاني.

لكنه فجأة يصبح قوياً - هو؟ أم أنا الذي أذكره على هذه الطريقة؟ - ويأتي قوياً متجدداً، وأكاد أسمع خطواته على الدرج.

منذ وقت ليس ببعيد، انطلقت في رحلة نحو جبال إنغادين المكسوة بالجليد، حيث أمضينا أنا وصديقي وامرأة كنا نحبها أيامًا جميلة هناك.

كنت مستلقياً على الفراش، في نفس الفندق الذي أقمنا فيه آنذاك. كنت نائماً والقمر ينساب من النافذة، أحسست بروح الجبال النائمة وأشجار الصنوبر المغطاة بالجليد والليل الأزرق العميق.

شعرت في الجبل بفرحة ونشوة لا توصفان؛ وكأن النوم بحر عميق هادئ شفاف، وأنا مستلق في أعماقة ثابتاً وسعيداً؛ وكانت حساسيتي عالية حيث إنني كنت أشعر أن أي مركب يمر على سطح الماء سوف يجرح جسدي.

وفجأة يسقط هذا الظل فوقي؛ أدركت من هو. وسمعت صوته يقول لي لائماً:

«هل أنت نائم؟»

أجبته بنفس النبرة:

«لقد تأخرت كثيراً؛ مرت شهور ولم أسمع هذا الصوت... أين كنت؟»

«أنا دائماً معك، لكنك تنسى. ليست لدي القوة دائماً كي أنادي وأصرخ، لكنك تريد أن تهجرني. إن القمر جميل، والأشجار المكسوة بالجليد جميلة،إن الحياة رائعة في العالم العلوي - لكن لا تنساني.»

«لم أنسك أبداً، تعرف هذا. في الأيام الأولى كنت مغادراً إلى الخارج، رحت أدور في جبال وعرة، تعب جسدي، كنت أسهر كثيراً وأبكيك كثيراً. لقد كتبت أشعاراً، حتى لا يخنقني الألم؛ لكن الأشعار والأغاني التي كتبتها كانت سيئة، ولم تأخذ عني الألم الذي أتنشقه. كانت إحداها هكذا:

رأيتك تسير بجوار الموت فأعجبتني

خفتكما وأنتما تصعدان الدرب البعيد

مثل رفيقين يستقيظان سوياً ويغادران...

والأخرى لم أنتهِ منها، ورحت أغني بصوت عال:

«تماسك يا صاحبي الحبيب ولا تتعجل الفراق!»

ابتسم بمرارة؛ مال واقترب من وجهي فذعرت عندما رأيت شحوبه.

نظر إلي طويلاً، لم يتكلم، ومحجرا عينيه كانا فارغين؛ لم تكن بهما عينان؛ فقط كرتان من التراب.

«بمَ تفكر؟ همهمت؛ لمَ لا تتكلم؟»

جاء صوته مرة أخرى مثل تنهيدة بعيدة:

«آه، ماذا بقي من روح لم يكن العالم يتسع لها! بعض أبيات ناقصة ومبعثرة لأحد آخر، لم تكتمل حتى لتصبح رباعية! أروح وأجيء فوق الأرض، أدور على أحبائي، لكن قلوبهم قد أوصدت. من أين أدخل؟ كيف أعود إلى الحياة؟ أدور مثل كلب حول بيت سيده الذي أغلقت أبوابه... آه، لو كنت أستطيع ان أعيش حراً، ولا أضطر لأن أتعلق مثل الغريق بدفء أجسادكم!»

تدفقت الدموع من محجريه، فتحول التراب فيهما إلى طين.

لكن بعد قليل علا صوته:

«إن أكبر سعادة أعطيتني إياها، قال، كانت يوم عيدي ميلادي حين كنا في زيورخ، أتذكر؟ تحدثت عني. أتذكر؟ كانت روح أخرى معنا ذلك اليوم...»

«نعم، أتذكر، أجبت؛ كانت تلك المرأة التي كنا نناديها سيدتنا...»

صمتنا. كم قرن منذ ذلك اليوم مضى! كنا نجلس على المائدة في الدفء فيما الثلج يسقط في الخارج، كنا ثلاثة من الأصدقاء الأحباء، قلت يومها مديحاً في صديقي.

«بمَ تفكر يا معلمي؟» سألني ظل صديقي بسخرية.

«بالكثير من الأشياء...»

«أنا، أذكر كلماتك الأخيرة؛ رفعت كأسك وقلت: " ياسيدتي، عندما كان ستافروذاكيس طفلاً وكان جده يضعه على ركبته وعلى الركبة الأخرى كان يحمل ليرة كريتية ويعزف أغاني الرجولة؛ لنشرب الليلة نخبه: ليجعلك القدر تجلس دائماً في أحضان الرب للأبد!

«يبدو أن الرب استجاب لدعوتك بسرعة يا معلمي»

«لا يهم، قلت. الحب ينتصر على الموت دائماً»

ابتسم بمرارة، ولم يتكلم؛ شعرت أن جسده يتحلل؛ دخل الموت حياتي بوجه شخص محبوب، مثل صديق جاء ليصحبنا وجلس ينتظرنا عند الزاوية، حتى ننتهي من عملنا، ولا يتعجل. وراح بهدوء يشعر ويدرك معنى الموت.

يتسلل الموت إلى حياتنا مثل رائحة تصيبنا بالدوار؛ غالبا عندما تجلس وحيداً في ليلة قمرية ويخيم الصمت العميق وتشعر بجسدك مرهقاً وخفيفاً ولا يكون حاجزاً أمام الروح، وتستغرق في النوم. عندها، وفي لحظة يصبح العازل بين الحياة والموت شفافاً وترى ما يحدث خلفه، ما يحدث تحت التراب.

في لحظة خفيفة كهذه، هنا في عزلتي، ظهر لي زوربا في منامي. لا أذكر كيف كانت هيئته أو ماذا قال لي، أو لماذا أتى؛ لكن عندما استيقظت، كان قلبي يدق بسرعة؛ وفجأة، دون أن أعرف السبب، اغرورقت عيناي بالدموع.

شعرت بوحشة كبيرة - لا لم تكن وحشة، أو افتقادًا أو احتياجًا - لكن سيطرت على عقلي فكرة أن أعيد ترتيب الحياة التي عشناها معاً أنا وزوربا على الشاطئ الكريتي، رحت أضغط على ذاكرتي حتى تتذكر وتستعيد وتستجمع كل كلمات زوربا وحوارتنا المبعثرة، صوته، حركاته، إيماءاته، ضحكه، بكاءه ورقصه - لكي أنقذها من النسيان.

كانت رغبتي هذه قوية، حتى أني خفت أن يكون هذا علامة ما من مكان ما على الأرض، وأن يكون زوربا يرسلها لي وهو يحتضر؛ كنت أشعر أن روحي متحدة مع روحه، وكان يبدو لي مستحيلاً أن تموت إحداهما دون أن ترتجف الأخرى أو تصرخ.

ترددت للحظة كي أستجمع آثار زوربا في ذاكرتي وأترجمها إلى كلمات. اعتراني خوف مرتبك؛ قلت: «ربما إذا فعلت هذا سيعني أن زوربا حقاً في خطر؛ سوف أقاوم هذه اليد التي تدفع يدي للكتابة.»

قاومت يومين، ثلاثة أيام، أسبوعاً. دفعت نفسي لكتابات أخرى، ذهبت في رحلة، قرأت؛ كنت أفعل كل هذه الحيل حتى أخدع هذا الحضور الخفي.

لكن عقلي كله كان منصباً ومركزاً وقلقاً بشدة على زوربا.

كنت أجلس ذات يوم على سطح منزلي على شاطئ جزيرة إيجينه[29] في الظهيرة، كانت الشمس قوية، كنت أنظر إلى أطراف سالامينا العارية.

وفجأة ودون أن يكون هذا الشيء في عقلي، سحبت ورقة، تمددت على أرضية السطح الحجرية الملتهبة ورحت أكتب عن زوربا.

كنت أكتب بلهفة وعجل، رحت أسترجع الماضي بلا صبر، محاولاً أن أتذكر كل شيء عن زوربا. وكأني كنت مسؤولاً عن إنقاذ هذه الحياة والتفاصيل حتى لا تضيع، رحت أكتب ليل نهار لأبث الحياة في هذه صورة صديقي العجوز.

كنت أكتب مثل السحرة في القبائل البدائية في إفريقيا، الذين يرسمون على جدران الكهوف حيوات أسلافهم كما يرونها في أحلامهم، ويصارعون حتى يرسموها بكل تفاصيلها وبأقصى صدق ممكن، كي تستطيع الروح أن تتعرف على الجسد حينما تعود مرة أخرى.

انتهيت من كتابة هذه التدوينات في أسابيع قليلة.

في اليوم الذي أنهيت فيه الكتابة كنت جالساً في شرفتي عند الغروب أنظر إلى البحر؛ أحمل المخطوطة المنتهية على ركبتي. كنت أشعر بالسعادة وكأني نفضت حملاً من على كاهلي؛ مثل إحساس امرأة ولدت بعد حمل طويل، والآن تحمل مولودها الجديد بين أحضانها.

وعندما غربت الشمس، صعدت على سطح المنزل، جاءت سولا الفتاة التي تجلب لي البريد من المدينة؛ فتاة مكتنزة حافية مفعمة بالحيوية. تركت لي حزمة الخطابات وغادرت مهرولة. فهمت. أو هكذا بدا لي أنني أدركت؛ لأنني عندما فتحت الرسائل وقرأت لم أقفز من مكاني أو أصرخ، لم أتفاجأ. كنت متأكداً. كنت أعرف جيداً أنني في اللحظة

[29] جزيرة إيجينه: إحدى الجزر اليونانية القريبة من العاصمة أثينا.

التي أنظر بها إلى الشمس وهي تغرب حاملاً على ركبتي هذه المخطوطة وقد صارت منتهية، سوف أتسلم هذا الخطاب.

بهدوء ودون بكاء، قرأته؛ كان مرسلاً من قرية ما بالقرب من سكوبيا في صربيا، مكتوبًا بلغة ألمانية ركيكة، وترجمته:

«أنا مدرس القرية وأكتب لك كي أنقل لك هذا الخبر الحزين، إن أليكسيس زوربا الذي كان يمتلك منجم معادن هنا، مات يوم الأحد الماضي في السادسة مساءً. وقال وهو يحتضر:

"تعال هنا أيها المدرس، قال لي، لدي صديق في اليونان؛ إن مت أكتب له أنني مت وأنني في لحظاتي الأخيرة كنت في كامل قواي العقلية، وكنت أذكره. وأنني لم أندم على أي شيء فعلته. ليكن بخير ولينتبه لنفسه وأنه قد حان الوقت أن يعيش حياته... وإذا جاء أي كاهن ليأخذ اعترافاتي ويمنحني السر الإلهي المقدس، قل له أن يذهب إلى الجحيم، وأن يترك لي لعناته! لقد فعلت الكثير والكثير في حياتي، ولكنني أشعر أنني لم أفعل شيئاً؛ بشر مثلي كان يجب أن يعيشوا آلف سنة. طابت ليلتك! "

كانت هذه كلماته الأخيرة؛ ثم اعتدل على وسادته، ألقى بالملاءات، حاول النهوض. ركضنا كي نمسك به، أنا وزوجته ليوبا وبعض الجيران الأشداء لكنه دفعنا بعيداً، نزل من على الفراش، ذهب نحو النافذة. وأمسك بجدار النافذة، نظر نحو الجبال، جحظت عيناه وبدأ يضحك ثم يصهل مثل الحصان. كان واقفاً وأظافره متشبثة بالنافذة، جاءه الموت.

نادتني زوجته ليوبا وأمرتني أن أكتب لك بأنها ترسل إليك بالتحيات وتخبرك بأنه كان يحدثها كثيراً عن نبلك وأن الراحل أوصاها أن تعطيك السانتوري إذا مات، كي تتذكره.

تطلب منك الأرملة إذا ما صادفت قريتنا في طريقك يومًا أن تأتي وتقضي الليلة في ضيافتها وتأخذ السانتوري معك حين تغادر.»

النهاية

خالد رؤوف

مترجم مصري

درس اللغة اليونانية وآدابها في جامعة أثينا، ويحمل دبلومًا في الترجمة من جامعة أثينا وكلية الاتحاد الهيليني الأميركي. حاز على جائزة الإنجاز مدى الحياة في الترجمة من مؤسسة حمد للثقافة والتفاهم الإنساني القطرية، وجائزة مماثلة من جمعية المترجمين اليونانيين.

يحمل بكالوريوس في التاريخ والآثار من جامعة أثينا، ودبلومًا في الدراما من المدرسة الوطنية للمسرح في أثينا، كما حصل على ماجستير ودكتوراه في تاريخ الفن الكلاسيكي (اليوناني/الروماني) من جامعة شيكاغو. يعمل في المجال الأكاديمي، ويُدرّس الترجمة الأدبية في الجامعة الأيونية باليونان.

شغل سابقاً منصب نائب مدير المؤسسة الهيلينية للثقافة بالإسكندرية، ومنسقاً للأنشطة الثقافية والتعليمية فيها، كما عمل مستشاراً لوزارتي الثقافة في كلّ من اليونان ومصر، إضافة لمؤسسات ثقافية عربية مختلفة.

ترجم ونشر حتى الآن حوالي أربعين عنواناً في الأدب اليوناني والإنجليزي، منها:

- ريتسوس، يانيس (2009) جيران العالم. مختارات شعرية (الإسكندرية: جدار للثقافة والنشر).
- كازانتزاكيس، نيكوس (2013) أليكسيس زوربا: سيرته وحياته (القاهرة: المركز القومي للترجمة).
- ذيميترياذيس، ذيميتريس (2013) أموت كوطن. رواية (القاهرة: المركز القومي للترجمة).
- ذيميترياذيس، ذيميتريس (2013) التحول. رواية (القاهرة: المركز القومي للترجمة).
- غريغورياذيس، ثيوذوروس (2016) العزى، ألف عاشق وعاشق. روايتان (القاهرة: المركز القومي للترجمة).
- تسيركاس، ستراتيس (2016) ثلاثية مدن جامحة [آريان (الجزء الثاني)، الخفاش (الجزء الثالث). (القاهرة: المركز القومي للترجمة).
- مارانجو، نيكي (2013) يزول. رواية (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب – سلسلة الجوائز).
- بوليتيس، كوزماس (2016) إيرويكا. رواية (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب – سلسلة الجوائز).

• كوموتسي، بيرسا (2016) نزهة مع نجيب محفوظ. رواية (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب – سلسلة الجوائز).
• كوموتسي، بيرسا (2022) أصوات سكندرية. رواية (القاهرة: صفصافة للنشر).
• قصائد مستوحاة من شعر كفافيس (2013) مختارات شعرية. من العربية إلى اليونانية (أثينا-الإسكندرية: لمؤسسة اليونانية للثقافة).
• كافاذياس، نيكوس (2015) قصائد لشاعر الحب والبحر. مختارات شعرية (القاهرة: صفصافة).
• يوانيذيس، بانوس (2017) غواب. رواية (القاهرة: صفصافة).
• ثيوذورو، إيفغينيا (2017) طعم الصحراء. رواية (القاهرة: صفصافة).
• سوتاكيس، ذيميتريس (2025) معجزة التنفس. رواية (القاهرة: صفصافة).
• سوتاكيس، ذيميتريس (2022) قيامة مايكل جاكسون. رواية (القاهرة: صفصافة).
• ستامو، إيفا (2023) الرحلة. رواية (القاهرة: صفصافة).
• يوانيذيس، بانوس (2023) أمريكا 62 من الأعماق. رواية (القاهرة: صفصافة).
• ديلاخانيس، أنجلوس (2019) جالية جامحة (القاهرة: المركز القومي للترجمة).
• إنيجيو، كين (بدون تاريخ) اتجاهات المسرح الأفريقي: المسرح والعرض المسرحي الأفريقي (القاهرة: المركز القومي للترجمة).
• كامبانيليس، ياكوفوس (2024) فناء المعجزات. مسرح (القاهرة: جسور للنشر والتوزيع).
• ساماركيس، أنتونيس (2024) صناعة يدوية. قصص فصيرة (القاهرة: جسور للنشر والتوزيع).
• كسيناكيس، ستيفانوس (2022) الهدية. رواية (القاهرة: دار العربي).
• كوكيناكيس، سبيروس (2022) مختارات شعرية (القاهرة: صفصافة).
• كوكيناكيس، سبيروس (2024) يغلق عينيه فيولد العالم. رواية شعرية (القاهرة: صفصافة).

NOVEL

أليكسيس زوربا؛ وهو ليس شخصية من وحي خيال الكاتب بشكل كامل، بل أنّه شخصية واقعية، تناولها بشكل فني بارع الأديب الكبير متعدد المواهب الفيلسوف الشاعر الروحاني نيكوس كازانتزاكيس. زوربا اليوناني كما هو معروف لدينا؛ بالطبع بفضل الفيلم السينمائي البديع للمخرج يانيس كاكويانيس والذي جسد فيه آنتوني كوين بمهارة دور اليوناني الأشهر (زوربا)، بالإضافة إلى ترجمات عربية سابقة للرواية.

أزعم بأن هذه المرة الأولى التي تترجم فيها هذه الرواية عن لغتها اليونانية الأصلية إلى العربية مباشرة دون لغة وسيطة، وهو أمر يجبرنا أن نخوض في حديث طويل حول الترجمة عبر لغات وسيطة كما حدث فيما سبق من ترجمات لنفس الرواية إلى العربية عبر لغات وسيطة الفرنسية والإنجليزية. وإذ لست بصدد محاكمة الترجمات السابقة بالطبع، إنّما الترجمة عن اللغة الأصلية في تقديري تضمن لنا نقل روح النص وتعابيره التي كتب بها. فالترجمة يجب أن تقدم صورة مطابقة لأفكار الكاتب وما يريد إيصاله إلى القارئ، وأن دور المترجم هو الوسيط الذي يقوم بنقل تلك الأفكار من اللغة الأصلية إلى اللغة المنقول إليها بأكبر قدر ممكن من الأمانة.

المترجم

NIKOS KAZANTZAKIS

ZORBA THE GREEK

Translated from Greek by Khaled Raouf

Jidar
Culture & Publishing